جمال الدين بوقلي حسن

ابن يوسف السنوسي

في الذاكرة الشعبية وفي الواقع

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نتناول في هذا البحث، الشيخ الإمام أبا عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، أحد علماء تلمسان، المتوفى سنة 895هـ/ 1490م، و نتناوله من زاويتين: زاوية مخزونات الذاكرة الشعبية، و زاوية معطيات الواقع، لنبيّن كيف يتقدّم الرجل في المنظور الأول، و كيف يتقدّم في المنظور الثاني ؟

إن الجواب عن هذين السؤالين، يحتم علينا في هذه الكلمة التقديمية، الحديث عن الطريقة العلمية المألوفة، وعن مدى إمكانية تطبيقها على الظواهر الإنسانية، و خاصة في الميدان الأنثروبولوجي و ذكر مختلف الصعوبات التي تواجهنا، المادية منها و الإبيستيمولوجية، و كذلك، الحديث عن المنهجية التي تناسبنا في هذا النوع من المواضيع.

(1)

تعتبر الملاحظة أولى الخطوات التي تنطلق منها دراسة الظواهر العلمية. وللتأكيد على ضرورة هذه الخطوة و أهميتها، شاع في فلسفة العلوم، القول بأنه لا علم إلا بالملاحظة، و لا ملاحظة إلا بالحواس. و هذا القول، يصح ـ على حد سواء ـ في مجالات علوم الطبيعة الجامدة و الطبيعة الحية، و في علوم الإنسان. (1)

إن الظواهر القابلة للدراسة العلمية، لا بدّ من أن تقع تحت محك الملاحظة قبل أن يرتقي بها الفكر العلمي إلى مرحلتي الفرض والتجريب، مع الوعي بما تقتضيه طبيعة كل صنف من أصناف العلوم، من خصوصيات.

فالطريقة العلمية واحدة في ثوابتها، و لكنها مختلفة في ممارستها. فإذا كانت مراحلها محددة نظريا، فإن متغيراتها يحكمها ميدان البحث و خصوصيات العلم. إن الملاحظة الأولى التي تنطلق مما هو كائن اعتمادا على نشاط الحواس، تختلف طريقتها و وسائلها حسب أن يتجه الباحث من الأشياء الجامدة إلى الأشياء الحية، و تتنوع أشكالها كلما طلب مشاهدة الإنسان في مختلف سلوكاته.

فإذا تعلق الأمر بدراسة فكر شخصية تراثية ما ـ كما هو شأننا مع الإمام السنوسي ـ فإنه لمن الشرعي أن يهتدي الباحث بادئ ذي بدء، إلى ما خلفته من مؤلفات وما تركه أهل الفكر و السير من كتب في شأنها. ولكن الدراسات الأنثروبولوجية تحتم علينا اليوم، توسيع مصادرنا المعرفية. وذلك، لأن المصدر الذي ينهل منه عالم الإنسان معطياته المعرفية، لا يقتصر على ملاحظة ما هو كائن في الواقع. إنه بالإضافة إلى ذلك، يطمح إلى مشاهدة وإدراك ما أعده الناس لتثبيت ذكرى

1ـ نفضل استعمال هذه العبارة، لأنها أدق من حيث إنها تعنى بالموضوع. فكل العلوم، في الحقيقة، هي علوم إنسانية، و لكنها تختلف في الموضوع. انظر: Robert BLANCHE, L'épistémologie, 2° édition, P.U.F. 1977, p.26.

هذه الشخصية أو تلك، و ما تناقلوه في شأنها من قيل و قال، من الأفواه إلى الآذان ومن الضمار إلى العيان .ومعنى هذا، أن الدراسة العلمية تضعنا أمام مصدرين: الأول يتمثل فيما يمدنا به واقع المكتوبات، و هو ثابت نسبيا .وأما الثاني ، فهو أقله ثباتا ، و يتمثل فيما يحتفظ به الناس من مخزونات ، وما توارثوه من مرويات عبر العصور و الأجيال .

إنه لموقف منهجي محرج حقا، هذا الذي نجد أنفسنا أمامه،ونحن قد حصرنا البحث في تحديد منزلة السنوسي في الواقع و في الذاكرة الشعبية.ومن التساؤلات التي تعبر عن إحراجنا هذا، ما يلي :

1- كيف يمكن الخروج بنتائج موثوق بها،انطلاقا من مصادر معرفية تطغى عليها النسبية من كل الجهات،وأقصاها،ما تتصف به من ذاتية مخزونات الناس و محفوظاتهم من أشياء و مرويات؟

2- إن موضوع دراستنا - و هو السنوسي في الواقع و في الذاكرة الشعبية - يقيدنا باستثمار مصدرين معرفيين هما، الواقع والذاكرة الشعبية .والإشكالية تكمن في ما يكتنفه مفهوما الواقع و الذاكرة الشعبية من إبهام و تأويل ؟

3- هل الواقع هو واقع العالم الموضوعي ؟ و هل يرادف الحقيقة؟ ثم، أليس للذاكرة الشعبية واقعها، و من ثمة، حقيقتها ؟

4- إذا كان الواقع يرادف الحقيقة، أفلا يتعدد بتعددها ؟

(2)

إن كلمة الواقع تثير عدة تأويلات حسب أن نأخذها في معناها العام أو في معناها الفلسفي أو في معناها الخاص.

أما المعنى العام، فيبرز في نقطتين:

1- إنّه يقرن الواقع بوجود الأشياء، فيقال: إن هذه الأشياء واقعية لأنها موجودة .فالواقع إذن ، هو الوجود الفعلي للأشياء، و موضوعه يتعلق بما هو ماثل أمامنا .

2- و قد يقرن الواقع بما لا يختلف في حقيقته، إثنان ، و هو ما يمكن التثبت من وجوده حسيا و تجريبيا . فالواقع إذن، هو ما يشترك في معاينته جميع الناس و لا يختلفون .

وأما المعنى الفلسفي ، فإننا نلمسه في الأوجه الثلاثة التالية:

1- الواقع هو العالم الخارجي كما يتقدم لحواسنا وعقولنا .ويتصف إدراكنا له بأنه حقيقي إذا تم فعلا، انعكاس هذا العالم الخارجي على الحواس و العقل .وعلى هذا الأساس، تعرف الحقيقة بأنها انطباق الفكر مع الواقع أي إدراك عقلي و حسي للأعيان في الخارج .

2- يستنتج من هذا، أن الواقع هو مصدر تقدير أحكامنا : فالصورة المتطابقة مع الأشياء المدركة، يحكم عليها بأنها حقيقية لسبب واحد، و هو أنها تعكس تماما ما في الواقع.

3- إن الواقع هو وجود الأشياء العيني وجودا مستقلا عن الذات العارفة، أي العقل والأهواء. وعلى هذا الأساس ، يكون الواقع هو عالم الأشياء الموضوعي الذي لا دخل للذات في تصويره ، و ينفرد بخصائص و مواصفات ، منها :

أ— إنه مجال مستقل عن الذات المدركة، و يمكنّها من بلوغ الموضوعية .

ب— إنه يعتبر المصدرَ الأول و الأخير، لاختبار الفروض و تبرير أحكامنا العقلية.

ج— إنه المنبّه و الدافع إلى اكتشاف الحقيقة، و هي انطباق الفكر مع العالم الحسي أو التجريبي .

هذا، وفي معناه الخاص، سنكتشف الإطار الذي يهمّنا، و نعبّر عنه في شيئين:

1— إرجاع المفهوم بالضرورة، إلى إطاره الفكري ، و صياغته الأصلية، فهناك فرق بين أن نقول ، الواقع و الذاكرة الشعبية، الواقع او الذاكرة الشعبية، واقع الذاكرة الشعبية .ففي الحالة الأولى ، تمثل الذاكرة الشعبية عالم النيات و المقاصد و التغير، و يمثل الواقع المجال الخارجي المجرد من أيّ محتوى انفعالي أو ذاتي .في الحالة الثانية، يظهر احتمالان بين المفهومين: الأول يفيد تقابل الواقع بالخيال، الثاني يفيد ترادفهما .أما الحالة الثالثة، فإنها تركز على مفهوم الواقع.

و المقصود هنا، هو الحالة الراهنة التي يمكن أن يرقى إلى الاطلاع عليها أي إنسان، كأن نقول : واقع التعليم، واقع الدراسات الأنتروبولوجية عندنا ... و يفهم من هذه الحالة الأخيرة أمران :

أ— دراسة موضوعية لموضوع التعليم أو الدراسات الأنتروبولوجية أو الذاكرة الشعبية .

ب— مجرد انطباعات شخصية و قراءات ذاتية يدلي بها الشخص.فالأمر الأول يقبله العلم و يدعو إليه، في حين أنه يرفض الأمر الثاني لصبغته الذاتية و الأدبية .

2— في بحثنا هذا، سنأخذ الواقع كمصدر معرفي موضوعي خارج عن إرادتنا و أحكامها السابقة، و هو مؤلفات الشيخ السنوسي نفسه و ما كتب عنها وعن صاحبها .

—(3)—

إن عبارة" الذاكرة الشعبية" تحتاج هي الأخرى، إلى ضبط و تحديد .فما معناها ؟ و ما طبيعة وظيفتها ؟ و ما هي محتوياتها، و كيف تعبر عنها ؟ و ما هي خصوصياتها ؟

1— إن الذاكرة الشعبية ملكة ذِهْنية يحملها الناس عبر الأجيال لتخزين تراثهم المشترك واستحضاره عند الضرورة .

2— و مخزوناتها على نوعين: مخزون لفظي أو شفوي ، و مخزون مكشوف أو مشاهد .الأول يحتوي على مختلف المرويات من خوارق كالكرامات، و من معتقدات كالإيمان بالطبائع الثابتة، و من شعر شعبي و أمثال شعبية،وأما الثاني ، فيحتوي على مختلف الآثار المادية كالأضرحة و المساجد و الأوقاف و اللوحات الزيتية .. .

3— و الذاكرة الشعبية، لا يخفى أنها ملكة اجتماعية و نفسية معقدة .إنها تمزج ببراعة، بين وظيفتي التذكر والتخيل ، انطلاقا من الواقع المعيش .و تملك في آن واحد ، القدرة على وعي الماضي من جهة، وعلى تخطي حدود المكان و الزمان، من جهة أخرى .

إنها لحافظة جميلة، هذه التي تخزن التاريخ بتسلسله الزمني و تتابع أحداثه .ولكنها أيضا، تتصرف فيه عفويا لتجنح إلى عالم الخيال حيث تسعى إلى إضفاء أمارات الجمال على كل إبداعاتها . إنها لحافظة جميلة و حرة .

إنها حافظة من حيث إنها تصون التاريخ في وحدته بالرغم من آختلاف الرواية والتعبير، ولا تخاصمه على الرغم من شعورها بالتحرر.

وهي حرة من حيث إنها قادرة على تمثل الظاهرة المخزّنة في أماكن مختلفة وفي أشكال متنوعة، وتختار من الأحداث والشخصيات والآثار المَعْلمية ما يجسد، بلغتها الخاصة، إراداتها ومقاصدها.

وهي جميلة أيضا، لأنها تعيد تركيب الصور، فتبدع أشكالا جديدة وفنية. ونظرا إلى كونها تستوعب الواقع وتعتنق الخيال والجمال، فإنها بالطبع، تنمو مع آستمرار مخزوناتها عبر الأجيال.

4ـ للذاكرة الشعبية إذن، وظيفتان، وظيفة التذكر ووظيفة التخيل. وطريقتها في التعبير عن مخزوناتها تختلف بآختلافهما، وذلك، أن الذاكرة الشعبية، نظرا إلى اعتمادها على الخيال التمثيلي، تملك ـ في أسلوبها السمعي ـ القدرة على تخزين المدركات الغائبة وآستحضارها كما وقعت نسبيا، في الماضي. إلا أنها ـ ونظرا أيضا، إلى اعتمادها على الخيال الإبداعي ـ تملك الاستعداد على آسترجاع الماضي لتقدمه في تركيب جديد. وتسعى في أسلوبها العيني، إلى تثبيت وتحصين مخزونها، فتخلق "أطرا آجتماعية" تضيفها إلى الأطر الاجتماعية المألوفة، فتشيّد أبنية، وتسيّج أضرحة، وترفع قببا، وترعى أوقافا ...

5 ـ على ضوء هذا التحليل، ندرك أن هناك ما يدعو إلى التميز بين الذاكرة الشعبية والخيال الشعبي من حيث إن الأولى أوسع من الثاني". فكل ذكرى خيال، وليس كل خيال ذكرى بالضرورة. إنها من الواقع تؤوب إلى الماضي بسهولة، لتستحضره بمراسمه وتمجده أو تجمله تحديا للحاضر وغزوا للمستقبل.

6ـ فالذاكرة الشعبية، بقدر ما تلتزم بضوابط اجتماعية وتاريخية، بقدر ما تشعر أيضا، بصلاحية التصرف فيها. فقد تسمي الزمان وتعين المكان. ولكن، من حقها أيضا، أن تجنح إلى الخيال لتصنع به عالما جديدا لا يقتحمه إلا الحذر.

ـــــــ(4)ـــــــ

نتناول في هذا البحث، الشيخ السنوسي في الواقع، أي من خلال آثاره المكتوبة وما أرادته كتب التراجم، والحواشي، وبعض المقالات، وفي الذاكرة الشعبية، أي من خلال مخزوناتها الشفوية والعينية.

إن دراسة هذه الشخصية التراثية من الزاويتين، تمكننا من الوقوف على الموضوع من مصدرين لا تخفى أهميتهما لدى المفكرين وعلماء الإنسان.

إن البحث الأنثروبولوجي يفترض الآتصال الميداني والمباشر بالمحسوس في شكليه، الشفوي والعيني. ولعله من الأهمية بمكان، الشروع في آستنطاق الذاكرة الشعبية في غضاضتها، قبل الآنتقال إلى ملاحظة الواقع بالمفهوم الذي يسبق تحديده. ولهذا، فإنني أودّ في مرحلة أولى، أن ألج في المقصود، من مستوى ميداني لا نظري، ومن خلال الممارسة اليومية، لا من وجهة النظر المجردة.

إن الذاكرة الشعبية في مختلف مخزوناتها وإبداعاتها، تمدنا عن السنوسي، بأخبار طازجة من

شأنها إثراء معطيات الواقع أو تهذيبها و تصحيحها . فهي مهمة من المنظور الأنثروبولوجي بالدرجة الأولى . فهي في أشكالها التعبيرية، تمكّننا من الحصول على فوائد ، أهمها ما يلي :

1 ــ إدراك أن الذاكرة الشعبية هي عين التراث وجوهره ، وهي المؤهلة لتخزين الأصالة المجذّرة في الأعماق .

2 ــ تسرب و اكتشاف مكبوتات اللاشعور الشعبي على مدى القرون و الأجيال .

3 ــ ضرورة قراءة السنوسي داخل الموروث الشعبي ، والأخذ بالصدق الناتج عن الإصغاء الأمين والتحليل النزيه .

4 ــ اكتشاف الرجل من منظور جديد ، و مما تحمله أعماق الفئات الشعبية، لأننا نقرأ في الواقع، رجلا ، و نكتشف في الممارسة، رجلا آخر أو جزءًا آخر منه .

5 ــ إدراك أن تأثير الشخصية الروحي يشحذ الخيال الشعبي عندنا ، و يهيئ لذاكرة الناس أسباب التثبيت و التخزين .

6 ــ إدراك العلاقات العمودية و الأفقية التي ينسجها الناس في ذكرهم للسنوسي كالتبرك بشخصه و التوسل باسمه و طلب مدده الروحي ، وكذلك رغبتهم في الانتماء إلى شجرته العلمية أو الانتساب إلى البيت الشريف الذي يعتز به السنوسي .

7 ــ الوصول إلى تصنيف التراث الثقافي إلى هذه الثنائية: تراث عالمي ، و آخر وطني والسعي إلى الوقوف على ما في التراث الوطني من خصوصيات و إمكانات في اعتناق الإنسان .

(5)

لا يخفى ما يتطلبه العمل الحقلي من حذر وجرأة . أقول ، من حذر، لأن هناك عوائق إبيستيمولوجية لابدّ من تجاوزها بعد تعيينها . و أقول ، من جرأة، لأنه لا بد من إخضاع معطيات الذاكرة الشعبية للطريقة العلمية الملائمة في وصفها ، و تفسيرها ، و الاستفادة منها. إنه يجب علينا :

1 ــ الحذر من الأحكام السابقة، و هي في الجملة، أربعة:

أ ــ قياس علاقة العقل و اللاعقل بمبدأ التناقض: **فنحن هنا ،** لا نسلم بالتصور الكلاسيكي الذي يميز ــ في مجالات التفكير ــ بين مواضيع معقولة و أخرى لا معقولة، مواضيع يقبلها العقل لأنها تخضع للواقع، و الواقع يخضع لمقاييسه، و مواضيع لا واقعية تدخل تحت أجنحة الخيال . و مصدر هذا التصور جاء من الثنائية المعروفة التي أقامها أرسطو وكثير من الفلاسفة بعده . و هو نتيجة لمقدمات يسلم بها المفكر، و خلاصة لمبدأ تحركه إيديولوجيا أو لتمثّله للوجود . وعلى هذا الأساس، فنحن مثلا، إذا رادفنا بين الواقع من جهة، و الصدق و الموضوعية و الحقيقة من جهة أخرى، عرفنا النقيض المنبوذ و هو اللاواقع و مُرادِفاتُه و هي ، الكذب والذاتية والخرافة .

ب ــ تأويل النقيض بما يتماشى مع التمثل للوجود : و الحذر من تسييد العقل بمفهومه الضيق كما صنع ديكارت الفيلسوف العقلاني و مفكرو عصر الأنوار. إنهم حملوا على كل المواضيع التي تخرج من نطاق العقل كالخيال مثلا، و ما يشبهه . فاللاعقل في تصورهم ، هو مستودع لحماقات

وجنون في مقابل العقل حامل القوة المطلقة.

ج ـ إرجاع الثقافة كلها إلى الثقافة الشعبية: ولهذا، فالحذر من الوقوع في شباك التخمينات وفي منأى مراجعة موازين الحكم، لا بدّ منه، وكذلك الحذر من الانسياق إلى اعتبار الثقافة الشعبية الوعاء المستوعب لكل الثقافة الوطنية. إنها جزء منها، وقطعة مهمة من حيث إنها "أسهل" و"أقرب" إلى تصوير الحقيقة، من غيرها وخاصة، في فترات من تاريخ الأمة.

د ـ رفض مخزونات بٱسم البدعة: وهنا نشير إلى أنه يتعين علينا تجاوز مواقف الحركات الإسلامية الإصلاحية المعادية لكثير من منتوجات الذاكرة الشعبية بٱسم الانحراف عن الدين والشعوذة والخزعبلات. ومهما كانت أهداف هذه الحركات صائبة من زاويتها، فإن منهجيتنا تحتم علينا التمييز هنا، بين موقف رفضي سابق وموقف يهتدي إلى فهم هذه المنتوجات الشعبية كظاهرة قابلة للتفسير العلمي.

2 ـ هذا، ويجب علينا أيضا، الجرأة في تطبيق المنهج الأنثروبولوجي مع الحفاظ على خصوصيات الموضوع، ونلمس هذه الجرأة، في هذه النقاط الثلاث:

أ ـ فائدة المنهج وخطواته في الذاكرة الشعبية: إن طريقة العمل الميداني تضمن الأساس الأول لتحقيق الدراسة الوصفية، ولكن، تشكل أيضا، القاعدة الجوهرية التي يقوم عليها التحليل والتفسير. إن المنهج التجريبي يستوجب المرور على ثلاث خطوات وهي: الملاحظة، والفرض، والتجربة، للوصول إلى ضبط العلاقات الثابتة بين الظواهر. ونحن نتبنى نفس الخطة، ولكن، مع تغيير لأسماء بعض هذه الخطوات والحفاظ على المميزات الخاصة بالمعطيات الشفوية والعينية التي تقدمها لنا الذاكرة الشعبية. هذا، ومراحل خطّتنا، هي على التوالي، الوصف والفرض والتحليل، وأخيرا، الاستنتاج. ولقد حرصت أن يكون الوصف للمدركات المستحضرة دقيقا دقة الملاحظة، وأمينا أمانة التسجيل، مستعينا بما يقتضيه ذلك، من أدوات وتقنيات كٱستعمال آلة التصوير وآلة التقاط الصوت، وعقد جلسات، وإعداد مطبوعات قصد سبر آراء وجمع معلومات، وٱصطحاب أخصائيين في وصف المعالم الأثرية التي ٱحتجت إلى دراستها. كما كان حرصي شديدا على الانتقال من هذه المرحلة، إلى مستوى إخضاع الظواهر الموصوفة إلى الفهم والتفسير عن طريق وضع أفكار وتصور فروض والتوجه بها من ثمة، إلى ما يدعو إلى ٱستنتاجات منطقية وسليمة.

ب ـ الحذر ـ في الدراسات الأنثروبولوجية ـ من المناهج المضرة بالتراث، كأن نقرأ النتائج قبل المقدمات، ونرسي مقدمات عاطفية ونسعفها. وهنا يجب القول بإنه لا يستقيم الكلام عن الذاكرة الشعبية ومعطياتها إلا إذا ٱنطلقنا من مسلمة، كما هو الشأن في البحث العلمي، وهي أنها ظاهرة قابلة للدراسة، وأنها تمثل الواقع الشعبي الحي، وهذا، بالإضافة إلى تجاوز القطيعة الكلاسيكية بين المخزون الشعبي والواقع الأكاديمي، والانطلاق من أنه ليس ثمة تناقض أو مفارقة بين الطرفين، بل هناك وحدة تجمع بينهما بٱعتبارهما مصدرين في تخزين المعطيات المعرفية. وعلى هذا الأساس، فالذاكرة الشعبية لا تختلف عن الواقع العلمي من حيث إن مخزونها واقع اجتماعي ونفسي ملموس يؤمن به الناس ويمارسونه. ويعني هذا، أن جميع الموادّ المخزونة، سواء كانت

شفوية أو عينية و هي التي يحكم عليها عادة باللامعقول ، تنطوي على مضامين خاصة.

وعليه، فإن استجلاء هذه المضامين و هذه الخصوصيات ، يقتضي العودة إلى طبيعتها .

ج ـ تفسير التراث الشعبي بنفسه : **و ذلك ،**

لأنه لا يكفي الإصغاء إلى الذاكرة الشعبية و تدوين ما تخزنه من مرويات. فلا بد من الكشف عن مضامينها بمنهج يمنحها ما تريد الإفصاح عنه. إن الظاهرة التي لا توزن بميزانها، أو توزن بميزان أجنبي عنها شكلا و محتوى، تكون عرضة لأسوأ الأحكام. وذلك، لأن نفس السلوك أو نفس المظاهر الثقافية، لا تكتسي نفس المدلول حسب أن نكون مثلا، في مجتمع تسيطر فيه مؤثرات اقتصادية أو مجتمع يغلب فيه طابع الروحانيات، و في نفس المجتمع، حسب أن نكون في مدينة عريقة في الحضارة، أو مدينة صناعية، أو مدينة حديثة النشأة .

إن تفسير التراث بنفسه و بأدواته ـ و خاصة منه الشفوي ـ لضرورة ملحة. إنه الطريق القويم الذي آخترناه لتفسير معطيات الذاكرة الشعبية في شأن السنوسي و ما يتعلق بأخباره. و نحن على وعي بالأضرار التي لحقت بثقافتنا من جراء قراءة تراثنا بعيون غيرنا. و صار عندنا، من السهل أن نحيك على منوالهم و نسقط في قراءة أنفسنا، الكثير من تطلعاتنا إلى طرق عيشهم و أساليب تفكيرهم .

إن الظاهرة التي تنعت باللامعقولة ـ إن هي أرجعت إلى مناخها الفكري و جذورها الثقافية الأولى ـ تكون مدخلا إلى معرفة عمق الذات الشّعبية و لا شعورها. وسواء كانت في مجال إدراك العقل أو خارجه، و مهما كانت حاملة لنسقها في ذاتها، فإنها تعتبر جزءا من كل، و ظاهرة تعيش في جوّ و محيط، و لا تكتسي معناها إلا داخل ثقافة ما، و على وجه التدقيق، انطلاقا من نواة هذه الثقافة و مبدئها الأول. حتى إذا أخرجت هذه الظاهرة من إطارها وعلاقاتها به، فقدت هويتها وأهم خصائصها، و يصبح من الصعب التعرف على حقيقتها .

إن المدينة العريقة في التراث و التي ينطلق مبدؤها الأصلي من قاعدة روحية ـ كما هو الشأن في قصة الجدار بالنسبة إلى تلمسان ـ تساهم بقوة، في خلق استعداد خاص في التعامل مع المحيط. ومعرفة هذا المبدأ في هذا الإطار، يشكل بالنسبة إلينا، الوحدة القياسية المثلى التي بها نزن مرويات الذاكرة الشعبية عندنا، و الإطار الضروري الذي لا بد من الرجوع إليه .

هذا، و نستطيع، على أساس هذه المرجعية النظرية، فهم خصوصيات كل الإنتاجات الثقافية، المعقولة منها، و "اللامعقولة" ، و بالتالي إدراك المنطق الداخلي الذي يقتضي الانطلاق من مقدمات، للوصول إلى نتائج.

لقد تعايشت في تلمسان، مخزونات الذاكرة الشعبية مع الواقع و منذ القدم، على أساس أن لكل منهما منطقه. و سنكتشف في بحثنا هذا، كيف أن هذا التعايش ناتج من كون تلمسان مدينة **أسطورية. و لا شك في أن هذه الحقيقة، مرجعية تساعد على النفاذ فيما وراء مختلف سلوكات أهل تلمسان، و المعجبين بها، و نظرتهم الخاصة إلى الواقع.**

إنها ضابط قصدت به تسجيل نقطة منهجية، لأن الثقافة الشعبية ليست ملكا لأحد، و ليست

وقفا على جماعة دون أخرى ، وليس لأيٍّ كان حق التصرف فيها حسب أهوائه. إنها منتوج مشترك له حرمته ونظامه. هذا، عن المنظور الأنثروبولوجي في شأن السنوسي كما تقدمه الذاكرة الشعبية.

(6)

هذا، وليس من السهل، إثر هذا، دراسة السنوسي من منظور الواقع، نظرا إلى وجود عقبات إبيستيمولوجية، وأخرى مادية وبشرية.

أما العقبات المادية والبشرية، فيمكن تلخيصها في النقاط الست التالية:

1ـ تفرق مؤلفات السنوسي وصعوبة الحصول عليها ولمّ شتاتها.

2ـ قلة السبل الموصلة إلى بعض المصادر القريبة من الرجل مثل كتاب "المواهب القدسية في مناقب السنوسية" لتلميذه الملالي.

3ـ ندرة الباحثين في أعمال السنوسي، وعدم اكتراثهم في السعي إلى فهمها.

4ـ ندور الرجوع إلى نصوص الرجل مباشرة لقلة رغبة الباحثين وفتور استعدادهم.

5ـ وقوع الإطلال عليه من وجهة نظر ضيقة، ومن خلال بعض النصوص القليلة، وفي الغالب، عن طريق شروحات الشارحين لها، والذين ينقل بعضهم عن بعض.

6ـ عدم استعداد المؤسسات التعليمية عندنا، لتدريس المواد التي تؤهل الباحث للاهتمام **بتراث السنوسي وأمثاله، كالمساجد، والزوايا، والمدارس،** واقتصار بعضها على إقراء مختصراته أو تحفيظها.

أما العقبات الإبيستيمولوجية، فنلمسها في المواطن السبعة التالية:

1ـ عدم جدوى البحث فيما عرف به الشيخ من علم التوحيد وغيره من العلوم.

2ـ الاعتقاد السائد والشعور الراسخ بصعوبة قراءة كتبه، فضلا عن تحليلها.

3ـ انتشار أحكام مسبقة حول عصره، وأصالة فكره لدى العرب والمستشرقين: فلقد درج المتكلمون عن عصره على وصمه بالجمود والتحجر في ميادين شتى بحيث أضحى في أعينهم، مجرد عصر انتشار الطرقية حيث يلتبس اللامعقول بالمعقول. ودرجوا عند الكلام عن شخصيته على القول بأنه مجرد ولي صالح يعيش في خلوته، وتصدر عنه خوارق. ولقد ساورهم الشك في أصالة تفكيره إلى درجة قول بعضهم: إن السنوسي لم يعمل في الحقيقة، إلا على تكرار وإجمال مذهب الأشعري "فما أعطاه الأشعري مبسطا مفصلا، أعاده السنوسي مجملا مقفلا". وأما ما اتصف به من فضائل الأخلاق، فيكون قد استخلصه من قراءاته للنصوص المقدسة لدى اليهود والنصارى.

4ـ صعوبة اختراق القوالب المنهجية التقليدية التي اعتمدتها الكتب الحاملة لأخبار الشيخ". ولعل ضعف التكوين الفكري والعلمي واللغوي المؤهل للبحث في موضوع بكر، هو من أهم الأسباب المفسرة للعجز عن اقتحام هذه العقبة. لقد حملت هذه الكتب الغث والسمين، وكانت محشوة بكثير من القصص الخارقة والأخبار التي تقررها الظروف العقائدية والسياسية.

5ـ إرجاع كل تفكيره إلى مؤلف أو مؤلفين فقط، دون السعي إلى الإحاطة بكامل مكتوباته.

6ـ الانقياد لمنطق الذوق، والنفور من منطق العقل والغوص في جو حيث لا نظر ولا نقد.

7ـ التردد في الأخذ بما يكتب من تبجيل أو تنزيل عن الشيخ .فقد يكون ذلك مجرد إطراء أو مجرد تصغير.

(7)

إن المصادر التي يوفرها الواقع للوقوف على الرجل و تفكيره، صنفان: الأول يمثل ما كتب حوله من مقالات و أبحاث و تحقيقات، والثاني يحتوي على مؤلفات السنوسي نفسه.

في الصنف الأول، اعتمدت على خمس مجموعات:

1ـ الأولى هي كتب التراجم و السير المشهورة التي تقتصر على نقل حياة الرجل و مؤلفاته كنيل الابتهاج و البستان و تعريف الخلف و دوحة الناشر وغيرها .ولا نجد في الحقيقة، بين السيرة و الأخرى، فرقا يذكر، ما دام المشرب الأساسي الذي نهل منه مؤلفوها جميعا، هو كتاب « المواهب» للملالي .

2ـ الثانية هي ما جاء في بعض الحواشي و الشروح التي ركّز أصحابها في معظمهم، على تبسيط مذهبه الأشعري كالبيجوري و الدسوقي وعليش... وإذا كان لهؤلاء بعض الفضل، فليس في تحليل نصوصه و التعليق عليها أو نظمها واختصارها أحيانا، بقدر ما هو في ذكر اسمه واستمرار شهرته في المذهب و السير على منواله .

3ـ اعتمدت في المجموعة الثالثة على مقالات و تحقيقات المستشرقين التي توفرها المكتبة أشهرها:

- Les Prolégomènes théologiques de Senoussi, texte arabe et traduction de J.D. Luciani, préface et notes, Alger, 1908.
- Petit traité de théologie musulmane (Senoussia) de Senoussi, texte arabe et traduction de J.D. Luciani, Alger, 1896.
- Journal asiatique, V° série, Documents inédits sur se -Senouci, son caractère et ses écrits, 1854, Cherbonneau; article publié aussi, par la Revue africaine, XIV° année, 1870.
- Journal asiatique, IX° série, t.X. sept-oct. 1897, G.Delphin, La philosophie du cheikh Senouci d'aprés son Aqida es-Se'ra.
- Revue africaine, V° année, n° 28 & 29, 1861, Brosselard, Inscriptions arabes de Tlemcen, retour à Sidi Senouci: inscriptions de ses deux mosquées.
- Revue africaine, année 1897-1898, n° 224 à 231, t.41 & 42, J.D.Luciani, A propos de la traduction de la Senoucia.

4ـ وتتمثل المجموعة الرابعة في قراءة بعض ما حرره بعض الباحثين في هذه السنوات الثلاث الأخيرة، من مقالات و لم تنشر بعد، حول السنوسي، عصره و تجربته الذوقية أمثال الأستاذ الربيع ميمون، و الزميلين محمد نقادي و أحمد بن ديمراد .

5ـ و يشكل، في المجموعة الخامسة، الكتاب الذي ألفته عن الشيخ السنوسي في علم التوحيد،

و نشرته سنة 1985، المصدر الأساسي الذي عولت عليه في إبراز بعض جوانب تفكيره. فلقد تعرضت فيه إلى عصر الشيخ وحياته وآرائه الكلامية، وأثبت أن علم التوحيد عنده، لا يقتصر على دفع اعتراضات الخصوم وتحصين الإيمان بالأدلة الدامغة. إنه عنده، أداة أيضا، تحقق بلوغ الفهم والتحصيل حيث تتسع معرفة المؤمن بالله، ويتحقق تنويره وإعداد قلبه للفتح الرباني. وباختصار، قدمت في هذا الكتاب، السنوسي في مظهريه، النظري والعملي أو الذوقي.

أما الصنف الثاني من المصادر التي عولت عليها، فتنفرد به مؤلفات الشيخ، مع العلم أن كتبه ليست كلها مطبوعة، وليس كل مطبوع منها محققا. وبعض المنشور منها يحتاج إلى شيء من الأمانة العلمية في النقل من الأصول.

(8)

هذا، ومهما كانت الانحرافات التي وقعت في شأنه قديما وحديثا، فإن **السنوسي يجد طريقه** اليوم، إلى إغراء الباحثين بإجلاء خصائص تفكيره وفقا للمنهج القويم والنظرة الشمولية. ولا يتأتى العمل في هذا المستوى وبهذه الطريقة، إلا إذا عرفنا كيف نصغي إليه رأسا. وذلك لأنه ليس لأحد شرعية الكلام عن السنوسي أصدق من السنوسي نفسه.

وللاقتراب من الذاكرة الشعبية والواقع، اضطرنا البحث إلى مراجعة عدد من المفاهيم بالضبط والتهذيب، وتعين علينا التمييز بين خصائص ومحتويات كل من الأسطورة، والواقع. وفي مستوى الواقع، حملنا الاجتهاد إلى كشف النقاب **عن جوانب من تفكير السنوسي** لم تطرق بعد كالايمان ونسقه والتوحيد باعتباره جامعا لكل المدارس الإسلامية المختلفة، ومذوبا للصراعات المذهبية ومحرما مترفعا عن السياسة. كما أننا وقفنا على خصوصيات تجربته الذوقية بصفتها ذكرا واعيا للكلمة المشرفة المعبرة عن الحقيقة والشريعة، وتفسيره للآيات القرآنية الذي يعكس كامل مذهبه الفكري. ومن الجوانب التي لم تأخذ حقها من العناية على الإطلاق، نظامه في التعليم. فسنرى كيف كان يهدف به إلى تكوين العقل وترسيخ الايمان، **وكيف كان يسعى بالمتعلم** الى تجاوز روح الاتكالية والتحرر من غطرسة المعلمين وغرور الحكام. سنثبت أنه كان في مشروعه التربوي يسعى إلى تأمين حرمة "المدرسة" من السياسة.

(9)

تدفعني الدقة في تقديم موضوع البحث إلى أن أضيف بأنه من الإشكالات التي تطرحها النظرية الإسلامية للمعرفة، التساؤل عن طرق الوصول إلى الحقيقة. ولقد قدم لنا التراث الإسلامي في ذلك، أربعة سبل، وهي: الحواس، والعقل والوحي والذوق (أو الحدس). ومن يجمعها يكون قد ضمن لنفسه الطريق إلى الحقيقة.

ففي علم التوحيد مثلا، ينطلق العبد من مشاهدة العالم، فيختبرها عقليا، ليصل إلى إثبات وجود الله. ويجد في الوحي، ما يؤيد استنتاجه، وفي الذوق ما يجسد به، إحساسه وعقيدته.

و إذا نحن أنتقلنا إلى الثنائية بين الذاكرة الشعبية و الواقع أدركنا أن المعرفة المنشودة في الدراسات الإنسانية، لا تقتصر على طرف دون طرف. فهي ليست مجرد ما تحمله الكتب من مقروئات، و ليست كامنة فقط، في الروح التي تقرؤها. إنها أيضا، موجودة في الروح التي أملتها وفيما يروى و لم يكتب بعد، و في كل المخزونات التي تتحدى بها الذاكرة الشعبية مقاصد الناس و صروف الدهر. و لعل هذه المخزونات في محتواها الانفعالي المشترك، تكشف عن حقائق دفينة و مخفية، و تساعد على قراءة المكتوب بطرق أحسن، و تنشط ما يكتب و تراقبه.

هذا من شأنه أن يمكننا من فهم واقع السنوسي فهما جديدا، و فهما أوسع من فهم واقع المكتوبات. فلو توجهنا كلنا، إلى دراسة جانب بعينه من تفكير السنوسي مثلا، و قررنا أن نطل عليه من نفس الزاوية و بقراءة واحدة، فإنه يعود بعضنا إلى بعض دون أن يكتشف شيئا. إن الحقيقة بمثابة النور"، فهو يشع من جهة واحدة، و لا بد أن نملك أكثر من " بصر" لاستيعاب كل الأشعة.

إن ما يجعل السنوسي ما أراده هو ما يميزه. فإن هو جرد من خصوصياته هاته، أضحى مجرد صورة ذهنية عامة، كل ما فيها هو محتوى شكلي إجمالي يصدق على جميع الناس.

سنرى كيف يشد السنوسي الزاويتين و يصل بينهما في شخصيته و تفكيره، و كيف وفق بين النقيضين الكلاسيكيين في مجال مذهبه الفكري، إنه آمن بـ "الوسطية" في العقيدة و الذكر والتفسير و هو الأمر الذي مكنه من إقامة جسر بين الظاهر" و الباطن"، بين مطالب العقل و مقتضيات القلب، و رفع الخصومة القائمة بينهما.

إنه من الشخصيات القليلة التي تتسم بالتوازن الفكري و المقاصد الانسانية العليا. فلقد أخضع اللامعقول لمقاييس العقل. و لكنه، من جهة أخرى، أثبت للعقل عجزه بوجود مسائل فوق دائرته.

— 10 —

و الذي أوحى لي بموضوع البحث و شجعني على السير فيه، و تقديمه، هو **الأستاذ القدير** الدكتور الربيع ميمون الذي أكن له كل التقدير و الاحترام. لقد أخرجني من التقوقع الذي كاد أن يخنقني. وكنت أحب أن أقرأ ما كان يحرره لي و لفرقة البحث من رسائل. فبمناسبة انتهاء ملتقى الجزائر المنعقد في 11/ 2/ 95، و الخاص بالشيخ السنوسي، كتب يقول: " إن الامام السنوسي و أمثاله ممن صار الناس لا يذكرونهم منذ قرون، يمكن الاحتفال بهم في كل مكان من هذه الأرض الطاهرة"، و لكن، الاحتفال الحقيقي بهم لا يمكن أن يكون إلا في مساقط رؤوسهم و مرابعهم بتلمسان. و لعله كان يلمّح إلى أن لكل عالم خصوصياته رغم شمولية تفكيره أو عالميته.

و لعل أشهى حافز زاد في قوة عزيمتي، الكلمة المؤثرة التي قرأتها في رسالته المؤرخة في 22/ 10/ 92 و التي عظمت في عيني". يقول فيها: سأكون مطمئنا سعيدا يوم " أراك تنهي رسالتك التي أنتظر منها الكثير للفكر و للجامعة و لتراث تلمسان المجيد". أرجو أن يجد في هذا البحث، كل غيور على تراثنا ما يفيده و ما يحفزه على بذل المزيد من الجهود.

أما عناوين خطة البحث ، فأقدمها على الشكل التالي :

الباب الأول : السنوسي في الذاكرة الشعبية

الفصل الأول : دراسة وصفية لبعض ما حفظته الذاكرة الشعبية عن السنوسي

القسم الأول : دراسة وصفية للمخزونات المادية :

الجزء الأول : روضة الشيخ السنوسي

الجزء الثاني : مسجد الشيخ السنوسي بدرب مسوفة

الجزء الثالث: مسجد الشيخ السنوسي بدرب بني جملة

الجزء الرابع: الأوقاف و ريشة الرسام

القسم الثاني : دراسة وصفية للمخزونات الاجتماعية و الشفوية

الجزء الأول : السناوسة و نماذج من أسر حافظة لذكر السنوسي

الجزء الثاني : خوارق و معتقدات

الجزء الثالث: السنوسي في الشعر الشعبي و المثل الشعبي

الفصل الثاني : دراسة تحليلية لمخزونات الذاكرة الشعبية عن السنوسي

القسم الأول :الأساس المنهجي للدراسة التحليلية

الجزء الأول : أدوات التحليل و قواعده

الجزء الثاني : تلمسان مدينة أسطورية كوحدة قياسية

القسم الثاني : تطبيق الأساس المنهجي على مخزونات الذاكرة الشعبية

الجزء الأول : المخزون المادي

الجزء الثاني : المخزون الاجتماعي

الجزء الثالث: المخزون الشفوي

الباب الثاني : السنوسي في الواقع

الفصل الأول: السنوسي في المؤلفات العربية و الأوروبية:

القسم الأول : السنوسي في المؤلفات العربية

الجزء الأول : السنوسي، حياته و شخصيته

الجزء الثاني : السنوسي ، مؤلفاته و تأثيره

القسم الثاني : السنوسي في المؤلفات الأوروبية

الجزء الأول : السنوسي ، حياته و شخصيته

الجزء الثاني : السنوسي ، مؤلفاته و تفكيره

القسم الثالث: نقد المؤلفات العربية و الأوروبية

الجزء الأول : نقد المؤلفات العربية في السنوسي

الجزء الثاني : نقد المؤلفات الأوروبية في السنوسي

و بالله التوفيق

تلمسان، يوم 3رمضان 1417/ 12جانفي 1997

جمال الدين بوقلي حسن

الباب الأول : السنوسي في الذاكرة الشعبية

الفصل الأول :

دراسة وصفية لبعض ما حفظته الذاكرة الشعبية عن السنوسي

الفصل الثاني :

دراسة تحليلية لمخزونات الذاكرة الشعبية عن السنوسي

مقدمة البـــاب الأول

إن من يهتم بمنطقة تراثية ما – مهما كانت الصور الفكرية التي يحملها عنها في ذهنه – هو لا شك، مضطر عند نزوله بها، إلى الوقوف على معالمها التاريخية و ما بقي شاهدا على أصالتهـــا . إنه يصنع ذلك، استجابة لما يجيش في نفسه من فضول نحو المعرفة و اتضاح الرؤية، وحتى يتلمس بلحمه و دمه، ما استطاع الزمان أن يتحدى به مقاصد الناس و إراداتهم .

هذا، وإذا تعلّق الأمر بشخصية تراثية في مدينة ما، اتجهت العناية إلى البحث الميداني عـــن مدفنها و منبتها، وعن كل ما من شأنه أن يستحضر ذكرآها .

إن من يتفقد الشيخ السنوسي ، سيلاحظ كيف استطاعت الذاكرة الشعبية أن تخلد اسمـــه من خلال تقبيب الضريح، و دفن المحبّين له بجواره في الروضة، و من خلال شتى أنواع الآثار المادية الأخرى كالحي السكني الذي رأى الحياة فيه، و المسجد الذي درّس فيه، و الأوقـــاف التي حبسها الناس في شأنه، وكذا شتى أصناف المخزونات الشفوية كالكرامات و الاعتقـــادات، و الشعر الشعبي، و المثل الشعبي .ولا يفوته أيضا، أن يستنطق السناوسة و بعض الفئات من العائلات المحافظة.

الفصل الأول : دراسة وصفية لبعض ما حفظته الذاكرة الشعبية عن السنوسي

القسم الأول : دراسة وصفية للمخزونات المادية

القسم الثاني: دراسة وصفية للمخزونات الاجتماعية و الشفوية

القسم الأول : دراسة وصفية للمخزونات المادية

الجزء الأول : روضة الشيخ السنوسي

الجزء الثاني: مسجد الشيخ السنوسي بـ" درب مسّوفة "

الجزء الثالث: مسجد الشيخ السنوسي بدّرب بني جملة " (حيّه السكني)

الجزء الرابع : الأوقاف و ريشة الرسام

مقدّمة القسم الأول

إن الذاكرة على ثلاثة مستويات: المستوى الفردي، و المستوى الجماعي، و المستوى الشعبي. يرى كثير من علماء الاجتماع المعاصرين أن ذاكرة الفرد ليست ظاهرة فيزيولوجية و لا ظاهرة نفسية".وذلك، لأن الذكرى لا توجد في شكل آثار مادية على مستوى الخلايا العصبية كما ذهب إلى ذلك "ريبو"، و لا في شكل آثار نفسية على مستوى اللاشعور كما تصور "برغسون". إنها في الواقع، ما تحافظ عليه، الأطر الاجتماعية، على حد تعبير "هالفاكس(1) أي ما تخزنه" أشياء" المحيط الثقافي من أبنية و طرقات، و لغة و مرويات، المنطوق منها والمكتوب، وأنسجة عائلية وعادات...و لهذا، فمن يعيش بعيدا عن محيطه الثقافي و أطره الاجتماعية يحس بالغربة، لأن ليس فيه ما يذكره بماضيه الحميم، حتى إذا عاد إليه بعد فترة طويلة، شعر برجوع ذكرياته تدريجيا. و ليس أدل على هذه الحقيقة، من الشعر الجاهلي الذي ينظمه الشاعر الجاهلي، و من ٱسترجاعه لأعز أيامه عند مروره بالأطلال. و ما كان له أن يصنع ذلك، لولا هذا الشتات من "الأطر الاجتماعية".

و إذا ٱنتقلنا من مستوى الفرد إلى مستوى الجماعة، لاحظنا أن الذاكرة الجماعية تحكمها أطر اجتماعية مشتركة أِلفها الناس في فترة ما، داخل زمر كالأحياء و المداشر و الفئات أو الطبقات، من أسماء و صفات، و تقاليد و ٱعتقادات و مفاهيم.

ولا شك في أن الإضرار بهذه الأطر، يهدف إلى تشتيت معطيات الذاكرة الجماعية و يهيء السبل للغزو الأجنبي. إن الجماعة إذن، تلتقي بذاكرتها فيما يجمعها من أطر عبر حدود مكانية و زمانية.

و هناك مستوى ثالث يهمنا أكثر، هو مستوى الذاكرة الشعبية. إن هذه الذاكرة بالمقارنة مع سابقتها، تملك القدرة على ٱستيعاب مكان أوسع و زمان أطول، و لا ترضى أن تنحصر في دشرة أو حيّ أو فترة زمانية معينة. فبقدر ما يجوز لنا القول بأن الذاكرة الجماعية تحتاج إلى ما يحددها من الصفات في الزمان و المكان، بقدر ما يجوز لنا إعفاء الذاكرة الشعبية من هذه الصفات. وعلى هذا الأساس، يجوز الحديث عن الذاكرة الجماعية التلمسانية أو البجائية أو الموحدية، أو لفئة معينة من المهنيين...و لا يجوز في رأينا، حصر الذاكرة الشعبية في حدود مكانية أو زمانية ضيّقة. فبمُستطاع أيّ مسلم - مهما كانت جنسيته - أن يحبس ما شاء على الشيخ السنوسي أو يتبنى كراماته، و بإمكان أيّ عربي أن يحمل ما أنشد حوله من أزجال". ولكن، لا يجوز لأي شخص أي يجد نفسه و يثبت هويته داخل زمرة أو فترة زمانية لا ينتمي إليها.

---

(1) جمال الدين بو قلي حسن، قضايا فلسفية، ط.5، م.و.ك.، الجزائر، 1991، ص: 303-311).

ولهذا، فذاكرة الشخص تذهب بذهابه، وتذهب الذاكرة الجماعية بذهاب الجماعة. ولكن الذاكرة الشعبية تبقى مهما ذهبت الأفراد والجماعات.

إن الذاكرة الشعبية تتحدى الزمان وتتخطى الأغراض الفردية والمقاصد السياسية بفضل أطر اجتماعية ما تزال ثابتة كالروضة وما فيها، ومسجدي الشيخ وأحباسهما، وعدد من العائلات المحافظة على ذكره وتراثه، وما يُتناقل عنه من خوارق ومعتقدات ومن شعر ومثل شعبيين.

الجزء الأول : روضة الشيخ السنوسي

أولا : التراب المكشوف المسيّج بالجدران

1- القسم الشمالي الشرقي

2- القسم الجنوبي الشرقي

3- القسم الجنوبي الغربي

ثانيا : القبّة

ثالثا : أضرحة الروضة

أرادت الذاكرة الشعبية أن تذكر الشيخ السنوسي ، فعيّنت له ضريحا و بنت له قبة، و سيجت روضته. وسنرى، كيف استطاعت أن تدعم الأطر الاجتماعية بدورها، بالحفاظ على مسجده و مكانه " السكني " (1)، وكرمته بأحباس صار من الصعب اليوم، استغلالها .

هذا، وقبل التفصيل -في دراستنا الوصفية - في هذه " الأطر الاجتماعية " ، من الضروري ضبط بعض المفاهيم كالضريح مثلا، و القبة و الروضة .

فالضريح هو القبر الذي يشق لدفن الميت. و يعرف بشاهدتين عند التلمسانيين وجنّابتين .

و القبة هي ، عند المهندسين المعماريين، السقف المقعر نصف الكروي ، الذي يمكن مشاهدته فوق السطوح . و هي في عرف الناس و رجال الدين، القاعة التي يعلوها سقف من هذا الشكل ، و التي يوجد بداخلها ضريح لولي أو أكثر.

أما الروضة، فهي القطعة من التراب التي يدفن بها الأموات الذين تربطهم فيما بينهم قرابة عائلية واحدة أو تجمعهم علاقة روحية أو اجتماعية بأحد المدفونين بها . و قد تحوّط بسياج إذا كان فيها للضريح الأساسيّ شأن روحي أو اجتماعي . و قد تترك من غير سياج ولا حدود . وعملية الدفن بالروضات هي عادة مألوفة عند كثير من التلمسانيين .

ولهذا، وعلى هذا الأساس، يكون للشيخ السنوسي ضريح، و قبة، و روضة . و لعل الروضة هي الكلمة التي تناسبنا في هذا المقام، نظراً إلى كونها تسع قبر الشيخ و قبته و الأموات المدفونين بداخلها و خارجها إلى غاية حدود السياج .

و الروضة توجد في الجهة الشمالية الشرقية من المقبرة المركزية لمدينة تلمسان، وهي المقبرة التي تحمل اسم " الشيخ السنوسي " و التي كانت تسمى من قبل، بمقبرة "عين وَانْزُوتة" أو مقبرة العباد السفلي . و هي على بعد حوالي 600 متر من ضريح سيدي أبي مدين .

و إذا كانت المقبرة كلها تحمل هذا الاسم ، فهناك ما يدعو إلى القول بأن للسنوسي روضتين : صغرى و هي المسيجة – موضوع دراستنا الوصفية – وكبرى و هي المقبرة المركزية .

أما عن الروضة المسيّجة التي تهمّنا، فإنه يكون من المفيد في هذا الفصل ، الاكتفاء بوصف ما شاهدناه فيها من معالم ، لأن كل شئ منها ينطق بآسمه و يحتضن ذكراه . فنبدأ بوصفها إجمالا ،

---

(1) نقصد بهذا المكان ما يعرف اليوم ، بمسجد درب بني جملة .

ثم نفصل الحديث عن كل جزء منها من حيث هندسته، ومن حيث ما تحتضنه من أموات.

تقدر مساحة الروضة بحوالي 180 م². شكلها شبه منحرف تقع قاعدته الكبرى باتجاه الشمال الغربي .. ويشوبها انحراف في الحائط نحو الشمال الشرقي على مستوى الزاوية الشمالية، سببه اختلاف في مستويات سطح ربوة الروضة نفسها. ويتميز هذا الحائط عن حيطانها الأخرى، بتقوّسه قليلا على مستوى القبة، وكذلك على مستوى الزاوية الغربية. (انظر الشكل رقم: 1)

هذا، ويدل الحزام المارّ بوسط الحائط المسيّج للروضة على أن هذا الحائط بني مرتين في فترتين زمانيتين مختلفتين، الأولى قبل استقلال الجزائر حيث كان ارتفاعه لا يزيد عن المتر الواحد. ثم بعد هذه الفترة وقع تمديد ارتفاعه بحيث وصل علوّه العام إلى مترين عدا الجدار الموجود باتجاه الجهة الشمالية الشرقية، لأنه يطل على الطريق من حافة الربوة ولا يحتاج إلى زيادة في الارتفاع.

روضة الشيخ السنوسي الشكل رقم: 1

إن هذا الحائط يحدد هندسيا مساحة الروضة المسيجة، وهي تحتوي على قبة مبنية حيث مدفن السنوسي، ومحراب يخرج عن استقامة الحائط بقدر نصف قطره. ونظرا إلى موقع القبة المتاخم لقاعدة شبه المنحرف الكبرى، وإلى موقع المحراب في وسط الجدار الموازي لها، ارتأينا تقسيم الروضة إلى جزأين:

1 ـ التراب المكشوف المسيّج بالجدران

2 ـ القبة. وبعد ذلك، نخصص حيزا للحديث عن الأضرحة الكائنة بالجزأين معا.

أولا، التراب المكشوف المسيج بالجدران، وهو ثلاثة أقسام:

1 ـ القسم الأول، هو القسم الشمالي الشرقي. تقدر مساحته بحوالي 63م2 وهو القسم الذي ينفرد بمدخل الروضة، وهو مدخل مسقف يصل عمقه إلى 1,10م وعلوه إلى 2,10م. وتزدان عتبته بقوس نصف دائري متعدد يصل علوه إلى 1,75م وعرضه إلى 0,50م. وهو قوس خال من كل زخرف.

ويبدو من خلال ملاحظتنا للمواد المستعملة في بناء المدخل وحائط الروضة كالإسمنت والأحجار المقعرة "المسمنتة"، أن هذا المدخل أعيد بناؤه أيضا، كما وقع للسياج في الفترة الثانية.

هذا، وزيادة على درجة العتبة، توجد في نهاية المدخل المسقف، درجتان نصعد عن طريقهما إلى السطح الحالي للروضة. فيقابلنا على أقصى يميننا، باب القبة، ومدخل غير مسقف يؤدي بنا إلى المصلى والمحراب، وكلاهما يشكل القسم الثاني من التراب المكشوف. (انظر الشكل رقم: 1)

2 ـ القسم الثاني هو القسم **الجنوبي** الشرقي الذي تقدر مساحته ب 22 م2، و الذي يحتوي على المحراب و جدارين مما بقي واقفا من المصلى . و من الملاحظات الأولية التي يمكن تسجيلها هي أن الرغبة في الدفن بالقرب من القبة، دفعت الناس إلى الاقتطاع التدريجي من هذا القسم، حتى وقع الدفن بالمحراب نفسه، مما زاد من ارتفاع مستوى أرضيته، إذ لم يبق اليوم، بارزا فوق التراب المكشوف من العضادتين سوى 35 سم .

ويصل قطر عقد المحراب إلى 94 سم، و يقدر عمقه ب 1,10 م . **أما تجويفه، فيتألف من مضلع** خماسي تعلوه قبة مدببة الرأس رفعت على مضلع سداسي . **و أما قوسه، فهو قوس نصف دائري متسعة** يؤطره مربع يطلق عليه اسم التربيعة، طول ضلعه 140 سم، ويحيط به إفريز مصنوع من الآجر و خال من الزخارف . و سنرى في الفصل الثاني من هذا الباب، أن هناك ما يدعو إلى القول بأنه كان للمصلى سقف و لكنه انهار مع صروف الدهر .

3 ـ القسم الثالث و هو القسم **الجنوبي** الغربي ، فهو أوسط أقسام التراب المكشوف مساحة و أكثرها أشجارا . تقدر مساحته المستطيلة والمستوية نسبيا ب 57 م2، و تظللها أربع أشجار : زيتونتان في الزاوية الغربية و دردارة في الوسط و تغزازة (1) في الزاوية الجنوبية .

ثانيا : القبة

تشكل القبة الموضع المركزي من الروضة، **ولقد تحدد على أساسها** المصلى ، و تشكلت بعد ذلك، و على أساس مجاورتها ، مساحة التراب المكشوف . و هي في مظهرها الهندسي الخارجي عبارة عن مكعب تقدر مساحة قاعدته بحوالي 16 م2، يعلوه سقف قرميدي على شكل هرم منتظم رباعي الأضلاع ، وظيفته تغطية القبة و حمايتها من العوامل الخارجية . طول ضلع القاعدة المربعة للهرم سبعة أمتار، و ارتفاع الهرم يصل إلى ثلاثة أمتار . و تنتهي قمة الهرم القرميدي ـ المغطى بالقرميد الأخضر ـ بقضيب معدني تعلوه رمانة و هلال نحاسيان تهشما **مع مرور الزمان و تحت** تأثير العوامل المناخية و انعدام الصيانة .

و لاستكشاف ما بداخلها ، نلج في ضريح الشيخ بواسطة مدخل مقوس مفتوح بالجدار الشمالي **للقبة. ويقدر عرضه ب 91 سم و ارتفاعه ب 180 سم. وأما قوسه، فمن نوع حذوة الفرس، وهو غير كامل المعالم** (قوس نصف دائري عادي) و خال من الزخارف . و وظيفته زيادة على الرمزية التي يحملها ، و هي أن الباب مغلق ، هي للتقليل من علو فتحة المدخل الابتدائي إذ يجبر العابرين على عتبته بالانحناء عند الدخول و الخروج من القبة . هذا ، **ولقد اندثر باب المدخل الخشبي الأصلي واستبدل** ـ منذ سنوات ـ بباب حديدي ذي مصراعين ، خال من الزخارف .

وأرضية القبة مرصعة بنماذج متباينة من الزليج ذات أشكال و ألوان و مقاسات مختلفة . بعضه كثر استعماله في العهد العثماني (2) **وهو مربع الشكل طول ضلع الواحدة منه 15 سم، نصفه ملون بالأبيض**

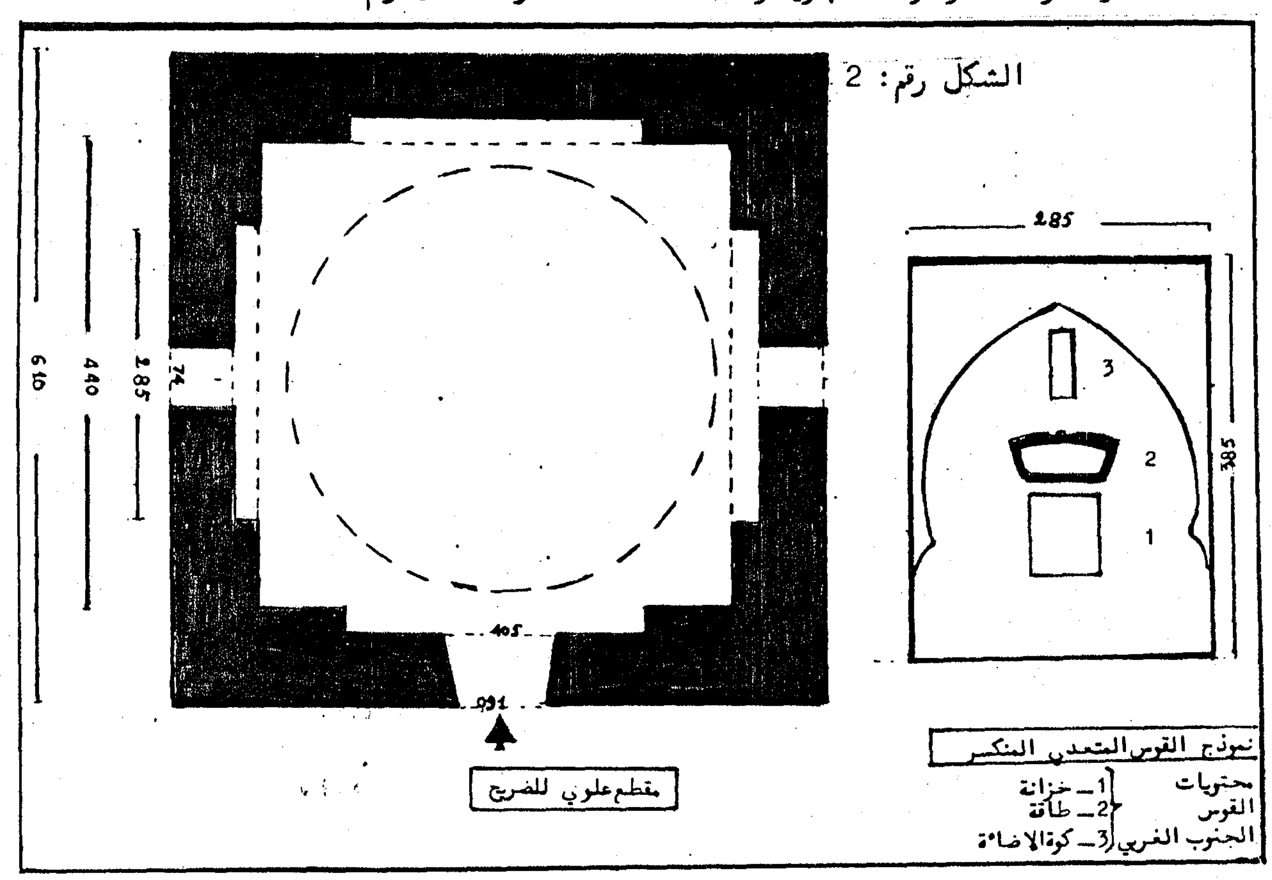
---

(1) هي شجرة الميس أو تغزازة بالبربرية .
(2) كما هو مشاهد في واجهات مئذنة المشور .

و النصف الآخر بالأخضر.كما نجد من الأشكال أيضا، المستطيل و المثمن .أما الألوان الغالبة، فهي حسب أهميتها، الأزرق بالدرجة الأولى ، ثم الأخضر، فالبني، فالأبيض.
وتدل هذه الأشكال و الألوان المختلفة على كثرة المتدخلين في صيانة و ترميم القبة خلال الفترة العثمانية.، وعلى تباين أذواقهم الجمالية التي أفقدت الأرضية، وحدتها الهندسية الأصلية.

أما الجدران، فإن كل واحد منها _ ما عدا جدار الباب _ يتزين بقوس داخل إطار مستطيل يمتد من الأسفل إلى الأعلى، طوله 85 ر3م وعرضه 85ر2 م.وينتج عنه عقد من النوع المنكسر المتعدي بإعتماد طبلة تصله بعضادته(1)

و داخل العقد الجنوبي الشرقي، يمكن أن نلاحظ من الأسفل إلى الأعلى، ثلاث فتحات: خزانة و طاقا وكوة للتهوية و الإضاءة. (انظر الشكل رقم: 2) .



أما الخزانة، فهي عبارة عن تجويف مستطيل الشكل (74×67 سم) بابها خشبي

(1) و هذا العقد بهذا الشكل، يحمل بصمات الصنعة المرابطية.

ذ و مصراعين". وتقع على مستوى طبلة العقد، في موقع يسهل استخدامها من طرف الصغار و الكبار. إلا أننا لا ندري الهدف من استخدامها". فهل هي حافظة للأمتعة أم للكتب؟ كلّ ما هنالك، أننا وجدنا داخل إحداها شظايا من شمعدان و سراج زيتي، و تفافيح و أهلة نحاسية كانت توضع على رؤوس أعمدة الألوية.

هذا، و لقد تحوّلت خزانة الجداريْن المتعامدين للزاوية الغربية، إلى فتحة للتهوية وجدناها في كليهما مسدودة.

أما الطاق، فإنها تتوسط القوس و تعلو الخزانة، وينفرد بها الجدار الغربي الشمالي، ولقد صمّمت على شكل شبه منحرف، قاعدته الصغرى في الأسفل (68سم) ". أما قاعدته الكبرى فهي تشكل وترا لعقد منحن Arc surbaissé يؤكد التأثير العثماني.
وأغلب الظن أن هذه الطاق كانت تلعب دور المرفع الذي يحمل الكتب المحبسة بالقبة والتي هي كثيرة الاستعمال.

هذا، و فوق الطاق و بأعلى القوس، نلاحظ كوة مستطيلة الشكل ضلعها الأصغر بالأسفل (67x45سم)"، وهي كوة، بابها خشبي ذ و مصراعين يمكن باستعمالهماء التحكم في كمية الضوء و الهواء داخل القبة.

و فوق إطار القوس مشربية، و هي فتحة تشبه الكوة في مقاساتها، وتوجد على مستوى الإفريز الفاصل بين مستطيل القوس و بداية القبة. و هي خاصة بتهوية الجزء العلوي من الضريح سيما القبة"، ويتم بواسطتها تبديد الدخان و الروائح النّاتجة عن احتراق الشمع و الزيوت و إيقاد الفحم للتبخير و التجمير. و لعله لهذا السبب لم تزود هذه الفتحة ببويبة.

و تنتهي الجدران في أعلاها بقبة من طراز نصف كرَوي مذببة القمة، إذ أن عمق القبة المحوري يفوق قليلا شعاع دائرة القاعدة. و لقد وقع الانتقال في عملية التقبيب مباشرة، من المربع الذي انتهت اليه الجدران إلى المضلع الاثني عشري. وما كان ليتم هذا الإنجاز لولا إحداث مساند على مستوى الزوايا الأربع العلوية للمكعب، و هي مساند مزدوجة تحقّق الاقتراب من شكل

الدائرة، و تسمح برفع القبة و تقسيمها إلى أثني عشر مثلثا. قواعد هذه المثلثات تؤلف المضلع الإثني عشري. و يتكون بالتقاء قمم زواياها، مفتاح القبة المركزي الحامل لسلسلة الثريا.

وزينت القبة في نصفها الأسفل ببوائك صماء عددها يساوي عدد الأضلع أي (12). رفعت أقواس هذه البوائق على أعمدة جسية بتيجان خالية من الزخارف. أما الفواصل الموجودة بين الأقواس والمتمثلة في الطبلة و البنيقة، فهي مزدانة بتوريق جسي خفيف وأنيق. و أما حنية العقود فجاءت مفتولة و بارزة في زخرفتها. و بوسط كل قوس نجمتان بمركز واحد: حاوية و محتواة. لكل واحدة منهما ستة عشر رأسا. وترمز النجمة العليا، أي الحاوية و التي تشكل الأرضية، إلى زهرة الأقحوان. وأما الزهرة المحتواة، فهي ترمز الى تويج الزهرة. و بمركز القبة زخرفة نجمية بأربعة عشر رأسا، تتدلى منها سلسلة الثريا. وحلقات هذه السلسلة غليظة تجعل الملاحظ يتخيل مدى حجم الثريا التي كانت معلقة ومدى ثقلها. كما تتدلى من الزوايا الوسطى للمساند الأربعة الحاملة للقبة سلاسل رقيقة كانت تعلق بها المصابيح الزيتية. (انظر الشكل رقم: 3).

الشكل رقم: 3

ولقد حاول بعض الطلائين في نهاية السبعينيات طلي القبة. ولكن مادة الطلاء المستعملة (الطلاء الزيتي البراق) وأختيار الألوان المستخدمة (الأصفر والأسود والأبيض) وسوء تحديد المساحات المطلية، كل ذلك قد أضر بالوجه الجمالي للقبة، وألحق تشويهات بالنموذج الأصلي.

هذا، وعلى قبر الشيخ السنوسي وضع تابوت خشبي طوله 217 سم وعرضه 80 سم وأرتفاعه 110 سم. يرتفع جانباه الأمامي والخلفي، على مستوى السطح الفوقي للتابوت بحوالي

50 سم محاكاة للشاهدتين. سطح التابوت مستو مع بروز مستطيل في وسطه بـ18 سم، طوله 70 سم وعرضه 42 سم. زود الجانب المقابل لمدخل القبة بِبُوَيْبة تمتد إلى الجدار الجنوبي الشرقي وتفتح على مساحة محصورة بين التابوت والجدار تخصص لبعض الزوار. وزُيّن التابوت المطلي باللون البني ببعض الأشكال المستطيلة، بعضها مخرم وبعضها الآخر مزخرف برسوم هندسية أنجزت بوسيلة القاطع والمقطوع. **وزيّن باقي المساحة برسومات** لبوائك أو أزهار، يغلب عليها اللونان، الأصفر والأخضر. وليس على التابوت أيّ شيء من قماش أو كسوة.

وزين الجداران اللذان يلتقيان في الزاوية الغربية، بألواح مستطيلة منقوشة ثبتت داخل الأقواس على مستوى قامة الإنسان، وغرزت بها مسامير، ربما لتعليق الأمتعة الخاصة بالزوار. وتختلف هذه الألواح في طولها. فمنها ما يقدر بـ60 سم، وما يقدر بـ110 سم و 120 سم و 166 سم و 220 سم. أما عرضها، فهو 11 سم في كل واحدة منها، **ولا زخرفة فيها إلا في الأطراف.**

ثالثا: أضرحة الروضة

إن هذه الروضة تسكنها نفوس مطمئنة في أضرحة ما يزال بعضها قائما بشاهدتيه تحملان من الحروف والزخرفة ما يدل على هوية المدفون ومكانته الاجتماعية والعلمية. ومما يلاحظ أن استدفان الناس بالروضة العارية أجبر المكلفين بالدفن على استغلال أصغر بقعة فارغة قبل أن تتعدى أنظارهم إلى الدفن على رفات أموات سابقين. ولهذا، شقت بقاع بعض الأضرحة في اتجاهات عشوائية، **وهو أمر صار يُزعج الزوار في سيرهم** داخل التراب المكشوف. **وبالفعل، فالناس لم يبقوا في تنقّلهم إلاّ على مسلك ضيّق، يؤدي** إلى قبة الشيخ السنوسي أو على بقعة ضيقة أمام محراب المصلى.

هذا، ولقد أحصينا في عملنا الميداني، حوالي أربعة وتسعين (94) ضريحا في الروضة، تمثل ثلاثة وأربعين اسما (43) عائليا تشهد على وجودها الشواهد، وهي أحجار بعضها من مادة تافزة، وبعضها الآخر مصنوع من الغرانيطو أو من الرخام. وهذه الشواهد تختلف فيما بينها في الصورة والمظهر. **ولقد صنّفناها، إلى واحد وثلاثين شكلا.**

وهي تحمل في جملتها، ثمانية وعشرين (28) دعاء (1) .

ولتوضيح عملية المسح هاته، رسمنا اللوحات الثلاث التالية:

اللوحة الأولى : لوحة الأسماء العائلية

الرقم	الأسماء العائلية	عددها	الرقم	الأسماء العائلية	عددها	الرقم	الأسماء العائلية	عددها
1	المنور	8	16	بن قلفاط	1	30	السنوسي	1
2	برصالي	6	17	بن مراح	1	31	الشافعي	1
3	بن رسطان	5	18	بن مراد	1	32	طموم	1
4	سقال	4	19	بن مصطفى (ح. علال)	1	33	العقباني	1
5	بن ديمراد	4	20	بن يلس	1	34	قارة مصطفى	1
6	قارة امحمد	3	21	بن يمينة	1	35	قهواجي	1
7	مولاي	3	22	بن يوب	1	36	قايد سليمان	1
8	مصمودي	2	23	بوزار	1	37	قلابي	1
9	الطرابلسي	2	24	بوعبد الله	1	38	مالطي	1
10	اغا	1	25	التالوتي	1	39	مامشه	1
11	ايت عبد الرحيم	1	26	حاج علال (بن مصطفى)	1	40	مجدابا	1
12	برياح	1	27	الدحاوي	1	41	مختاري	1
13	بلحاج قاسم	1	28	الذيب	1	42	المرلاتي	1
14	بلوسي	1	29	الزياني	1	43	مزيان	1
15	بن دي ويس	1						

---

(1) إن ضرورة البحث تقتضي منا تأجيل عرض القوائم المفصلة في هذا الموضوع إلى القسم الثاني من هذا الفصل .

اللوحة الثانية: أجزاء الروضة

العدد	أجزاء الروضة	عدد الأضرحة
1	القسم الأول: المدخل ------	26
2	القسم الثاني : المصلى أو المحراب	14
3	القسم الثالث: القسم الخلفي ---	40
4	القبة	14
المجموع		94

اللوحة الثالثة: أنواع الأدعية

الرقم	نوع الأدعية	عددها
1	أدعية من القران الكريم ---	05
2	أدعية نثرية --------	12
3	أدعية شعرية --------	09
4	أدعية متداخلة ------	02
المجموع =		28

هذا ما تركته الذاكرة الشعبية من أمارات عينية تثبت بها ذكر السنوسي في مستوى الروضة.

الجزء الثاني : مسجـد الشيخ السنوسي بـدرب مسوفة

أولا : المـوضـع

ثانيا : 1ـ الوصـف الدخلي

1ـ الجزء الأول من القاعـة

2ـ الجزء الثـاني من القاعـة

ثالثا : الـوصف الخـارجـي، تعليقـات وصفية

ومن الأطر الاجتماعية والأبنية الأثرية التي ما تزال تحفظ ذكر الشيخ، مسجده المعروف بٱسمه والكائن بدرب مسوفة. فما موقعه بالضبط؟ وما هي خصوصياته الهندسية الداخلية والخارجية؟

أولا: الموقع

يقع المسجد في الجزء الجنوبي الشرقي من "تاڤرارت" أو تلمسان المرابطية، في مجموعة سكنية تعتبر من أقدم الأنسجة العمرانية للمدينة. ويتحدد موقعه بوجه

الدقة، في مدخل درب مسوفة الذي ينفتح على شارع الصاغة القديمة (أي نهج معسكر، ثم نهج مرابط) الرابط بين ساحتي " الموقف" و " سويقة اسماعيل " .

ثانيا: الوصف الداخلي

1 – الجزء الأول من القاعة:

للولوج في المسجد، نصعد من الدرب درجا مبنيا بجذع المئذنة. و عند انتهائه، ندخل مباشرة إلى قاعةٍ للصلاة، مستطيلة الشكل، يقدر متوسط عرضها بحوالي 4ر50 م ، و متوسط طولها بحوالي 12 م.

أ- هندسة الجزء الأول:

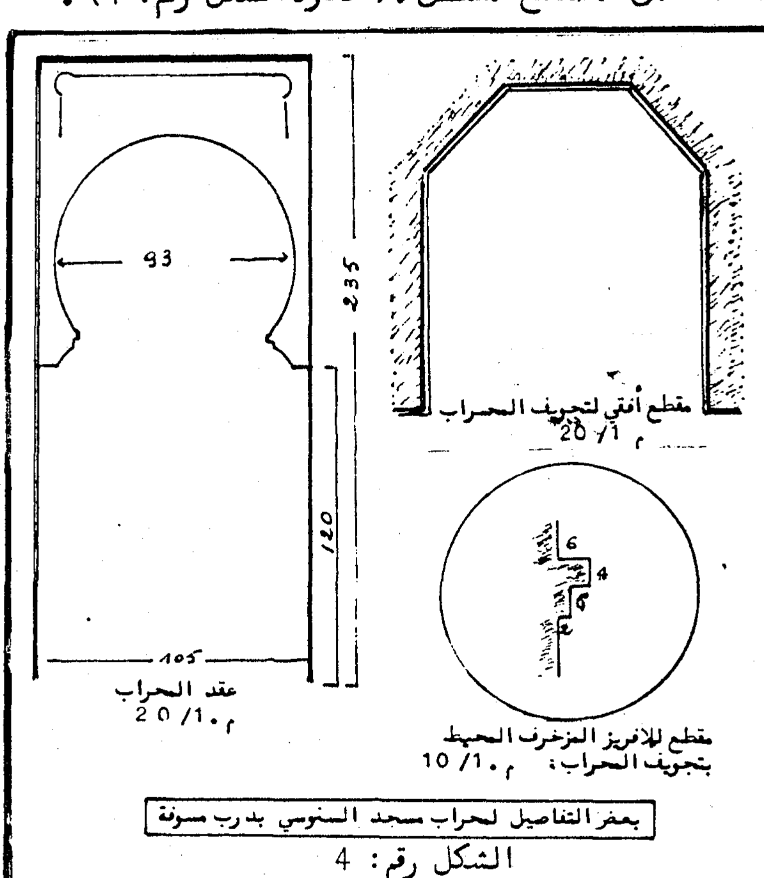
تتألف هذه القاعة من جزأين مختلفين من حيث الشكل: الجزء القريب من باب الدرج ، والجزء المحاذي للمحراب في جهته اليسرى. ويتشكل سقف الجزء الأول من رواقين Deux travées أحدهما يحاذي الدرج، والآخر يتوسط القاعة. كل واحد منهما زيّن بعقود محمولة على سواري آجرية مربعة الشّكل، طول ضلعها 50 سم، و مقدار ارتفاعها، 120 سم. هذا، ولقد رسمت أقواس هذه العقود التي لا زخرفة فيها، داخل أطر مستطيلة، مقاساتها، 20ر3م X 90ر1م، وهي من النوع نصف الدائري المتعدّي بطبلة تبرز استدارة العقد. ومما يلفت النظر، بساطة الطبلات والبنيقات وإفريز التربيعة. هذا، وعدد الأقواس القائمة حاليا وترتيبها الثنائي – بحيث تقابل ثلاثة منها الثلاثة الأخرى – يرسمان إطارا مستطيلا للرواق الأوسط الذي يحتوي على المحراب.

ب- المحـــراب :

بني المحراب داخل إطار مستطيل، يرتفع طوله إلى 35ر2م، ويقدر عرضه بـ10ر1م. ويقدر ارتفاع عقده بمترين و عرضه بـ 93ر0 م. و هو عقد من طراز نصف دائري متعد بطبلة بسيطة محمولة على عضادة علوها 20ر1 م. والزخرفة الوحيدة التي تزين بنيقتي المحراب، تتمثّل في إطار بارز من الملاط يحاذي الحافة الداخلية لإفريز التربيعة مع رسم قوسين على شكل هلالين بالزاويتين العلويتين . وهو إطار، طليت مساحته بطلاء زيتي مذهب .

أما تجويف المحراب،فيصل عمقه ـ إذا أضفنا سمك العضادة ـ إلى 50ر1 م .
ويتقدم هذا التجويف على شكل مضلع نصف ثماني الزوايا تتساوى فيه الأضلع المتقابلة .و من الزخارف التي يتجمل بها هذا التجويف،إفريز مدرج بارز يمتد على محيطه و يوجد على مستوى خصر الواقف به .

وأما قبته التي يصل آرتفاعها إلى ثلاثة آمطار،فهي مذبّبة الرأس،و هي خالية من الزخارف. و لقد شكّلت،آنطلاقا من مضلع مثمن . (انظر،الشكل رقم: 4) .



الشكل رقم: 4

ج) جدار المدخل :

وفي الجدار الذي يوجد على أقصى يميننا عند مدخل القاعة، يمكن ملاحظة ما يلي :

1) درج المئذنة: إذا ولجنا في قاعة الصلاة من الدرب عن طريق الدرج،نصعد إليها أي إلى المئذنة عن طريق الجزء الثاني من هذا الدرج، انطلاقا من القاعة نفسها .

2) ونافذة، مقاساتها 70 سم على 75 سم،وترتفع عن أرضية القاعة ب36ر1 م،وهي فتحة تطل على دريبة محاذية للسقيفة .

3) وخزانة تقع على يسار النافذة وفي الجهة السفلية(58 سم X 70 سم) .

4) ومرفع مستطيل الشكل يوجد في تجويف الجدار على يسار الخزانة وعلى مستوى النافذة،عرضه 50سم وآرتفاعه 84 سم وعمقه 35سم، وهو مؤثث برفّين يصلحان فيما يبدو،لحمل المصاحف أو الكتب الدينية الجارية الآستعمال .

5) وحجرتا الأحباس توجدان على يسار المرفع، وهما مغروستا السمك في الجدار .شكل

الأولى شبه منحرف، قاعدته الصغرى في الأسفل تقدر ب 45 سم، وقاعدته الكبرى تقدر ب55 سم، ويصل ارتفاعه إلى 1,06 م. وأما الثانية، فهي مستطيلة الشكل، وعرضها في الأسفل يقدر ب 46 سم و طولها يقدر ب 1,07 م.

وترتفع هاتان الحجرتان عن أرضية القاعة ب 30 سم، وتتكون مادتها من الصخور الرسوبية المسماة بالحجر الرملي والمعروفة عندنا بـتافزة (Grès). وهما حجرتان تعينان الأحباس المخصصة للشيخ السنوسي بخط مغربي ناتئ. عدد سطور الأولى 38، و عدد سطور الحجرة الثانية، 36 (1). هذا، وتجدر الإشارة إلى أن الحجرة الأولى قد نقلت إلى المتحف البلدي في مطلع هذا القرن، وأعيدت إلى مكانها سنة 1992 من طرف السلطات المحلية للمدينة.

د/ الباحة:

وعلى مستوى الزاوية اليمنى لجدار المحراب، يوجد مدخل الباحة الملاحقة لقاعة الصلاة، والتي كانت وظيفتها الأصلية انتظار النّاس بها أوقات الصلاة وعدم إزعاج الذاكرين أو المصلين بالقاعة بما يحتمل أن يجري من حديث في مواضيع مختلفة. وهي بهذه الوظيفة، لا تختلف عن الدور الذي تلعبه الدكانة الكائنة خارج المساجد مثلما هو في المسجد الكبير أو في مسجدي العباد وسيدي الوزان. و يبدو أنه منع بناء الدكانة بمسجد السنوسي لكونه مشيّدا بمدخل درب مخصص للسكنى. وكان وقوف الذكور بالأزقة الضيقة غير مألوف. (2)

وفي السبعينيات من هذا القرن، تحولت الباحة إلى قاعة للوضوء. و مما يؤسف له أن بيت الخلاء بها، بني محاذيا لجدار المحراب. هذا عن الجزء الأول من القاعة.

2- الجزء الثاني من القاعة:

أما الجزء الثاني أي الجزء المتعامد مع الزاوية اليسرى لجدار المحراب، فهو

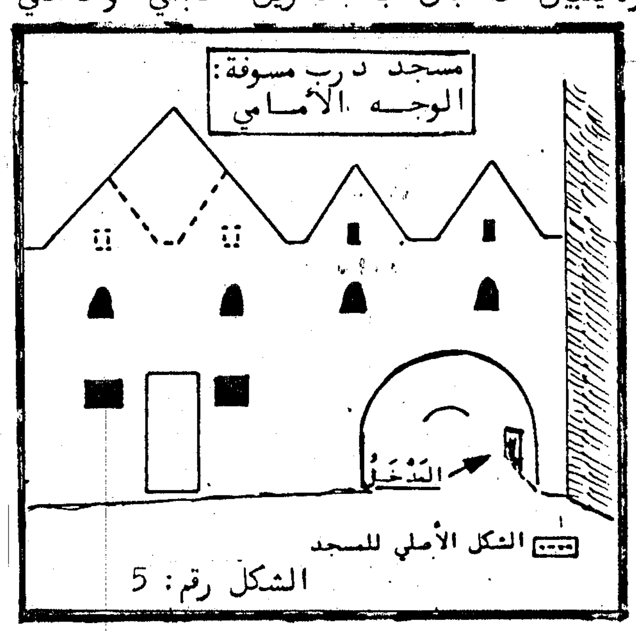
(1) سنفصل الكلام عن هذه الأحباس في الجزء الرابع من القسم الأول من فصلنا هذا.
(2) وإن كان الصغار يجتمعون في "الحومة" أي بالحي الذي يوجد به المسجد. (انظر مصطفى العشعاشي، السلسلة الذهبية، تحقيق م. يلس شاوش، مطه سقال، ص: 02).

عبارة عن مساحة شبه مربعة تقدر ب 25م[2].ولقد بني فوق قاعة ملحقة بالمسجد، توجد بالطابق الأرضي، وكانت وظيفتها تحفيظ القرآن الكريم للصغار تحت إشراف" طالب" .

ثالثا: الوصف الخارجي، تعليقات وصفية

أما سطح المسجد، فيشكل هو الآخر قسمين متباينين على غرار جزأي القاعة، وكله مغطى بالقرميد الأحمر.القسم الأول يتكون من سقفين وهما على شاكلة سرج، ويطابق كل واحد منهما الرواق الذي يحمله.وأما الثاني، فسقفه أعلى من سقفي الجزء الأول من القاعة، وإن كان على شاكلة سرج مثل سابقيه. وهو مرفوع على أخشاب ولم يكن الناس يستعملونه محليا قبل العهد الفرنسي .مما يوحي بأحتمال أن هذا القسم الثاني من المسجد ـ سقفا و قاعة ـ يكون قد أنهار إبان الفترة ما بين نهاية القرن التاسع عشر و مطلع هذا القرن .وعندما أعيد البناء، امتد الترميم إلى سقف القاعة الملحقة السفلية، وأقيمت عليه أرضية وضعت على- قبوات صغيرة(voutins) محمولة على سبائك.هذه التقنية عاقت المرمم عن إعادة بناء الرواقين الأصليين لأستحالة رفع السواري على مثل هذه الأرضية.لذا جاءت مساحة الجزء الثاني من قاعة الصلاة، خالية من الأقواس، وكان لا بد من رفع سقف واحد يغطي كل هذه المساحة.

و مما يثبت أن قاعة الصلاة كانت مقسمة إلى أربعة أروقة، وأنه وقع فيها الترميم، وجود نوافذ الإضاءة بالجدار الخلفي : اثنتان في الجزء الأول بوسط كل رواق، ولا شيء بالنسبة للجزء الثاني .ومن يدقق النظر، يتبين له بأن بالجدارين القبلي والخلفي آثاراً لعقود أندثرت وآثارا لكوات وقع تسديدها وكانت موجودة بوسط مثلث سقف كل رواق أصلي .(انظر الشكل رقم: 5)



الشكل رقم: 5

هذا، ونظرا لضيق قاعة الصلاة، فإن الناس لا يقصدونها كثيرا لأنها لا تسع إلا ثلاثة صفوف من المصلين، يقدر عددهم بستين شخصا،ويمكن اعتبار هذه القاعة خارج الصلوات، في أوقات الدروس، مكانا جامعا لحلقة واحدة.

المئذنـــة: إن هذا المسجد ،كما ترى، من أصغر المساجد بتلمســـان، و لكـنـه زوّد بمئذنــة أنيقة هي من أقدم المآذن داخل تلمسان المرابطية". نقول: المرابطية، لأن طريقة استعــمال العقود الخشبية التي يمكن ملاحظتها في الزوايا الأربـع و بٱنتظام في المئذنة، و تقنية ٱستخدام قوالب الآجر، من الظواهر التي انتشرت في العهد المرابطي". كما تعتبر هذه المئذنة أضيق ما في تلمسان من مآذن". فهي لا تـتسع في الصعود إليها إلا لشخص واحد .

الجزء الثالث: مسجد الشيخ السنوسي بدرب " بني جملة "

أولا : مدخل المصلّى

ثانيا : قاعة الصلاة

ثالثا : جدران المصلّى

1- الجدار المقابل للمدخل

2- الجدار " القبلي "

3- الجدار المحاذي للدرب

رابعا: الخلوة

سيدي البنّاء ؟

على غرار مسجد «باب زيري» ـ أي مدرسة منشر الجلد ـ الذي درّس فيه الشيخ السنوسي، ومسجد درب مسوفة الذي علّم فيه، يقع هذا المسجد أو المصلّى(1) في درب بني جملة ضمن النسيج العمراني لتلمسان المرابطية، وفي الحي السكني الذي يكون السنوسي ـ حسب بعض الروايات ـ قد رأى فيه الحياة. يتوسط هذا المصلى دربا بثلاثة منافذ، الأول يتجه نحو الشرق عبر سقيفة درب النعيجة، الثاني يتجه نحو الشمال عبر سقيفة الدرب المقبي، والثالث يتجه نحو الجنوب أي في اتجاه وسط المدينة عبر سقيفة ملتقى درب بن حربيط وسيدي اليدون». ويقع بوجه التدقيق بين سكنيّن. (انظر، الشكل رقم: 6)

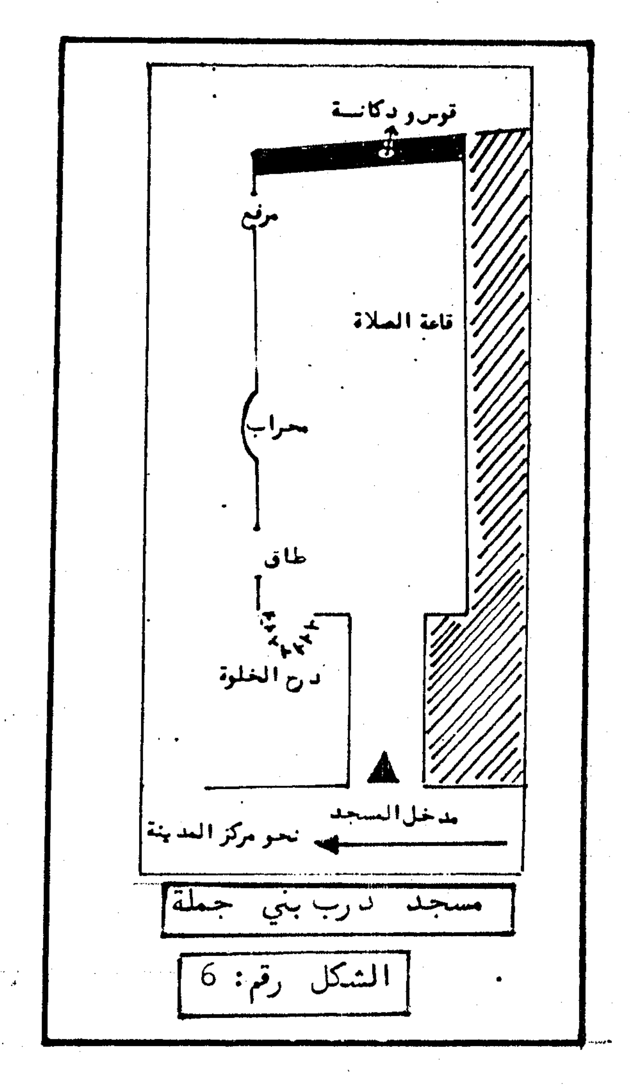
ويروى عن هذا المصلى، أنه أقيم بالدار التي نشأ فيها الشيخ السنوسي. ونظرا إلى ندرة المعلومات الخاصة بالحياة العائلية لشيخنا، فإننا لا نملك من الحجج ما يقطع بنفي هذه الرواية أو إثباتها. وحجر الأحباس التي يقول عنها الباحثون في التراث أنها كانت موجودة بهذا المصلى لم تشر إلى أنه وقع اقتطاع من داره.

والدراسة الوصفية لهذا المعلم الأثري توجهنا إلى الاهتمام بأربعة مواقع:

أولا: مدخل المصلى:

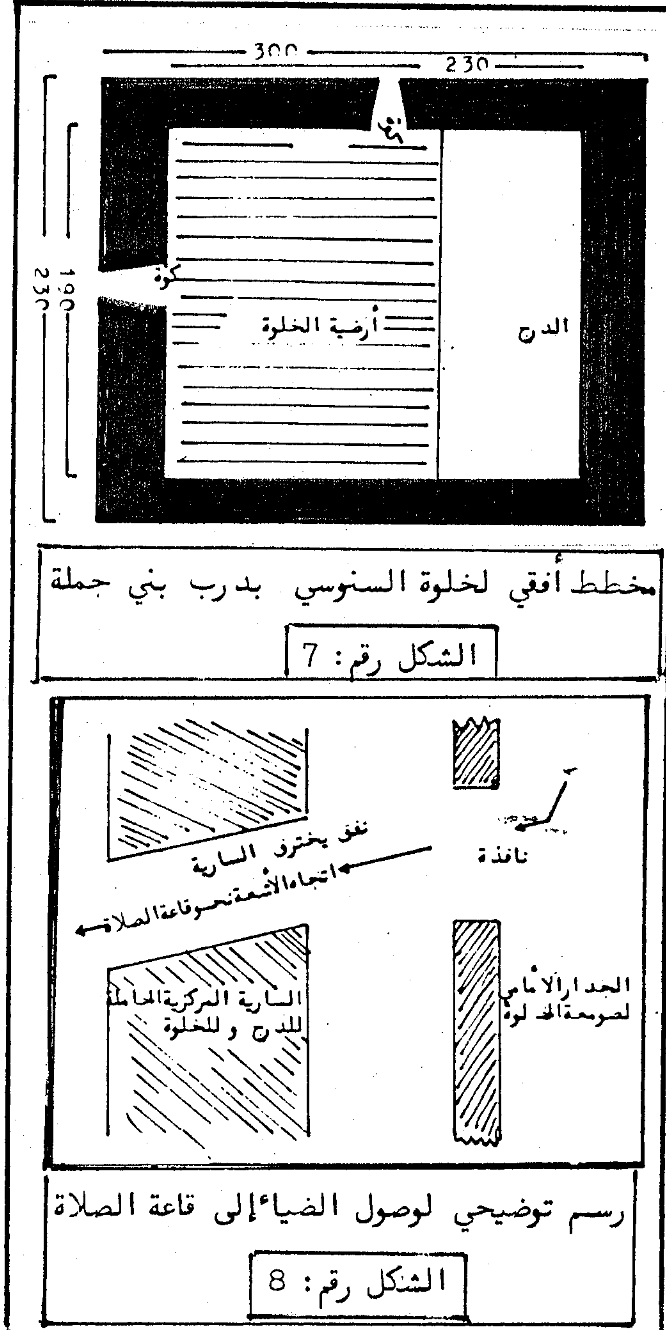
---

(1) لا يقيم العوام من أهل تلمسان فروقا بين هذه المصطلحات: المصلى، المسجد، الجامع، فقد ينعتون المسجد أو الجامع بالكبير أو الصغير، وقد لا تكون للمصلى مئذنة.



مسجد درب بني جملة

الشكل رقم: 6



مخطط أفقي لخلوة السنوسي بدرب بني جملة

الشكل رقم: 7

رسم توضيحي لوصول الضياء إلى قاعة الصلاة

الشكل رقم: 8

نلج في المصلى من مدخل مقوس لا زخرفة فيه، بابه حديدي حديث الصنع يوحي بأنه أقيم مكان باب خشبي قديم. يمتد هذا المدخل إلى القاعة بواسطة رواق، طوله 2ر35 م وعرضه متر واحد. يشكل سقفه قبوة نصف أسطوانية، يمر فوقها درج الخلوة (Voute en berceau).

ثانيا: قاعة الصلاة

لا تتجاوز مساحتها العشرين مترا مربعا، ولا تسع إلا صفين من المصلين، يقدّر عددهم الأقصى بثمانية وعشرين شخصا. ويشكل سقفها قبوة نصف أسطوانية. إلا أنه لا يتناسق في شكله، مع الهندسة العامة للقاعة نظرا إلى اختلال نقاط الالتقاء بينه

و بين ٱستدارة عقد الحائط المقابل للمدخل. و لعل سبب هذا الاضطراب في التناظر، تكمن في توالي الترميمات التي حدثت بالمكان.

ثالثا: جدران المصلى : و هي ثلاثة:

1- يزدان الجدار المقابل للمدخل منها، بعقد ضخم وعال من طراز حذوة الفرس ينتسب بصنعته إلى الفن المرابطي. وفي أسفل هذا العقد عتبة كأنها دكانة.

2- وفي الجدار "القبلي" نلاحظ ما يلي:

أ- طاقا مستطيلة الشكل (52 سم × 62 سم) ترتفع عن الأرض بـ145سم، و هي مزوّدة برفّ واحد يوحي بأنه كان يستعمل كمرفع للكتب.

ب- ومحرابا يتوسط الجدار القبلي، و هو يوجد ضمن إطار مستقل، لا زخرفة فيه. عرضه متر واحد، و ٱرتفاعه لا يزيد عن 2،07 م. أما عمقه، فلا يتجاوز 0،84 م. بأعلى مدخله قوس من النوع نصف الدائري المتعدي بطبلة، يصل سمكه إلى 0،27م، وهو مصنوع في ٱرتفاعه بقدر قامة الانسان العادي (1،70م). يتألف تجويف المحراب من مضلع خماسي ناقص، يتحول إلى مضلع سداسي عند بداية القبة المذبّبة التي تعلو هذا التجويف. ولا يزيد ٱرتفاع هذه القبة عن علو المستطيل الذي رسم داخله عقد المحراب أي 2،07 م.

ج- وتجويفا آخر: وعلى يسار المحراب، نلاحظ تجويفا شبيها بطاق تقدر فتحتها بـ 0،70م × 0،85م، و يمتدّ عمقها إلى 1،23 م، ويقترب ٱرتفاعها عن الأرض، من خصر شخص متوسط القامة. ومَنْ يلج داخل هذه الفتحة، يلاحظ على يمينه، ظهْرَ تجويف المحراب، تحاذيه مساحة تابعة لدار موجودة بإزائه. (1)

3- الجدار المحاذي للدرب:

أ- توجد في هذا الجدار – فضلا عن المدخل الرئيسي لقاعة الصلاة – نافذة وكوة تسمحان بإنارة ما بداخل المصلى.

---

(1) حسب ما ينص عليه لوح الأحباس الخاصة بمصلى الشيخ، لم نتمكن من تحديد هذه المساحة، و لا حجمها لوجود السكان بها.

ب النفق: هذا، ونظرا إلى تشييد هذا المصلى بين دارين وفي دروب ضيقة، استخدم المصمم تقنية خاصة تضمن له إضاءة المصلى طيلة النهار. فـفتح في أعلى الجدار المحاذي للدرب، نافذة توصل الأشعة عن طريق نفق مائل يخترق السارية المركزية الحاملة لدرج الخلوة. وهي طريقة يستعملها أهل تلمسان لإنارة مداخل بعض بيوتهم، وخاصة منها المداخل المسقفة العميقة والبعيدة عن وسط الدار المكشوف. (انظر، الشكل رقم: 8)

رابعا: الخلـوة

1ـ الدرج :

يوجد على يسار المحراب، وفي الزاوية المتعامدة مع الجدار الأمامي لـقاعة الصلاة، مدخل مفتوح على درج يؤدي الى الخلوة. ويبتعد جدار هذا المدخـل المفتوح عن عتبة باب المصلى والموازي له بمقدار طول الرواق وهو 35ر2 م.

نصعد إلى الخلوة بواسطة درج ملتو وضيق لا يسمح بالمرور إلا لشخص واحد. يتألف هذا الدرج من أربع وعشرين درجة، يتفاوت ارتفاعها من درجة إلى أخرى. ويزدان مدخل الدرج بقوس منكسر متعد، سمك جنيته بمقدار سمك الآجر المصفوف تصفيفا طوليا (En champ). وليس له باب.

2ـ قاعة الخلوة:

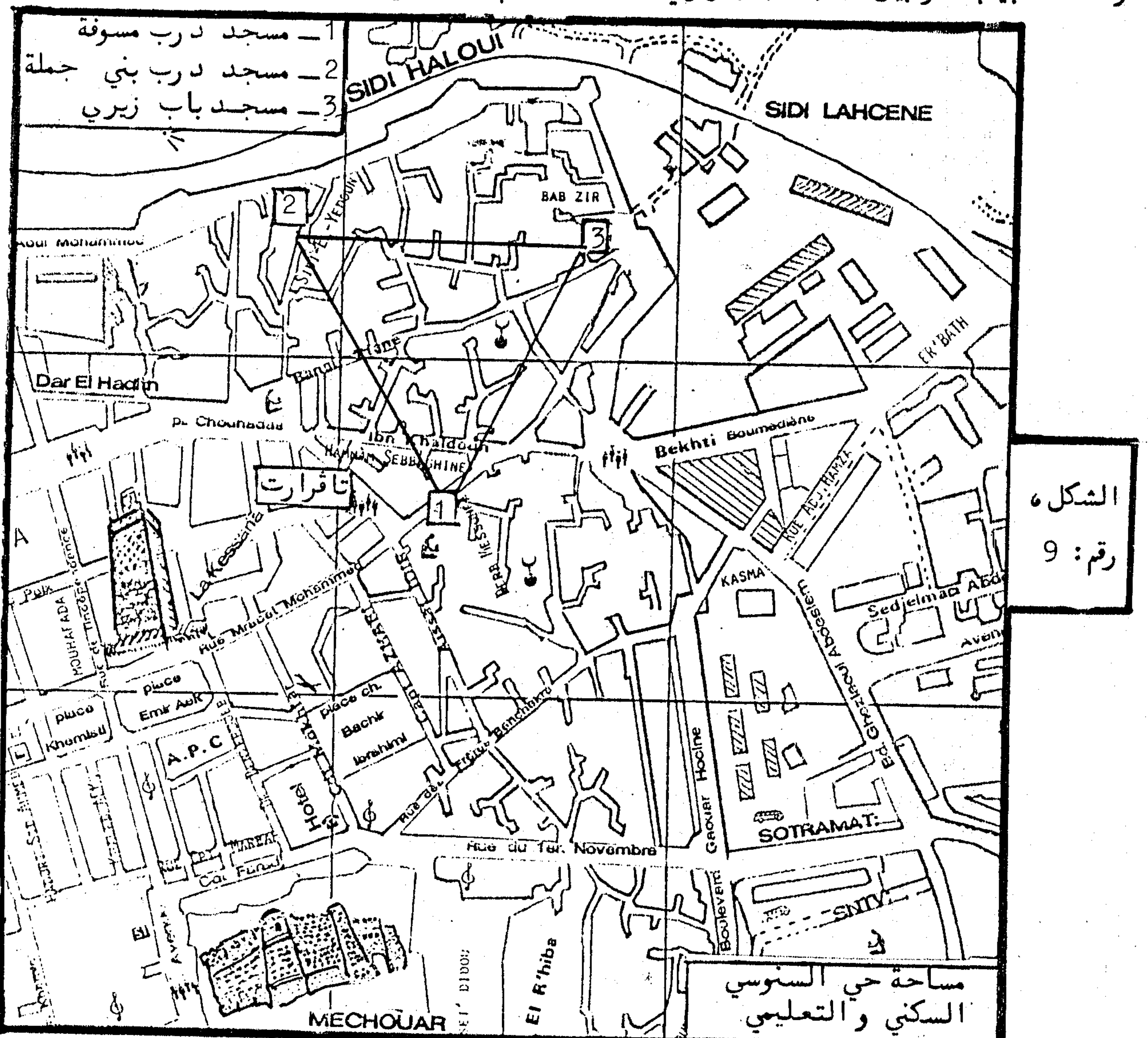
ينتهي الدرج ـ بعد التفاف كامل على السارية المركزية الحاملة له ـ إلى مستوى أرضية الخلوة التي تقترب مساحتها، من ثلاثة أمتار مربعة (90ر1م 50ر1م). وهي مكسوة بالآجر الأحمر المستطيل، وتضيئـهـا كوتان، الأولى تتوسط كما رأينا، الجدار المحاذي للدرب، والثانية توجد بالجدار المقابل للمحراب أو لمخرج درج الخلوة. (انظر، الشكل رقم: 7).

ونظرا إلى سمك الجدار وعلو كل هذه الفتحات، فإن نظر الفضولي لا يصل إلى مشاهدة السطوح الملاصقة والمجاورة. لأنها صنعت خصيصا للإضاءة، فضلا عن أن الخلوة، إنما ينفرد بها المتعبد للتقرب فيها إلى الله والانصراف عن الدنيا. و هي

ذات سقف، هو صومعة صنعت على شكل هرم ذي الأوجه المثلثة الأربعة. توجد قمته المركزية على ارتفاع يقدر ب27ر3 م بالنسبة إلى أرضية الخلوة. أما هيكل الهرم، فصنع بقطع خشبية أسطوانية الشكل، أصلها من مادة الطاقة، وهي نوع خاص من الخشب مشهور لتحمّله الضغوط الأفقية.

هذه هي خلوة السنوسي التي كان يلجأ إليها للذكر والصلاة، وهي خلوة لا زالت عامرة. ولقد قام بعض المحسنين خلال سنة 1994، بإعادة طلاء هذا المسجد، وتفريشه بالبساط الأصطناعي وبتقوية إنارته الكهربائية. فأصبح منذ ذلك الوقت، المكان المفضل الذي يلتقي فيه بعض المهتمين بتراث تلمسان وبذكر السنوسي، كل يوم جمعة.

وأخيرا، لا بدّ من أن نسجّل أن بين مسجدي درب مسوفة ودرب بني جملة، مسافة 300 م، وكذلك بينهما وبين مسجد باب زيري حيث تعلم السنوسي. (انظر، الشكل رقم: 9).



الشكل، رقم: 9

الجزء الرابع : الأوقاف

أولا : الأوقاف الساكنة

1- المقبرة

2- الروضة

3- المساجد

4- لوحة فنّان

ثانيا : الأوقاف الجارية

للشيخ السنوسي أوقاف استطاعت الذاكرة الشعبية أن تحافظ عليها. ولا نقصد بها فقط، الثروات والممتلكات التي وقفها الناس عليه، وإنما نقصد بها أيضا، المؤسسات التي استوقفتها له الذاكرة الشعبية. وعلى هذا الأساس، يمكن التميز بين نوعين من الأوقاف: الأوقاف الجارية والأوقاف الساكنة.

والفرق بينهما هو أن الأولى أوقاف حية يؤسسها الناس لتصرف منافعها في سبيل الله برا بالفقراء وعطفا على المحتاجين؛ وأما الثانية، فهي أوقاف متحجرة "تحبّسها" الذاكرة الشعبية على شخص أو أشخاص كأن تلحق مؤسسة ما ـ كمقبرة أو مسجد أو مدرسة ـ بآسمه الشخصي سواء كانت في الأصل حبسا أو ملكية خاصة أو ملكية عمومية. وتقوم الأولى على مبدأ شرعي وصيغة قضائية. أما الثانية، فتقوم على مبدأ معنوي سواء أقرّه القانون أو لم يقره. إن الأوقاف الحية هي التي تبقى منفعتها جارية شريطة أن يكفلها التسيير السليم والكفاءة المناسبة. وأما الأوقاف المتحجرة، فإنها تبقى وقفا على آسم شخص"، و إذا هي أنتعشت، فليس ذلك من مال الأوقاف الجارية، وإنما من مصادر مالية أجنبية عنها. وحرمتها لا تختلف عن حرمة الأوقاف الجارية من حيث إنها هي الأخرى، "لا تباع ولا توهب ولا تورث".

وسنرى أن للسنوسي أوقافا من النوعين كالدور والحوانيت والرياض والعرصات وغلات الأرض وزيوت المعاصر بالنسبة للأوقاف الحية. وأما بالنسبة إلى الأوقاف الساكنة، فإن له مؤسسات يعرفها الناس بآسمه، كالمقبرة المركزية، والروضة، والمساجد، وبعض الأعمال الفنية. وسنكتشف في الفصل الثاني من هذا الباب وبالتحديد، في الجزء الأول من القسم الثاني، أن وضعية النوعين أضحت اليوم، واحدة من حيث إن النوع الجاري أصبح حاليا، ساكنا متحجرا، إن لم نقل ميتا.

أولا: الأوقاف الساكنة

وقبل أن نعرض محتويات النوع الأول، من المفيد أن نذكر بالأوقاف الساكنة التي حبّستها الذاكرة الشعبية على الشيخ السنوسي، ومنها خمس مؤسسات: المقبرة المركزية، والروضة، ومسجد درب مسوفة، ومسجد درب بني جملة، والمسجد الجديد، إضافة

إلى لوحة زيتية تعكس قبته و المقبرة المركزية التي تحمل اسمه(1) .

1ـ المقبرة:

كان لتلمسان عدد من المقابر، بعضها خاص بالملوك ـ ولا سيما ملوك بني زيان ـ وبعضها كان متروكا للعفوية والفطرة، وبعضها يغطي ناحية العباد السفلي (2) .

أ) مقبرة الملوك: يحددها المؤرخون تقريبا، في الجهة الجنوبية الغربية من الجامع الأعظم. وقد دفن بها ملوك بني زيان، وكذلك بعض مشاهير علمائهم (3) .

ب) المقابر المتروكة للتلقائية: وهي منتشرة في بعض الأحياء، وخاصة منها الكائنة خارج أسوار المدينة. فلم يكن من القوانين ما يلزم المرء بأن يدفن بالضرورة، في جهة معينة مخصصة لذلك إلا في العصور المتأخرة مع العثمانيين مثلا، والمعمّر الفرنسي .

ج) المقبرة المركزية: تقع بالعباد السفلي في الناحية الجنوبية الشرقية من المدينة على بعد حوالي 200 م من نزل الزيانيين، وتقدّر مساحتها الاجمالية بأكثر من عشرة هكتارات(4). وهي مقبرة، يقصدها عامة التلمسانيين للدفن بها والتبرّك بالشيخ السنوسي. ولقد دفنت بها شخصيات علمية وأدبية وسياسية، نذكر منها، فضلا عن الشيخ وروضته المتربعة بعين المكان، أحمد بن زكري و محمد القلعي، وسيدي محمد بن يحيى، وابن مسايب، ومصالي الحاج .

2ـ الروضــة:

---

(1) ويمكن ذكر درب السنوسي الكائن برياض الحمّار، والحمّام قُبالة درب مسوفة .

(2) هناك بعض المقابر التي ما يزال يستعملها الناس أو ما تزال بعض آثارها موجودا كمقبرة القصّارين، ومقبرة سيدي الدّاودي ، وإمامة، والكيفان، ومقبرة سيدي يعقوب الخاصة بالسلاطين .

(3) يقول عنها ابن مريم بأنها "روضة آل زيان". انظره البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص ، 66 .

(4) كانت هذه المقبرة في عهد السنوسي وبُعيْد وفاته، تعرف بمقبرة "عين وانزوتة" . ذكرها ابن مريم أكثر من مرة، في البستان .

تنسب الروضة إلى الشيخ السنوسي بمعالمها الأربعة: التراب المكشوف المسيّج، والمصلّى بمحرابه، ولقبة، والضريح. فالناس رجالا ونساء يقبلون على زيارتها أيام الجمعة بوجه أخص، وبأعداد قليلة تعد على الأصابع. وقد يأتي بعضهم في أيام الأسبوع، لتفقّد موتاهم أو للبحث عن مكان لمدفون جديد أو للدفن فوق قبور سابقة، ويمرون بالمناسبة، إلى باب القبة ليرموا ببعض النقود من شقة الباب التي صنعت لهذا الغرض.

وبالرغم من أن بعض ذوي الاحسان من الرجال والنساء، يملكون مفاتيح القبة (1)، ويقوم بعضهم من حين إلى آخر، بطلاء الجدران، إلا أن الروضة تبقى متروكة لصروف الدهر. فليس بها قيّم يسهر على صيانتها، ولا حارس يحرسها من الارادات السيئة. إنها معرضة للنهب والتخريب. ولقد وجدنا بعض آثار التسلل من النافذة الجنوبية إثر زيارتنا للضريح بغرض البحث والدراسة. إنها لأوقاف ساكنة ليس لها من مدافع سوى حراسة الذاكرة الشعبية.

3- المساجد:

أ- مسجد درب مسوفة:

بالاضافة إلى الدراسة الوصفية التي قدمناها عنه في بداية هذا الفصل، يمكن القول بأن هذا المسجد من الأملاك العمومية، وليس في الأصل، من الأوقاف الجارية. لقد شُيد قبل ميلاد الشيخ السنوسي. وأغلب الظن، أنه شيد في عهد يوسف بن تاشفين المرابطي أو بعده، على أساس أن السلطان المرابطي هذا، ألزم الناس ببناء مسجد أو مصلى بكل درب (2). ويخبرنا الرصاع (3) في فهرسته أنه درس بهذا المسجد "مبادئ القراءات" في مطلع القرن التاسع الهجري أي قبل أن يرى السنوسي الحياة بحوالي عشر سنوات (4). كما يخبرنا بأن هذا المسجد أقفر من

(1) أمثال، السيدة المنور، والسيد زرّوقي، والسيد م. باغلي.

(2) مجلة سيرتا، رواية ابن أبي زرع في القرطاس، عدد رقم، 03، ماي 1980. وليس أيضا، من المستبعد أن يكون الناس قد شاركوا في بنائه من غير أن يوقفوه على شخص أو سلطان.

(3) عبد الله الرصاع، الفهرست، ص، 14

(4) المطلع هو في الراجح، العشر سنوات الأولى أو ما يزيد عنها قليلا.

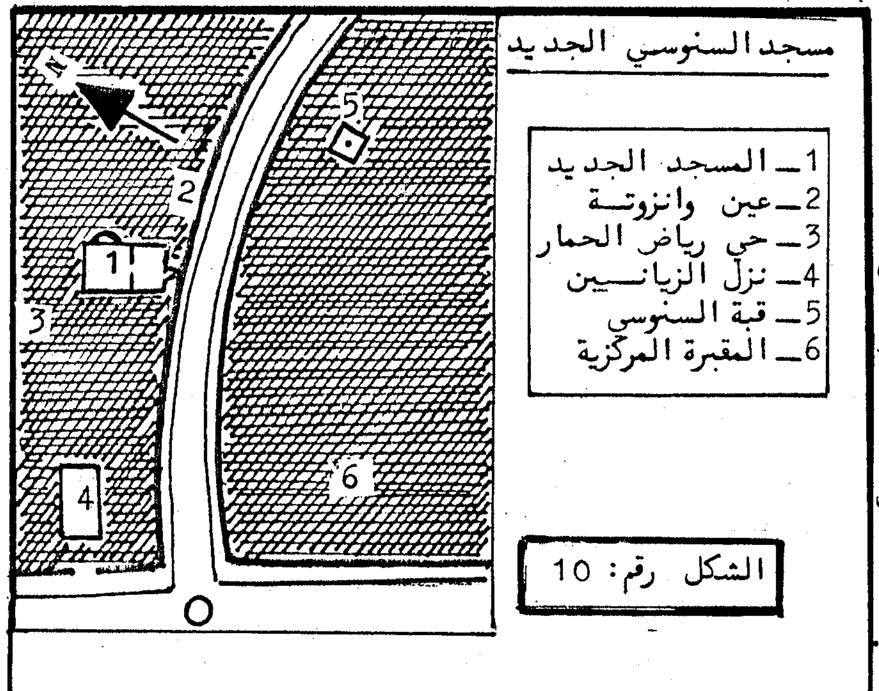
الوافدين عليه نتيجة وباء ضرب الحي . و من المحتمل جدا أن يكون السنوسي هو الذي أعاد له نشاطه بفضل الدروس التي كان يتولاها به . فأحبه الناس و استفادوا من علمه حتى ألحقت به الذاكرة الشعبية هذا المسجد ، فأصبح وقفا عليه وحده ، يشهد بوجوده و بركته .

ب مسجد درب بني جملة:

و من الأوقاف الساكتة التي أرادت الذاكرة الشعبية أن تعينها للشيخ، مسجد درب بني جملة . فهو حسب الرواية الشائعة كان جزءا تابعا لدار يكون قد ولد بها الشيخ أو على الأقل ، عاش فيها . و يستقيم أساس هذه الرواية، إذا سلمنا أيضا، بأنه يكون قد استعمل في حياته الخلوة المحايذة للمصلى و المطلّة على الدرب . وأنه ما كان ليتسنى له ذلك، لو لم يكن من المقيمين قرب الخلوة، مع العلم أن المرور محظور بهذا النوع من الدروب لغير ساكنها . و مهما كانت مصداقية هذه الرواية، فإن المصلى الذي ما يزال يحمل اسم السنوسي ، استحدث تبركا به بعد وفاته، و أنه ليس فيه من الأوقاف الحية، كما سنرى في القوائم الخاصة بهذا الشأن، إلا داران بجانبيه، و بعض الحانوت...

ج المسجد الجديد : مسجد سيدي محمد بن يوسف السنوسي :

و من المعالم الجديدة التي لم يفت الذاكرة الشعبية أن تسجلها لذكر الشيخ و تخليد اسمه، المسجد الجديد (انظر الشكل رقم 10). ويقع هذا الجامع بين المقبرة المركزية جنوبا وعين وانزوتة شرقا، وحي رياض الحمار شمالا، و نزل الزيانيين غربا . و لا يبعد عن ضريح السنوسي إلا بحوالي مائتي متر في اتجاه الجنوب .



الشكل رقم: 10

الشرقي .و هو مسجد ،استغرق بناؤه ثماني سنوات، و تمّ أفتتاحُه يوم 18/ 9/ 1986.
و تتربّع مساحته على 1000 م²، تقريبا.

هذا، وعند دخولك إليه، وقبل أن تصل قاعة الصلاة، تقابلك ساحة فسيحة يتوسطها صحن .وعند باب القاعة، يواجهك مدخل هو عبارة عن رواق معمد تعلوه ثلاثة أقواس، أعلاها القوس الأوسط .وواجهة هذا الرواق تغطيه قطع من الرخام الاصطناعي ذات اللون البني الداكن .في عمق كل قوس، يشدّ أنتباهنا بابٌ خشبي دقيق الصنع ذو مصراعين .و بالجهة اليمنى من المدخل، ترتفع مئذنة أنيقة و شامخة مصنوعة بالآجر الأحمر المركز.

تقدر مساحة قاعته بـ500 م²، و تسع حوالي ألف مصلٍ، وهي قاعة، تزاوجت في هندستها و تشكيلها، الأصالة و الحداثة: إن أستعمال المواد الحديثة كالإسمنت المسلح ، ساعد على تقوية بناء الأقواس، وعلى توسيع البلاطات من حيث العرض. إلاّ أن عدد هذه البلاطات جاء زوجيا ، فأضطرّ المصمم إلى تجنب بناء البلاطة (Travée) المركزية الحاملة للمحراب، وتعيّن عليه بالتالي، إحداث قبة فخمة مزخرفة و مخرمة فوق المحراب.

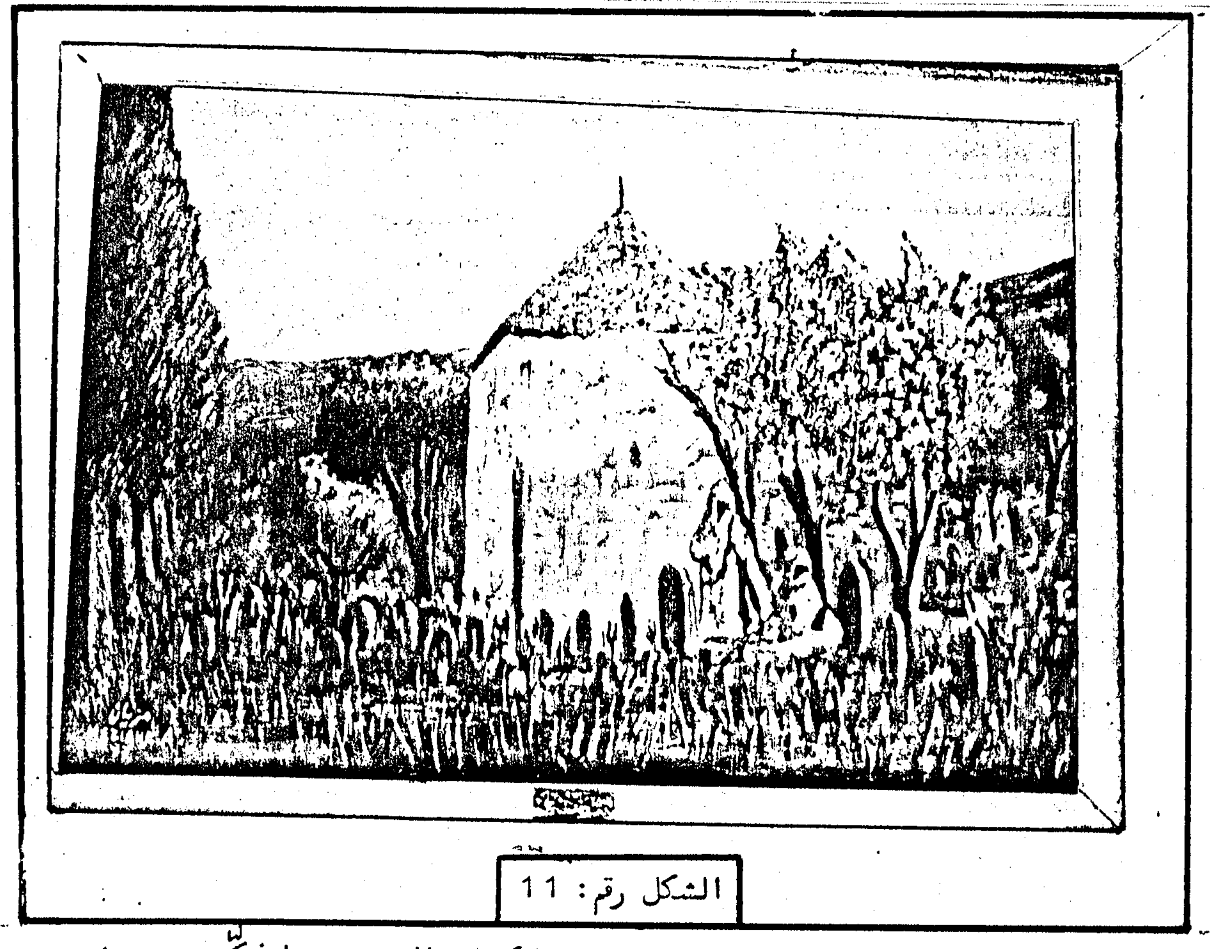
4- لوحة فنان:

لا تحافظ الذاكرة الشعبية على ذكر السنوسي من خلال هذه المعالم المألوفة فقط، فقد توكل الأمر إلى بعض الرسامين المحبين للتراث. وفي هذا الشأن، استطاع الفنان القدير، الأستاذ عبد الفتاح مزيان (1) أن يخزن كل السنوسي في لوحة يقول عنها المحنكون إنها روعة في الجمال وغاية في الصدق.

ولقد أكتشفت إنتاج هذا الفنان سنة 1982، و أنا أحاضر حول الشيخ في دار الثقافة بتلمسان، وكذلك في الذكرى المائوية الخامسة لوفاة الشيخ ، وكذا في السنوات التالية لها، بحيث لم تعد تحيا مناسبة في هذا الموضوع، أو يصعد محاضر إلى المنصة

---

(1) هو عبد الفتاح مزيان ولد عبد الله المدعو "سي محمد" ، ولد بتلمسان يوم 16/ 2/ 1931 .وقد أهداني هذه اللوحة، وهي الآن، يزدان بها بيتي .و أمنيتي أن تجد مكانها في المتحف البلدي . و له لوحة أخرى تمثل الطريق الموصل إلى الجزء الأخير من المقبرة، على يمينه، توجد قبة السنوسي .



الشكل رقم: 11

إلا واللوحة الزيتية الجميلة واقفة تستقبل المشاركين والمدعوين لتذكّرهم بموضوع اللقاء.

فاللوحة (60 سم X 90 سم) تعكس لنا مبنى القبة والروضة المحيطة بها، وتفقّد النساء لموتاهن بالمقبرة المركزية، وهي بذلك، تشير إلى أننا فعلا، بمقبرة الشيخ السنوسي والروضة التي ترعى ضريحه. (انظر، الشكل رقم: 11)

وما يزال يحتفظ الفنان بعدد من اللوحات التراثية التي رسمها لغرض الذكرى، وتزدان بالكثير منها، مؤسسات وبيوت.

ثانيا: الأوقاف الجارية

إن الوضعية التي آلت إليها الأوقاف الجارية اليوم، باسم السنوسي، لا تسمح لنا بتشخيصها العيني والميداني، لأن التحولات السياسية والاجتماعية التي طرأت على حياة الناس في أواخر الحكم العثماني، وخاصة في عهد الاستعمار الفرنسي، طمست حدودها وغيرت أشكالها وعبثت بنظامها، وأصبحت في غالب الظن، أملاكا تابعة

لأشخاص(1). وعليه، فإنه يتعيّن علينا، استنطاق الذاكرة الشعبية من خلال ما تركته من قوائم تشهد على أن الشيخ السنوسي، لم يشذ عن سنة الناس في تحبيس أرزاقهم عليه. ومن ذلك أنه على الجدار الذي يوجد على أقصى يميننا عند مدخل قاعة مسجد درب مسوفة، نلاحظ حجرتين رمليتين مسطحتين، مغروستين بالجدار، وعلى أستوائه، تعيّن كلتاهما الأحباس التي وقفها المحسنون على هذا المسجد. وفي قراءتهما، استعنا كثيرا بالنص الذي نقله وترجمه بروسلار في المجلة الافريقية (2)

وفيما يلي حبس مسجد درب مسوفة، نقدمها في قائمتين كما وردتا في الحجرتين مع بعض الاجتهاد في ترقيمها وضبطها تسهيلا للقراءة والفهم.

القائمة الأولى:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

أما بعد، فهذا تقييد حبس مسجد الشيخ البركة سيدي محمد السنوسي:

1- الأول من ذلك، دار المؤذن التي عند باب المسجد،

2- مع جميع الدار الكائنة في الزنقة الأولى من الدرب على يمين الداخل،

3- مع أربعة بيوت، ثلاثة تحت المسجد، وواحدة في الزنقة المذكورة،

4- مع نسختين كاملتين للبخاري،

5- مع سيدي إبراهيم الشبرختي في أربعة أسفار،

6- مع جميع الخرشي الأول في سفر واحد،

7- مع جميع التنبيه الكبير في سفرين،

8- مع سيدي الملالي،

9- مع نسختين لسيدي العروسي في سفرين،

10- مع ثمانية سكك على من يقرأ سيدي البخاري في المسجد، منهم في واد

---

(1) لقد طمست السلطة الفرنسية هذه الأحباس يوم أصدرت قانونا سنة 1904، وبمقتضى هذا القانون أيضا، ضمت إليها جميع الأحباس.

(2) Revue africaine, "Inscriptions arabes de Tlemcen retour à Sidi Senouci: inscription de ses deux mosquées", v° année, n°29 Sep.1861.

العطشان سكتين تسمى بونخال، وستة في واد الزيتون: سكتين تسمى حيام، وسكتين تسمى أنعرفة، وسكتين تسمى حمزة بن منصور".

11- مع جميع الربع في روض الغزال في قصر الشعرة،

12- مع رقعة سيدي بوسعيد،

13- مع سكة في واد العطشان تسمى زوج الروضة،

14- مع فرد في المغيـمـم في الخرب شركة جامع ابن مرزوق،

15- مع سكتين تسمى بونكولن في سكاك،

16- ثم فرد يسمى تراد الروح في سكاك،

17- مع خمس في الحوز الغربي يجاور بلاد العـنفوف ولبلاد الشول،

18- مع سكتين في الجمعة تسمى فرد السدرة،

19- مع سكتين في الجمعة، تسمى الصفصافة،

20- ثم فرد فيها أيضا، يسمى تاجديرت شركة أولاد سيدي الرايح،

21- مع فرد في الصنصال شركة جامع درب الشول،

22- ثم سكة في الجمعة، تسمى طبال شركة حي بن شعبان،

23- مع سكتين في الولجة، تسمى تانحرورت،

24- مع الأفران في الولجة،

25- سكتين مع فرد في خيدر الكبير في الولجة،

26- مع سكتين في المقامات تسمى تاذلونيت،

27- سكة في الطلحاوية شركة أولاد سيدي أحمد بن يوسف في تادمايت عـزة فـاتح،

28- سكتـين في آعمـير،

29- مع مفتاح سكتين عند جب آرفاف،

30- مع سكة في العنبر تسمى تاوسارت شركة بن دالي يوسف،

31- مع سكة في الولجة تسمى الشريف شركة ابن الزرقة أوعـراب،

32ـ سكة و فرد عند مطمر سيدي العبدلي ،

33ـ مع سكة تسمى آمنة في المغادر الحمر،

34ـ مع فرد في تيداغ عند جب الكرمة شركة ابن دالي يحيى،

35ـ مع سكة في حاسي مرسوط تسمى تازداية شركة ابن آباجي،

36ـ مع سكة وفرد بزدّيقة تسمى غيوش،

37ـ مع فرد في بجرار يسمى عمر بن عبد الله شركة ابن الحاج ابراهيم،

38ـ مع فرد في داود بن على شركة ابن التركية في الصفصيف،

39ـ مع ثلاثة أرباع في روض عزوز في الصفصيف،

40ـ مع جميع الحانوت المجاورة لحانوت العوام،

41ـ مع جميع الحانوت الكائنة بإزاء حانوت بوهدة، بينهما حانوت مما يلي المغرب،

42ـ مع جميع الحانوت التي تقابل شوكة صوّر الفندق من جهة حانوت بوهدة،

43ـ مع حانوتين إثنتين ملاصقتين لباب زنقة الغرابليين مما يلي القرّان،

44ـ مع جميع الحانوت التي في الخراطين الثانية على يسار الهابط من جهة السماط في الزنقة الوسطية،

45ـ مع نصف حانوت في السراجين شركة ابن سار مشيق ،

46ـ مع جميع الحانوت التي تقابل باب القيسارية،

47ـ مع جميع العرصة الكائنة بصفاح الكاتب تجاور روض ابن حبيب،

48ـ مع رطل زيت في دار الحاج علي بيجي، كل سنة .

القائمة الثانية:

بسم الله الرحمن الرحيم .

فمن ذلك:

1ـ جميع دار العباس مجاورة لدار الدراق،

2ـ مع نصف دار البادية في زنيقة الباروديين مجاورة لدار ابن شقرون،

3- ونصف حانوت ابن عزي سعيد في التماقين،

4- مع جميع عرصة الغزال مجاورة لعرصة ابن تعطميت في باب الزاوية،

5- مع الثمن في عرصة الحفرة في القلعة قبالة باب الحديد،

6- مع الثمن في روض ابن تاوزينت في الكيبر المجاور لروض ابن مراد،

7- مع روض في وسيقن قسيم عياد وقدور،

8- مع ربعية زيت في السنة،في روض الشويخ عند مدشر بوهددة من حبس ابن خضر،

9- مع ربعية زيت في السنة،في روض الغدير في مدشر ابن مرزوق من حبس ابن مراد،

10- مع ربعية زيت في روض ابن مالك كل سنة،حبس آعراس،توقد على ضريح الشيخ،

11- وفرد سكة عزوز الكائنة بين الطريقين على حد واد الزيتون من المشرق،

12- مع سكة فرد اسكندر عند خروبة ابن حسنة،

13- مع سكة بطيطا أنسدة تسمى ميمون أتعاطت،

14- مع فرد من سكتين في سكاك،تسمي تمزلاقت تحت الماء،

15- مع سكة بالحورة تسمى خلوف الكبير،

16- مع سكة وحدّها أفخار قرب سيدي صالح حبس القائد حسن،

17- مع سكة في أُوفاتح شركة الحاج أحمد بن إبراهيم،

18- مع سكة في آعمير شركة حسين ابن بابا أحمد،

19- مع فرد الفغال في القعدة،شركة مسجد درب الحجامين،

20- مع سكة أبرادعي في سيدي سليمان شركة ابن خذ الوردي،

21- مع سكة عطية في الجمعة،شركة محمد ابن الحاج سليمان ،حبس بنت بن مصطفى ،

22- مع سكة فرد آستارة في الجمعة،شركة ابن شعبان،

23- مع سكة تاسة الصغيرة بالجمعة، حبس بن قاصد علي،

24- مع فرد في البغيلة تحت بن عياد، شركة بنت بن مراد،

25- مع الثلث الواحد في البغالي من سكتين،

26- مع سكتين في تسبداوت،

27- مع فرد للحزابين في الجامع العتيق،

28- سكة و فرد للشيخ السنوسي في المغادر الحمر،

29- مع سكة اقعيد في الرمشي، حبس بن شوشكو إبراهيم،

30- مع سكة في الرمشي عايشة، حبس البصال،

31- مع النصف الواحد في روض بن خضر في صفاح بوروبة مجاور لروض امسايب،

32- مع سكة في الولجة الكائنة بـ تسديين مجاورة لـ زوج الساقية و لأم العيال، وتاوسارة و تجاور القبر.

أما قائمة حبس مسجد درب بني جملة، فإنها كانت موجودة بالمسجد نفسه، وقبل استقلال الجزائر، إلا أنها اختفت و لم يبق منها سوى النص الذي سجله بروسلار في المجلة الإفريقية (1)، و هو كما يلي :

هذا تقييد حبس جامع سيدي محمد السنوسي بـ بني جملة، له:

1- داران بإزائه، واحدة فوقه، و الأخرى ملاصقة به،

2- له نصفان في حانوتين،

3- و نصف طارمة بإزاء المدرس،

4- ثم باب افتح سكتان في دوي يحيى .

وهكذا، فلقد ثبت كما نرى، أن السنوسي يشغل حيزا في المخزون المادي للذاكرة الشعبية، تعيّنه له أوقاف ساكنة و تتمثل في روضتين، كبرى و صغرى، و قبة و ثلاثة مساجد و لوحة فنية وغيرها، و أوقاف جارية تعيّنها قوائم سنحللها في الفصل الثاني من هذا الباب.

هذا عن المخزون المادي، فماذا عن المخزون الاجتماعي و الشفوي ؟

Revue africaine, n°29, année 1861. (1)

القسم الثاني : دراسة وصفية للمخزونات الاجتماعية والشفوية

الجزء الأول : السناوسة و نماذج من أسر حافظة لذكر السنوسي

الجزء الثاني: خوارق و معتقدات

الجزء الثالث: السنوسي في الشعر الشعبي، و المثل الشعبي

مقدمة القسم الثاني

إن الاهتمام بالسنوسي في مستوى الذاكرة الشعبية، يحملنا أيضا، إلى استنطاق مخزونها الاجتماعي والشفوي. ولهذا، فلاشك في أن دراسة عائلة "السناوسة"، وبعض النماذج من أسر حافظة لذكر الرجل، والإصغاء إلى ما يروى عنه من كرامات وخرافات، وأساطير ومعتقدات، وتتبع ما ينشده الناس في شأنه من شعر شعبي وما ألِفوه من أمثال، سيمكننا كل ذلك، من معرفة المركز الذي يحتله في هذا المستوى، والصورة التي يتقدم فيها لدى الناس. وعليه، يتعين علينا، الوقوف عند عناوين ثلاثة وهي: أولا، السناوسة ونماذج من أسر حافظة لذكر السنوسي، ثانيا، خوارق ومعتقدات، ثالثا، السنوسي في الشعر الشعبي والمثل الشعبي.

الجزء الأول : السنـاوسة و نماذج من أسر حافظـة لذكر السنوسي

أولا : مـا معنى " سنوس" ؟

ثانيا : ما أصـل بني سنوس، و أين أوطـنوا ؟

1ـ أصلـهم

2ـ أحوالهم الاجتمـاعية و السياسيـة

ثالثا : العائلات السنوسـية و العائلات المحافظة على تراث الشيخ السنوسي

1ـ الشجرة العائلية الخاصة بالسناوسة

2ـ شجرة بعض العائلات أو الأسماء المحافظة على ذكر السنوسي و تراثه

إن الحديث عن العائلات السنوسية تثير الكثير من التساؤلات من حيث ارتباطها بالشيخ ابن يوسف السنوسي، ومن حيث الانتساب إلى بني سنوس كأصل أول. هذا، وخشية الوقوع في شبكة التخمينات المجردة، انتقينا من المصادر الحية نماذج ممن يتوفر على شرط الاعتقاد أو الثقة في الرواية. وعلى هذا الأساس، أقمنا الكلام على شجرة بني سنوس وما يتفرع عنها من عائلات. فصنفنا هذه العائلات طبقات، وخصصنا لبعض العينات منها ولغيرها حديثا. كان لنا فيه، أن نسأل:

ما أصل سنوس؟ ومن هم أهلها الأصليون؟ وبأية منطقة أوطنوا؟ وماذا بقي منهم اليوم، من عائلات؟ وكيف استطاعت بعض الأسر التلمسانية وغيرها الحفاظ على ذكر السنوسي؟ وهل للانتساب الشريف دور في هذه المهمة؟

أولا: ما معنى "سنوس"؟

إن أصل الكلمة روماني، ومعناها "مربض الحمير" (Assénius) (1). وفي

(1) على حد تحليل السيد الغوثي شريف رئيس بلدية تلمسان الأسبق، وأحد المهتمين بتراث المدينة. (لقاء معه في شهر نوفمبر 1992).

عبارات لاتينية ما يشبه هذا التركيب في المعنى ، وهو المكان حيث يقع الاحتكاك بين الدواب بسبب وجود بعضها قريبا من بعض، Asinus asinum Fricat أي بالحرف الواحد: الحمار (1) أو الجحش يحك الجحش.

ثانيا: ما أصل بني سنوس، وأين أوطنوا؟

1- أصلهم بربري يعود إلى منابت واسينية زناتية. وبنو سنوس قبيلة تقطن بجبل يسمى "آسنوس" أو "أسنوس" (2) الذي يبعد عن مدينة تلمسان بحوالي 40 كلم. (انظر، الشكل رقم: 12). وعلى هذا الأساس، وقعت نسبة كل مقيم بهذه المنطقة إلى جبل اسنوس بحيث يكون إسم الواحد على الشكل التالي:

سنوسي ـ سنوساوي ـ ابن سنوس

ويكون الجمع على الصورة التالية:

سنوسيون (أو سناوسة) ـ بنو سنوس ـ سنوساويون (أو سنوساوة).

ويبدو أن هذه الأسماء العائلية المنسوبة إلى "اسنوس" أو المشتقة منها أخذت تنتشر وتتفرع وتتشكل في تراكيب جديدة، مع دخول العرب وانتشار لغتهم نظرا إلى كون قاعدة النسب اللغوية على الشكل الذي رأيناه، هي من صميم اللغة العربية.

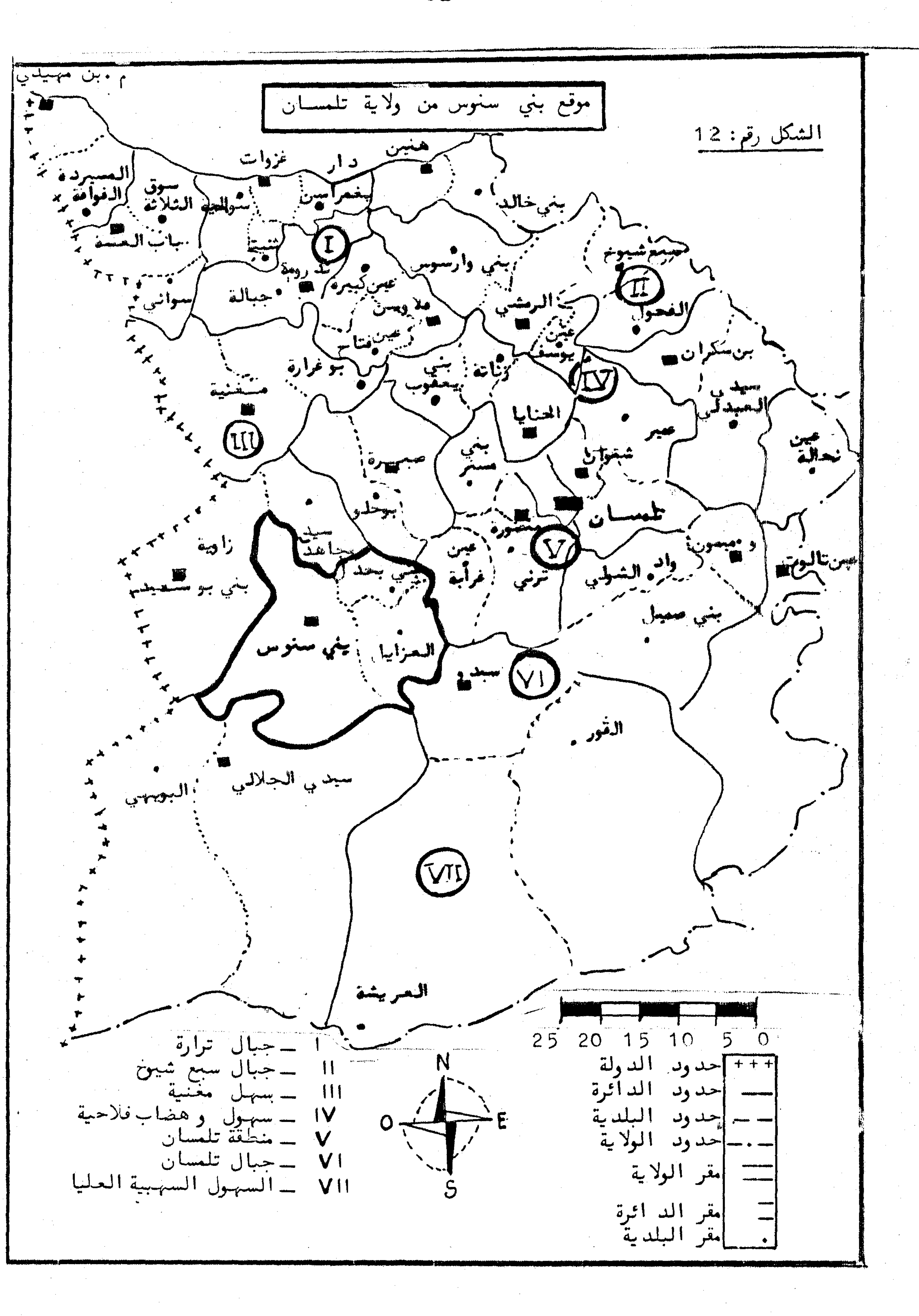
والمقيمون بجبل "اسنوس" هم في الواقع، فخذ من قبيلة بربرية يقال لها كومية (3). وعلى هذا الأساس، لا تكون قبيلة بني سنوس عبد وادية ولا مغراوية ولا مرينية.

---

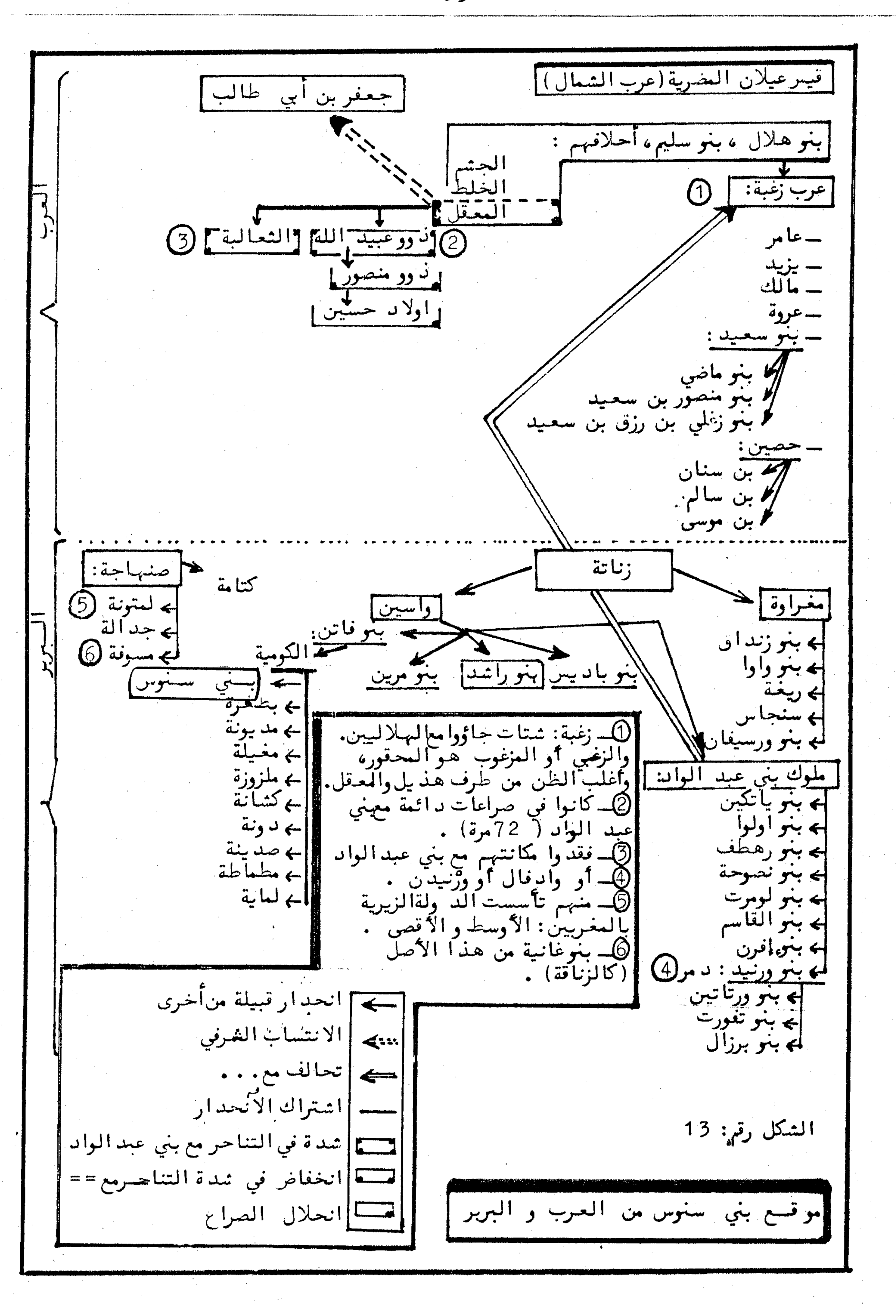
(1) كان الحمار يمثل عند الملوك، وفيما بين دول، مثل المغرب الاسلامي والمشرق الاسلامي، موضوع هدايا محترمة. ويذكر المؤرخون، أنه في طريق عودته من المشرق إلى بلاد المغرب اتصل ابن تومرت بالثعالبة، عرب الجزائر الذين كانوا أولى القبائل التي ناصرت الدعوة الموحدية، وأهدت له حمارا فارها ... وقد أهداه المهدي بدوره لعبد المؤمن الذي سيصبح خليفة الموحدين. انظر، مصطفى أبو ضيف أحمد عمر، القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص: 71).

(2) عبد المالك بن عبد القادر بن علي، الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية الحاكمة بليبيا، القسم الأول، مط. دار الجزائر، دمشق، بدون تاريخ، ص: 07.

(3) عبد المالك بن عبد القادر، نفس المصدر، ص: 07. وينطق بعضهم بالقيم بدلا من الكاف ولا علاقة لهم بلفظ القومية الذي شاع استعماله في عهد الحكم الفرنسي.



موقع بني سنوس من ولاية تلمسان
الشكل رقم: 12
م • بن مهيدي
هنين
دار
غزوات
المسيردة
الفواقة
سوق
الثلاثاء
باب العسة
بني خالد
بني وارسوس
سبع شيوخ
الفحول
الرمشي
عين يوسف
بن سكران
سيدي العبدلي
عين نحالة
جبالة
عين كبيرة
ملاوسن
عين فتاح
بو غرارة
مغنية
بني
يعقوب
زناتة
الحنايا
عمير
شتوان
بني مستر
صبرة
بوحلو
تلمسان
منصورة
عين غرابة
ترني
واد الشولي
بني صميل
عين تالوت
زاوية
بني بو سعيد
سيدي مجاهد
بني بهدل
بني سنوس
العزايل
سبدو
القور
سيدي الجلالي
البويهي
العريشة
I
II
III
IV
V
VI
VII
25 20 15 10 5 0
I ـ جبال ترارة
II ـ جبال سبع شيوخ
III ـ سهل مغنية
IV ـ سهول و هضاب فلاحية
V ـ منطقة تلمسان
VI ـ جبال تلمسان
VII ـ السهول السهبية العليا
N
E
S
O
حدود الدولة
حدود الدائرة
حدود البلدية
حدود الولاية
مقر الولاية
مقر الدائرة
مقر البلدية



قيس عيلان المضرية (عرب الشمال)
جعفر بن أبي طالب
بنو هلال ، بنو سليم ، أحلافهم :
الجشم
الخلط
المعقل
عرب زغبة :
ذوو عبيد الله
الثعالبة
ذوو منصور
اولاد حسين
عامر
يزيد
مالك
عروة
بنو سعيد :
بنو ماضي
بنو منصور بن سعيد
بنو زغلي بن رزق بن سعيد
حصين :
بن سنان
بن سالم
بن موسى
العرب
زناتة
صنهاجة :
كتامة
لمتونة
جدالة
مسوفة
واسين
بنو فاتن :
الكومية
بني سنوس
بنو مرين
بنو راشد
بنو باديس
مغراوة
بنو زنداق
بنو واوا
ريغة
سنجاس
بنو ورسيفان
ملوك بني عبد الواد :
بنو ياتكين
بنو اولوا
بنو رهطف
بنو نصوحة
بنو لومرت
بنو القاسم
بنو افرن
بنو ورنيد : د مر
بنو ورتاتين
بنو تغورت
بنو برزال
مديونة
مغيلة
ملزوزة
كشانة
دونة
صدينة
مطماطة
لماية
البربر
1 - زغبة: شتات جاؤوا مع الهلاليين. والزغبي أو المزغوب هو المحقور، وأغلب الظن من طرف هذيل والمعقل.
2 - كانوا في صراعات دائمة مع بني عبد الواد (72 مرة) .
3 - فقدوا مكانتهم مع بني عبد الواد
4 - أو وادفال أو ورنيدن .
5 - منهم تأسست الدولة الزيرية بالمغربين: الأوسط و الأقصى .
6 - بنو غانية من هذا الأصل (كالزناقة) .
انحدار قبيلة من أخرى
الانتساب الشرفي
تحالف مع . . .
اشتراك الانحدار
شدة في التناحر مع بني عبد الواد
انخفاض في شدة التناحر مع ==
انحلال الصراع
الشكل رقم: 13
موقع بني سنوس من العرب و البربر

إنها حسب التنقيبات التي قمنا بها، من " واسين الكومية " أقرب أبناء عم بني مريـن. ولعل فكرة إرجاع أصل القبيلة إلى أصل مغربي، تجد هنا ما يبررها. وهي فكـرة، تناقلها رجال السير والتراجم عن عبد الله الملالي، تلميذ الشيخ السنوسي. (انظـر، الشكل رقم: 13).

ومع ذلك، فإن للذاكرة الشعبية ما ترويه في الأمر". يقول الأستاذ الغوثي بسنوسي (1) حسب ما سمع: إن فيما يتعلق بالأصول الأولى، قولين، الأول يرجع الجد الأول إلى الشيخ محمد بن يوسف السنوسي عالم التوحيد". أما الثاني، فيرد الأصل إلى شخص عاش وقت الأدارسة. ومما يؤيد الرواية الأولى حسب أصحابها، أن هناك من يملك مـن السناوسة، شجرة الأنساب لبني سنوس. إلا أن الوثيقة لم تصل الأستاذ. وفي القول الثاني، تذهب الرواية إلى أن الجد الأصلي كان قاضيا، بعثه الأدارسة إلى منطقة تاسالة بولاية سيدي بلعباس، حيث نزل وأقام. ومما يؤسس هذا الكلام أمران:

1- إن المنطقة، ما تزال بها، بعض العائلات اليوم، تحمل اسم القاضي " السنوسـي " هذا، كلقب عائلي أو كإسم شخصي تضيفه إلى ألقابها.

2- ولأهل تاسالة - رجالا و نساء - ملامح خاصة يعرفها المتفرس المحذق.

وإذا كنا نعلم أن العودة إلى التاريخ لا تفيدنا بالمقدار الكافي في هـذه القضية، فإنه يتعين علينا الاجتهاد في جمع شظايا الأخبار المتفرقة لنـنظر إليهـا من أعلى و في كل اتجاهاتها وامتداداتها، و نتـتبعها عموديا و أفقيا. وإذا استطعنا الوقوف على الخيط الأساسي للنسيج الاجتماعي لهذه القبيلة، تمكـنا من تـوضـيح الرؤية تدريجيا.

2- كان بنو سنوس - على حبهم للاستقرار - غير مستقرين بسبب الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي سادت المنطقة". فكانوا سهما للحسـد والاحتقار. ومع ذلك، كـانوا مهذبين، وعاشوا مسالمين على العفة والحياء.

---

(1) عـن لقاء مع الأستاذ يوم، 23/ 01/ 1996.

يذكر المؤرخون أن بني عبد الواد حالفوا القبائل العربية التي استقرت بالمغرب الأوسط، خصوصا بطون عرب زغبة كـ" يزيد، وحصين، و مالك، وعامر، وعروة". واستقروا ما بين المسيلة و قبلة تلمسان في القفار. و بعد سيطرة بني عبد الواد على المغـرب الأوسط، وانتشارهم في مدنه و أمصاره، انتقلت زغبة إلى التلول و أخضعوا أهلهـا، وفرضوا عليهم الإتاوات و حالفهم زناتة و اقتسموا بلاد المغرب فيما بينهم (1).

واستقر ذوو عبيد الله -على إثر شبه مصالحة مع العبْداويين- بالتلول، و ملكوا وجدة و أقطعتهم الدولة الزيانية جباية البربر المستقرين بجوارهم مثل بني سنوس، إلى جانب ما فرضوه عليهم من إتاوات و وضائع. لقد فرضوا عليهم، ضريبة على الطريق فيما بين تلمسان وهنين على الساحل أطلقوا عليها ضريبة الإجازة. فلا يمر بالطريق مسافر إلا بتصريح منهم، بعد تسديد الضريبة المقررة. وكان موطنهم بين تلمســان و وجدة إلى مصب وادي ملوية في البحر. و بجواره شرقا، بنو عامر من هلال و بين القبيلتين حروب (2).

و لقد اشتكى ابن قنفذ و عبد الباسط بن خليل من هذه الظاهرة في قطـع الطرق (3). وكان المنبوذ من طرف الزيانيين، يطرد و ينفى إلى جنوب تلمسان.

و بعد أن تمكن بنو عبد الواد من تأسيس ملكهم بتلمسان، ألحقوا بخدمتهـم عرب المنبات و هم من الأحلاف، من ذوي منصور من المعقل (4)، و خاصة أولاد

---

(1) مصطفى أبو ضيف، القبائل العربية ...، ص: 154-155.

(2) مصطفى أبو ضيف، ن. م.، ص: 165. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر، مكتبة النهضة الجزائرية، ج. 2، بدون تاريخ، ص: 159.

(3) مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ش. و. ن. ت. الجزائر، 1976، ص: 857.
R. Brunschvig, Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord du XV° siècle: Abad' Lbâsit B.Halfl et Adorne, Larose Editeurs, Paris V°, 1936, p. 42, 52.

(4) ذوو منصور هم أكثر أهل المعقل جمهورا، وأولاد حسين هم أكثر ذوي منصور عددا و أعزهم جانبا.

حسين ـ المستقرين بنواحي سجلماسة ـ الذين انتقلوا بآسم التحالف، من العمارنة والمنبات إلى ضواحي تلمسان حيث وقع إقطاع الأراضي و تحققت المؤاخاة بينهم و بين بني عامر من زغبة(1) .

ولا يعود سبب الاستصغار من السناوسة إلى هذا التحالف بين الزيانيين وعرب زغبة أو ذوي عبيد الله من المعقل فقط، بل إنه يعود بنا أيضا، إلى دخول الهلاليين المغرب الأوسط.

عندما غلب بنو هلال صنهاجة وزناتة، نشأت في البلاد فوضى وحالة من عدم الاستقرار. فآنقطعت الصلة بين المدن بإخافة السبل. وفرّ من القبائل، الرحالة وآنسحب من قلب الأرض، الفلاحون في الضواحي، وانقطعت الأخبار واختلط فيها الرث والثمين.

والذي نتج عن هذه الفتن، هو ضعف قبيلة وآستعلاء أخرى. فتضطرّ الضعيفة، إما إلى الجلاء إلى ناحية أخرى، أو إلى الاحتماء بقبيلة أخرى. فتضع القبيلة الحامية على المحمية، عربية كانت أو بربرية، ضريبة معلومة يسمونها خفارة أو غفارة. و يذكر المؤرخون أن جيران بني سنوس في الجهة الشمالية الشرقية، وهم من بني هذيل العربية، يسخرون منهم باللمزة(2) كما يشير إلى ذلك، ابن خلدون و ألفريد بيل(3) .

---

(1) في فترات ضعف الدولة الزيانية، كان عرب المنبات ملجأ لشيوخ العرب الخارجين عن طاعة الدولة والمطرودين من أمراء بني عبد الواد من بلادهم، تلمسان. انظر للتفصيل، مصطفى أبو ضيف، ن م.، ص: 157ـ165 .

(2) ومهما آدعى عبد المؤمن الكومي بأنه من قيس عيلان، فإن بني هذيل المجاورين لبني سنوس، لا يتعاملون معهم بأخلاق العصبية للعرب ولا بأخلاق الجورة.

(3) تاريخ العلامة ابن خلدون، الكتاب اللبناني، 1959، المجلد السادس، القسم الأول، ص: 180؛ أ. بيل، الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عن الفرنسية، عبد الرحمن بدوي، (ظهر في الأصل سنة 1938)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981، ص: 434.

ولعل هذا من الأسباب التي دعت الأستاذ عبد المجيد مزيان إلى القول بأن بني سنوس مجموعة سكانية من القرى النصف حضارية،عريقة في التاريخ والتمدن(1). وحسب بعض الروايات،فإن اليهود منذ زمن بعيد ــ وخاصة في عهد الرومان ــ دخلوا منطقة بني سنوس،وبوجه الدقة قرية تافسرا،حيث كان شغلهم الشاغل السهر على إخراج الحديد من باطن الأرض وتسويقه عن طريق باب الحديد،أحد أبواب مدينة تلمسان. ولا تستبعد الرواية أيضا،وجود النصارى بالمنطقة نظرا لاحتمال وجود معالم أثرية تدل على آثارهم(2)". ويفسّر استعداد بني سنوس للإسلام قبل الإسلام، بالنظر إلى تعاملهم مع أهل الكتاب،ونظرا الى كون الكومية قبائل مستقرة يعرف أفرادها بتمسكهم بالأرض.

ولا يعرف عنهم أنهم كانوا نسّابين إلا في بداية القرن الخامس عشر الميلادي حيث كان السناوسة،أمثال بويدر وعبد الرحمن والشيخ ابن يوسف،يعتنون بذكر أخبار الأولياء وسيرهم.

ولم يذكر التاريخ أنهم كانوا ذوي أطماع سياسية. فلقد خدموا الأرض وصاهروا عائلات فلاحية مجاورة،وخاصة في العهد العثماني. ونظرا إلى استقرارهم وحبهم للأرض،تشبثوا ببعض العادات البربرية الرومانية مثل عادة الاحتفال بعيد قلب الأرض يوم 13 جانفي ،وهوالمعروف بالناير(3)، وهو رمز الاعتزاز بالتراب،مكان الاقامة.

وينتشر بنو سنوس في الناحية الغربية الجنوبية من مدينة تلمسان على دائرة الخميس وبلديات،منها بلديتا العزايل وبني بحدل (انظر،الشكل رقم: 12).

---

(1) جمال الدين بوقلي حسن،الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1985،تعليق في الصفحة،55.

(2) فالمسجد القديم ببني سنوس يثير تساؤلات في شكله واتجاهه.

(3) يقول المثل الشعبي: "كي يجي الناير،يفطن الفرد الحاير،وكي تولّي الورقة قدّ وذنين الفار،يتوسط الليل مع النهار". والفرد الحائر يستيقظ بعد شهور من العطلة ليشارك الناس فرحتهم ويشاركهم فلاحة الأرض. انظر،جمال الدين بوقلي حسن،ما سمعته في تلمسان من مقال،من قيل وقال وما فيهما من أمثال،سحب ثانوية ابن زكري،1989،حرف الكاف.

أما الخميس، فتضمّ قبائل وعائلات المنزل، و بني حمو، و أولاد موسى ، و أولاد العربي ، و بني عاشر، و سيدي العربي ، و مازر، و أولاد بوشامة، و بن زيدن ، و القصبة .

أما بلدية العزايل ، فتشتمل على الزهراء ، و الثلاثة، و تافسرا ، و مصعد الحنثر.

وفي بني بحدل نجد، طاسا و كدارة وعين بوداود .

ثالثا: العائلات السنوسية و العائلات المحافظة على تراث الشيخ السنوسي:

يمكن في هذا الإطار، تصنيف هذه العائلات إلى شجرتين: الشجرة العائلية السنوسية وشجرة بعض العائلات أو الأسماء المحافظة على ذكر الشيخ و تراثه. و تمثل كلتيهما، طبقتان .

1 - الشجرة العائلية الخاصة بالسناوسة:

أ - طبقة العائلات المعاصرة للشيخ :

من الأسماء التي يذكرها أصحاب السير، و تكاد تغيب عن الذاكرة الشعبية، أربعة أعلام:

الأول، الشيخ بويدر بن السنوسي، **الذي كان** عمدة في إمداد الرواة بالأخبار و مصدرا ينهل منه التلامذة في سرد الأحداث و المسموعات (1) .جاء في البستان: "يقول سيدي عبد الرحمن السنوسي، أنه حدثني الشيخ الصالح سيدي بويدر بن السنوسي". (2)

الثاني، عبد الرحمن السنوسي المعروف بالرقعي صاحب كتاب "فتح الجليل في أدوية العليل" (3) .وكان هذا الرجل المرجع الذي يعول عليه علي التالوتي أخو الشيخ ابن يوسف السنوسي لأمه، في رؤيته الأولياء و فتوحاته. وكان الشيخ السنوسي يروي بدوره عن أخيه هذا، فضلا عما كان يخبره به والده أبو يعقوب يوسف. (4)

---

(1) وخاصة منهم عبد الرحمن السنوسي المعروف بالرقعي .

(2) ابن مريم، البستان، ص: 35-37 .

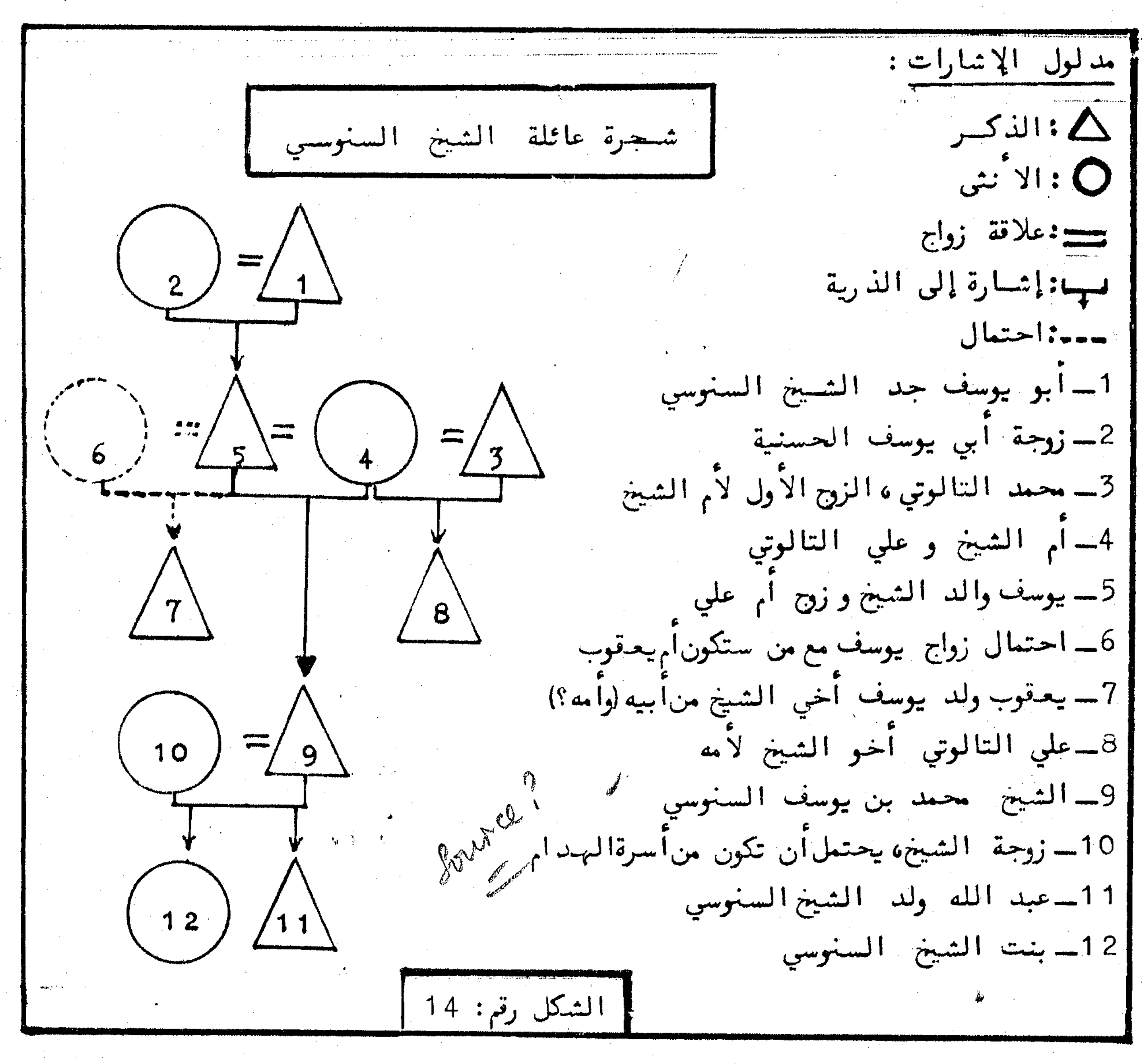
(3) ابن مريم، البستان، ص: 314 ؛ أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، جزآن، الأنيس، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991، ج : 1، ص: 178 .

(4) جاء في البستان، في كلامه عن الغماري : " ...هذا ما سمعناه من شيخنا سيدي عبد الرحمن السنوسي"، ص: 33 .

الثالث، محمد بن يحيى السنوسي المعروف بعلمه الواسع، وخاصة في علم التوحيد، لقد كان عارفا به ومدرسا له.

العلم الرابع هو محمد بن محمد بن يحيى السنوسي، اشتهر بالوجد يجي وهو ابن محمد بن يحيى السابق الذكر. أخذ عن والده التوحيد، وله قدم في الولاية. (1)

هذه بعض العائلات من الرواة والمحافظين على التاريخ، ذكرناها ليس لوجودها في كتب السير والتراجم، بقدر ما هو لبقاء بعض آثارها في ذاكرة الناس اليوم؛ وقبل أن نعرض الطبقات الباقية، يكون من المفيد أن نرسم شجرة عائلة الشيخ حيث يتضح فيها أمران: النسب الشريف، وفقر المعلومات الخاصة بأفرادها. (انظره الشكل رقم: 14)



الشكل رقم: 14

(1) ابن مريم، البستان، ص: 265 .

ب- طبقة العائلات أو الأسماء الحالية:

نصنف هذه الأسماء ونرتبها حسب قربها من كلمة "اسنوس" في الاشتقاق والنسبة، ونختمها بالحديث عن الأسرة الملكية الحاكمة بليبيا.

الفئة الأولى:

1- سنوس و هي العائلات التي حافظت على أصل الكلمة كما هي والتي تنتشر في مناطق القطر الجزائري، و خاصة في تلمسان، أولاد ميمون، وهران، سعيدة، والمحمدية.

2- سنوسي وهي العائلات التي تنسب نفسها إلى منطقة سنوس، و انتشارها عبر الوطن أوسع من العائلات الأولى. ومن المدن التي تقيم فيها، نذكر تلمسان، ندرومة، سبدو، الحنايا، عين تموشنت، العامرية، عين فكان (ولاية معسكر)، مستغانم، أرزيو، عين الترك، غليزان، سعيدة، سيدي بلعباس، تيارت.

3- سنوسي أول: ونظرا إلى اتساع النسيج العائلي لدى السناوسة وتعقده، فصلت الإدارة الفرنسية بين "فرق" داخل العائلة الواحدة فأعطت رقم (1) لهذا، و رقم (2) لذاك، و أصبح تسلسل الذرية ينضوي تحت هذين الرقمين.

4- سنوسي ثان وهي الفرقة العائلية التي تشترك مع سنوسي أول في الجد الواحد، وكلتاهما معروفة في مدينة تلمسان.

5- سنوسي خليفة، هي أيضا، تنتمي إلى سنوس، إلا أنها تريد لنفسها أن تتميز عن الأخريات بهذا الاسم المركب. ولعل الاسم الثاني هو الاسم الشخصي الذي حمله رب العائلة المنجاب، وهي معروفة في أولاد ميمون.

6- سنوساوي، وهي اسم العائلات التي تنتمي إلى من ينتمي إلى "اسنوس". نقول: سنوسي نسبة إلى سنوس، وسنوساوي نسبة إلى سنوسي. وهي منتشرة في تلمسان و سبدو و ندرومة و وهران و بلعباس.

الفئة الثانية:

إذا كانت بعض الأسماء قد تعربت من حيث انتسابها إلى المكان أو إلى العائلة في

الفئةالأولى،فإن أسماء الفئة الثانية،تنفرد بالحاق المسمى بالاسم ــ سواء كان اسم مكان أو اسم شخص ــ عن طريق البنوة البيولوجية أو الاجتماعية،فيكون المسمّى ابنا للإسم الأصلي عن طريق هذه الكلمة : "بَنْ" أو هذا الحرف : "بَ" بحذف النون تخفيفا .

1ــ بن سنوس، ومعناه بالحرف العربي ولد سنوس.وفي مدينة تلمسان،نجد عددا من عائلات يحمل هذا الاسم .

2ــ بن سنوسي ،ومعنى النسبة عند العرب،هو حفيد سنوس ،أو ولد من ينتمي إلى سنوس.وهي عائلات لها انتشار واسع في تلمسان ومستغانم وأرزيو و الرمشي و بني صاف و سيدي بلعباس(تاسالة) .

3ــ بسنوسي: في شأن هذه العائلة نرى أنه لا أصل لقول بعضهم أن الاسم مركب من باي و سنوسي ،رغم احترام العثمانيين لضريح السنوسي في فتراتهم الأخيرة، ولا أساس لاعتبار الاسم مركبا من بني و سنوسي .فكل ما هنالك هو أن الاسم خضع لحركات اللسان و أحكام السمع إضافة إلى ما تفترضه قواعد اللغة العربية .. فالنطق بالحرفين، الباء والسين (بَسْ) أخف على اللسان وأرهف على الأذن من الحروف الثلاثة التالية (بَنْسْ).وفي العربية احتمالان: فقدْ تكون البنوة بالمفرد أو بالجمع، وعندئذ ،يكون أصل الاسم إما ابن سنوسي أو بنو سنوسي .ففي الحالة الأولى سقط الألف والنون تحت قاعدة الإدغام حيث كان التفوق للسين على النون .وفي الحالة الثانية، سقط النون والواو تحت حكم النطق والسمع الجاريين .ونحن نستبعد هذه الحالة الثانية لاستثقال النطق والسمع: فبنو سنوسي أثقل من "بنو سنوس" و"بَنْ" أخف على "بنو" .

الفئة الثالثة:

ومن الناس من "استسنوا" تبركا بالشيخ و تيمنا به عن طريق إلحاق اسمه باسم عائلاتهم الأصلي تقديما أو تأخيرا، نذكر منهم أسرتين:

1ــ سنوسي بريكسي : في هذه العائلة، يمثل اسم السنوسي الجزء الأول من اللقب

ويصبح جزءا لا يتجأ من الإسم العائلي بعد ما كان مجرد اسم شخصي. وتتوقف الذاكرة العائلية بالشجرة عند سنة 1790 م تقريبا، كما يثبتها حساب الأجيال اعتمادا على نسخة بلدية من هذه الشجرة (1). وتعيش هذه العائلة في تيارت وسيدي بلعباس، ووهران والحنايا، والرمشي، ولا سيما في تلمسان (2).

2- بريكسي سنوسي: وفي هذه العائلة القليلة الانتشار، نلاحظ كيف يتّبع اسم الشيخ لقبها الأصلي، ويلحقه، وكيف أصبح يمثل فيه الجزء الثاني منه. ويبدو أن الاختلاف بين العائلتين، سنوسي بريكسي و بريكسي سنوسي، يظهر في كون الأولى تعتز بالشيخ قبل أو بقدر اعتزازها بلقب العائلة الأصلي، والعكس بالعكس نجده عند العائلة الثانية. ومع ذلك، فكلتاهما في الحقيقة، معروفة عند التلمسانيين باللقب الأصلي.

الفئة الرابعة: الأسرة الملكية الحاكمة بليبيا:

يقول عبد الملك بن عبد القادر بن علي عما درجت عليه الأسرة الملكية من أخبار الأنساب، في حديثه عن السيد محمد إدريس الأول المهدي السنوسي (3): ان عميد العائلة و مؤسسها العظيم هو السيد محمد بن علي السنوسي (4) (1791-1856م). و أن الجد الأول لها ينتهي إلى سيدي محمد بن يوسف السنوسي دفين تلمسان. ولقد درج الأحفاد على التسمية بإسمه والتبرك بزيارته. (5).

---

(1) لقد أمدني بها الأستاذ سنوسي بريكسي كمال، مدير المعهد التكنولوجي للتربية، بتلمسان.

(2) كانت لهذه العائلة اهتمامات فلاحية في بني سنوس، وكل أفرادها، على حد قول السيد محمد مزيان، كانوا فلاحين يعتزون بالأرض.

(3) هو ملك ليبيا منذ 1951، ولد بجغبوب، نحاه معمر القذافي في سبتمبر 1969.

(4) أسس حركة إسلامية قائمة بالدرجة الأولى على التربية العقلية والنفسية. وكان من أهدافها رد الفعل للتحدي الضخم الذي واجه العالم الإسلامي باحتلال الجزائر. بدأت عملها الجاد عام 1842، إلى غاية وفاته سنة 1856.

(5) الفوائد الجلية...، القسم الأول، ص: 07.

prevue?

هذا، ولقد كان الملك محمد إدريس الأول، وحسب شهادة السادة، علي عدّو (1)، وأبي بكر شعيْب (2)، ومحمد بُوقلي حسن (3)، يشدّ الرحـال إلى تلمسان ليـزور ضريح الشيخ السنوسي". وكانت آخر مرة له سنة 1952". ففي هذه السنة، زار فاس مدينة الأدارسة، ثم دخل تلمسان ليقف على ضريـح سيدي أبي مدين شعيب ومن ثمة، على ضريـح سيدي محمد بن يوسف السنوسي.

2 ـ شجرة بعض العائلات أو الأسمـاء المحافظة على ذكر الشيخ و تراثه:

لقد أدركت بعض العائلا ت أن الحفاظ على قصص الصالحين و ذكرهم " مع نية الاقتداء بهم، عبادة و كفارة للذنوب " (4)، و ثبت لديها أيضا، أن احترامهم هو مصدر لكل خير و بركة. قال الشاعر:

آسرد حديث الصـالحين و سمّهم ∴ فبذكرهم تـتـنزل الـرحـمـا تُ
و احضـر مجالسهـم تنـل بركاتهم ∴ و قبورهـم زُرْهـا إذا مـاتـوا.

أ ـ طبقة عائلات أو أسماء الموتى المدفونين بـروضة السنوسي:

و نحن إذ نسجل هذه الطبقة، فلأن العائلات فيها أرادت أن تتقرب من الضريح تبركا بصاحبه و تخليدا لاسمه، فضلا عن دعوى بعضها في الانتساب مثله إلى البيت الشريف. و من الأسماء التي تتكرر في الروضة و تبرز بمكانتها العلمية و الاجتماعية، يمكن أن نذكر ما يلي: فممن عرفوا بالفقه، أبو مدين بن المنور، والمختاري أحمد الشريف، وبن يمينة الحاج لبوخ، ومجدابا الغوثي، وبن دي ويس سي محمد، وبرصالي بن عودة، ومزيان بن محمد، وبن الحاج علال بن مصطفى". و ممن عرفوا بالولاية و الصلاح، من الرجا ل و النساء، آغا جنات الشريفة الحسنية، والزهراء المنور بنت أبي مدين، وسيدي علي بـن

---

(1) هو الحاج عدو المولود في 17/ 6/ 1925، رحل كمُعلم. إلى ليبيا سنة 1952 حيث مارس الترجمة في اللغتين، العربية والفرنسية. وكان يمارس هذه المهنة في مدينـة غدامس في الحدود الليبية التونسية الجزائرية.

(2) هو الأستاذ الفقيه شعيب أبو بكر المعصوم ابن حفيد القاضي شعيب.

(3) هو أحد أعمامنا، عاش بفلسطين و الأردن و استقر في أواخر الستينيات بليبيا. توفـي بطرابلس سنة 1993. فكان يقول: بذهاب الملك من الحكم، ذهبت البركة من ليبيا.

(4) ابن مريم، البستان، مقدمة للأستاذ عبد الرحمن طالب، ص: 15.

يوب،علي التالوتي .ولقد حرصت بعض الأسر أن تسجل على الشواهد انتسابها إلى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم (1) .

ب- طبقة العائلات المحافظة على تراث السنوسي:

تمثل هذه الطبقة فئتين،فئة العائلات التلمسانية،وعائلة مشهد البجائية .

الفئة الأولى: العائلات التلمسانية:

لقد انتقيت بعض العينات من أسماء العائلات التلمسانية التي قادها شرف الأصل إلى الحفاظ على التراث الاسلامي جملة،وذكر السنوسي التلمساني خاصة .ومن خلال الاتصالات التي كانت تجمعنا بها،استطعنا أن نسجل بشأن كل عينة،ملاحظات.
والأسماء المقصودة في هذا الإطار أربعة: الهدّام، مزيان، بَنْ منصور، أبو بكر المعصوم .

-1- عائلة الهدّام:

اقتصرنا هنا على تلخيص ما دار بيننا و بين السيد الحاج المختار الهدام ، في آخر لقاء معه (2) . لقد قال لنا عن أسرته ،بأنها هجرت من الجزيرة العربية (3) إلى الأندلس -مع عبد الرحمن الداخل- فتلمسان، مرورا بمدينة فاس.وأقامت بـ"باب زيري" في بيت يعد من أقدم البناءات في تلمسان، وما يزال قائما إلى اليوم .أما والدته،فهي حفيدة "بوطالب" ولد عمّ الأمير عبد القادر الجزائري .وسمي بالمختار على إسم أحد أعمام أبيه وكانوا ثمانية .
و بشأن،إذا كانت بين السناوسة والهدام علاقة مصاهرة و جورة،فإن السيد الحاج المختار لا يعرف شيئا يوثق به عن زوجة الشيخ السنوسي التي يقال عنها إنّها من بنات "دار الهدام" . وعن سؤال يتعلق بروضة السنوسي،وبشأن غياب موتى "الهدادمة" بها، ذكّر الرجل بأفكار البشير الابراهيمي الاصلاحية المعادية لتقديس الأولياء، وأرجع سبب الغياب إلى سياسة العثمانيين في التمييز بين طبقات عائلية .

---

(1) و سنعود بشيء من التفصيل والتحليل إلى أسماء المدفونين بالروضة،في القسم الثاني من هذا الباب .
(2) وكان في 11/ 12 / 1992 بحضور الأستاذين: أحمد بن ديمراد و سيدي محمد نقادي.
(3) عرضت هذه القصة عن الهجرة على السيد محمد مزيان، وقال بأنه يجهلها .

-2- عائلة مزيان:

إن الأصول القريبة لهذه العائلة تنحدر من الولي الصالح، العالم أحمد بن الحاج (1) تلميذ الشيخ السنوسي، الذي يوجد ضريحه في قبلة تلمسان، على بعد حوالي 20كلم من المدينة. ويذهب السيد محمد مزيان (2) إلى أن الأجداد كانوا مقيمين بجوار بيت المقري (3) بباب زيري، في حي يقصده الناس لطبع نقودهم وختمها. ولقد اتسع نطاق العائلة وتغيرت الألقاب بسبب ظهور أسر انحدرت من أسماء شخصية. ومن الأمثلة التي يذكرها في هذا الشأن، الأسماء العائلية التالية: أولاد سيدي الحاج، ويلتحق بهم، بن عربي الذي يتفرع إلى محمد الصغير ومحمد الكبير، وتمّو، بعد حكم قضائي، وبلبشير، وعزوز، وسنوسي كإسم شخصي. ولقد أمدني السيد أنور مزيان (4) بالشجرة العائلية، نصوغها أفقيا، على الترتيب التالي: أنور، محمد، التهامي، المختار (5) قاضي تلمسان، أحمد، مزيان، المختار، قاضي تلمسان (ثانية)، محمد مزيان الصغير، محمد مزيان الكبير مدرس بالتاشفينية ومؤلف، محمد، محمد الحاج، أحمد جد أولاد سيدي الحاج عالم التوحيد ومتصوف، محمد، محمد العالم الصوفي، عثمان، يعقوب، سعيد، عبد الله دفين البَعْل وهو صوفي، علي دفين القلعة وهو صوفي، علي، علي المناوي الفقيه، أبو بكر الشريف، علي، محمد، عيسى، أبو القاسم، عبد السلام المناوي (مولاي عبد السلام)، علي (حيدرة)، محمد الخليفة الثالث للدولة الإدريسية، إدريس الأصغر مؤسس مدينة فاس، إدريس الأكبر، عبد الله الكامل، الحسن المثنى، الحسن السبط، علي بن أبي طالب زوج فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(1) هو ابن محمد بن عبد الله المناوي (ت في 930 هـ/ 1523م). انظر، ابن مريم، البستان، ص: 23.

(2) هو أحد الصناعيين المثقفين، معروف بحبه للوطن وغيرته على ثقافة بلده. التقينا به يوم 16/ 12/92 بمناسبة تكريم الكاتب التلمساني المعاصر، محمد ديب.

(3) لعله يقصد جد صاحب نفح الطيب. وما زال هذا البيت قائما في "حي باب علي".

(4) أستاذ فيزياء، وهو أخو أستاذنا السيد عبد المجيد.

(5) في القسم الخلفي من روضة الشيخ السنوسي، نقرأ على إحدى الشواهد ما يلي: هذا قبر الفقيه العلامة الشريف مزيان (؟) ابن السيد محمد بن مزيان سليل سيدي الحاج وحفيد مفتي تلمسان، توفي في 5 قعدة الحرام، عام 1351هـ.

هذا، وللأستاذ عبد المجيد مزيان دراية واسعة ودقيقة بالموضوع. يهمنا فقط، أن نذكّر بأنه يكفيه فضلا أنه ألهمني إلى البحث في تفكير الشيخ السنوسي، ويعد المحرك الأول والمحفز الخفي لاهتمام الشباب به في تلمسان وغيرها، وفي تنشيط الذاكرة الشعبية عند الكثير من العائلات. ولقد مر بنا، كيف استطاع الفنان، السيد عبد الفتاح مزيان أن يجسد مخزون الذاكرة الشعبية هذه، في لوحة زيتية عن قبة الشيخ وروضته.

-3- عائلة بن منصور:

هي عائلة محبة للتراث، حفظت نسبها عن طريق ما خلفه الأجداد من تآليف. ولقد أنجبت عددا من العلماء الصالحين أمثال سيدي عبد الله (1) وسيدي بن علي دفيني عين الحوت (2)، وسيدي محمد بن سيدي بن علي بن سيدي العربي.

يقول سيدي محمد هذا، في قصيدة ما تزال مخطوطة (3)، وهذه بعض أبياتها نذكرها متفرقة:

1- أيا سائلاً عني: فإني عبيْدُه .•. ضميرُ ضميرِ الله قد حاط بالكل

2- وإني ابنُ منصورٍ يريد سُطُوَّةً .•. بها العزّ والإدلالُ في العلْو والسُّفْل

16- ومن زادَ تحقيقا ليدْنُ بحُرْمنا .•. بما شاء في ذِ لٍّ وكِبْرٍ بلا مِثْل

20- فأسماؤنا محمدٌ، جدُّنا عبْده .•. وَوالدُنا المرحوم سيّدُ ابْنِ عالي

21- فأحمدُ، فالحبيب ثمّ بأحمدَ .•. وبالحسب افتخارُنا في هذا القول.

وكان التلمسانيون يكثرون من زيارة سيدي بن علي وسيدي عبد الله بن منصور دفيني عين الحوت تيمنا بهما، وتفقدا أيضا، لأقربائهم بالقرية. وباللهجة

(1) ترجم له ابن مريم في البستان، ص: 135.
(2) عين الحوت في ضواحي تلمسان، وهي قرية تبعد عن المدينة بحوالي 7 كلم.
(3) عدد أبياتها اثنان وعشرون (22) بيتا، كتبت على ورقتين بعد الورقة الأخيرة من الكتاب المحتوي على عقائد التوحيد أي كتاب "في كيفية دخول ضعفاء العوام ومساكين الطلبة الذين لهم قليل الإلهام في دائرة أهل الإيمان". والمخطوط الكامل بحوزة السيد عبد الرحيم بن منصور من قطاع التعليم.

التلمسانية، ما يزال الشعر الشعبي يذكّر بجانب من هذه العادة، هذه بعض أبياته:

1ـ سيدي محمد بن علي　　جاني في منام الله

2ـ مولى الخلوة يا سامعين　　زُرتُ وأعطاني الله

3ـ أعطاني كاس من الحليب　　واشربت أنا وأيّاه.

وفي بيت وضع خصيصا لـ" لتحويف(1)، ينشد الناشد، وخاصة النساء:

من عند أكْركُور و أنا غيْر نْزور　　سيدي عبد الله، سيدي بن منصور.

وكان سيدي عبد الله هذا، معجبا بالعقيدة الصغرى لعصريه السنوسي، وكان يعتمد عليها في تجديد الإيمان ويدعو إليها.

و لقد توارث الأبناء عن الأجداد، العديد من الكتب المطبوعة والمخطوطة. إلا أنه خُبّئ بعضها في مطامير عند احتلال فرنسا للجزائر، وحوّل المهاجرون ـ فيما يبدو ـ بعضها الآخر، و كتبا لأسر أخرى، إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى. ولم يبق منها إلا النزر القليل. ومما بقي في الخزانة من تأليفات تذكرنا بالشيخ السنوسي، مخطوط أطلعني عليه السيد عبد الرحيم بن منصور وهو لجده الأكبر، الشيخ سيدي محمد بن سيدي بن علي. في صفحته الأولى نقرأ العنوان التالي: "في كيفية دخول ضعفاء العوام ومساكين الطلبة الذين لهم قليل الإلهام في دائرة أهل الإيمان". وفي الصفحة الثانية، تقييد لنسب المؤلف ولأحفاده من بعده، وجاء هذا النسب على الشكل التالي: هو الشيخ سيدي محمد بن سيدي بن علي بن سيدي العربي بن سيدي حم بن الولي الصالح سيدي عبد الله بن منصور بن محمد بن عبد الجليل الأكبر بن علي بن محمد بن عبد الرحمن الشريف الحسني بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن ثابت بن ميمون بن عيسى بن محمد الكبولي بن عبد الله الشهيد بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم. (2)

---

(1) "الحوفي" هو كلام ملحون خاص بالتلمسانيين.

(2) سنرى في الباب الثاني من هذه الدراسة، كيف أن علاقة مؤلف المخطوط بتفكير السنوسي، تتحول من مرحلة التقديس إلى مرحلة النقد.

ـ4ـ عـائلة "أبو بكر المعصوم":

يعود أصلها القريب إلى سيدي عبد الجليل، وأصلها البعيد إلى البيت الشريف، بيت الحسن السبطي ابن فاطمة الزهراء. وأسرة "أبو بكر المعصوم" ـ ويفضلون لفظ الأسرة على العائلة ـ تقدس العلماء، وخاصة أولئك الذين يشع ذكرهم من تلمسان، أمثال سيدي أبي مدين وسيدي محمد بن يوسف السنوسي.

وبالإضافة إلى المرجعية السابقة الذكر، يستند "أولاد المعصوم" ـ في إبراز شرفهم ومركزهم التراثي، إلى ثلاثة مصادر أساسية: الذاكرة العائلية، وكتب الأنساب والأعلام، وجدهم القاضي شعيب.

إن ذاكرتهم تعتز بدور أسرتهم التاريخية في الحفاظ ـ بعد المرازقة ـ على ضريح سيدي أبي مدين ومسجده وعلى نشر مآثره ومآثر غيره من العلماء الصالحين. وتؤكد أصولها العتيقة باللجوء إلى أضرحة الأجداد وشواهدها الموجودة بمسجد سيدي أبي مدين.

أما كتب الأنساب والأعلام التي يعولون عليها، فأهمها، كتيّب الأنساب للقاضي شعيب، وكتاب الأعلام لخير الدين الزركلي، وخاصة مخطوط أحمد العشماوي الذي أخذ مادته من المخزون الاجتماعي للأسرة. فمؤلف هذا المخطوط يصل جدّهم القريب، بالبيت الشريف المحمدي عن طريق السلالة التالية: عبد الجليل بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن مسعود بن عيسى بن أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد السلام بن أيوب بن أحمد بن محمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبطي بن فاطمة بنت رسول الله (ص). (1)

وزاد الأسرة اعتبارا وسمعة، ما اشتهر به جدهم الأخير، القاضي شعيب بن علي بن محمد بن فضل الله "أبو بكر" الجليلي، من فقه وتفسير وعقيدة وشعر... ومن مؤلفاته ما يلي:

---

(1) أحمد العشماوي، كتاب الأنساب، مخطوط أصلي بحوزة السيد شعيب "أبو بكر المعصوم"، ص: 15.

ـ زهرة الريحان في علم الألحان أو بلوغ الأرَب في موسيقى العرب .

ـ كتاب المعلومات الحسان في مصنوعات تلمسان .

ـ منظومة شعرية في التصوف.

ـ كتيّب في الأنساب.

ـ عقيدة رجزية في التعريف بالعقائد الواجبة.

ـ الرجز الكفيل بذكر عقائد أهل الدليل ، نحا فيه المؤلف منحى الشيخ السنوسي في أم البراهين (1) .

و لقد سجّلتُ عن الأسرة، أخبارا تروى عن السنوسي تتعلق بمأثور كلامه وخوارقه.

الفئة الثانية: عائلة مشهد البجائية (2) :

من العائلات التي حفظت تراث السنوسي، عائلة مشهد البجائية. و لقد عُرفت منذ أمد بعيد، بأهتمامها بالمخطوطات، و تخزين الكتب و نشر العلم. فلقد كانت تملك في خزائنها، عددا هائلا من المؤلفات، وخاصة منها الوثائق المخطوطة التي تقدر بأربعمائة عنوان، وكان علماؤها يدرّسون توحيد الشيخ السنوسي التلمساني و يحفّظونه كما كانوا يحفّظون القرآن و الحديث و الشعر... ولقد كرّمتْ هذه العائلة ـ على يد حفيدها جمال الدين ـ جامعة تلمسان (معهد الثقافة الشعبية) بثماني مخطوطات من تأليف عالم التوحيد الشيخ السنوسي. و هي عائلة أصيلة وعريقة في التاريخ. لها علماؤها، و أولياؤها، و بطولاتها .

لقد ذاقت مرارة الظلم و الاضطهاد و شقاء السجون من طرف الاستعمار الفرنسي. وصودرت أملاكها و أحرقت مكتبتها .

و من الأفراد الذين تعتز بهم هذه العائلة، ما يلي :

(1) شرَح هذا الرجز، الحاجُ محمد بن عبد الرحمن، و سماه بالكلمات الشافية في شرح العقيدة الشعيبية الجليلة الكافية، المطبعة التونسية، 1349هـ الطبعة الثانية .

(2) عن مراسلة من السيد جمال الدين مشهد بتاريخ 10/ 01/ 1993 من بجاية. و قد بعث لي وثائق عن عقائد السنوسي في نفس التاريخ مكتوبة بالأمازيغية، فيها كثير من الألفاظ العربية .

ـ1ـ الجد الأكبر:

هو ابن الحبيب("مشهد" في 1890 من طرف الحكم الفرنسي) . أما آسمه الشخصي، فهو محمد الموهوب المدعو سيدي الموهوب بن الحبيب. وهو ابن الشيخ البشير المعروف بالإمامة و الإفتاء. ولد سنة1237 هـ/ 1822م، وتوفي بين 1290 و 1300هـ، بقرية ثالة وزرار ببني ورثيلان بالقبائل الصغرى و دفن بها. وتنسب أسرته الشريفة إلى الأدارسة الذين استقروا بهذه المنطقة في القرن الثالث الهجري . تولى القضاء والتدريس والإمامة، وتخصص في الفقه والقضاء و التوحيد . وكان يدرس بالعربية والأمازيغية عقائد التوحيد السنوسية الثلاثية، وابن عاشر بزاوية تنتمي إلى الشيخ الحداد، وهي اليوم، مدرسة للأئمة. سجنه الاستعمار الفرنسي سنة1281هـ بسبب تنظيمه لعدة هجومات ضد القوات الفرنسية، وهي هجومات أصبحت معروفة بمعركة البابور في جبال عنيني و بني فوغال و عموشة و بني عفيف و بني وجهان و بني يعلى و بني ورثيلان و بني عبدل و بني جماتي و بني عباس.

و لقد ألف عددا من الكتب، وهي كما يأتي:

أ) رسائل الأنبياء

ب) قطر الندى

ج) كتاب التوحيد

د) شرح عقيدة السنوسي المسماة بـ"أم البراهين"

هـ) كتاب في القضاء

و) بلوغ الأدب بشرح شذور الذهب

ز) كتاب الفتاوي

ح) قضايا فقهية

ط) نصوص شرعية

ي) وظيفة الشيخ الحسين الورثيلاني

ك) صرح القرآن

ل) كتاب في الطب

م) كتاب في الشعر

ن) كتاب الأسرار عن حكم الطيور و الأزهار

س) كتاب البلاغة

و كان الجد الأكبر هذا، يحب كسب الكتاب و معاشرته إلى درجة أنه أحيانا، كان يعرض برنوسه في السوق ليشتري بثمنه كتابا .

و من أعضاء العائلة، رجالا و نساء، الذين ساروا في خطة الحفاظ على التراث، و حفظوا عقائد السنوسي و درسوها، الأسماء التالية:

أولا : الرجال:

أ) محمد أرزقي الموهوب، يلقب بالشيخ العلامة محمد أرزقي .

ب) محمد البشير [بن] محمد أرزقي إمام و مفتي، بالمنطقة .

ج) الطيب بن الحبيب بن علي، توفي 1249هـ.

د) محمد المهدي بن أرزقي إمام و مفتي توفي سنة 1973م.

هـ) محمد أحمد إمام و مفتي توفي سنة1991م.

و) محمد زروق إمام بمسجد الرحمن ببجاية، عمره 63 سنة .

ز) الولي الصالح ابن سيدي زروق دفين ثالة وزرار ببني **ورثيلان.**

ح) عبد المجيد يخلف، درس بجامعة الزيتونة، و بمعهد تكوين الأئمة بتلاعمة .
و توفي سنة 1992م عن عمر 65 سنة .

ط) ابن مولاي يوسف الولي الصالح دفين قرية فوملال بني يعلى ببني ورثيلان .
ويعود نسبه إلى مولاي إدريس الأكبر

ي) ابن عيسى، الإمام الولي الصالح دفين قرية زاكو بني ورثيلان، توفي 1987م .

ثانيا: النساء:

أ) السيدة مشهد زينب ابنة الشيخ المهدي بن أرزقي (65 سنة) .

ب) السيدة فاطمة المدعوة "طاطا" المتوفاة سنة 1992 عن 68 سنة .

وعن نسب العائلة، فإن السيد جمال الدين مشهد، و هو من أحفاد الشيخ الموهوب بن الحبيب، يملك بشأن نسب مولاي يوسف، مخطوطات رسمية و عقودا مكتوبة

على الورق، وعلى جلد الغزل . وقد صحح النسب سنة 1200هـ بزاوية الهامل من طرف الشيخ الدليس .

وخشية أن يضيع هذا المخزون الاجتماعي، سارعت جمعية (G E H I M A B) ببجاية إلى تنفيذ إرادة الجد الأكبر الذي أوصى بوضع خزانته في متناول كل من يحمل المعرفة و يسعى من أجلها . فأقامت معارض للكتاب و ألهمت الصحافة إلى الاقتراب من ذاكرة العائلة . و من جملة ما نشرت هذه الجمعية (1)، جدولا بيانيا لنسبة الكتب و توزيعها حسب تخصصها (انظر، الشكل رقم: 15) ، و كذلك بعض المخطوطات، منها مخطوط لعقيدة السنوسي الصغرى، و هو مترجم إلى الامازيغية (انظر، الشكل رقم: 16) .

توزيع الكتب حسب تخصصها

Répartition des ouvrages par spécialités

Fiqh فقه
Hadith حديث
Tefsir تفسير
Littérature أدب
Linguistique لسانيات
Histoire تاريخ
Médecine طب
Kalam علم الكلام
Mantiq منطق
Aqida عقائد
Astrologie علم التنجيم
Astronomie علم الفلك
Maths رياضيات
Héritage ميراث
Tassawuf تصوف
N. Ident. فنون غير معروفة

الشكل رقم: 15

نسخة من الترجمة الامازيغية لعقيدة السنوسي الصغرى

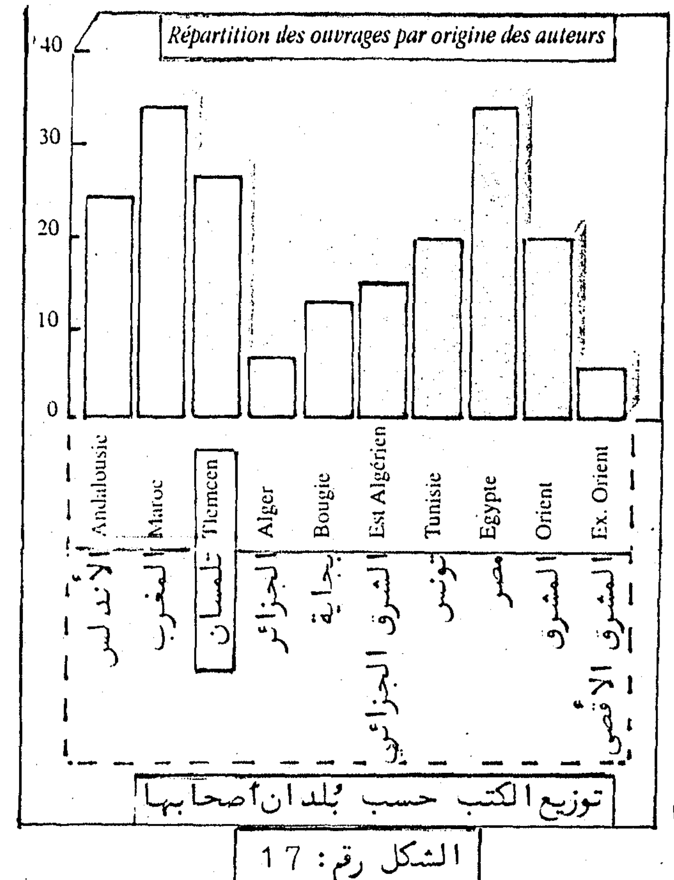
Manuscrit de langue berbère (transcrit en caractères arabes). Il s'agit d'une traduction sommaire de la Sanussiya.

الشكل رقم: 16

(1) تأسست هذه الجمعية في 23/ 12 / 1991 .

وعلى ضوء هذا الجدول، نلاحظ أن العقائد تحتل في الخزانة المرتبة الثالثة. فلو أضفنا إليها كتب علم الكلام، لكانت تنافس الفقه في المرتبة الأولى. وفي جدول بياني آخر تبرز جمعية (G E H I M A B) أنه من أهم مؤلفي هذه الكتب التي تزخر بها الخزانة، هم من أهل تلمسان، وأنهم يحتلون المرتبة الثانية بعد المغاربة والمصريين. (انظر، الشكل رقم: 17).

إذن، إن الذين ينتسبون إلى منطقة بني سنوس، والذين يتعلقون باسمها عن طريق الانحدار أو الاشتقاق اللغوي، أو عن طريق الارتباط، والعائلات المحافظة على ذكر السنوسي بغرض التيمن به، والانتساب إليه، أو خدمة للتراث باسم التراث، أو باسم الشرف، معالم من المخزونات الاجتماعية مكنتنا من تحديد مكانة الشيخ السنوسي لدى الناس، ومدى تحديه للزمان من خلالهم.



الشكل رقم: 17

الجزء الثاني: خوارق و معتقدات عن السنوسي

أولا: كرامات السنوسي

1- تعريف الكرامة

2- التسليم بوجودها

3- نماذج من كرامات الشيخ السنوسي

ثانيا: أساطير، خرافات، معتقدات تلمسانية، و مرويات أخرى

1- أساطير تلمسانية

2- خرافات تلمسانية

3- معتقدات تلمسانية

4- مرويات أخرى

يجب في هذا المقام من البحث، إعطاء الحق للأذن بحيث لا يسعها إلا أن تسمع، و للذاكرة بحيث لا يسعها إلا أن تسجل. ولا يهمنا أن نزن الاعتقادات على اختلاف أصنافها* بميزان العقل المعروف عند الأرسطيين أو الديكارتيين أو عند الفلاسفة الوضعيين. إن ما يهمنا، هو الاقتصار على التسجيل فقط. وإذا حدث لنا أحيانا، اللجوء إلى بعض المصادر المكتوبة، فلتثبيت هوية المرويات، وحفاظا على نواتها الجوهرية، وتفاديا لشرود اللسان.

ويجب أيضا، التنبيه إلى أننا هنا، لا نسلم بدءا بالتمييز الكلاسيكي في مواضيع

التفكير، بين المواضيع التي يقال عنها أنها معقولة، و المواضيع التي يقال عنها، إنها لامعقولة. لأننا ننطلق من الممارسة الملموسة، وعلى أساسها، يتقرر نقد كل من يشك فيما سجلناه، و يقدح فيما سمعناه. فنحن سنصغي إلى الاعتقادات الماثلة أمامنا بقدر ما نستبعد المواقف الآخذة بأحكام سابقة على أساس أن العقل في مفهومه التقليدي، هو الميزان الوحيد الذي له صلاحيات إصدار الأحكام.

وعلى ضوء هذا التحذير، يكون من الشرعي الرد على المنكرين لبعض الاعتقادات كالكرامات مثلا، ليس لأنهم يحكمون عليها بالعقل الضيق فقط، و إنما أيضا، و بوجه أخص، لأنهم تنقصهم الجرأة الكافية في وضعها تحت محك الاهتمام و الدراسة.

فلو قال لي قائل، إن الولي الفلاني مثلا، حلق في الأجواء من غير جناحين، فإنني لا أملك سوى الإصغاء إليه بكل اهتمام، خصوصا إذا كان عميق الاعتقاد فيما يقول. و لكن، لو حدث لي أن رأيته فعلا، يحلق في السماء، فإنني لا أندهش فقط، و لكن، بحكم الفضول، سأضطر ـ بعد التصديق ـ إلى محاولة إيجاد تفسير لهذه الظاهرة الغريبة، و الاهتداء إلى النفاذ في هذا العالم العجيب، و من ثمة، التمكن من فهم ما أسمع و ما أرى و ما أسجل.

وفي هذا الإطار، نتناول بالبحث خمسة مواضيع: كرامات السنوسي ونعرضها في عنوان أول، ونفرد عنوانا ثانيا للأربعة الباقية و هي، أساطير وخرافات ومعتقدات تلمسانية و مرويات أخرى.

أولا: كرامات السنوسي:

ما هي الكرامة، و ما أنواعها؟ وكيف يبحث فيها العقل الذي وضعها في اللامعقول، و هل من داع إلى ابراز ضرورتها؟ إن الرد على هذه الأسئلة، سيمكننا من إعداد أسباب الاستماع إلى نماذج من الكرامات التي تروى عن الشيخ السنوسي.

1 ـ تعريف الكرامة:

إنها حادثة خارقة للقوانين و للعادات المألوفة، تقع على يد ولي من أولياء الله أو تنسب إليه.

أ ـ وهي تختلف عن المعجزة من حيث انها خاصة بالأنبياء، يؤيدهم بها الله

ويمكنهم من أن يتحدّوا كل من كان يقصد إلى تكذيبهم .فالإسراء والمعراج معجزة لأنها وقعت لمحمد بٱعتباره نبيا، وطي الأرض كرامة لأنها حدثت لعدد من الأشخاص كأبي اسحق الطيار(1) وأحمد بن زكري (2) وأحمد بن الحسن الغماري (3)، والشيخ السنوسي بٱعتبارهم أولياء.

والمعجزة عند الشيخ السنوسي، وفي عرف المتكلمين، هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدّي مع عدم المعارضة(4) .فهي عبارة عن "فعل" يوجده المولى خارقا للعادة على وفق دعوى كل واحد من الرسل .وعلى هذا الأساس يستحيل صدور المعجزة على يد كاذب لأن الكاذب لا يطلب التحدي". ولأنها أيضا، مقرونة بالتحدي، فإنها تتميز عن كرامات الأولياء.

ولقد ميز المحققون أصنافا من خوارق العادات.فهي عند الشيخ، سبعة، أربعة ذكرها عن التفتازاني (5)، وثلاثة له.أما الأصناف الأربعة الأولى، فهي: المعجزة، والكرامة، والمعونة، والإهانة.ويضيف الشيخ ثلاثة أخرى، وهي: الإرهاص، والاستدراج، والابتلاء.

1) المعجزة هي أمر خارق للعادة مقرون بدعوى النبوة.

2) الكرامة هي أمر خارق للعادة ليست مقرونة بدعوى النبوة، وتظهر على يد وليّ.

3) المعونة، وهي من الخوارق أيضا، إلّا أنها تصدر من قبل العوام من المسلمين.

4) الإهانة، وتظهر على يد المفترين.

5) الإرهاص وهو الخارقة "التي تتقدم بعثة الأنبياء تأسيسا لها" (6) قبل

(1) هو سيدي ابراهيم الغوث يكنى أبا اسحق الطيار". انظر، البستان، ص: 56.

(2) هو معاصر للشيخ السنوسي، ترجم له البستان، ص: 38.

(3) انظر، ابن مريم، البستان، ص: 31.

(4) في القرآن، طلب النبي (ص) من غيره أن يأتوا بمثله، انظر: البقرة، 23، يونس، 38، هود، 13، الإسراء، 88، الكهف، 9 10، الطور، 34.

(5) هو سعد الدين (ت. 1392 م) عالم بفقه الشافعية والأصول". من مؤلفاته، التنقيح.

(6) السنوسي، شرح أم البراهين، عن حاشية محمد الدسوقي، المط. الميمنية، مصر، 1312هـ، ص: 155.

دعوى النبوة .فهو تكريس لقاعدة البعثة، وإلا فكرامة محضة .

6) **الاستدراج وهو خارقة تجيء على** يد من لم يستقم دينه .

7) **الابتلاء وهو كالأوامر** الخارقة للعادة، **يقع** على يد دجال أو من يدعي الألوهية .

أما السحر، فهو خارج هذا التصنيف، لأنه أمر خارق للمعتاد لا للعادة أي أن له سببا خفيا .يقول الشيخ في عقيدته الكبرى : " ومن المعتاد السحر ونحوه، وإن كان سببه العادي نادرا خلافا لمن جعل السحر خارقا، لكن لسبب خاص به ". (1) ويضيف، أنه عبارة عن أعمال يجري فيها التعلم و التعليم تقع من نفس شريرة وخبيثة .

ب- وإذا انتقلنا من دائرة التعريفات الكلامية إلى دائرة الحدود الأنثروبولوجية، لاحظنا أن هناك اختلافا بين الكرامة من جهة، والخرافة والأسطورة و القصة الشعبية من جهة أخرى .

1) تختلف الكرامة عن الخرافة (LEGENDE)من حيث إنها قصة خارقة للعادة تقرن عند روايتها، بإسم ولي على أساس أن أحداثها وقعت ، كما تقرن المعجزة بإسم نبي . **و لهذا، فلا علاقة لها بتشويه التاريخ** ، و تتعلق بشخص أو أشخاص منّ الله عليهم بتكريم منه .إن الخرافة حكاية تأخذ عجينتها من أحداث تاريخية"، وأمانتها للتاريخ تتغير بقدر سعيها وراء ما هو عجيب .

2) أما الأسطورة(MYTHE) فقصة شعبية أو أدبية يكون الممثلون فيها، كائنات فوق إنسانية حيث تُروى لنا أحداث كما جرت أو كما كان ينبغي أن تجري .

3) **هناء والقصة الشعبية** (FABLE) **تختلف** عن الكرامة من حيث إن الأولى قصة خيالية تحمل في طياتها رموزا و تهدف إلى تبليغ العبرة والمغزى .**وقد** تكون أخبارا كاذبة من الناحية التاريخية، وقد تكون في كذبها أو في خيالها عبارة عن صور مجازية تُستخرج منها الدروس والمواعظ .و هي تختلف عن الكرامة من حيث إن الكرامة حادثة زعزعت العادة و لا تأخذ معناها إلا إذا قرنت بإسم ولي . **ويرى** بعض الباحثين **أن أكبر** " الكرامات هي تلك التي تبدل خلقا **مذموما** من أخلاق النفس بخلق محمود (2)

(1) السنوسي ، العقيدة الكبرى، ص: 175 .

(2) عبد المنعم الحنفي ، معجم المصطلحات الصوفية، دار المسيرة، بيروت، 1980، ص:224 .

والكرامة تتغير أسماؤها على حسب وظيفتها و تتميز عن خوارق أخرى. فإذا كان الاستدراج يضر الولي و ينفع الناس، والسحر ينفع صاحبه ويضر بالناس، فإن الكرامة في حد ذاتها خارقة صالحة تنفع الولي و تنفع الناس، وهي تخص أولئك الذين لا يستأنسون كثيرا بها، بل عند ظهورها، يصير خوفهم من الله تعالى أشد وحذرهم من قهر الله أقوى، لأنهم يخافون أن يكون ذلك من باب الاستدراج. وهم لا يفرحون بالكرامة إلا لإظهار الذل والتواضع في حضرة الله. فإن ترفعوا وتكبروا بسبب تلك الكرامة، فقد بطل ما بهم و تحولت الكرامة إلى استدراج (1).

وعليه، فإن الاستدراج يشمل الذين يستأنسون بالكرامة التي تظهر عليهم ويعتقدون أنها تكريم استحقوه من الله، وحينئذ يتكبرون ويحصل لهم عقاب من الله.

أما السحر، فمن الشعوذة والطلسمات، لأنه في نظر الشريعة مضر ومصدر الخطر. إن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها، ما يهمنا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا. وما لا يهمنا في شئ منهما، فإن كان فيه ضرر أو نوع ضرر كالسحر... والنجامة... فيكون حينئذ، ذلك الفعل محظورا على نسبته في الضرر (2).

2- التسليم بوجودها:

يجب الاعتراف هنا، بأن الكلام عن الكرامات لا يستقيم إلا إذا نحن سلمنا بجوازها. ومهما كان الاختلاف في وقوعها أو عدم وقوعها، فلا بد من الانطلاق من هذه الحقيقة، وهي أن الكرامة ظاهرة ثقافية تلمس عندنا، في الممارسات اليومية لدى الناس. ولا حجة لمن يرفضها جملة و تفصيلا، بإسم العقل، لأن الظاهرة التي لا توزن بميزانها، ولا تقدر بمقاييسها، تكون عرضة لأسوأ الأحكام.

إن ظهور الكرامات على يد الأولياء جائز عقليا و شرعيا.

---

(1) للتفصيل، انظر، فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ط. 3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، ج. 25، ص: 94.

(2) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، بدون تاريخ، ص: 503.

إنها جائزة عقليا: لأن التسليم بوقوع الكرامات على يد ولي، لا يقتضي بالضرورة الإيمان باللاحتمية ورفع كل هذه الشبكة من القوانين التي تحكم العالم، كما أن عقيدة القضاء والقدر لا ترفع عن العبد الحرية والمسؤولية. إن الاعتقاد في الكرامة ليس المقصود به محاربة العقل، وإنما السعي إلى إبراز قصوره وإغرائه بتوسيع آفاقه.

فالدارس للكرامة، يجب أن ينظر إليها على أنها موضوع قابل للفهم والتفسير وظاهرة علمية ما دامت ماثلة أمامه في روايتها ونصها وفي صيرورتها.

زد على ذلك، أن العبد إذا بلغ في الطاعة إلى حيث يفعل كل ما أمره الله وكل ما فيه رضاه، وترك كل ما نهى وزجر عنه، فكيف لا يعقل أن يفعل الرب الرحمن الرحيم الكريم مرة واحدة، ما يريده العبد، بل هو أولى. لأنّ العبد مع لؤمه وعجزه، لما فعل كل ما يريده الله ويأمره به، فلأنْ يفعل الرب الرحيم مرة واحدة ما أراده العبد، كان أولى. (1)

يقول الفخر الرازي في تدعيم حجة الجواز العقلي: لو امتنع إظهار الكرامة لكان ذلك: إما لأجل أن الله ليس أهلا لأن يفعل مثل هذا الفعل أو لأجل أن المؤمن ليس أهلا لأن يعطيه الله هذه العطية. والأول قدح في قدرة الله، وهو كفر. والثاني باطل. (2)

ومما يدل على جواز الكرامة الشرعي أو النقلي، ما ورد في القرآن والآثار. ففي القرآن آيات تثبت الكرامات لمن رضي الله عنهم، كما في سورة الكهف مثلا، (3)، وسورة مريم (4). وجاء في الآثار، أن النبي (ص) قال حكاية عن رب العزة: "ما تقرب عبد إليّ بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنتُ له سمعًا وبصرا ولسانا وقلبا ويدا ورجْلا، بي يسمع، وبي يبصر، وبي ينطق، وبي يمشي". (5) فإذا واظب العبد على الطاعات بلغ المقام الذي رقّاه إليه

---

(1) الرازي، نفس المصدر، ص: 89.

(2) الرازي، ن. م.، ص: 90.

(3) انطلاقا من الآية الثامنة.

(4) انطلاقا من الآية السادسة عشر.

(5) عن الرازي، ن. م.، ص: 90.

الله بحيث يسمع أو يرى القريب والبعيد، ويقوى على التصرف في الصعب والسهل(1).

وعن أنس بن مالك عن النبي (ص) يرويه عن ربه، أنه قال: "من أهان لي وليا، فقد بارزني بالمحاربة، فلا أبالي في أي واحد من الدنيا أهلكه، وأقذفه في جهنم، وما ترددت في نفسي في قضاء شئ قضيت، ترددي في قبض عبدي المؤمن، يكره الموت ولا بد له منه وأكره مساءته" (2).

ويستغرب الشيخ السنوسي أمر بعض السنيين الذين تقلدوا رواية تقول: إن من اعتقد جواز الكرامات كان كافرا. (3)

إن الله يكرم بفضله ورضاه، من عباده الأولياء. وليس أي شخص يرقى إلى الولاية. فلقد وضع السنوسي لصاحبها شروطا، منها:

أ- أن يكون عارفا بأصول الدين حتى يفرق بين الخلق والخالق وبين النبي والمتنبئ.

ب- أن يكون عارفا بأحكام الشريعة نقلا وفهما.

ج- أن يتحلى بالخلق الحميدة المستوحاة من العقل والشرع.

د- أن يلازمه الخوف بدون انقطاع. (4)

وتجدر الإشارة إلى أن الولي على خلاف الأنبياء، يجب عليه أن يستر كراماته ويخفيها (5)، وأنه لا مؤثر في جميع الموجودات سوى الله تعالى بلا واسطة (6). ولقد أجاز الشيخ، وهو في هذا على مذهب جمهور المسلمين، أن يدعي الولي الولاية بأن يقول: أنا ولي الله، وآية صدقي أن ينفلق البحر مع عدم دعوى الرسالة. (7)

(1) جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: "أَوْفُوا بعهدي، أُوفِ بعهدكم" (البقرة، 40).
(2) عن الرازي، ن.م.، ص: 90.
(3) السنوسي، شرح العقيدة الوسطى، ط. 1.، مط. التقدم التونسية، بدون تاريخ، ص: 291.
(4) السنوسي، المصدر السابق، عن ابن دهاق، ص: 293-294.
(5) عبد المنعم الحنفي، معجم المصطلحات الصوفية، ص: 224.
(6) السنوسي، المصدر السابق، ص: 247.
(7) جمال الدين بوقلي حسن، الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، ص: 341.

3 ـ نماذج من كرامات الشيخ السنوسي:

إن الطريقة التي انتهجتها للحصول عليها، كانت مطبوعات أعددتها على شكل أسئلة هادفة، وزّعتها على الشباب ذكورا و إناثا، بأعتبارهم حلقة وصل بيننا و بين عائلاتهم، عدا الجلسات و اللقاءات التي قمت بها مع عينات من الأشخاص، و التي مكنتني عن طريق المشافهة من إضافة الجديد وفهم ما تناقلته بعض كتب السير و المقالات في هذا الشأن (انظره المطبوع في الشكل رقم: 18) ". و آستطعت أن أصنف كرامات الشيخ إلى ثلاثة أنواع: كرامات ـ تحدٍّ، كرامات ـ رؤى، كرامات ـ إلهام أو فتح رباني.

النوع الأول: كرامات التحدّي

و هي التي أراد بها السنوسي أن يخرق عادة تحديا لزوجته. و يختلف مفهوم التحدي هنا، عنه في المعجزة. و سنلاحظ أثناء عرضنا لبعض النماذج، بروز بعض المواضيع كما هو الشأن في زوجته التي تُظهرها الذاكرة الشعبية كآمرأة ذات سلطة على زوجها.

أ) الكرامة الأولى المشهورة ب "طِيرْتَك عوّجاء" ونقدّمها في روايتين:

الرواية الأولى:

كان الشيخ السنوسي متزوجا بآمرأة من عائلة مشهورة، من بنات "الهدام". وكان متشددا معها. وفي أحد الأيام، سمح لها بالخروج لحضور عرس، التقت فيه بنساء وجالستهن. و بينما هي معهن، فإذا بطير يدخل البيت و يستقر بوسط الدار حيث كان ينتقل من يد آمرأة إلى يد آمرأة اخرى ليأخذ نصيبه من فتات الخبز. لقد فعل ذلك مع كل النساء الحاضرات إلا زوجة الشيخ. فهو لم يرفض الطعام الذي قدمته له فقط، بل اختطف منها خاتمها، ثم طار.

لقد آندهشت الزوجة من هذه الحادثة، وانبهرت من جَمال هذا الطير. و لما آلت إلى بيتها، أخذت تقص الحكاية على زوجها الشيخ السنوسي. و بينما هي تحكي القصة و هو يصغي إليها، أخرج الشيخ من جيبه خاتما، وقال لها: أليس هذا هو الخاتم الذي اختُطف منك؟ قالت: نعم! قال: و هل أعجبك هذا الطير؟

بطاقة أسئلة : ماذا تعرف عن الشيخ السنوسي التلمساني ؟

1ـ إسمك العائلي ....
2ـ إسمك الشخصي ....
3ـ المؤسسة ....
4ـ القسم الدراسي للطالب ....
5ـ الدائرة ....
6ـ الحي السكني ....
7ـ الشخص المجيب، الإسم العائلي ....
8ـ الإسم الشخصي ....
9ـ تاريخ الولادة أو السن ....
10ـ الحي السكني ....
11ـ المهنة ....

12ـ ماذا تعرف عن الشيخ السنوسي، هل هو مدفون بتلمسان؟ نعم ☐ لا ☐
13ـ ببني سنوس؟ نعم ☐ لا ☐
14ـ أين ولد ؟ ....
15ـ الحي السكني ....
16ـ هل تعرف شيئا عن أبنائه؟ ....
17ـ أين مدفنهم؟ ....
18ـ يقال بأن له كرامات و دارت حوله أساطير أو قصص، منها: ....
" طرتك عوجاء"، هل هذه الكرامة له؟ نعم ☐ لا ☐
19ـ لمن إذن؟ ....
20ـ قصة تقول: إن الشيخ مدفون في آن واحد ببني سنوس و بتلمسان". هل تعرفها؟
نعم ☐ لا ☐
21ـ هل تعرف قصصا أخرى أو كرامات أخرى؟ ما هي؟ ....
22ـ هل من أقاربك من هو مدفون بروضته أو بجواره؟ لا ☐ نعم ☐ من هم؟ ....
23ـ هل زرته مرة؟ نعم ☐ لماذا؟ ....
24ـ لماذا لم تزره؟ ....
25ـ هل تعرف من يزوره؟ ....
26ـ ما هي مواسم الزيارة؟ ....
27ـ إذا كنت تملك مخطوطات عنه، اذكر عناوينها ....
28ـ هل تعرف عائلات أو أشخاصا يحبونه و يحافظون على تراثه؟ ....
29ـ هل تعرف أشخاصا يحفظون عقائده؟ اذكر بعض أسمائهم، و أذكر سنّهم و حرفتهم ....
30ـ هل لديك ملاحظات تضيفها؟ ....

تلمسان يوم، / / 199
الإمضاء

الشكل رقم: 18

قالت: أجل، إن جماله سحر كل النساء! قال الشيخ مفشيا سر كرامته و متحدّيا: هذا الطير الذي أعجبك و سحرك بجماله، هو هذا العبد الضعيف زوجك. قالت مستسخرة: "عليها كانت طيرتك عوجاء" (1) .

الرواية الثانية:

للشيخ امرأة لا توقره، فهي لا تصدقه في أقواله و أفعاله، بل كانت تهزأ به. وكان دائما يقول لزوجته هاته، بأنه من أولياء الله الصالحين. ولكنها لم تكن تكترث بكلامه. فذات يوم، كانت على سطح الدار "اتْسَرَّحْ" القمح (2) ، فرأت سرابا من الحمام الأبيض ولاحظت أن هناك حماما لا يطير مستقيما كباقي الحمام. هذا، وعند رجوع السنوسي إلى البيت، سأل زوجته عن أحوالها، فحكت له القصة بكاملها. و بعد حكايتها، علق عليها بقوله: كنت حماما من بين ذلك السراب. فقالت: "هذا أَعْلاَشْ كانت طيرتك عوجاء" (3) .

ب- الكرامة الثانية المشهورة بـ"إحضار الشريد" (4) ، نقدمها هي الأخرى في روايتين:

الرواية الأولى:

كان الشيخ ذات يوم، متجها إلى بيته، فشم رائحة الشريد. فقال لزوجته: يا امرأة! هل قمت بطهي الشريد؟ فقالت: نعم يا رجل! فذهبت و دخلت "مكتبه" و مزقت كل مكتوباته من الأوراق و الكراريس، و وضعتها في صحن، و طرحت فوقها حجرة التيم لتقدمها كلحم. ثم غطت الصحن بمنديل، وجاءت به إلى زوجها، وقالت له: خُذْ و كل! و إذا بالأوراق تتحول إلى ثريد و حجرة التيم إلى قطعة من اللحم. فأخذ الشيخ يأكل و ينادي زوجته ليدعوها إلى مشاركته الطعام. فقالت: كُلْ وحدك بصحتك! فقال لها: تعالي وانظري إليه و تذوّقيه، إنه لشريد لذيذ! فاندهشت من كلامه و تثبتت من صدقه. فقال لها: في هذه الدنيا، إنك زوجتي، و لكنك لست زوجتي في الآخرة! (5)

---

(1) مراجعة الحاجة فضيلة يلس زوجة عبد الفتاح مزيان، عن حديث معها، يوم 92/11/22 .
(2) أي تطرح القمح و تبسطه .
(3) و هناك رواية أخرى في هذا الموضوع، إلا أنها تنسب القصة إلى سيدي البنّا .
(4) الشريد هو الأوراق الرقيقة التي تصنع من السميد و الزيت و تقدم في مكان الخبز.
(5) ضبط السيدة عويشة صاري عن بطاقة استجوابية مكتوبة .

الرواية الثانية:

كل الجيران قاموا بصنع الثريد إلا أهل بيت الشيخ .فجاءت الزوجة وأخذت تؤنب زوجها .فقال لها: أحضري صحنا .فلما أحضرته، وضع يده عليه متمتما، وإذا بالثريد المسقي يملأ الصحن وعليه قطعة لحم .

النوع الثاني: "الكرامات الرؤى

وهي الكرامات التي تحدث بواسطة الرؤيا". ولقد تناقل الأئمة فضلا عن غيرهم، الكرامة التالية:

في إحدى الرؤى، رأى الشيخ أخاه عليّا مخضبا بالدم، فهجر مسجده، وعلى إثر ذلك، لاحظ الأخ غيابه، فاشتكى لأمه الأمر". فلما سألت الأم الشيخ السنوسي، أطلعها على سر. وعندما أعلم علي بالقضية، اعترف بأنه كان يومذاك، منشغلا بمسألة خطيرة وعويصة تتعلق بموضوع الحيض. (1)

النوع الثالث: كرامات الإلهام أو الفتح الرّبّاني

وللسنوسي خوارق تدل على تأثيره في الأشياء، وذلك بالإمداد الإلهي (2). ولنا في هذا النوع من الخوارق أربع كرامات يتناقلها الناس وكذلك، كتب السير والمقالات عن الذاكرة الشعبية .

أ) الكرامة الأولى :

في عصره، كان الشيخ السنوسي يداوي الناس". من ذلك، أن امرأة كانت تعاني من مرض "مزمن"، فقصدت الشيخ وانتظرته عند خروجه من الحمام قبالة مسجده، او من الدرب الذي يمر به عندما ياتي من بيته الى المسجد، فعندما عرضت عليه المرأة المريضة قضيتها وما بها، قال لها: في الدّلو الذي توضأت منه، بقي نصف الماء، فاغتسلي به .

فاغتسلت وذهب المرض . (3)

(1) رواها الأستاذ الثقة، السيد ابو بكر شعيب عن شيوخه، وقد رووها هم أيضا، عن شيوخهم .

(2) يقول ابن خلدون: « وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضا، في أحوال العالم، وليس معدودا من جنس السحر، وإنما هو بالإمداد الإلهي لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوءة وتوابعها، ولهم في المدد الإلهي حفظ على قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم بكلمة الله... فما لا يقع لهم فيه الإذن لا يأتونه بوجه، ومن أتاه منهم، فقد عدل عن طريق الحق..» (المقدمة، ص: 502) .

(3) ضبط السيدة يلس فضيلة، زوجة عبد الفتاح مزيان". ولا شك أن لكتاب مجربات للسنوسي تأثيرا في إلهام الخيال الشعبي .

ب الكرامة الثانية:

خرج السنوسي يوما، إلى "بني ورنيد" (1) وحضر وقت الصلاة، ولم يكن معه ماء للوضوء، فدعا ربه، فأمطرت السماء، ووجد ما يتوضأ به. ولهذا يلقبه أهل تلمسان بذي الوقفة أي سلطان الجفاف (2).

ج الكرامة الثالثة:

اشترى رجل لحما من السوق، فسمع الإقامة للصلاة في مسجد السنوسي. فدخل واللحم في غطاء برنسه، فخاف من طرحه، فوات ركعة، فدخل في الصف وكبر. فلما انتهت الصلاة وعاد إلى بيته، طبخت زوجته هذا اللحم، فبقي فوق النار إلى صلاة العشاء. فأرادوا طرح اللحم، فإذا هو بدمه لم يتغير عن حاله. فقالوا: لعله لحم شارف. وباتوا يوقدون عليه إلى صلاة الصبح. فلم يتغير عن حاله حين وضعوه. فتذكر الرجل، وذهب إلى الشيخ، فأخبره بما وقع، فقال له: "يا بني" أرجو الله تعالى أن كل من صلّى ورائي لا تعدو عليه النار. ولعل هذا اللحم كان معك حين صليت معي. ولكن أكتُمْ ذلك".

د الكرامة الرابعة:

إن امراة ضاع منها مفتاح بيتها، وحاولت بكل ما تملك من جهد وحيلة، أن تستحضره. فوضعت يدها على حديد مسنون ونادت: يا جاه سيدي محمد بن يوسف السنوسي، وإذا الباب ينفتح وكانت الدعوة مستجابة. (3)

ثانيا: أساطير وخرافات ومعتقدات تلمسانية ومرويات أخرى:

---

(1) قبيلة بربرية تتمركز بمنطقة "ترْني" في الجنوب الغربي من تلمسان.

(2) يحيل أ. بيل، في مرجعيته لهذه الكرامة، على البستان لابن مريم، ص: 237_248). ولكن لا وجود لها في هذا الكتاب أصلا. انظر:

Revue africaine, A. Bel, L'Islam mystique, V. 69, année 1928.

و "الوقفة" هي انقطاع المطر. ويذكر لنا الأستاذ أبو بكر شعيب أن الناس، وأغلبهم طلبة وحملة للقرآن، كانوا يجتمعون في العُبّاد السفلي بين روضة السنوسي وضريح أبي إسحق الطيّار للمشاركة في "الوعدة" حيث يتناولون الطعام المحلّي ويتوسلون بالسنوسي ليستجيب الله لهم بالمطر.

(3) انظر، ابن مريم، البستان، ص: 245. إن الاختلافات التي تجيء بها المرويات الشفوية، تنحرف أحيانا عن جوهر الخارقة.

1ـ أساطير تلمسانية:

فـفيما يتعلق بالحكايات الأسطورية، نسجل اثنتين، الأولى بروايتـيْها، تبرز مدى إسقاط الخيال الشعبي من مكنونات دفينة و مقدسة تذكرنا بدخول النبي (ص) المدينة المنورة و هو على ناقته، و بقصة دخول أبي مدين شعيب تلمسان (1). وأما الثانية، فإنها حدثت في وقت وفاة الرسول إلا أن الأسماء و الأماكن تختلف .

أ ـ الأسطورة الأولى في مدفن الشيخ السنوسي: نقدمها في روايتين .

الرواية الأولى:

كان الشيخ مع أصحابه في سفر، وعند عودتهم إلى تلمسان، سقط مريضا و لم يصح بعده .فقال الشيخ لهم: إن مت ، فأدفنوني عند مسقط هذه البغلة التي أمتطيها . فسقَطت في المرة الأولى، بجانب "الصفصيف" (2) ".ثم قامت و سارت إلى أن عـثرت ثانية، عند كوم من الأشواك. ثم ساعدها الأصحاب على القيام، و تابعت طريقها إلى "العباد السفلي" حيث سقطت ميتة. و في مكان سقوطها، دفن الشيخ ، و دفنت البغلة في موضع ليس بعيدا عنه، و هو الموقع الذي بنيت فيه ثانوية تعرف بإسم "يغمراسن" .

الرواية الثانية:

قبل موته، و قِيلَ يَوْمَ موته، يُغسّل الشيخ السنوسي ، و يكفّن و يرفع فوق بغلته . و تترك هذه البغلة تشق طريقها أينما تشاء .وعند المكان الذي تتوقف فيه أثناء سيرها، يدفن الجثمان .فتوقفت البغلة بناحية "العباد السفلي" ، و ثمة دفن الشيخ .

ب ـ الأسطورة الثانية: و هي أسطورة "كل من عليها فان":

دخل السنوسي على النساء في درس من الدروس التي تعوّد على إلقائها عليهن و هو في حالة يَظْهرعليه الحدادُ .و لما سألْنـه عما يحزُنه، قال: إن النبي محمّدًا قد مات. فانْهمرت النساء في البكاء .وغضب الشيخ عليهن و اندهش من أمرهن، لأنه طالما لقّنهنّ أن كل من عليها فان، و يبقى الله الحي الذي لا يموت. (3)

---

(1) انظر، ابن مريم، البستان، ص: 113". و في الأساطير التلمسانية، قصة مماثلة تنسب إلى أبي مدين .

(2) الصفصيف اسم لقرية و منطقة فلاحية على بعد ستة كلومترات من تلمسان في الشمال الشرقي .

(3) رواية المدرّسة بـجَمْع باب سيدي بومدين، السيدة بوخالفة". و مصدر هذه الأسطورة في حكايتها، تستأثر به النساء .

2 ـ خرافات تلمسانية:

من الخرافات التي شاعت في تلمسان عن الشيخ السنوسي، حكاية "بو قبرين".
ومفادها، أن الشيخ مدفون بتلمسان وببني سنوس بنواحي مدينة الخميس. وللأسطورة عدة روايات، تكاد تتفق على أن السنا وسة نبشوا القبر، ونقلوا جثمان الولي إلى منطقتهم ببني سنوس. إلا أن التلمسانيين أرجعوه إلى مكانه بـ "عين وانزوتة". ولكن السناوسة أعادوا الكرة من جديد. وهكذا... إلى أن وقف الشيخ حيًا بلحمه ودمه، يخاطب الجميع بقوله: ما بالكم تتخاصمون؟ إني مدفون هنا وهناك.

3 ـ معتقدات تلمسانية:

فيما يتعلق بهذه المعتقدات، حفظت لنا الذاكرة الشعبية مجموعة مثيرة نكتفي منها بذكر قصة واحدة، وهي في موضوع تراب قبر السنوسي. إن من يدخل ضريح الشيخ، لا يفوته أن يلاحظ أنه منبوش. وعند السؤال، سيكتشف ميدانيا، ويستنتج أن نسبة هامة من الناس وخاصة منهم النساء، يعتقدون أن التراب المنبوش يفيد في أمرين:

الأول: عندما تحل الموت بأحد أفراد عائلة، يتألم الأهل والأقارب. وقد يشتد الحزن والكآبة لفترة، على بعضهم. وعندئذ، يؤتى بشيء من تراب ضريح السنوسي، ليوضع في كوب ويصب عليه الماء. وبقصد المزج والحلول، يترك يوما حتى يطفو الماء على التراب. وحينئذ، يقدم المحلول إلى المكتئب الحدود، فيشربه، فيخف عنه الألم. ثم عندما يجف التراب الراسي بالكوب، يعودون به إلى مكانه بالقبر. وعندئذ فقط، يتلاشى الألم ويتبدد الحزن.

الثاني: إن الطفل الشغوب القلق، ينقل، بقصد المداواة، إلى زيارة الضريح حيث يتبرك بأخذ قبضة من تراب قبر الولي ليدلك به جسم الطفل جميعا. وعندئذ، تحل البركة فيهدأ القلق ويصح الطفل. (1)

4 ـ مرويات أخرى:

---

(1) ضبط السيدة فضيلة يلس.

ومن المرويات التربوية التي تخص طريقة السنوسي في الإقناع، يحكى أن الشيخ ـ دفاعا عن طريقة تعليمه المؤسسة على العقل لدى الكبار والصغار، ورغبة منه في إقناع خصومه ـ التقى في خروجه إلى المسجد، بمجموعة **من الأطفال، واغتنم الفرصة للتحدث إليهم. وكان في حديثه معهم، يخاطبهم بلغة العقل والمنطق، ويفهمونه. فتأكد له من** خلال تجاوبهم معه، أنهم كانوا يدركون جيدا، ما كان يقول. ويحكى أن هذه الحادثة، كانت عند الشيخ، مرجعا يلجأ إليه مرارا ليبرهن للناس أن الأطفال ـ والنساء أيضا ـ ليست عقولهم دون التفكير العقلي (1) .

وهكذا، فإنه يمكن القول بأن السنوسي الذي حملته الذاكرة الشعبية عبر الأجيال والقرون، من خلال هذه المخزونات الخارقة، **رجل** أحبه الله فأكرمه، وقدره الناس فنسجوا حوله من الأساطير والخرافات والمعتقدات، ما يجسد مشاعرهم نحوه، ويزيد من تثبيت فضله وتخليد اسمه.

---

(1) ضبط ومراجعة السيد شعيب ابو بكر المعصوم.

الجزء الثالث : السنوسي في الشعر الشعبي و المثل الشعبي

أولا : السنوسي في الشعر الشعبي

1- في شوائع الشعر العامي

2- في الشعر الفصيح

ثانيا : السنوسي في الأمثال الشعبية

ليس من السهل تحديد مفهوم الشعر الشعبي تحديدا دقيقا نظرا إلى ما تثيره كلمة " شعبي " من اختلاف في المدلول واضطراب في المقصود .

يرى بعضهم أن المقصود بهذا المفهوم، هو الشعر العامي أي " المنظوم " باللغة العامية أي " الدارجة " وهي اللغة التي يفهمها العوام من الناس .

ويرى البعض الآخر أن المقصود به هو الشعر الملحون أي ذلك المنظوم من الكلام الذي لا يتشدد في احترام قواعد اللغة الأكاديمية، أو هو " المنظوم " الذي يستعمل للغناء". وقد يكون مقصوده المعنيين معا .

وإذا نحن اكتفينا بهذين الموقفين فقط، لاحظنا ـ على ضوئهما ـ أن عبارة " الشعر الشعبي " تؤدي بالباحث المدقق إلى استنتاجات منطقية وإيديولوجية خاطئة". منها :

1 ـ عندما ننعت شعرا بصفة " شعبي " ، يحتمل أننا نقصد التمييز بينه وبين شعر

غير شعبي .وإذا كان كذلك، فماذا سيكون هذا النوع الثاني ، وما النعوت التي تلائمه؟

2ـ إذا أخذنا صفة "الشعبي" على أنها تعني "العامي" ، وجدنا أنفسنا أمام هذه الإشكالية وهي أن هناك شعرا عاميا وآخر غير عامي ، أي أن هناك صنفا خاصا بالعوام، وصنفا تابعا للخواص . وهذا خطأ أيضا، لأن ما يسمى بالعامي قد يتعلق به الخواص من الناس كما في قصائد ابن مسايب والأخضر بن خلوف، أو العكس بالعكس كقصائد البردة و "ابن عاشر" و "قسمًا" و "طلع البدر" و"إلياذة الجزائر" .

3ـ **إذا اعتبرنا ، أنه شعر ملحون، فإن هذه التسمية** لا تسلم من انحراف منطقي خطيره وهو أنها توحي بأن هناك من جهة، شعرا يغنّى ، وآخر لا يغنّى من جهة أخرى . فالأول لا يغنى إلا لأنه شعبي ، والثاني ليس شعبيا إلا لأنه لا يغنّى .فالشعر الشعبي إذن، هو الصنف الوحيد القابل بالضرورة للغناء .أما الشعر الذي لا يغنّى ، فلا حوله حتما، **في أن يتّصف** بصفة "الشعبي ".ولكن، هل حقيقة، كل ما يسمى بالشعر الشعبي يغنى ؟ وفي مقابل ذلك ، هل الشعر غير الشعبي لا يتحول إلى ألحان ولا يطرب آذانا؟

إن هناك ما يدعو إلى التفكير في وضع مفهوم جديد، تفاديا للأخطاء التي تنجم عن استعمال عبارة الشعر الشعبي أو العبارات المتداولة القريبة منها . فالشعر سواء كان بلغة عامية أو بلغة أكاديمية، إذا استطاع أن يتغلغل في أعماق كل الفئات الشعبية واستطاع أن يهيئ لها و للسّياسيين، أسباب التجاوب معه، كان حقيقة، شعرا شعبيا . ويبدو أنه لا يستطيع أن يرقى إلى هذا المستوى إلا إذا كان حاملا لانشغالات الشعب اليومية وهمومه وتطلعاته المستقبلية و ميوله .

ولهذا، فانفراد الشعر العامي بصفة "الشعبي" ، لا يقبله الواقع.وإذا كان لا بد من وضع مفهوم جديد لهذا النوع من الشعر، فإننا لا نرى من العبارات ما هو أقرب وأدق من عبارة "شوائع الشعر العامي "بدلا من الشعر الشعبي .نقول، شوائع أو شائعات نظرا إلى انتشاره عبر العصور، في الأوساط الشعبية .وعلى هذا الأساس، فإن الشعر الشعبي ، كما حددناه، اعتنى بالشيخ السنوسي وعرف كيف يذكره .

أولا: السنوسي في الشعر الشعبي

ما مكانته في الشعرين: العامي و الفصيح ؟

1 ـ في شوائع الشعر العامي :

في هذا المقام، اخترنا شاعرين معروفين على الصعيد الوطني : الأخضر بن خلوف، و محمد بن مسايب. فالأول زجال جزائري تخصص في مدح الرسول (ص). كان حيا سنة 1508م حسب قصة مزغران التي نظمها بشأن المعركة التي دارت بين الإسبانيين و الجزائريين. وتوفي بدوّار يحمل اسمه قرب مدينة مستغانم (1) . أما الثاني، فنشأ في تلمسان بحي باب زيري، حيث درس الفقه و النحو و حفظ بعض القرآن. واحترف صناعة الزرابي و الحياكة. و لقد وجد في الإسلام ـ بعد الشباب ـ مصدر الاستقامة و العفّة. فمارس التصوف إلى درجة أن اعترف له من عاصروه، بحقه في الولاية (2) . توفي في مسقط رأسه سنة 1190هـ/ 1768م، و دفن بمقبرة الشيخ السنوسي، و ضريحه قريب من روضة الشيخ في الجهة الشرقية .

أ ـ الأخضر بن خلوف:

فعن "منظومات" هذا الشاعر، انتقينا في العقيدة، قصيدة يصل عدد أبياتها إلى اثنين و ستين، و في التوسل، ستة أبيات.

* المنظومة الأولى : عقيدة الشيخ السنوسي زجلا : في هذه القصيدة تبرز عقائد السنوسي الأربع و خاصة منها الصغرى، يحفظها الأطفال و النساء، و تقرؤها النساء في الجنائز.

1 ـ الحمدُ و الشكر لِـيـه . ˙ . و الصلاةُ على نـبِـيـه

2 ـ لا تَذْهل لا توهَمْ فيه . ˙ . بِـهذا النـقْل و الرسَم

3 ـ الـوجـودُ ذاتُـه . ˙ . و العـدم ضـدُه

4 ـ لا سابق قبْلُـه . ˙ . لا شك و لا وهَـم

5 ـ الـقِدَم راس السُّلوب . ˙ . كالصابون إلى الـثّـوب

(1) Mohamed BELHALFAOUI, La poésie arabe maghrébine, texte arabe et traduction française, François Maspéro, Paris, 1973, Notes biographiques, p.204.

(2) يقول المثل الشعبي التلمساني : "سيدي مسايب، حضّرْ الغايَبْ" . (أنظر، جمال الدين بوقلي حسن ، ما سمعته في تلمسان ... ، حرف السين .

6 ـ طهّرْنا من الذنوب يا قهّار اللاّ يم
7 ـ الباقي هو الباقي انْف ألفنا يا تقي
8 ـ هذا حقا تحقيقي كالمقرّ للخصم
9 ـ مخالفتُه صفَة مماثلته تُهفَتة
10ـ اعرف هذه المعرفة تنفي الشيطان الذّمّ
11ـ القايم بنفْسُه لا يفتقر لغيُره
12ـ أمرا كان بأمره وحدوث العالم
13ـ الواحد إسم الوَدود ينفي عنه التعدُد
14ـ لا حاسد ولا محسود لا عرض و لا جترم
15ـ القادر هو القدير انسب إليه التأثير
16ـ انْفِ العجز بالتدمير في أسفل التّخَم
17ـ إرادته مريد و الكراهة له مضِدّ
18ـ مميز به المريد لا عقلا و لا فَهَم
19ـ العلم عالما فرعا يتعلق جمعا
20ـ بالمعلومات معًا انْف الجهل و الوهم
21ـ و حياته حيا أمره مؤديا
22ـ انْف عنه الموتيا حياته دائم
23ـ السميع سميعا للمخبأ جميعا
24ـ انْف الصمم مطيعا يا فاهم الناظم
25ـ كلامه كلاما لا ديا فيه فيما
26ـ انف عنه بكما كلامُه قائم
27ـ البصير بصيرا يبصر بلا ناظرا
28ـ انف عين البصرا منور الظّلَم
29ـ صفات الله عشرين بالمستحيل ربعين *

30- انف و اثبت المبين — اذا كنت فاهم

31- الغنى المغنى — في حق مولانا

32- كل شيئ للفنا — ما سواه عدم

33- النفسية و السلبية — يا رب تلْطف بي

34- امْح مما عليّ — مما كتبوا الكرم

35- الدليل تابعا — و برهانا قاطعا

36- للإسلام نافعا — ما يحرم غير الرّوَم

37- أحد عشر هما — تدخل تحت الاستغنا

38- يا جاهل للمعنى — علمك بلا علم

39- تسعة للافتقار — ما يفتقر الجبار

40- يا شامل الأنظار — لكل ذا أنم

41- ثلاثة أضيفا — للاستغناء عرفا

42- اهدنا للمعرفة — يا منقذ النايم

43- الإيمان بالله — و الكتب بأسمائها

44- و الاملاك وأُرساله — و باليوم القيم

45- الجائز في حقهم — كالمرض ونحوهم

46- و الأكل و شرابهم — و الشرع بلا ظلم

47- الصدق و الأمانة — أمّر بهم مولانا

48- وتبليغهم الجنة — أحمد خير الأنم

49- الكذب والخيانة — و الكتمان أو ما قلنا

50- محالا على نبينا — ذا الصادق العمم

51- تضمن لي الشهادة — واعرف ستين عقيدة

52- و زد ستة فايدة — وادخل في السلم

53- اللي يحفظها مضمان — ينجا من صهدالنيران

54- يحضر له طه العدنان — في الرمثر و القيم

55ـ اللي يحفظها محجوب	غالب ليس مغلوب
56ـ ياتي رزقه موهوب	فضلا من الكرم
57ـ نظّمْتها بالمردوف	لأخضر اسمه معروف
58ـ أبي وامّي يا رؤوف	الاخوان مع الدم
59ـ يا غفار اغفر ذنبي	أبي وأمّي يا ربي
60ـ بجاه النبي العربي	أحمد خير الأنم
61ـ نختم قولي بالصلاة	على محمد بالثبات
62ـ نجنا من الأفات	يا مولانا المعظم (1)

* أبيات التوسل: ونسجل منها، على سبيل المثال، الأبيات الستة التالية:

1ـ بحرمة السنوسي وابن عباد	بحرمة الحروف و ما في الأسوار
2ـ بحرمة المذاهب زوّل أنكادي	قدمت لك رجال الله الأخيار
3ـ والشيخ العروسي و مولى بغداد	وجميع المهاجرين مع الأنصار
4ـ أسرع من السهم يأتي عندي يوم الفدا	واهل القفار تنادي في القفاري
5ـ راه بن خلوف راغب فيه هذه مدة	الاخضر يمدحه ليلا ونهاري
6ـ أمنْ درى وَاشْ يفعل بي ربي غدا	نار الجحيم والا محمد جاري. (2)

والملاحظ هنا، أن الشاعر يُسبق حرمة السنوسي على ابن عباد، **الروندي**(ت1390م)، مقام سيدي أبي مدين، لا بل على الحرف العربي، و سور القرآن (3).

ب ـ أبوعبد الله محمد بن مسايب:

ومما أنشد الشاعر ابن مسايب، هذه الأبيات التي اقتطفناها من أربع قصائد مشهورة. ولقد وضعنا رقما في أول كل بيت إشارة إلى موضعه الأصلي في التسلسل الذي

---

(1) رواية الحاجة عويشة ستوتي زوجة قهواجي. مراجعة السيد جيلالي قهواجي.
(2) عن ديوان لخضر بن خلوف، جمعه بخوشة،
(3) وعن كلمة الأسوار، هناك احتمال أن يفهم منها الأسوار المسيّجة لمدينة تلمسان أو الجدار كرمز للأساس الروحي للمدينة.

أراده له الشاعر.

* القصيدة الأولى :

1 ـ أراد كيف فعل، ما لها اختيار سبق لها في الأزل، هكذا تكون

2 ـ ضاعت وأخلاها الهول، مدينة الجدار ما بقى فيها باشر تعاند المدن

3 ـــــ هكذا قدر من أنشأ الليل و النهار ــــــ ..

11 ـ وين هي يا حسراه وين ناسها زينة الهمة ما مثلها بلاد

12 ـ كانت عروسة والتاج فوق راسها قاعدة في مجالس ما راها فساد

13 ـ صنعها حسن بهيج مطبوع لباسها زينها زين غريب و ناسها جواد

14 ـ نصرة للمومنين شديد بأسها حاربت وقالت أنا طالب الجهاد ...

29 ـ صاحب التوحيد سكنها و أشار لاهل العلوم قرأت في الفنون

30 ـ من أصناف الخيرات الدر والحجارة فوق ياقوتة وجميع ما في الكون

31 ـــــ ما بقى فيها باشر تعاند المدن ـــــ (1)

من خلال هذه الأبيات، نفهم أنه لا يمكن أن تقوم لمدينة تلمسان قائمة دون معالمها وأصحابها، ومن أشهرهم الشيخ السنوسي الذي ينفرد وحده بهذه الكنية، "صاحب التوحيد".

* القصيدة الثانية:

وفي قصيدة "خاطري ودليلي حيران"، ننشد مع ابن مسايب انطلاقا من البيت الحادي عشر:

11 ـ قم يا سابغ الأثماد نرسلك تمشي طواف

12 ـ اقصد أقطاب العباد و البعل و أصحاب الكاف

13 ـ أولهم سيدي عباد و السنوسي و الأطراف

14 ـ جميع أهل الله أسياد كلهم من الحاء والقاف

15 ـ اقصد رجال أهل الديوان زرهم وتوسل بهم عوامد الدين

---

(1) ديوان ابن مسايب، إعداد وتقديم، الحفناوي أمقران السحنوني وأسماء سيفاوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص: 19 ـ 20.

16ـ من قبـض بهم مـا ينـهـا ن ما يخاف عوارض من حصنه حصين .(1)

فالشيخ السنوسي من أهل الله الأسياد وعمداء الدين وأقطاب العبّاد تجب زيارته والتوسل به .

✳ القصيدة الثالثة:

وفي قصيدة "يا أهل الله غيثوا الملهوف"، ومن غير أسبقية في ترتيب الصالحين الأولياء، ينشد ابن مسايب بلغة الشوق والحنين:

25ـ وين أبو جيدة و الشـاوي	بالحـزام و البـرناوي
26ـ صاحب السر المعناوي	من جبر عبد الحق أخوه ...
43ـ وين أهل البطمة والباب	الجدار و سيدي وهاب
44ـ والمخمر يعقوب الشاب	من أحكم في الجن وخدموه ...
71ـ وين سيدي الحاج العشري	السنوسي و ابن المقري
72ـ والفقيه أحمد بن زكري	المغيلي معلوم أصله
73ـ وين من تأتيه الزيار	تجيه للبلاد في كل نهار
74ـ وين الشيخ أبو مدين	شامخ القدر المتعين (2)

✳ القصيدة الرابعة:

وفي قصيدة مشهورة بعنوان "يا ورشان اقصد طيبة"، نتأكد أكثر مما عرف به الشيخ لدى الخاص و العام. يقول الشاعر انطلاقا من البيت السادس:

6 ـ نرسلك من باب تلمسان	سرْ في حفظ الله و الأمان
7 ـ بعد ما تزور بلا تمنان	كل من هو والي فيها
8 ـ زر قطب العبّاد و زد	السنوسي مولى التوحيد
9 ـ لا تخلف في أهل الله سيد	كلها واجبْ تحصيها.(3)

---

(1) ديوان ابن مسايب، ص: 35 .

(2) ديوان ابن مسايب، ص: 90 .

(3) ديوان ابن مسايب، ص: 100 .

2 - في الشعر الفصيح :

في حوزتنا ثلاثة أبيات شعرية تنسبها الذاكرة الشعبية إلى الشيخ السنوسي في مدح سيدي أبي مدين حيث يؤكد فيها الشيخ القطبية للغوث أبي مدين. والقطبية تقتضي أن يعيش كل الناس تحت ظلها. فهي ترعى الجميع بما فيه السنوسي. والوجود الروحي لدى سيدي أبي مدين، الذي يجري في شريان كل من هو في حمايته، يحصن الجسم والعقيدة ضد كل أسباب الخوف والقلق. وكان الشيخ السنوسي يعتبر نفسه تابعا وداخلا في السلسلة الروحية البومدينية و يعتز بها.

والأبيات يرددها الذاكرون في مسجد أبي مدين كل جمعة، وهي :

1- أبا مدينَ شيخَ المشائخ كلهمُ ... فأنت الذي قطبٌ من غير تلعثم

2- خفير تلمسان وجيران أهلها ... ونحن وكلُّ الناس في ظل ضيغم

3- فمن يقرب الأشبال والليث حاضر ... يحقّ له خضب الأنامل بالدّم. (1)

ثانيا: السنوسي في الأمثال الشعبية:

لا يخلو بيت من بيوتنا ولا معاملة من معاملاتنا اليومية من استعمال المثل الشعبي. والمقصود به هو كلام قليل اللفظ كثير المغزى، يحمل حدثا أو حكمة في لغة سهلة على اللسان، رقيقة على الآذان. فهو يدرك من الكلام لبّه، ويختار من الألفاظ أرقّه وأكثره وقعا. فهو بمثابة الجوهرة التي لا تفقد لمعانها بعد انقضاء الكلام وذهاب سياقه الفكري. وهو بظروفه لا بحروفه، بعبرته لا بعبارته. وإذا جاء مركّز المفردات، فلأنه مركّز الحِكم والخبرات... وعليه، فإنه يُثري منظوم الكلام ومنثوره من غير تجريح. إنه يرق للآذان ويستجيب للنُّشدان، فتذكره الحافظة للاتّعاظ في الدين والدنيا، وترويه شهادةً على شرف المعدن وقيمه العليا. (2)

ومن الأمثال الشعبية التي ما تزال تسير على لسان التلمسانيين، قولهم: "ما أبقى لك غير الشيخ السنوسي"، وقولهم أيضا: "ما أبقى لك إلّا لا إله إلا الله وطريق

(1) ضبط ومناقشة مع الأستاذ شعيب أبو بكر المعصوم، في أكثر من جلسة.

(2) جمال الدين بوقلي حسن، ما سمعته في تلمسان من مثال ...، توطئة.

الشيخ محمد السنوسي" .(1)

ولعل التفكير في الرد على بعض التساؤلات يعيننا على فهم المغزى من المثلين السائرين .من ذلك مثلا،لماذا تعرف المقبرة المركزية في تلمسان بمقبرة الشيخ السنوسي ؟ولماذا لم تحافظ على أسماء المنطقة القديمة، مثل "عين وانزوتة" و "العبّاد السفلي" ؟ولماذا لم تتبرك المقبرة بأسم عليّ التالوتي أخي الشيخ لأمه أو بأبن زكري(2) المدفون بعين المكان رغم شهرته وشعبيته المتمثلة في الدفاع عن عقائد معظم العوام؟

إن العُبّاد مقرون بأبي مدين رغم أن هناك من سبقه في الدفن .ونحن نعتقد أن الناس يقرنون العبّاد بسيدي أبي مدين لغوثيته وقطبيته في التصوف .ولكن، هل تكفي مثلا، قطبية السنوسي في التوحيد حتى نعلل إقران المقبرة في الذاكرة الشعبية، بأسمها الحالي ؟

لا شك في أن القطبية في التوحيد لها دور في القضية .والذاكرة الشعبية، في تصورنا، أرادت إلى جانب ذلك، أن تذكر "صاحب التوحيد" وتخلد أسمه لما يشبه التعليل التالي: إن المؤمن، لما كانت إحدى فرحتيْه لقاءه بربه، فكأنه بذكر الشيخ تقوى عقيدته، وتتحصن وتبقى في مأمن عن كل نسيان، وبأنه أيضا، يريد التعبير- بإيمانه المطعم - عن لحظة انشراحه وسعادته للالتحاق بالرفيق الأعلى .وفي المثل الشعبي التلمساني الأول، ما يعبر عن هذا الاستعداد لهذا اللقاء، وعن التذكير بالموت وبالالتحاق بالله عز وجل .وتجدر الإشارة إلى أن التلمسانيين يستعملون هذا المأثور أيضا، لمقصدين: للإعلان عن اقتراب الموت، وكذلك للتعبير عن سوء نيّة الداعية الذي يتمنى الشر لمن يدعو له .وعندما تتقدم السن بالمرء، و يأخذ في التخريف، ويضيع منه بعض الصواب، يذكرون المثل الثاني .

quelle est la doctrine officielle de l'époque ? de la Royaume ?

تبين لنا إذن، في هذا الفصل، أن الذاكرة الشعبية اهتمت بالشيخ السنوسي في مستويات مختلفة، المادية منها والاجتماعية والشفوية، ولعبت دورها في تخزينه وفي

---

(1) جمال الدين بوقلي حسن ،المصدر السابق، حرف الميم .

(2) ضريح ابن زكري محوّط، لا باب لمدخله، يوجد على بعد 75 م . من قبة الشيخ السنوسي وفي الناحية الجنوبية الغربية منها .

تدعيم أمارات تثبيتية و خلق أطر اجتماعية جديدة، إستطاع الشيخ من خلالها، ومن هذا المنظور، أن يتحدّى مقاصد الإنسان المتعاقبة في الزمان .

هذا عن بعض الصور التي حفظتها الذاكرة الشعبية عن السنوسي، في إطارها الوصفي .فكيف يمكننا تحليلها والنفاذ في أعماقها؟

الفصل الثاني : دراسة تحليلية لمخزونـات الذاكرة الشعبية عن السنوسي

القسم الأول: الأســاس المنهجي للدراسة التحليـليـة

القسم الثاني: تطبيق الأساس المنهجي على مخزونات الذاكرة الشعبية

مقدّمة الفصل الثاني

نسعى في هذا الفصل، إلى تحليل أهم مخزونات الذاكرة الشعبية التي سبق عرضها و وصفها. وسنحاول لهذا الغرض، و في مرحلة أولى، ضبط الأساس المنهجي الذي يساعدنا على تحقيق هذا المسعى بحيث نقدم من جهة، أدوات التحليل و قواعده، و نعدّ من جهة أخرى، الوحدة القياسية أو المرجعية النظرية التي تمكننا من إدراك مدلول الإنتاجات الثقافية لأهل تلمسان، المعقولة منها و "اللامعقولة"، و فهم منطقها الداخلي .

هذا، وسنتّجه في مرحلة ثانية و على ضوء هذه القاعدة المنهجية و هذه الوحدة المعيارية، إلى تفسير المخزونات المادية، و الاجتماعية، و الشفوية، التي قدمنا معطياتها في الفصل الأول .

القسم الأول: الأســاس المنهجي للدراسة التحليلية

الجزء الأول: أدوات التحليل و قواعده

الجزء الثاني: تلمسان مدينة أسطورية، كوحدة قياسية

الجزء الأول: أدوات التحليل و قواعده

أولا: حذر و تنبيه

1- ضرورة العمل الميداني
2- كيفية التعامل مع الآثار المادية
3- كيفية التعامل مع الأوقاف
4- كيفية التعامل مع المخزون الاجتماعي
5- كيفية التعامل مع المرويات

ثانيا: تفسير التراث بنفسه

1- التحرر من تقابل مفهومي الفكر السحري والفكر العلمي
2- التحرر من عقيدة الغربيين في المفهومين
3- أصل الثنائية بين المفهومين حضاري
4- الوعي بالموازين الغربية

أولا: حـذرٌ و تنبيه

1- إن الدراسة الوصفية لمعطيات الذاكرة الشعبية، تستوجب منا ضرورة العمـل الميداني - كما فعلنا - و المعاينة المباشرة لموضوع الدراسة، و هـي طريقة لا تضمـن الأساس الأول لتحقيق الدراسة الوصفية فقط، إنها أيضـا، تشكل القاعدة الجوهرية التي يقوم عليها التحليل و التفسير.

2- ففيما يتعلق بالآثار المادية، كان لا بد من تحديد شرطين : ما يجب تجنّبـه، وما يجب الأخذ به.

أ- أما الشرط الأول، وهو ما يجب تجنّبه، فكان فيه حرصنا شديدا على الحذر من الأحكام المسبقة و الأفكار الجاهزة التي تضلّل القارئ و تشوّه المقروء، و من العمل المجرد الذي يعوق الميدان و من التعـميم و التخمين و الوقوع في شباك السـطحيات و القراءات غير الحذرة لما يتحتم قراءته من مقالات وكتب.

ب- و أما الشرط الثاني، و هو ما يجب الأخذ به، فيمكـن فيه، تسجيل خمس نقاط:

- النقطـة الأولى: الدقة في الملاحظة و الأمانة في النقل و الرسم و الوصف و سلامة القراءة للمكتوبات.

- والنقطة الثانية: التثبت من قيمة الأحكام القائمة حول الموضوع في حالة وجودها، و السعي إلى تسـجيل كل ما يرتبط بالموضوع من انطباعات و ملاحظات لبعض من كنّا نلتقي بهم، و إلى تدوين بعض ما يدعو إلى التعـليق و التخيل.

- والنقطة الثالثة: النظر إلى هذه الآثار المادية، من جهة، باعتبارها أشياء، و من جهة أخرى، بوصفها ظواهر تنطوي على شُحنـة من الانفعالات الروحية.

- والنقطة الرابعة: التقاط صور فوتوغـرافية، ووضع رسوم إضافية استكمالا لمـا يحتمل خياليا وجوده في وقته، مع ضرورة الاعتماد على أخصائيين في ميداني الهندسة المعمارية و علم الآثار و التاريخ .

ـوالنقطة الخامسة: و يترتب عن ذلك، الاعتماد على الخيال في رسم ما تهدم من الآثار.

3ـ وفيما يتعلّق بالأوقاف، يتعيّن علينا:

أـ الرجوع إلى التعاليم الإسلامية في فهمها وقراءتها.

بـ تسخير العُرف في تقديرها، و تصور الأهداف التي رسمها الناس لأنفسهم، في تحبيس صدقاتهم الجارية.

4ـ وفيما يتعلق بموضوع المخزون الاجتماعي، و خاصة منه أساس النسيج العائلي، نغتنم الفرصة لإعطاء مفهوم الشرف البعد الحقيقي الذي يأخذ به الناس و العلماء، مع التأكيد على أن الشريف إنما هو بعمله، و التشهير بأسطورة الطبائع الثابتة و سكونية الذهنيات.

5ـ وفي المرويات على اختلاف أنواعها، لا بد من المواظبة على احترام المصادر المباشرة التي جاءت عن طريقها، و العمل على تفسيرها بأدواتها بحيث نستخدم نفس التصورات التي تحملها أو المفاهيم السائدة.

ثانيا: تفسير التراث بنفسه

و من أدوات التحليل أيضا، أنه يتعين تفسير التراث بنفسه، و هو ما نسعى إلى تجسيده في الجزء الثاني من هذا القسم الأول. و لكننا، و قبل الحديث عن هذا المسعى، ينبغي لنا أن نأخذ بعين الاعتبار، التمهيدات التالية:

1ـ إن المبدأ الذي ساد منذ استقلال العلوم عن الفلسفة، و ما يزال إلى يومنا هذا، هو القطيعة بين المعقول و اللامعقول، مع الإشارة إلى أن محتوى المفهومين يختلف من حضارة إلى أخرى. فإذا كان الإيمان في عصر ما، بقدسية العقل الصوري أو العقل العلمي منتشرا، كانت كل المواضيع التي تنفلت من مقاييسهما تُصنّف في قسم اللاعقليات. وإذا رادفنا بين العقل و التقدم و التحضر و العلم، عرفنا النقيض المنبوذ، و هو اللاعقل والتخلف و البدائية و السحر أو الجهل. و إذا انتقلنا بهذه القطيعة، إلى لغة التحليل النفسي، قلنا إن الشعور نقيض اللاشعور، و في اصطلاح علم النفس المرضي، العاقل عدوّ

donc Ratio Rakahf!

ميدان هامل المنطق!

المجنون. أما في مجال آداب القصة والدّين، فتكون الخرافات والمعجزات والكرامات والأساطير منافية لمنطق العقل إطلاقا.

والحقيقة أن الأنثروبولوجيا المعاصرة ـ على ضوء دراسة الإنسان في مختلف امتداداته ـ استطاعت أن تتحرر من تقابل المفهومين، وأن تصل إلى أنه ليس هناك اختلاف جذري بينهما، بل ثمة وحدة تجمع بينهما باعتبارهما مجرد وسيلتين أو طريقتين فنيتين لمواجهة الطبيعة. وعلى هذا الأساس، فالفكر السحري لا يختلف عن الفكر العلمي من حيث إن كليهما فكر ومحاولة في التصدي للعالم.

2 ـ والأمر الذي ساهم في تدعيم هذا التعارض بين الطرفين، اعتقاد الغرب فيه والسعي إلى نشره والدفاع عنه.

ولقد كان وراء هذا التعارض بين المفهومين مفكرو الحضارة الغربية بوجه أخص. ومما زاد الأمر متانة، إيمانهم العميق بأنهم يمثلون المرحلة النهائية والضرورية لكل مسار ثقافي في العالم.

3 ـ ومصدر هذا التصور جاء نا من الثنائية التي أقامها أرسطو وفلاسفة بعده، في تصنيف العلوم، فالعلوم عند هذا الفيلسوف الإغريقي، تنقسم إلى صورية يدرج فيها المنطق والرياضيات، وإلى علوم الواقع، وما يخرج عن القسمين يدخل في دائرة اللاصوري واللاواقعي.

ومن المفيد الإشارة إلى أن تصنيف السلوكات إلى معقول ولامعقول، أو العلوم إلى طبقات ثنائية أو ثلاثية ...، إنما هو نتيجة لمقدمات يسلم بها المفكر، وخلاصة لمبدأ يحركه تمثّل للوجود أو تصور إيديولوجيّ ما.

فإذا كان المبدأ المحرك هو التغير البشري، كانت المفاهيم وما يتبعها من معارف في هيكلتها، بمثابة عضوية ترتقي من مرحلة الطفولة إلى مرحلة النضج. ويتم هذا التغير من خلال قياس "التاريخ" على أساس الارتقاء والتحول أو التقدم أو التطوّر. ومن هنا، نفهم مثلا، كيف جعل أ. كونت الفكر الإنساني يمر بأطوار ثلاثة: الطور السحري، والطور الميتافيزيقي، والطور الوضعي.

و إذا كان المبدأ المحرك هو تقديس العقل بالمعنيين، الأرسطي و الديكارتي، فإن المعرفة، تُصنّف على أساس أن هناك معارف معقولة و معارف لامعقولة. لقد حمل ديكارت ـ رغم تضلعه في الفلسفة ـ من غير هوادة، على "الخيال" معتبرا "المخيلة"، مستودع حماقة و مستقر جنون مؤكدا أنه لا بد للعقل من أن يحمي نفسه من مخاطر الأخطاء و الأوهام خلال عملية الشك. إن العقل عنده، يمثل قوة مطلقة، و هو نقيض الجنون على اعتبار أن كل تخريف و كل شرود عن المعقول، جنون. و لهذا، كان القرن السابع عشر ـ على أساس هذا المبدأ ـ يجْهز بسرعة و قوة، على كل سلوك ينحرف عن جادة الصواب العقلي.

وكانت هاته السلوكات الذهنية الشاردة و المتمردة عن المنطق المعتاد ـ في كثير من الأحيان ـ بمثابة جريمة تستحق النفي أو الحبس أو الإقصاء.

فالتفرقة إذن، بين العقل و اللاعقل، بين الصواب و الجنون، هي واقعة حضارية، مثلها في ذلك، كمثل التفرقة التي سيشهدها القرن التاسع عشر بين "المتحضر" و "البدائي".

4 ـ و على هذا الأساس أيضا، يتقدم المجتمع الغربي لإنكار كل ما لا يخضع له أو يخرج عن نظامه الخاص. فمن الموازين التي يقدر بها الأشياء الثقافية، التشابه، و التميز أو التحديد، و النسق أو النظام.

و لهذا، فإنه يُخشى على الباحث التلمساني الطموح إلى أن يطلب ـ و هو يبحث في تراثه ـ السند من هذه الأدوات المنهجية الجاهزة، لأنه سيسقُط في دراسته، الكثيرَ من آماله و تطلعاته بحيث عندما يُقبل على القراءة، يجتهد للوقوف في تراثه، على كل ما يبدو له أنه يفتقده كـ "العلم" و "العقلانية" و "التقدم". يُخشى عليه أن يقرأ النتائج قبل المقدمات، و يقرأ تراثه بتراث آخر و منهج آخر.

إن المنهج الصحيح هو الذي توحي به طبيعة الموضوع، و إلا حدثت المفارقة، و وقع التشويه. فالمناهج الجاهزة قد أضرت بتراثنا من حيث إنها لم تنطلق من التربة التي فيها نشأ، و فيها نما و ترعرع، و من حيث إنها تصلبت و أصبحت تتصف بصفات أسطورة الطبائع الثابتة، وتنبع من عقلية سكونية تسعى إلى طمس الخصوصيات. إن

طريقة العمل يجب أن تمليها علينا خصوصياتنا التراثية و ذاتيتنا المتميزة التي لا يراها إلا من أراد أن يراها. فلا ينبغي في هذا المضمار، أن نرى الأشياء كما يراها الأوروبي أو نقوّمها كما يقوّمها، إلا إذا حتم علينا الموضوع انتهاج هذه الطريقة.

فليس في الدراسات الأنثروبولوجية أقوى من العمل الميداني الذي يتمثل في ملاحظة الواقع الماثل أمامنا، بحيث ينتقل العالم نفسه إلى عين المكان ليعاينه مباشرة، و يجمع معلوماته بطرق ملائمة، ثم يقوم بتحليلها. و هو بهذا، يضع بين يدي المنقّب أو الفضولي، كل المقاييس التي تسمح له بالتأكد من صدق الملاحظة و جدّيتها. و ليس لأحد التصرف، بالزيادة أو النقصان، بالتجميل أو التقبيح، في الأخبار التراثية و خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالثقافة الشعبية.

و في هذا الإطار، يتحتم علينا أن ندخل الميدان، ليس فقط، بما نحتاج إليه من أدوات و وسائل مادية، و إنما بما نحتاج إليه أيضا، من أطر فكرية و مبادئ فلسفية. إن الدعوة إلى فهم التراث داخل التراث و بأدواته لضرورة ملحة. و ليس من غرائب الأمور أن يدعو الأستاذ عبد المجيد مزيان، إلى إقامة دراسات أنثروبولوجية بروافد فلسفية إسلامية، و ما يترتب عنها من تقنيات و أساليب تفرضها الثقافة الإسلامية نفسها(1). فنفس السلوك أو نفس المظاهر الثقافية لا تكتسي نفس المدلول، تبعا لكوننا في مجتمع تسيطر عليه مؤثرات اقتصادية أو مجتمع يغلب فيه الطابع الروحي، و في نفس المجتمع، تبعا لكوننا في مدينة تراثية أو مدينة حديثة النشأة... هذا، بالإضافة إلى أن كل المرويات التي يحكم عليها باللامعقول، تنطوي على مضامين خاصة، كما هو الشأن تقريبا، في الأحلام، وهي لا تشكّل موضوع معرفة فحسب، بل تتحول إلى أداة معرفية. فتصبح هي نفسها التربة الدفينة التي تتأصّل فيها جذور الواقع. إن الظاهرة "اللامعقولة" إنْ هي أرجعت إلى جوها السحري أو الفكري، تكون مدخلا إلى معرفة أعماق الذات و مفتاح لسان حال اللاشعور الشعبي.

(1) ملتقى الفكر الإسلامي الرابع عشر، بالجزائر، بين 31/ 8/ 1980 و 7/ 9/ 1980.

ويفهم من هذا، أن أيّ سلوك، سواء عقله الإنسان أو لم يعقله مهما كان حاملا لنسقه في ذاته، يعتبر جزءاً من كل، وظاهرة تعيش في مناخ و محيط، و لا تكتسب معناها إلا داخل ثقافة ما، أو على وجه التحديد، انطلاقا من نواة هذه الثقافة و مبدئها. وإذا انتزعت هذه الظاهرة من إطارها و علاقاتها به عموديا وأفقيا، نقدت أهم خصائصها، و يصبح من الصعب التعرف على حقيقتها.

إن الظاهرة العلمية اليوم، بحكم ما ظهر في العلم الواحد من فنون و تخصصات، نسيت النظرة الشمولية إلى الكون، و أنكرت العلاقة التي تربطها بالتفكير الفلسفي. وتتبلور هذه العلاقة في منطلقات العلم الأولية و المسلم بها ضرورة.

لقد كان التصور التقليدي يصل كل العلوم بالمبادئ. فهذا أرسطو مثلا، يضع علم الفيزياء في المرتبة الثانية بعد الميتافيزيقا. ويقصد من ذلك، إبراز تبعية الثاني للأول على أساس أن علم الفيزياء مجرد تطبيق في ميدان الطبيعة، للمبادئ التي تحكمها.

و لكن، مع انتشار الفلسفات الوضعية ـ على اختلاف أسمائها ـ أصبح العلم مستقلا عن المبادئ الماورائية، في أسسه، وصار يطرح على جانب، كل المسائل التي لا تقاس بالعقل العلمي كالخرافات و الأساطير و السلوكات غير القابلة للقياس و للتجريب. و لقد أشار بعض العلماء أمثال كلود برنار إلى خطر هذا التصور، لأنه لا يمكن في رأيه، تأويل الوقائع إلا بمساعدة أفكار و "مبادئ أولية". فبدونها تبقى هذه الوقائع في شكلها الخام، مجردة من كل مدلول و من كل قيمة علمية.

هذا في ميدان العلوم التجريبية الخاصة بدراسة المادة الجامدة و البيولوجية. و لكن، ما عسى أن يكون حجم الأخطاء، إذا تعلق الأمر بعلوم الإنسان، وخاصة منها الأنثروبولوجيا.

إن الظواهر الإنسانية ـ مهما كانت في منظور العلم، وقائع و أشياء ـ ظواهر خاصة من حيث إن لها محتوى انفعاليا يعبر به عن وجودها الحقيقي. فهي لا تتقدم منعزلة و لا منقطعة عن محيط ثقافي معين. و إدراك أسرارها يقتضي الوقوف على مرجعيتها. ولا نقصد بالمرجعية سلم القيم الذي يعتمده البحث الأنثروبولوجي الغربي،

إن المجتمع التلمساني يتأكد بالإيمان و العقيدة، و يتحرك في التاريخ بفكرة "الجرم الإلهي" . فهو لا يستطيع النمو الحقيقي بمجرد العلل القريبة أو المتغيرة .إنه يستمد وجوده و مبررات حيويته من علة مطلقة و مبدأ خالد مثّله بأسطورة الجدار.وعلى أساس هذه "المرجعية" النظرية، نستطيع فهم خصوصيات كل الإنتاجات الثقافية، المعقولة منها و اللامعقولة، و بالتالي، إدراك المنطق الداخلي الذي يقتضي الانطلاق من مقدمات للوصول إلى نتائج .

لقد تعايش و ما يزال، العقل و الكرامة عندنا عصورا و قرونا، و تعايش و ما يزال، التفكير الديني و التفكير العلمي و التفكير الخرافي أو السحري .و ليس في ذلك، أدنى جهل بالأسباب و لا أدنى قصور في الإدراك، كما يعتقد بعض العلماء الغربيين بعقولهم المغلوقة .إن المجتمع التلمساني بحكم عقيدته الإسلامية و عقله المفتوح، يؤمن بمبدأ السببية، و لكنه أيضا، يؤمن بالخوارق المختلفة كالمعجزة و الكرامة (1) . إنه يؤمن بحرية الاختيار و تقرير المصير، و لكنه أيضا، شديد الإيمان بالقضاء و القدر. فسُلّم القيم عنده، يأخذ مقاييسه من موضوع عقيدته باعتباره المصدر في كل شيء .(2) و هذا الموضوع هو علم التوحيد ؛ و لكننا نسيناه .

لقد نسينا بسبب اجتياح التفكير الغربي، أن الرياضيات و مختلف العلوم التي توضع اليوم، في القمة — بحكم معيار اليقين أو التجريب أو المنفعة — إنما كانت خادمة لعلم التوحيد .فلو كان علينا أن نعيد النظر في تصنيف العلوم، بغية إدراك أطر السلوكات الثقافية بتلمسان، لوضعنا هذا العلم على رأس كل المعارف كما فعل الشيخ السنوسي (3)

---

(1) يقول المثل الشعبي : "عاقرة و ولدت، بائرة و زوجت زوج .بوقلي حسن، ما سمعته في تلمسان ...، حرف العين .

(2) من الأمثال الشعبية في هذا الموضوع : "بين الكاف و النون، يكون فيكون"، "كل بلاد و أرطالها" ج . بوقلي ، المصدر السابق، حرف الباء، حرف الكاف.

(3) في الفصل الثاني من الباب الثاني، سنتعرض بالتفصيل لهذه النقطة، وخاصة، في مشروع السنوسي التربوي، حيث يتبين لنا أن التوحيد هو أشرف العلوم لأنه العلم بالله تعالى، و أنه أوجبها و أنفعها، و أنه المشرب المعرفي المطلوب، حتى قال بعضهم:
أيها المقتدي لتطلب علما . " . كل علم عبد لعلم الكلام .

الجزء الثاني : تلمسان المدينة الأسطورية، كوحدة قياسية

أولا : الأسطورة، أصلها و ضرورتها

ثانيا : تلمسان، مدينة أسطورية في أسمائها، و ألقابها

1- في أسمائها

2- في ألقابها

ثالثا : تلمسان، مدينة أسطورية، في تاريخها و شرف نسبها

1- في تاريخها

2- في شرفها

رابعا : تلمسان، مدينة أسطورية، في أوليائها، و علمائها

خامسا : تلمسان، مدينة أسطورية، في شعرها و دواعي وصفها

1- من أسرار تلمسان، شعرا

2- من أسرار تلمسان، نثرا

سادسا : أساس المدينة الأسطوري

1- الأسطورة الأساسية

2- خرافات و اعتقادات تلمسانية

أولا: الأسطورة، أصلها و ضرورتها:

إن التاريخ يكشف أن صناعة الأساطير هي مصدر حياة الناس الثقافية. (1) فهم يصنعونها للتعبير عن إحساسهم بالوجود بطريقتهم الخاصة. ودراستها تساعد الباحث على النفاذ فيما وراء مختلف سلوكاتهم اليومية، و تفتح له إمكانيات الخوض في صميم مستوراتهم وفي غضاضتها، وتسمح له بالوقوف على نظرتهم الخاصة إلى الواقع. لأن الإنسان ليس مفطورا على الاجتماع البشري إلا لأنه أيضا، مدفوع بالطبع، إلى حب الأسطورة. فهو دائما يبحث عنها، و لا يطمئن إلا متى وجدها ليتعلق بها. فإذا ما افتقر وجوده إلى هذا "المبدأ المتعالي"، توغل في عمق تاريخه البعيد، سعيا وراء لقائه أو إبداعه. فليس هناك ما يثير فضوله، و يغذي خياله أكثر من رواية الأسطورة.

و ليس المقصود بالأسطورة (MYTHE) الأكاذيب و الأباطيل (2) كما يراها بعض المفكرين من زواياهم اللغوية أو المنطقية. و إنما هي قصة شعبية خيالية خارقة لقوانين العقل و الكون، تتعامل مع الدين و التاريخ (3)، لها قدرة على التلاؤم مع ما شاءت من الحدود الزمانية و المكانية. ولا يهمها التتابع الزمني للحوادث. فهي ليست من التاريخ، كما يريده العلم، و ليست في محتواها، أضغاث أحلام فارغة من أي مغزى. إنها تعبير ثقافي و طبيعي عن مستورات اللاشعور و مكبوتاته، وحقيقة يؤمن بها الخيال الشعبي.

فالخيال الشعبي قد يختار مادته مما في الأحداث التاريخية من وقائع أخاذة حتى يقدم مبررا لوجوده، و يعطي معنى لتطلعاته. فهو يختار ذلك، لأنه يحبه و يقدسه، و يسعى إلى تعليل سلوك من سلوكاته في مرحلة ما من وجوده. و هكذا، فالأسطورة واقع يؤمن به، وحقيقة يصنعها بكل قوة على حسب ما يريد. و هي تبقى مفتوحة على التغيير و النمو، مع استمرار روايتها عبر الأجيال دون مساس بجوهرها و ثوابتها الروحية و التاريخية.

(1)- Paul DIEL, LA divinité le symbole et sa signification, petite bibliothèque Payot, Paris, 1971, p.31.

(2) انظر، لسان العرب لابن منظور، و الكشاف للزمخشري في تفسيره للآية 25 من سورة الأنعام.
(3) انظر، معجم المترادفات.

هذا، وإذا كان لكلّ مدينة خصائصها، فإن لتلمسان ما يميّزها . و لمعرفة ما يميّزها، طريقان: طريق المعرفة العقلية، و طريق المعرفة" اللاعقلية". فالأول يحتوي على ما يقيسه العلماء بمقولات العقل و معاييره، من أحداث و وقائع، وأما الثاني، فهو تلك السلوكات البشرية التي تنفلت من هذه الموازين، كالأسطورة و الخرافة و الموروثات الشعبية الشفوية . فالطريق الأول يدرك من الظواهر محتواها الخارجي، وأما الطريق الثاني، فيسعى إلى التقاط ما وراء هذه الظواهر. وإذا كان الأمر يتعلق بأعماق مدينة تلمسان، فإن الطريق الثاني هو الأنسب، لأنه يمدنا بمعرفة مختلف السلوكات في جذورها و ما تحتويه في داخلها، من دوافع و تطلعات دفينة.

ثانيا: تلمسان مدينة أسطورية في أسمائها و ألقابها

1 - في أسمائها:

لقد أراد الحظ العجيب أن يكون لمدينة تلمسان أكثر من اسم، فهي تسمى تلمسان وأيضا، بوماريا، و أقادير، و تاقرارت . و هي كلها أسماء مشحونة بكثير من الروحانيات، وتدلّ في حقيقتها، على ما يميّز المدينة و ما يؤسسها، حتّى و إن اختلفت في اللفظ و النطق .

فتلمسان، حسب اجتهاد بعض الكتاب، هي الإسم الأول للمدينة . و الإسم كلمة بربرية تدل عند الزناتيين على المكان الذي يجمع بين اثنين: الصحراء و التلّ (او الساحل ، البر و البحر. و اللفظ الأصلي هو تلشان. ويذهب الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في تحليله اللغوي للإسم، إلى أنه مشتق من كلمة أمازيغية هي تيلموس أو تيلماس، و تجمع على تيليمسان أو تيليماسين بمعنى صبوب الماء أو العين . (1)

أما بوماريا، فهي الاسم الذي أطلقه الرومان عليها، و يقصدون به البستان أو الجنة . والبستان عند اللغويين أرض أدير عليها جدار و فيها شجر و زرع . و ليس بعيدا أن يكون الإسم هذا، مشحونا بنفحات نصرانية، حيث يكون المقصود الجنة المتمثلة في الأرض، والجنة التي وعد الله بها عباده .

---

(1) عبد الوهاب بن منصور، "تلمسان"، تحليل لغوي و تاريخي للأسماء التي دعيت لها حاضرة المغرب الأوسط، مطبعة ابن خلدون، تلمسان ، 1365 هـ، ص: 16 .

والمقصود بـ "أقادير" (1) وهو الإسم الذي اختاره لها إدريس الأول وأبنه إدريس الثاني، هو الجدار، وهو الذي بناه ـ حسب الأسطورة التلمسانية ـ العبد الصالح مع موسى كليم الله. فالجدار إذن، يحتضن شخصين أو رمزين هما: الخضر والنبي موسى (س).

وعندما جاء المرابطون، أضافوا إلى المدينة إسما آخر هو "تاقرارت" (2). والمقصود بهذا اللفظ في لغتهم، المحلة المجدورة أي المحوطة بجدار. يقول عبد الوهاب بن منصور: إنه يعني باللهجة المحلية، الحصن أو الصخرة المنيعة، وإنه ربما كان مشتقا من لفظ أغادير أي جدار المدينة الحصين. (3) ويعتقد بعضهم أن "تاقرارت" لم يحوطها المرابطون (4) لأن بها جدارا ربانيا. وفي كتابات الإدريسي نقرأ أنها مدينة عريقة في القدم محوطة بجدار قوي ومقسمة الى مدينتين يفصلهما حائط.

وعلى ضوء هذا العرض، نلاحظ أمرين:

أ ـ ليست أسماء تلمسان، متباعدة كثيرا في المعنى، رغم أختلاف اللفظ.

ب ـ هي أسماء تحتوي على نفحات روحية، تجعل من المدينة مكانا ربانيا خلق الله فيه من كل شيء زوجين. ومن الرموز التي يمكن أستخلاصها ما يلي:

أسماء المدينة	تلمسان	بوماريا	أقادير	تاقرارت
معانيها	الصحراء + التل	الشجر + الزرع	العبد الصالح + موسى	المحلة + الجدار
	البر + البحر	جنة الأرض + جنة الربّ	علم الله + علم البشر	الرباط + الاحتماء
		بستان بستان الرومان + ابن مريم		مدينتان
رمزها	2 = 1 + 1	2 = 1 + 1	2 = 1 + 1	2 = 1 + 1

(1) في رثاء شيخه المشرفي، يذكر أبو راس "الجدار" أي أقادير، ومما يقول:
لقد فجع الأنام من أجل فقده ... ولا سيما الجدار والمغرب الأوسط
تلاميذه يبكون مما أصابهم ... بنات الهوى في خدهم جعلت خطه
فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص: 56.

(2) شيدها يوسف بن تاشفين غربي أقادير (472هـ/ 1070م).

(3) ع. بن منصور، المصدر السابق، ص: 09.

(4) محمد الطمار، تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص: 44.

2- في ألقابهـا :

وهي نوعان: أحدهما طابعه تاريـخي ، والآخر طابعه روحاني .

أ- نوع الألقاب التاريخية:

يمكن في هذا النوع، ذكر سبعة ألقاب مشهورة: مدينة الشرف، وغرناطة إفريقيـا ، ومدينة المشور، ومدينة الحصار، ومدينة المنصورة، ومدينة الأبواب، ومدينة الفن و التاريخ (1) .

اللقب الأول: أما أنها مدينة الشرف، فلأن معظم الذين ملكوها من العرب و البربر يرتفع نسبهم إلى أعلى علييّن، إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول (ص) ، و أنهم ينحدرون من نسـل علي بن ابي طالب و ابنه الحسن (2) .

اللقب الثاني : و أما أنها غرناطة إفريقيا، فلأنها مدينة حضارية، استطاعت أن تخلق أسباب الوئام مع الأندلسيين الذ ين توافدوا عليها على اختلاف الفترات(3) "، فأثرت و تأثرت، و استطاعت أن تتبنى عادات مختلفة في الحرفة و اللهجة و اللباس ....، و أن تجلب إليها العلماء و السّواح ، كما كان الحال في قصر الحمراء .فكما كانت غرناطة عاصمة المملكة العربية في الأندلس، كانت تلمسان عاصمة دول مختلفة و خاصة مع الزيانيين و قصر " المشور" .ففي عهدهم أصبحت صلة التلمسانيين بالأندلس أقوى و أمتن و أنجبت إنتاجات ذوقية متشابهة حتى قيل: إن الفن المعماري الزياني و المريني ضاهى ما شُيّد بغرناطة روعة وإبداعا، وفي عهدهم، دخل الطبع الأندلسي في الموسيقى،" فأخذت ألحان الفردوس المفقود مكانا مرموقا بجانب الحوزي الأصيل" . و معلوم أن الأندلسيين المسلمين (4) اضطروا إلى مغادرة فردوسهم، و قصد عدد كبير منهم تلمسان حاملين معهم تراثهم الفكري و الفني و المهني و أذواقهم التي تنم عن ماض مجيد و حضارة عريقة .ولم يلبثوا أن انصهروا في المجتمع الجديد .فصقلت الأيام طباع ذلك المزاج ، وجعلته يمتاز بالأناقة في الشكل والذوق و الملبس، و بالصيانة في العرض و السيرة و الكياسة في الحديث و المعاشرة، و بالحذاقة في

(1) و تعرف أيضا، بأنها مدينة التاج على اعتبار ملوكيّتها .

(2) يثبت التنسي شرف بني عبد الواد ، و يذكر أنهم أحيوا ملك آبائهم، انظر، تاريخ ملوك بني زيان مقتطف من " نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان " ، تحقيق و تعليق محمود بوعياد ، م .و.ك .الجزائر، 1985 ، ص: 111 " .و لكن هذا مجرد اعتقاد له عدة أسباب.

(3) Nouvelle géographie universelle , p. 526 .

(4) و بعضهم غير مسلم مثل اليهود .

طريقة الطبخ و ألوان الأطعمة و الحلويات ...

اللقب الثالث: وعلى هذا الأساس، تعرف تلمسان بأنها أيضا، مدينة المشور، و هو القصر الذي بناه يغمراسن مقابل القصر القديم (1) .وكان لهذا القصر ـ وكأنه مدينة جديدة ـ عدة وظائف: فلقد تحول تحت حكم أبي حمو الأول، إلى شكل من أشكال السجن يقبض فيه على الرهائن من الأطفال وغيرهم. وكان يسميه البعض القفص الذهبي حيث يقيم أبناء عائلات كبرى تحت الإقامة الجبرية. ولقد بني لهؤلاء المقبوضين عليهم مسجد داخل القصر لإقامة الجمعة. كما أن المشور كان أيضا، محطة إنتاجات متنوعة و سوقا مطلوبة.

ولقد أصبح القصر مع أبي حمو الثاني مركزا لاستقبال الخواص و العوام للاحتفال بالمولد النبوي كل سنة. وشهد المشور ـ مع أبي زيان الثاني ـ لقاءات بين العلماء الذين كانوا يخوضون في أعلى المناظرات. و أخيرا، لعب دور القلعة عند مجيء الاستعمار الفرنسي. (2)

اللقبان الرابع و الخامس: وتعرف تلمسان بأنها مدينة الحصار و المنصورة. قبل أن تتحول إلى مدينة ملكية، عاشت أياما قاسية، وكأن القدر قضى أن تركع مرة كل قرن على الأقل، تحت ضربات خصم جديد. ففي آخر القرن العاشر الميلادي مثلا، استولي عليها وأفرغت من سكانها من طرف صنهاجة الموالين للفاطميين. وفي آخر القرن الحادي عشر، أضاف إليها المرابطون تاقرارت. وفي وسط القرن الثاني عشر، وجه الموحدون الضربة الأخيرة للمرابطين، بقصد القضاء عليهم نهائيا، فحوّلوا المدينة إلى أطلال رأسا على عقب.

(1) كان يغمراسن يسكن القصر الذي شيده المرابطون و هو ملاصق للمسجد الجامع. و قد سكنه ولاتهم و ولاة الموحدين من بعدهم. لكنه لم يطل عهده به. فابتنى قصرا جديدا بالمكان الذي يسمى اليوم، بالمشور، وانتقل إليه قبل أواسط القرن الثالث عشر. و قد وصف لنا محمد التنسي منازله الجليلة وحدائقه النضرة، هدّم بعض حجراته باي الجزائر سنة 1670م إثر ثورة قام بها التلمسانيون على الحاكمين ثم قضى على ما بقي منه، الفرنسيون سنة 1843، و هدموه و اتخذوه معسكرا، إلا أنهم تركوا صومعة قصيرة جميلة تدل على أنه كان للقصر مسجد. (انظر، محمد الطمار، تلمسان عبر العصور، ص: 92. التعريف بثانوية المشور، لوحة تاريخية معلقة بثانوية المشور، لـ محمد نثادي و جمال الدين بو قلي حسن).

(2) G. MARCAIS , Tlemcen , Librairie Renouard , Paris, 1950, P;87 _ 88 .
و شكل المشور مستطيل، مقاسه، 200م × 50م .

لقد بنى يوسف بن يعقوب (695_706هـ/ 1286_1307م) على تلمسان، مدينة مسوّرة، و شيّد فيها القصور، و الحمامات، و الفنادق، و الأسواق، و سمّاها تلمسان الجديدة، و ضيّق بتلمسان تضييقا لم ير مثله(1) ،إذ جاء بجيوش تملأ الفضاء، فاستولى على جميع أعمال تلمسان، و لم يبق له غيرها .فبنى الأسوار و حاصرها و فتح فيها أبوابا، و اختط لنزله مدينة سماها المنصورة(2) .وكان على أهل تلمسان بلاء عظيم من غلاء الأسعار و موت الرجال، بلغ فيها الرطل من الملح دينارين، و أدرك ثمن الزيت والسمن والعسل و اللحم غاية الخيال. وكانوا في كل يوم، يطلبون القتال من محاصريهم و يخرجون إليهم رجّالة .و قيل: "ما قاتلوهم يوما إلا وكان الريح للمحصورين".و تمادى فيها الحصار ثماني سنين و ثلاثة أشهر،(3) نال فيها الشعب التلمساني من الحرمان، ما لم يسمع بمثله في البلدان .ومع ذلك، فإنه أظهر ثباتا لا نظير له".ولقد مات منه نحو العشرين و مائة ألف شخص" .(4)

اللقب السادس: و تعرف أيضا، بأنها مدينة الأبواب نظرا لعددها و استراتيجيتها الأمنية و التجارية، ونظرا لأسوارها و ارتباطها الروحي بأولياء صالحين .و ما تزال الذاكرة الشعبية تحتفظ بجملة هامة من أسمائها . وهي أبواب، استطاع الأستاذ نقادي أن يحصي منها في أبحاثه و تنقيباته(5) ثلاثة و ثلاثين بابا".منها ما تحجر اليوم، لفقدان أهميته، و منها

كل مدينة لها أولياء ! A quelle époque?

(1) محمد التنسي، المصدر السابق، ص: 132 .
وكان يوسف بن يعقوب يريد بناء تلمسان الجديدة كما فعل سابقوه إلى جانب بوماريا و أغادير و تاقرارت وه المشوره .
و قد حطمها أهل تلمسان بعد ما انفض الحصار، ثم أعاد بناءها السلطان أبو الحسن المريني أثناء الحصار من 735 الى 737 هـ/ 1335_1337م الذي ضربه على عاصمة بني عبد الواد .
وكان دائما يراوده تأسيس تلمسان الجديدة .فأقام القصر و أنهى المسجد الكبير.
(2) فقد بنى يوسف في مكان فساطيط المعسكر قصرا لسكناه ودارا للمرضى، و مسجدا جامعا و مئذنة على شاكلة المآذن الموجودة .
(3) يرجح علماء الآثار أن الأطلال الحالية هي بقايا المدينة التي أسسها ابو الحسن . أما المنصورة القديمة التي أسسها يوسف بن يعقوب، فقد خربها بنو عبد الواد، و المنصورة الثانية كانت محرثا في عهد التنسي أي نحو 130 سنة بعد بنائها . (انظر، محمد التنسي، المصدر السابق، على هامش الصفحة، 146) .
(4) محمد الطمار، المصدر السابق، عن عبد الرحمن بن خلدون، ص: 101 .
(5) التصميم العمراني لمدينة تلمسان و دلالاته الاجتماعية، رسالة ماجستير، 1991، ص: 15 .

ما تغيّر مكانه و بقي الإسم عالقا به.ولقد آحتفظت الذاكرة الشعبية بالأسماء القديمة ، بالرغم من تغيير أماكن بعض الأبواب وأسمائها عبر العصور،لأسباب منها أن الأبواب تحمل في أعماقها دلالات روحية.وفيما يلي جدول مفصل لأبواب تلمسان الثالثة والثلاثين.

الرقم	إسم الباب	مصدر ذكرها	حارس الباب(1)	الأبواب و الأسماء الجديدة/ ملاحظات
01	الحمام	البكري ويحيى بن خلدون	----------	فقد الأهمية مع تأسيس "تاقرارت".
02	وهب		سيدي وهاب ، مدفون بها	=
03	الخوخة			=
04	العقبة		سيدي الداودي	
05	أبو قرة		----------	=
06	إيلان	ي.بن خلدون	----------	بقي الإسم و لم يبق الباب
07	عمران	=		=
08	البنود	=		
09	كشوطة	=	بوجمعة لحماية الصهريج	شيده يغمراسن. أبو تاشفين شيد الصهريج ليحميه بوجمعة.
10	علي	=	----------	بقي الإسم و لم يبق الباب.ربما هو نفسه باب زيري و باب سيدي الحلوي .
11	التويتة	=		
12	الجياد	=	----------	بقي الإسم و لم يبق الباب
13	القرمدين	=	----------	= / باب سيدي البراذعي
14	الحلوي	=	مدفون بالزاوية	في نفس المكان شيد باب الزاوية/ زاوية سيدي الحلوي .
15	الملعب	=	----------	----------
16	زيري		----------	----------
17	إِمِنْ تاقْم ؟		----------	----------
18	درب السمار	الذاكرة الشعبية	----------	----------
19	البراذعي	لم يذكرها ي.بن خلدون ، أو ظهرت بعده	----------	أو القرمدين، انهار في 1943 بدبّابة .
20	سور الحمام		----------	----------
21	تازى		----------	بقي الإسم و لم يبق الباب.
22	الزاوية	=	----------	----------
23	الربط	=	----------	----------
24	بوجمعة/ الكواش المطغري	----------	سيدي بوجمعة...	في مكان باب كشوطة .

(1) يوجد بجوار كل باب رئيسي ضريح لولي صالح تعطى له في الرواية السائدة بين الناس، حراسة الباب.

25	الرواح	=	....	أغلب الظن أنه باب . أبو قرة .
26	الحديد	=		
27	الجغليلة	=	....	في العهد العثماني كانت تعلق في باب كشوطة، رؤوس الخارجين عن الطاعة . (باب الجغليلة) .
28	السكة	بوروبية Archive militaire de l'Algérie médiévale, p.104.		
29	وهران	السلطات الفرنسية		
30	الجنوب	=		
31	فاس	=	....	هو نفس باب كشوطة
32	س.بومدين			أو باب معسكر
33	الشمال			

اللقب السابع: وجامع هذه الأسماء و الألقاب ما نقرؤه مرارا على لافتات عند مداخل المدينة و هو . تلمسان مدينة الفن و التاريخ . .

إن تلمسان مدينة المعالم الأثرية الجميلة الباقية، إذ تمثل ، حسب علماء الأثر 75٪ من التراث الإسلامي الجزائري . ومن عيناتها التي يمكن ذكرها في هذا الصدد ، المساجد (1)، والمدارس (2) ، و القصور (3)، و المنازل التى أدركت في هندستها، غاية الفن المعماري، ولهذا، فلقد أصاب الشاعر، عندما قال فيها:

هِمَمُ الملوك إذا آرادوا ذكرها . . من بعدهم، فبألسن البنيان

إن البناء إذا تعاظم شأنه . . أضحى يدل على عظيم الشان (4) .

(1) كالمسجد الأعظم، و قد تم بناؤه من طرف علي بن يوسف المرابطي ، و رفع صومعته يغمراسن سنة 1254م. و مسجد سيدي لحسن (1296) و مسجد سيدي بومدين و قد بني في عهد السلطان المريني أبي الحسن سنة 1339. و سيدي الحلوي في عهد أبي عنان (1352ـ 1359) ، و سيدي إبراهيم مع أبي حمو الثاني سنة 1363، و مسجد المشور مع أبي حمو (I) الأول (1308ـ1318) .

(2) كمدرسة أولاد الإمام في عهد أبي حمو I (1308ـ1318)، والتاشفينية مع أبي تاشفين (1318ـ 1337)، و مدرسة العباد (1347)، و اليعقوبية (1363) .

(3) في اللوحة التاريخية المعلقة بثانوية المشور، ذكرنا عددا من القصور .

(4) الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف، الأنيس ، الجزائر، 1991، الجزء الأول ، ص: 105 . ولمعرفة ما خلد ، أبو تاشفين عبد الرحمن (1318ـ1337) من آثاره ، انظر، التنسي ، المصدر السابق ، ص: 140ـ141 .

هذا، وتلمسان مدينة الشعر بمختلف أصنافـه أيضا(1)، والغناء على اختلاف طبوعه(2)، ومدينة الصنائع التقليدية التي تعكس الذوق الجمالي، والنمط الثقافي الذي يحبذه التلمسانيون(3).

وهي، زيادة على هذا، مدينة سحرت بوسامة سكانها، ومشاهدها الطبيعية الخلّابة وإنتاجاتها الفنية الأصيلة ــ العلماء والأمراء. إنها لمدينة عريقة في القدم، فتنت بجمالها العيون، وجلبت بأسرارها العقول، وفتحت بكنوزها الأبواب للسائح والتاجر والشاعر. قيض الله لها ملوكا وأمراء اعتنوا بعمرانها. فعرفت شأنا كبيرا مع الفاتحين العرب، وأصبحت بحق، الجوهرة في عهد بني زيان، وستبقى للإنسان مصدر الفن والتاريخ على الدوام.(4)

ب- نوع الألقاب ذات الطابع الروحاني:

هذا، عن الألقاب ذات الطابع التاريخي، أما الألقاب ذات الطابع الروحاني، فيمكن أن نذكر ستة منها:

اللقب الأول وهو اللقب الجامع لعدّة صفات، كقولهم: تلمسان، جنّة عدن (5)، وجنة الخلود (6) والمدينة الازلية (7) ذات الألف عين (8). وهي من العبارات التي تكاد تجمع ما في الجنة الأزلية من الأوصاف التي وعد الله بها المؤمنين، وتوحـي بأنها مدينة في الجنة أو بستان يقوم به قصر يقال له عدن (9) حوله البروج وله خمسة آلاف باب(10)،

(1) يحتفظ التاريخ بقائمة من التحف الشعرية لأمراء وعلماء أمثال أبي حمو II، والثغري وكذا في شوائع الشعر العامي أمثال ابن سهلة وابن مسايب.

(2) ما تزال الفرق الجوقية التلمسانية تحتفظ في الغناء الأندلسي، بسلسلة من الطبوع الأصيلة، مثل السيكة، والماية، ورمل الماية. للتفصيل، انظر المقالة التي نشرها الأستاذ محمد سهيل ذيب في ص: 91ــ 9 10 من كتاب: Le chant arabo - andalou S/D de Nadir MAROUF, L'Harmathan, 1995.

(3) كخياطة البرانس والقرفطان وطهي الشريد والملوي والإسفنج.

(4) ومن الألقاب المشهورة التي تحتفظ بها الذاكرة الشعبية، "الجوهرة"، ولقد تغنى بها المغني التلمساني أحمد ملوك، و"مدينة التاج" او "المدينة التاجة" تشبيها لها بالأميرة العروس و"مدينة الكرز او حب الملوك". وجد فيها ليوون الأفريقي من الكرز ما لم يره إطلاقا في أي مكان مرّ به (انظر .... G. MARCAIS, Tlemcen, p. 94)

(5) هو عنوان كتاب: C.M.ROBERT, Tlemcen jardin d'Eden, Baconnier, Alger, 1959.

(6) أوردها ابن خفاجة في أحد أبياته.

(7) كما سماها أبو عبد الله الإدريسي الرابع.

(8) Nouvelle géographie universelle, p.526 ....

(9). عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون، والصديقون والشهداء. (حديث شريف)

(10) الرازي، التفسير الكبير، الجزء 16، ص: 1 33 .

وهو بستان الخلد حيث لا ينقطع نعيمه(1) .

فتلمسان إذن ، هي رمز للقصور و البساتين تجري من تحتها الأنهار والآلاف من العيون . لها سدر حصين، وأشجارُ بستانها مصفوفةٌ . ليست بمرة و لا حلوة، لا خضرة و لا يابسة . إنها مدينة السِرّ الرباني إذ من يطلب فيها الظلال يجدها، و من يطلب فيها الربيع يجده .

اللقب الثاني ، و هو تلمسان قدس افريقيا (2) ، كما أورده ، ك.م . روبير عن Hadas El Arch ولعل واضع اللقب يقصد أن المدينة لا يقدسها المسلمون فقط ، بسبب وجود أضرحة عدد من الأولياء الصالحين، و إنما هي قبلة يقصدها اليهود أيضا، سنويا (3) لوجود ضريح حاخامهم . إنكاوه . (4) بها .

اللقب الثالث: تلمسان رابع الأحرام (5) ، بعد مكة والمدينة والقدس، يعتبرا لتلسانيون وجيرانهم

---

(1) الرازي ، التفسير الكبير، الجزء 24، ص: 58ـ59 .

(2) C.M.ROBERT,Tlemcen jardin d'Eden,p.122. ، و تلمسان هي قدس القطاع الوهراني كما جاء في (Tlemcen et sa région, n° 18, p.63.) .

(3) في اليوم الثالث و الثلاثين بعد عيد الفِصح Pâques و لمدة خمسة أيام، انظر : Tlemcen et sa région,p.64

(4) كانت تلمسان منذ القدم تحتضن اليهود منذ العهد الروماني من غير شك . و لكن عددهم أرتفع بصورة ملحوظة بعد الاضطهادات التي أنصبّت على يهود مملكة قشتالة و كتالونيا و جزر الباليار . فالكثير منهم قطعوا البحر آنذاك ، ليلتحقوا مع إخوانهم المستوطنين في عاصمة بني عبد الواد . وكان من بينهم علماء و أعيان أمثال الحاخام إفرايم إنكاوه الذي ما زال قبره موضوع تقديس. (انظر، G.MARCAIS, Tlemcen, p.92)

كيف جاء إلى إفريقيا ؟ إن الرواية تذكر أنه نجا بمعجزة من مَحْرقة الاضطهاد حيث هلك والداه . إن الحاخام جاء تلمسان و هو على ظهر أسد يشد بزمامه بواسطة أفعى . و بفضل هذا الرجل الشهير، استطاع اليهود الحصول على رخصة المكوث بعقر تلمسان . وكان المريض يأتي من كل أنحاء الجزائر، طلبا للعون الرباني ، و هم على يقين أن قلوبهم الضائقة تستطيع ـ بجوار هؤلاء العدول ـ الإنصاح أحسن عن همومها ، و أن خالق الكون يستجيب لهم . (انظر، Revue africaine, XIVè année, n° 22, Juillet,1870.)

(5) قلت في قصيدة نشرتها بعنوان . سرُّ تلمسان . ، انطلاقا من البيتيْن ، الثاني عشر و الثالث عشر ما يلي :

12 ـ بُشْرى لتوحيدها، نغْمَ التباشير .·. أضحت به كوْثر الدنيا أُرتوى الكثر
13 ـ دامت به رابع الأحرام و البِشْر .·. بالحُرْم، يزكو بها الإيمان و الذكر.

زيارة تلمسان الممثلة في وليها سيدي" بومدين"، بمثابة "الحجة الصغرى" أو من العادات المتعارف عليها لاستكمال الحجة على النمط التلمساني .(1)

اللقب الرابع: مدينة العبّاد، والعباد و تلمسان عند الكثير من الناس يشكلان جسما واحدا و تاريخا واحدا . و من هنا أيضا، فإن اسم سيدي "بومدين" يوحي بأسم المدينة، و هو الولي الصالح الذي نفخ في المدينة من النفحات الصوفية و الفتوحات الربانية . فكان يقصده الداني و القاصي للتبرك به، و التبرك بالمدينة التي تحتضنه .(2)

اللقب الخامس: مدينة الأولياء والعلماء، الذين عرفوا بالبركة و الصلاح و الكرامات. ويكفي الرجوع إلى كتب السير(3)، حتى يُدرك مدى عددهم و حجم الاهتمام بهم . و سنقف على منزلتهم بشيء من التفصيل، عندما نتعرض بوجه أخص لأولياء تلمسان و علمائها .

اللقب السادس: مدينة الجدار، و هو المعني العربي لاسمها البربري «أقادير». ولقد جعلت منه الأسطورة التلمسانية الأساس الروحي للمدينة . و مفاد هذه الأسطورة أن الجدار الذي تلقبت به تلمسان، هو الذي يعنيه الله تعالى في سورة الكهف. إذ يقول: «قال ذلك ما كنّا نبغي، فارتدّا على آثارهما قصصا، فوجدا عبدا من عبادنا آتيناهُ رحمة من عندنا و علمناه من لدنا علما». ثم يقول: «فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه». ثم قال: «وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما، وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما و يستخرجا كنزهما رحمة من ربك». (4) .

ثالثا: تلمسان مدينة أسطورية في تاريخها و شرف نسبها:

---

(1) قلت في قصيدة، بمناسبة الذكرى المائوية الخامسة لوفاة الشيخ السنوسي، انطلاقا من البيت الثامن، ما يلي:

8- و لقد أطلّ الغوثُ من قطْب العُلى قبلاً على قطب العقائد كاملا
9- بمغارب «العبّاد» سلّ متكلما قبل الشروق إلى «شُعيْب» مبجلا
10- يعطيك مفتاح الطواف مرحّبا مودّعا بعد العكوف مجللا .

(2) و تنسب المدينة أيضا، إلى الشيخ السنوسي، فيقال: «مدينة سيدي السنوسي»، انظر: Tlemcen et sa région, n°18, p. 57 .

(3) كالبستان لابن مريم، و الديباج لابن فرحون، و رجال الخلف لأبي القاسم الحفناوي .

(4) سورة الكهف، الآيات 64- 82 .

1 ـ في تاريخـهـا:

استطاعت الحقبات التاريخية الطويلة أن تحمل هذه الأسماء والألقاب التي بقيت عالقة بتلمسان، وأن تثبتها فيما تحمله من دلالات. و من الظواهر التي يمكن على أساسها، أن ينسج الخيال التلمساني أسطـورته:

أ ـ كون هذه المدينة، تداول الحكم عليها، دولٌ و أقوام وعائلات متناحرة،

ب ـ و كونها ذات صدر رحب لمذاهب متباينة و عقائد متناقضة، (إلى النهاية؟)

ج ـ و كونها صمدت للصعاب بفضل شجاعة سكانها.

و إذا كانت تلمسان في الأصل، مدينة بربرية، فإنها منذ الألفية الأخيرة قبل الميلاد، خضعت لتأثير عدد من الغزاة و الفاتحين، كالرومان و العرب و العثمانيين و الفرنسيين. دخلها الرومان، و تركوا فيها بصماتهم وعشقوها تحت إسم بوماريا. وعندما وصلها أبـو المهاجر، نشأ التزاوج بين البربر و العرب و خاصة، بعد اعتناق كسيلة للإسلام. و تدعم الإسلام بها عند تأسيس أقادير من طرف إدريس الأول حيث بدأت العقيدة الحنيفة تتغلغل. و توطد مذهب مالك مع مجيء المرابطين و انتشر التوحيد الأشعري مع الموحدين.

و كانت تلمسان مدينة، تداول السلطة فيها، الحفصيون و المرينيون و التلمسانيون. فكانت تدخل تحت ولاء ملوك بني حفص بتونس في بعض الفترات من تاريخ الدولة الزيانية، و لملوك فاس من بني مرين في فترات أخرى.

وكانت مقصد مذاهب مهاجرة أو ناشئة مهما ظهر التناقض فيما بين مناصريهـا. لقد عرفت عبر التاريخ، تيارات متعددة و تعاملت معها، رغم الصراعات التي كانت تنشأ فيما بينها في مستوى التصور أو التفسير: فمن اليهودية إلى النصرانية ثم إلى الإسلام، وفي الإسلام، من الصّفرية مع أبي قرة اليفرني (البربري)، إلى الشيعة مع الأدارسة، إلى السنة المالكية مع المرابطين [المجسّمين]، إلى عقيدة الموحدين المنزهين، ثم إلى التعايش النسبي لهذه التيارات مع الزيانيين.

و من المعطيات أيضا، التي تستطيع أن تغذي الخيال الأسطوري عند التلمسانيين، الشجاعة الخارقة التي كان يتمتع بها أهل المدينة. فكانوا في كل يوم، يطلبون القتال من محاصريهم و يخرجون إليهم رجّالة. و أمام الرؤوس الطائرة و الأيدي الناهبة، تجـد

رؤوسا لائمة و أيادي قائمة، ترفع البناء بعد الهدم. لقد وقع فيها الهدم، و وقع فيها البناء. لقد هدّم أبو حمو مدينة يوسف بن يعقوب، و أصلح ما تلثم من تلمسان، و بنى الأسوار و الستائر، وحفر الخنادق، وخزّن فيها من الطعام و الأدام و الملح و الفحم و الحطب، ما لا حد له و لا حصر (1) .

2- في شرفها:

إن المؤرخ التلمساني أتاه الله العبقرية في إثبات المنبت الشريف و الأصل السامي العربي لسلالة بربرية قحة. فلكي ينجح التنسي مثلا، في إلحاق بني زيان بأعلى درجات الشرف، يبدأ في كتابه «الدر و العقيان» بالحديث عن قريش وآل البيت وعلي بن أبي طالب و ابنيْه الحسن و الحسين، ثم ينتقل إلى تاريخ الأدارسة الذين جعل بني زيان من سلالتهم، معتمدا في ذلك، على أحاديث نبوية كقوله (ص) : «الحسن و الحسين سيّدا أهل الجنة». ولا يفوته أن يذكر أخبار أشهر طوائف الشيعة وأفكارهم. هذا، ولقد استطاع التنسي أن يرفع نسب معاصره السلطان محمد المتوكل إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول (ص) مثلما فعل بأبي حمو الثاني. وهو في هذا، يهدف إلى تشريف بني عبد الواد، و التذكير بأن ما صنعوه ما هو إلا أحياء لملك آبائهم العلويين (2) .

رابعا: إنها مدينة أسطورية في أوليائها و علمائها:

تلمسان مدينة مزروعة شبرا شبرا، بعدد معتبر من أضرحة الأولياء و العلماء. إنها مدينة روحية محروسة ببركة هؤلاء و ما أوتوا من علم. سكّانها - و هم واثقون بيقظة أوليائهم ثقةً لا تقلّ عن تلك التي يضعونها في صلابة الأسوار - ينامون في بيوتهم، غير مكترثين للمكروه. جاء في البستان لابن مريم: "إن سلطان تونس نزل على تلمسان، و قال لوزرائه: من أين ندخل البلد؟ فقالوا: من أين تريد؟ قال لهم: كم من باب للبلد؟ فعددوها له. فقال: باب الجياد من عليه من الأولياء؟ قالوا: سيدي أبو مدين - و باب العقبة من عليه؟ قالوا: سيدي أحمد الداودي - و باب الزاوية من عليه؟ قالوا: سيدي

---

(1) محمد التنسي، المصدر السابق، ص: 135 .

(2) محمد التنسي، المصدر السابق، مقدمة المحقق، محمود بوعياد، ص: 69. و الحقيقة أن الدولة كانت، لأسباب سياسية، تريد أن تدعم مركزها في البلد بإسناد نسبها إلى نسب إدريس وجدّه علي بن أبي طالب .

الحلوي .ــ و باب القرمدين من عليه؟ قالوا:له : ما عليه أحد .قال لهم: من ذلك الباب ندخل.. فقال خديم سيدي عبد الله بن منصور ، لسيدي عبد الله :

«هذا الباب في كفالتك، لأن البيبان الكلّ ما قْدر يَدْخل عليها إلّا بابك يدخل عليه. فقال له: نعم ،قلت: الحق! فلبس برنسه على عباءته وأخذ عصا بيده تحت طرف برنسه، و محلة تونس نازلة على باب القرمدين : من يغسل يغسل، و من يجوز يجوز. و أتى الشيخ طرف المحلة .فسأل عن خباء السلطان، فدلّوه عليه .فشاوروا في دخول الشيخ على السلطان .فقال لهم: آدخلوه! فلما دخل ، قال للسلطان: أنت ظالم لا يحل السلام عليك. لشْ تسال لهذا الناس، تخرب بلاد الإسلام؟ فقال له: أنتم الفقراء دخلتم في مسائل لا تعنيكم .فقال له سيدي عبد الله بن منصور: و أنت، ما كان رجل إلا أنت؟ و ضربه بالعصا و كرر عليه الضرب و السلطان يصيح :أنا تائب لله .» (1)

و تضيف الأسطورة أن سيدي عبد الله هذا، تقرر لديه في حياته أن يتولى حراسة باب القرمدين ليحفظ تلمسان. (2)

أما علماؤها، فأولاد ابن زاغو من مغراوة، و العقابنة و هم من قرية بالأندلس ، و المرازقة من عجيسة أهل جبل "وسلات" بإفريقيا (تونس) ، أتى سلفهم لتلمسان، و المقاررة من "مقرة" قرية بزاب إفريقيا ، و أولاد الإمام، و الشرفاء الأدارسة، أبو عبد الله (3) ؛ جمعتم المدينة بين أسواره، و لكأنّها جمعت من كلّ بحر قطرة، فكانوا زينتها على مرّ الدهور.

و ليس هناك أولياء صالحون إلا و يُتبرّك بهم، و خاصة أولئك الذين ظهرت على أيديهم كرامات،ومن هؤلاء المكرمين من عاش بتلمسان و دفن بها، و منهم من عاش بها و دفن خارجها . و يمكن تصنيف هؤلاء الذين تحافظ المدينة على ذكرهم، إلى أربع طبقات:

---

(1) ابن مريم، البستان، ص: 136 .

(2) G. MARCAIS , Tlemcen , p. 56.

(3) أبو راس، فتح الإله، ص: 108 .

- الطبقة الأولى: أصحاب طي الأرض

1- أبو إسحق الطيّار

2- أحمد بن زكري

3- أحمد بن الحسن الغماري

- الطبقة الثانية: مستجابو الدعوة

1- أبو سعيد

2- أحمد بن أحمد المغراوي

3- عبد الله بن منصور الحوتي، كفيل التلمسانيين

4- سيدي الداودي، شيخ البلاد قبل سيدي أبي مدين

chomo?

- الطبقة الثالثة: أصحاب الكرامات المختلفة

1- علي بن دحّو الزكوطي

2- ابن زائد القبلي الجاديري (توفي في البقيع)

3- أحمد بن الحاج

4- عبد الرحمن السنوسي

5- الحسن أبركان

6- عبد الرحمن بن عبد الله اليعقوبي

7- سيدي محمد بن أحمد بن محمد الشريف المليتي (أندلسي)

8- محمد القلعي

9- أبو السادات، تلميذ الشيخ السنوسي

- الطبقة الرابعة: النساء الوليات

1- زوجة حمزة بن أحمد المغراوي

2- لالا ستّي "الراقبة على تلمسان" ← origine ?

3- أم الحفيد بن مرزوق " الشاعرة"

والولي الذي ما يزال يرفعه التلمسانيون إلى قمة التبجيل، و يعُدّونه عمدة المدينة و مثلهم و مصدر توجيههم و افتخارهم، يبقى بلا منازع، المتصوف الإشبيلي الأصل

التلمساني المدفن، سيدي أبا مدين قطب الأقطاب، المتوفى سنة 1198م. وهو الذي اجتمعت فيه عيون مختلفة، إذ تلقى بفاس علوم الغزّالي بواسطة "حرزهم"، ثم اتّصل بالمتصوف "أبي يعزى"، و دَرَس على "أبي عبد الله الدقّاق" و"أبي الحسن الشاوي". و تعرّف بعرفة، على الشيخ "عبد القادر الجيلاني" الفارسي و أخذ عنه. و عند عودته من رحلته، استوطن "بجاية"، فكثر بها أتباعه، وسعي به عند "يعقوب المنصور" فاستقدمه إلى مراكش. و لما بلغ تلمسان، توفي و دفن بالعباد. (1)

خامسا: مدينة أسطورية في شعرها و دواعي وصفها

ماذا قال عن تلمسان، الوصّافون المعجبون بها من كتّاب و شعراء؟ و ما هو سرّ هذا الإعجاب؟ و كيف نفسر جناح الفكر نحو الخيال التلمساني الأصيل؟

إن الذي شحذ هذا الخيال الإبداعي وأطلقه، هو كون تلمسان مدينة أسطورية، والذي أخصب الحافظة الشعبية، هو ذلك الإطار الروحي الذي غمر أهلها.

إن الأسطورة التلمسانية تريد أن تجعل من تلمسان المدينة التي أقام جدارها العبد الصالح مع موسى عليه السلام، و تأسست عليه أقادير، تلمسان الإسلامية الأولى مع إدريس الاول (2).

هذا، و تعلّق التلمسانيين بهذا الجو الروحاني، حملهم إلى منح المدينة نفحات ربانية تشع منها، أرقى صفات الجمال، بدءا بتأويلهم لإسم تلمسان.

1- إن العشاق الذين خصّوا مدينة تلمسان، قديما وحديثا، بشعرهم ولحنهم، نجحوا فيه أيّما نجاح، فأبدعوا و رققوا. و لعل وراء ذلك أسرارا. و هي أسرار تأخذ في الانكشاف تدريجيا، لمن استنطق ذاكرة التاريخ. إنه سيلاحظ مثلا، أن الرومان عمروها واستقرّوا بسهولها الخضراء. وأنهم، من شدة تعلقهم بها، اختاروا لها إسما يناسبها هو "بوماريا" أي البستان. وعندما فتحها العرب المسلمون، دعّم المرابطون "أقادير" حفاظا على ذلك الحائط المقدس، الذي أقامه، فيما تقول الأسطورة الشعبية، العبد الصالح

(1) للتفصيل، انظر، محمد الطمار، تلمسان عبر العصور، ص: 70-71.

(2) ورد إدريس في القرآن مرتين. لقّب بالبار و بالنبيّ و ذكر بين الصابرين. و يجوّز بعضهم أن يكون هذا الإسم مصاغا من إندراوس. و قال فيه العرب إنه كان تقيا و ملهما بالعلوم و الفنون، و أنه عاش 365 عاما على الأرض، ثم رفعه الله إليه. و قال بعضهم بأن إدريس و إلياس و الخضر هي ثلاثة أسماء لمسمى واحد.

Rapport gratuit

رفقة موسى كليم الله. وقصة الشخصين رواها القرآن في سورة الكهف كما مرّ بنا.

ومن أسرارها أيضا، أنها جمعت في أسمها من جهة، بين اللمّ والشّأن باعتبار تلمسان هي (تلمشان أي تلمّ شان (أو شأن)، ومن جهة أخرى، يقدّر بعضهم أن المدينة تجمع في كنفها، بين عناصر مزدوجة متقابلة ومتنوعة، ولكنها متناسقة كالسهل والجبل، والبر والبحر (عن طريق هنين)، والماء (العذب) والهواء (الطلق).

ولا يفوت العاشق، ملاحظة أن المدينة اتخذت من أسوار "منصورة" حصنا تقيها من المكاره المختلفة، وأن الناس عدّوا "عبادها" حَرَمًا، فجعلوه "قبلة" لدعاواهم وبعض طقوسهم.

ثم إن التلفظ ب "تلمسان" لتلفظ بكلمة طيبة، طيبها الله بحيث تؤتي أكلها كل حين، في السراء والضراء، مع المحافظة على الأصل الثابت الذي لا يبلى بمرور الزمان. إنها لتربة مواتية لكل حيّ، ومنهل يخصب الخيال وينشط الفكر، ويحصن الإيمان. ويكفي الوقوف على "البستان" لابن مريم، للتأكد من أن ثمة إنتاجا وفطاحل منورين. ولهذا، يتمسك التلمسانيون بالمدينة، فلا يعزّ عليهم العودة إليها، وإلى ثوابتها مهما طال غيابهم عنها.

ولا يسع أهل الفكر والتُّقى المقبلون عليها إلا التوفيق في مهامهم، إذ سرعان ما تنشرح صدورهم، فتطير أسماؤهم في عالم الشهرة أو الولاية، فيكرمهم الله بكرامات.

وعن العزة والاعتبار، يكفي أن يتخذ المرء تلمسان مدينة ومقصدا له حتى يفوز بهما أيّما فوز. كيف لا، وقد نبغ فيها علماء في عقائد التوحيد إلى درجة أن صارت المدينة تقرن بها، وهو الأمر الذي حملني في قصيدة، إلى اعتبارها مورد الخير والشفاء، بل حَرَمًا رابعا إلى جانب مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف. وليس غريبا أن يعتبر أهل تلمسان زيارة مدينتهم ـ وهي مشخصة في ضريح الغوث سيدي أبي مدين ـ حجا أصغر في مناسبات ما، فيكتمل بهذا، الإيمان والزيارة (1).

هذه بعض أسرار المدينة، وهذه بعض المؤثرات التي لفحت الذاكرة الشعبية، فكانت

---

(1) كما أشرنا إلى ذلك، في لقب المدينة الروحاني الثالث. أنظر، الصفحتين: 133 ـ 134.

الأسطورة، و كانت الخرافة، و كان الشعر الشعبي، و كان الشيخ السنوسي .ففي مدينة الشيخ من النبات ما هو أخصب، و من المياه ما هو أعذب، و من الهواء ما هو أصفى: فيها عينان تجريان ... فيها من كل فاكهة زوجان.

هذا، ولقد عبّرت عن هذا الجو الملهم، و عن هذا الاهتمام الخاص بالمدينة، في قصيدة نشرتها منذ سنوات(1)، أقول فيها:

أ- " سر تلمسان "

1- فاحتْ تلمسان طيبا سرُّها سـر	ما أطيب النظم فيها، شعرُها شِعْـر
2- يوما ريا جنّة الرومان يِعْطير	وحْيًا من الكهْف، إحْتاطت أ قـا د يـر
3- فضلُ كفاها من الله و تسخـير	للشأْن في الإسم، بعْد اللمّ، تـقـد يـر
4- منصورةٌ د رعها، عبّاد ها حـجـر	يحلو لمن زارهـا، القُربان و الذّ كـر
5- زوجيْن من كل حسْن، إصْطفى الوتر	سيّان، سهل و وعر، حـارُّه صِـر
6- فيها تجلى جمالُ الصنع و الستر	أغصانها في السمـاء، و الأصل تحجـير
7- لا يعْقُم النسل فيها، حرثها بكر	أُنظـرْ! " لبستانها": حمْلٌ و تنـويـر
8- تجلى على العذب والطلق الأسارير	هلَّ النّدى، كيف لا تُصغي العصافـير
9- لا يسأم العيشَ منْ فيها و لا العيرُ	لا يقطع الوصْـلَ، مهما يصدُق الهجـر
10- من يهتدي نحوها، يصحُو له الفكر	يغْدو وليّ الهُدى بل يكرم الكـبـر
11- لا ترفع الشأن في السّعر، الدنانيرُ	ساعي تلمسانَ إذ تسعى، كفا السّعـر
12- بشرى لتوحيد ها، نِعْم التباشـير	أضحت به كوثرَ الدنيا أرتوى الـكـثـر
13- دامت به رابع الأحرام و البشـر	بالحُرْم، يزْكو بها الإيمان و الـذ كـر
14- إنْ كان للكون نور أمره سـر	فالسرُّ يحكي: تريّانا أ قـا د يـر

ب- و من الشعراء الذين ذكروا تلمسان أو خصصوا لها قصائد أعتزازا أو أهتماما، نذكر على سبيل المثال(2): ابن خفاجة، و ابن خميس، و أبا عبد الله الثغري، و أبا عبد الله التلالسي، و الأمير عبد القادر، و الشاعر الفرنسي ك.م. روبير.

يقول ابن خفاجة:

---

(1) نشرتها في جريدة الجمهورية اليومية، في شهر فبراير 1990، بعنوان «سر تلمسان».
(2) نورد منها القصائد المكتوبة باللغة الفصحى فقط، و ترجمة لقصيدة نظمت بالفرنسية.

1ـ ما جنة الخلد إلا في ديـاركـم   و هذه كُنْتُ، لو خيّرت أختـار

2ـ لا تـتقوا بعدهـاأن تدخلوا سقَرا   فليس تُدخل بعد الجنة، النـار.(1)

ـ و يقول ابن خميس:

1ـ تلمسان جادتك السحاب الدوا لـح   و أرسـتْ بوادْيك الريـاحُ اللواقح

17ـ على قرية العباد مـني تحـيـة   كما فاح من مسك اللطيمة فـائح

18ـ وجاد تَرى تاج المعارف ديـمـة   تغص بها تلك الربى و الأباطـح

19ـ إليها شـعيْب بن الخسّين قلوبنـا   نوازع لكن النجـوم نوازح

20ـ سعيك فما قصرت عن نيل غـايـة   فسعْيُك مشكور و تجـرك رابـح

ـ و يقول أبو عبد الله الثغري الأندلسي في مدحه أبا حمو:

7ـ تاهت تلمسان بدولته عـلـى   كل البلاد بحسن منظرها الجلي

8ـ راقت محـاسنها و رقّ نسيمهـا   فحـلا بها شعري وطاب تغزّلي

10ـ وأغْدُ إلى العباد منها غـدوّة   تُضْحِ هموم النفس عنك بمـعزل

11ـ و ضريح تاج العارفين شعـيْبهـا   زره هناك، فحبذا ذاك الـولـي

12ـ فمزاره للدين والدنيا مـعـا   تُمحَى ذنوبك أو كروبك تـنجـلـي

13ـ و بكهفها (2) الضحاك قف متنزهـا   تسْرحْ جفونُك في الجمال الأجمـل

28ـ و أشرف على الشرَف الذي بإزائهـا   لترى تلمسان العلية من عـل

29ـ تاجٌ عليه من المحاسن بهـجـة   أحسنْ بتاجٍ بالبهاء مكـلـل

ـ و يقول أبو عبد الله التلالسي الطبيب:

1ـ سقَا الله من صوْب الحيا هاطلا وبْلا   ربوع تلمسان التي قدْرُها أُستـعلى

10ـ وعبادها ما القلب ناسٍ ذمـامَـه   به روضة للخير قد جعلت حـلا

11ـ بها شيخنا المشهور في الأرض ذكـره   أبو مدين أهلا به أبدا أهـلا

12ـ لها بهجة تزري على كل بلـدة   بتاج عليها كالعروس اذا تُجلـى.(3)

---

(1) يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ص: 90. يقول تعالى في سورة الفرقان، الآية، 15: "قلْ أذلك خير أم جنة الخلد التي وُعد المتقون، كانت لهم جزاء و مصيرا".

(2) المقصود بالكهف، المغارات المعروفة بأعالي حي القلعة، على سفح الجبل.

(3) ي. بن خلدون، بغية الرواد، ص: 89 ـ 90.

ـ و يقول الأمير عبد القادر يوم فتح التلمسانيون له أبواب "المشور":

1 ـ تلمسان للتقبيل مُدّت يداها فلبِّ، أياها ذات صوتٍ، نداها

2 ـ و قد رفعتْ عنك الإزار فلجّ به و بُرْدٌ حشاك من زلال نداها

3 ـ ها روض خديها تفتق نو ر ، فلا ترتضي، يا أيها ذا عداها

4 ـ و قد طالما حمت كمال جما لها عداة و هم في داء لعمري عداها

5 ـ و كم ريّم رام الجمال الذي ترى فصّده سيف لحظها و هداها

6 ـ وحاول خال الخد يحظى بلثمه فناءت وسطّ ربعها و مداها

7 ـ وكم خاطب، و ليس بالكفء ترتضي فما رأى منها حتى طرف رداها

8 ـ وآخر غشّها وخادع فأُنْتنتْ بفسْخٍ و زال شينها و ردا ها (1)

ـ و ينشد أحد الشعراء الفرنسيين معجبا بتلمسان (2):

1 ـ للعنْدليب الذي يحطّ على حُفْرتي ،

2 ـ في ساعة مهيبة حيث نهايةُ وقتّي ،

3 ـ لا يفْتنُ عمق سُباتي ،

4 ـ أيا تلمسان ! هنا أودّ موتتي .

2 ـ و من الكتّاب الذين وصفوها، نذكر العيّنات التالية:

أ ـ يقول أبو عبد الله الإدريسي (القرن السادس الهجري) : "تلمسان أزلية و لها سور حصين متقن الوثاقة" (3) .

ب ـ و يقول لسان الدين بن الخطيب (القرن الثامن الهجري) : " تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء و الريف، و وُضعت في موضع شريف كأنها ملك على رأسه تاجه ، حواليْه من الدوحات حشمه و أعلاجه. عبّادها يدها، و كهْفها كفّها، و زينتها زيّانُها، و عينها أعيانها. هواها المقصور بها فريد، هواؤها الممدودُ صحيح عتيد، و ماؤها

(1) Revue africaine, N°27 , p.229.

(2) و هي أبيات ترجمتها عن الشاعر روبير من (Tlemcen, jardin d'Eden) للأبيات الآتية:

1- Pour qu'un rossignol sur ma tombe
2- A l'heure auguste où le jour tombe
3- Vienne enchanter mon long dormir
4- Tlemcen, ici, je veux mourir.
(C.M.ROBERT, p.47)

(3) من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق عن م. الطمار.

برود صريد، حجبتهما أيدي القدرة عن الجنوب، فلا تحول فيها ولا شحوب، خزانة زرع ومسرح ضرع، فواكهها عديدة الأنواع، ومتاجرها فريدة الانتفاع، وبرانسها رقاق رفاع ..." (1)

ج – ويقول يحيى بن خلدون: "مدينة عريقة في التمدن [..] كريمة المنبت [..] سحرت الألباب" (2).

د – وجاء في مجلة "الجغرافيا الجديدة العالمية" (3): "تلمسان، مدينة الألف عين [...] إنها واحدة من المدن الأكثر رشاقة في الجزائر: والإسم الذي يُعطَى لها وهو "قدس إفريقيا" يناسب أيضا، تاريخها".

سادسا: أساس المدينة الأسطوري

ما هو الأساس الأسطوري الذي يستند إليه التلمسانيون في قيام المدينة، ويبرّر ما ينتجونه من اعتقادات وخرافات وأمثال ...؟

1 – الأسطورة الأساسية:

إن القصة المشهورة التي يؤمن بها الخيال الأسطوري لديهم، هي قيام تلمسان على الجدار الذي أقامه العبد الصالح وموسى. وهي قصة تداولها بالرواية والتعقيب عدد من المؤرخين والباحثين.

يتحدث بعض المؤلفين العرب عن مرور "الرسوليّن"، موسى والخضر بالمنطقة وهم يعتقدون أنها هي القصة التي تكلمت عنها سورة الكهف. (4) ولقد جاء في هذه السورة ما يلي: "فانطلقا (أي الخضر وموسى) حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقضّ فأقامه". ثم قال تعالى: "وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما، وكان أبوهما صالحا

(1) عن أحمد المقري، نفح الطيب، دار صادر، تحقيق إحسان عباس، بدون تاريخ، المجلد التاسع، ص: 341.

(2) يحيى بن خلدون، بغية الرواد، الجزء الأول، ص: 85 – 86.

(3) Nouvelle géographie universelle, p. 526

(4) Djilali FARDEHEB, Berceau de Tlemcen, Bulletins de la société "Les AMIS DU VIEUX TLEMCEN", p.10.

فأراد ربك أن يبلغا أشدهما و يستخرجا كنزهما رحمة من ربك، و ما فعلته عن أمري، ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا".

و جاء في بغية الرواد: "يقال إن لها جدار الخضر عليه السلام، و أن سحرتها ممن نادى فرعون القبط". (1)

و بشيء من التعقيب، يكتب أبو راس ما ترجمته على الشكل التالي: "حسب العلامة أبي حيان أمير النحاة و شيخ القراءات السبع و راوي النوادر العجيبة و الحوادث التاريخية، الشاعر اللغوي و المنطقي البارع، إن الجدار الذي يتكلم عنه القرآن، ليس إلا تلمسان القديمة و الذي حدد قديما قرب أقادير. و ليس في ذلك، ما يحيّر، لأن معجزات الأنبياء هي أعجب من تلك التي بقيت بهذه المدينة خلال العصور. (2)

وفي رحلة قام بها من غرناطة إلى المشرق، مرّ أبو حيّان بتلمسان حيث أبدى سكان تلمسان شحّهم. و للانتقام، فإنه سخط على المدينة في هذين البيتين حيث نلاحظ اعتقاده في الأصل السرّي أو الأسطوري لهذه المدينة العتيقة...

أهلا تلمسان ذمّا إن حللت بها   حول الجدار و ما قد حوت الجدُر
قوم إذا استطعموا لم يُطعموا أحدا   لم يلق خيْرا بها، موسى و لا الخضُر". (3)

و لقد عرفت هذه القصة عند الخواص و العوام، تأويلات مختلفة و ثرية انطلاقا من تفسير الآيات المعروفة من سورة الكهف و ما يقدمه الناس من رموز و تصورات لبعض الكلمات و الأسماء.

وفي هذا الإطار، يذكر الأستاذ شوقي عبد الحكيم أن الخضر هو في إحدى الأساطير "حيّ خالد لا يموت، لأنه هو الذي قام بدفن جثمان آدم. و لهذا، أصبح "الخضُر" هو الذي قال عنه الربّ في العهد القديم: "أنت الخضُر، كلما مسّت قدماك الأرض، اخضرّت". (4)

---

(1) يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص: 90-91.
(2) ولقد أشاد محمد العيد آل خليفة بمدينة الجدار في قصيدة مشهورة، ألقاها يوم 27/ 9/ 1937، بمناسبة افتتاح مدرسة دار الحديث بتلمسان.
(3) انظر أيضا، تعليقا، في فتح الإله لأبي راس، للمحقق محمد بن عبد الكريم، ص: 83.
(4) مدخل لدراسة الفولكلور و الأساطير العربية، دار ابن خلدون، ط. 2، بيروت، 1983، ص: 111. فليس إذن، من العبث إن سمّيت تلمسان بالبستان.

و الخضر مقدس عند العلويين السوريين بدليل أنهم يحلفون بأسمه. وإذ ا وقع لهم استبدال علي بالخضر، فلعل ذلك للسيطرة على قوى الطبيعة. و في التفسيرات الد ينية، يعتبر الخضر رمزا لأم الألوان. فالخضر زَبرْجد في الآخرة و هو الحجر الكريم المعروف بلونه الأخضر على خلا ف الأحمر الذي هو البرهان في الآخرة و الأبيض هو النميط، أي الطريق.

و قال ابن العربي الحاتمي في "رسالة" كتبها إلى الفخر الرازي: "إعلم يا أخي، أن الرجل لا يكمل في مقام العلم حتى يكون علمه من الله بلا واسطة، فكل من علمه مستفاد من الأخذ من المحدثات، معلول عند أهل الله[..] و لو سلكت على يد شيخ من أهل الله، لأوصلك إلى حضرة شهود الحق، فتأخذ منه العلم من طريق الإلهام الصحيح، فلا تعب و لا صهر كما أخذه الخضر عليه السلام. فلا علم إلا ما كان عن كشف و شهود، لا عن نظر و فكر". (1).

و من الحكمة التي يمكن استخراجها من هذه القصة، أن الأصل الأول لمدينة تلمسان، بذرة صالحة، كان لا بد من رعايتها حتى تثمر. إنها شجرة، أصلها أب صالح، و فرعها غلامان تركهما هذا الأب. و التركة التي خلفها هي الأرض الثابتة النفيسة و ما تفترضه من عمل الزراعة و السقي ... وإن المنطق الروحي أسمى من منطق الحكم الإنساني، لأن الله رفعه درجات برحمته و علمه اللدني.

و الذين سكنوا تلمسان من أهل الكتاب منذ أقدم العصور، لا يجدون في قراءتهم لهذه الأسطورة إلا ما يجعلهم متعلقين أكثر بالمدينة. فلقد قصد اليهود و مِنْ بعدهم النصارى، مدينة تلمسان منذ زمن بعيد. و لكن، متى بالضبط، و مِنْ أين؟ إن المنقوشات أو المكتوبات لم تقدم عن هذا السؤال، أيّ جواب دقيق (2). و تذكر بعض الروايات أن اليهود الذين جابوا الجزائر جاؤوا كلهم من تلمسا ن حيث لمعوا بمدارسهم التلموذية، وكانوا على اتصال مستمر مع يهود المشرق. (3)

---

(1) أبو راس، فتح الإله، ص: 146، بنقل المناوي في طبقاته.

(2) Revue africaine, DARMON, Origine et constitution de la communauté Israélite de Tlemcen, XIVè année, juillet, 1870. n°22.

(3) Revue africaine, DARMON, juillet, 1870, n°22.

2ـ خرافات واعتقادات تلمسانية:

لتلمسان خرافات واعتقادات متعددة، نقتصر على ذكر عشر منها، نقدمها مثنى مثنى لمغزى الازدواجية الذي يناسب المدينة في هذا المقام.

الثنائي الأول:

أ) فيما يتعلق بمجيء اليهود إلى تلمسان ـ وخاصة في القرن الخامس عشر للميلاد ـ استطاع الخيال أن يستثمر بعض الحقائق التاريخية ليجعل منها قصة عجيبة. لقد تمكن ـ حسب بعض الروايات ـ الحاخام إفرايم إنكاوه من تحرير اليهود وتأمينهم بفضل ما أوتي من حكمة التطبيب وتحكمه في أوحش الحيوانات. تذكر القصة أن اليهود كانوا عائشين مأساة في إسبانيا بحكم الاضطهاد الذي اشترعه الملك فرديناند والبابا "بي الثاني". ويشاء القدر أن ينجو الحاخام من لهيب المَحْرَقة حيث هلك والداه. ودخل تلمسان على ظهر أسد يشد بزمامه بواسطة أفعى. ويشاء القدر أيضا أن يتزامن قدومه مع وقوع بنت الملك الزياني في مرض خطير. ولقد أنفق الوالد كل ما في وسعه لعلاج المريضة، ونادى عبثا كل الأطباء المسلمين، وضاقت به السبل. وانتشر خبر في المدينة وضواحيها يقول: إن مَنْ يتمكّن من علاج الأميرة، يمنحه الملك أكبر مكافأة. فسمع الحاخام الخبر، وقدم إلى القصر. وكان طبيبا بارعا، معروفا بالتقوى والعلم وحبّه للخير. قُدمت له الأميرة، وبعد أيام من الفحص، تحسّنت حالتها الصّحية. فسرّ الملك، وكان يعتقد أن الطبيب استجاب للنداء، طمعا في جزاء مادي. فخاطبه الحاخام بقوله: "لا أريد ذهبا ولا مالا؛ إنما أطلب الحرية لأمّتي. إن اليهود يعيشون في ضواحي عاصمتكم مشتّتين كقطيع من الغنم دون راع؛ وإن رجالا متعصبين مثل الذئاب الجائعة، يتعدون عليهم مرارا، ويفترسونهم. فأْذنوا لي أن أجيء بهم إلى هذه المدينة، ليقيموا حيث يوجد مكان عبادتهم". فوفّى الملك بالعهد واستجاب للطلب، وأقام اليهود بقرب المشور في حي يعرف باسمهم. هكذا حرر الحاخام أمته وأمّنها. ولقد كان المرضى يأتونه من كل أنحاء الجزائر. (1)

---

(1) انظر، Revue africaine, XIVè année, n°22, 1870. توفّي الحاخام في سنة الرّاب الموافقة لسنة 1442م. وتوجد بقرب قبره، قبور أخرى للحاخام SAMMUEL ولده وأعضاء آخرين من هذه الأسرة. توفي إنكاوه إفرايم خمسين سنة قبل طرد اليهود التام من إسبانيا.

ب) وإذا كان اليهود قد دخلوا تلمسان عن هذا الطريق،فإن العرب المسلمين، وعلى رأسهم، عقبة بن نافع، دخلوا عن طريق اختطاف الأميرة "شُمَيّسة" بنت ملك الجدار والتزوج بها. وملخص الرواية التي يتناقلها المدّاحون هو كما يأتي:

لم ينجح عقبة بن نافع ابن أخت عمرو بن العاص، في المرة الأولى، في فتح تلمسان، و غضب على إثر ذلك، غضبا شديدا. فدبّر خطة لكسب المدينة والتكفير عن الهزيمة. أرسل إلى تلمسان ابن أخته، عبد الله بن جعفر إلى قصر ضيلاق الملقّب بـ "ملك الجدار" (1) حيث تقيم بنته الأميرة شميسة. وعندما قدم على الملك، نسي أن ينحني أمامه للتحية، فأثار غضب الملك الذي صرخ في وجهه قائلا: "لو لم تكن بعدُ شابّا، أيّها العربي الوقح، لكنت سأقطع رأسك من أعلى عنقك! على كل حال، سأحتفظ بك هنا مع عبيدي مدة أسبوع، و ستأكل معهم!". وكان الهدف من هذا القدوم، هو اختطاف الأميرة الجميلة، استجابة لطلب خاله عقبة. وفي أحد الأيام، و من أعلى النافذة، اكتشفتْ شميسة هذا الشاب ولاحظت فيه كل صفات المروءة والجرأة. فدبّ في نفسها، العشق، إلى درجة أنها أصيبت بالحمى. وأخذ حبها له ينخر جسمها. فقررت أن تتعرف إليه. وخرجت بعد استئذانها لأبيها، إلى بستان القصر و معها خروف لتتسلى. ولكنها، في غفلة منه، أمرت الزنوج أن يُحضروا الشاب العربي الموجود وسط رفقائه، وحذرتهم من إفشاء السر. و كان الأب يراقب شميسة و يرصد كل حركاتها بواسطة ساحريْن كلفهما هو بنفسه بالمهمة. ولم يلبث أن تعرف على حقيقتهما الشاب الفطن، فجز رأسهما، و دبرت الأميرة بمعيّة معشوقها، خطة الفرار. وكانت الحجة المعقولة هي زيارتها لأختها "بانْضُو" (2) المقيمة على شاطئ واد الصفصيف قرب القصر.

فخرجت الأميرة مع رفيقاتها، و قد تنكّر عبد الله مع رفقائه في ملابس نسوية. وخرج الجمع من باب الرواح. ولم يكن يعلم أحد أن الملك ــ وقد ساوره الشك ــ قد أرسل

---

(1) وفي رواية "جهال" ملك الوندال، و هذا خطأ تاريخي.

(2) ورد الإسم في المثل الشعبي التالي: "عايشة و بانضو في السوق يتڤاود(ن)" انظر، ج. بوقلي حسن، ما سمعته في تلمسان، حرف العين. ويُحتمل أن يكتب الإسم على الشكل الآتي: بان الضوء مقابل الشمس أو شميسة.

معهم سحرة، متنكّرين إلى متسوّلين. و بفضل الرمل "الكشّاف" الذي حمله هؤلاء السحرة في منادلهم، استطاعوا التنبؤ بالمصير الذي خططته الأميرة و معشوقها.

فانتقل الملك بجيش قويّ الرجال و السلاح، للبحث عن الأميرة. فوجدها جالسة متكئة على الحواشي الزاهرة لعين المنزه(1) حيث كانت تُلاغِزُ أُخْتَها "بانضو". وكان بالقرب منهما، عبد الله ينتظر بفرسه تحت الظلال. و بقوة سحرية و في رمشة عيْن، إنطلق الفرس بالبطليْن نحو المشرق، و وقعت معركة حامية الوطيس بعين المكان بين الجيش الملكي والرفقاء العرب، وهي معركة سقط فيها رجال دفنوا بأطلال معروفة بـ "رجل" الصفصيف.

لقد قام عبد الله بالمهمة التي وكلها إليه خاله و أتمها بوفاء، و قدّم إليه الفتاة الجميلة في شكلها، و السليمة من كل أذى. و لكن، ما ذا يصنع الجمال أمام تجعيد وجه الرجل الذي صرح بالزواج، و أمام احْديداب ظهره وهرمه؟ فما كان على الفتاة أمام هذه الصدمة إلا أن تُظهر الحقد و الاحتقار. و لما كان الرجل المسن تقيا، و كان في نيته المعاشرة بالمعروف، استجاب الله لدعوّاته، فأكرمه بالتشبيب، و أرجعه إلى عنفوان الشباب، و أعد للفتاة كل أسباب الرضى بالزواج. (2)

<u>الثنائي الثاني:</u>

و في القصتين التاليتين حديث عن أول من أقام بتلمسان شهرا، من أنبياء الله، فرع اليهود، و أول من نقل الإسلام، فرع المسلمين.

أ) عن الفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق أنه قال: حادثت يوما فقيها بالقاهرة في شأن البلاد، إلى أن آنتهى [بنا] الحديث إلى تلمسان". فآستخرج المذكور من داره، ديوانا تواريخيا يقول فيه بأن مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى نزلها نبيّ الله سليمان(3) بن داود عليهما السلام، و أقام بها شهرا."(4) و المراد بها، تلمسان.

---

(1) بين الصفصيف و أوزيدان.

(2) انظر D.FAREDEHEB , La légende de Choumissa ,

(3) هو سليمان الحكيم، ملك إسرائيل، توفي نحو 978 قبل الميلاد". مدبّر إداري واقتصادي للمملكة". قام بمشاريع البناء، لا سيما بناء هيكل أورشليم. إسمه مرادف للحكمة.

(4) يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ص: 91 .

ب) وفي القصة الثانية، يقرن العوام تلمسان بآسم "أبي قرّة" البطل الإسلامي، رفيق سيدنا محمد (ص)، فهو الذي كان كما يقولون، أول من نقل الإسلام إلى هذه المنطقة البعيدة. (1)

الثنائي الثالث:

وفي القصتين المواليتين، حديث عن الماء والزيتون.

أ) أما عن الماء، فإن الولي الصالح سيدي الداودي - أو شيخ البلاد - (2) له كرامات، منها أنه يوجد بقرب ضريحه بئر، ماؤه يأتي من بئر زمزم، من البقاع المقدسة. (3) وكل آمرأة تشرب منه سبعة أربعاءات متتالية، تحمل في رحمها طفلا ذكرا. (4)

ب) وأما عن الزيتون، فإن الرواية المحلية تنقل إلينا ما يلي: رغبة منه في الحصول على النبات الطيب والمثمر قرب المدينة، أجبر ملك تلمسان كل واحد من السكان على غرس بعض أشجار الزيتون حول المدينة والعناية بها، ومَنَعَ المرور عليها بالدواب مدة اثنتي عشرة سنة، وإلّا يُصدر حكما بالإعدام على المخالف. وآنتشار الغابات الكثيفة من الزيتون، وهي مصدر عائدات مهمة للبلاد، يعود فيه الفضل إلى هذا الملك. وكان اليهود يعتقدون أن زراعة الزيتون لا تنبت ولا تثمر إلا تحت رعايتهم، ولا يُفلح فيها غيرهم. (5)

الثنائي الرابع:

وفي القصتين المواليتين، مفارقة بين الولادة أو المعرفة اليهودية، والهندسة اليهودية.

أ) ومفاد الأولى، أنه لما كانت شخصية سيدي وهّاب أو وهْب من أكثر الشخصيات غموضا، راح الخيال التلمساني يماثله بـ "وهْب بن منبّه" هذا الشخص المبجّل الذي يعود تاريخه إلى القرن الأوّل الهجري، والذي ولد يهوديا وآعتنق الإسلام. وهو من خلال

---

(1) G. MARCAIS, Tlemcen, p.12. وهنا، نحن في قلب الاعتقادات الخرافية، لأنّ أبا قرة المذكور في التاريخ، هو اليفريني الصّفري وليس أولَ من نقل الإسلام إلى تلمسان.

(2) شيخها قبل مجيء سيدي أبي مدين شعيب إلى تلمسان.

(3) C.M.ROBERT, Tlemcen jardin d'Eden, p. 62.

(4) C.M.ROBERT, Tlemcen jardin d'Eden, p. 65.

(5) Revue africaine, XIVè année, n°22, 1870.

مؤلفاته العديدة، يظهر متطلعا على تقاليد عبْرية. وقد توفي حوالي 730م. (1)

ب) و مفاد الثانية، أن آنهيار نصف الصومعة القائمة بمسجد المنصورة، شدّ الخيال الشعبي، فأبدع أسطورة تكشف عن آزدواجية التعايش بين المسلم و اليهودي، وعن المفارقة بين حبه والنفور منه". إن السلطان الذي أمر ببنائها، نظرا لآستعجاله وقلقه في إنهاء البناء، كلّف مهندسيْن: مسلما و يهوديا؛ وكل واحد منهما أنجز نصف الصومعة في الوقت المحدد له. ولكن، عندما وقع الآنهيار بالصومعة، مس أحد جزأيها". وكان هو ذلك النصف الذي كُلّف ببنائه اليهودي. وبقي الجزء الثاني قائما و سليما وهو الذي أنجزه المسلم. ومن حسن الحظ، كان هذا الجزء الباقي هو الأجمل. (2)

الثنائي الخامس:

وفي القصتين الأخيرتين، يتبين لنا التقابل بين المرأة الكافلة والمرأة السافلة.

أ) فالأولى تخص السيدة "لالّا ستّي"، و هي الولية الصالحة دفينة الهضبة الجنوبية المطلة على المدينة". وتعتبرها الأسطورة بنت القطب عبد القادر الجيلاني، و هي وليدة المنطقة في الاعتقاد الشائع، وتنفرد وحدها بكفالة النساء و بالإشراف على تلمسان. ويعجب التلمسانيين ترداد هذه الكلمة تخليدا لآسمها: "لالّا ستي الراقبة على تلمسان". (3) وفي رواية، إنها المرأة التي تكون قد حملت على أكتافها سيدي أبا مدين. (4)

ب) وعن القصة الثانية، تذكر الرواية أنه، بعد دخول المرابطين أقادير (1069م.)

(1) G.MARCAIS,Tlemcen,p.62

(2) G.MARCAIS,Tlemcen,p.62

(3) G.MARCAIS,Tlemcen,p.78 ". انظر، ج. بوقلي حسن، ما سمعته في تلمسان ...، حرف اللام.

ومن الأمثال السائرة عنها في تلمسان، ما يلي: "لالّا ستّي الراقبة على الأوطان، ذاك آخوي الحبيب الراكب على الجمال"". و عند القسَم يقولون: "حقّ لالا ستي الحورية" وكذلك، "ألا لّا العمى و العمية و لالّا ستّي الوردية". (انظر، ج. بوقلي حسن، ما سمعته في تلمسان ... الحروف، اللام، الحاء الالف).

(4) وفي رواية أخرى، في موسم الحج، حملت على أكتافها شبح عبد القادر الجيلاني الذي عاد إلى الحياة وخاطبها، فقال لها: . يا آبنتي إنك لم تعودي في حاجة إليّ.. وآختفى. وقد آقتسمت مع التلمسانيين مرارة الحصار (1299ـ1307م) الذي ضربه يوسف بن يعقوب المريني على تلمسان.
Tlemcen et sa région, n° 18, 1° trim. 1954 , p. 54 .

عنوة،أسس يوسف بن تاشفين تاڤرارت في الجنوب الغربي من المدينة، و أقامها على هضبة بحيث يتمكن من حراسة الأعداء من أعلى، و تسهل مراقبتهم . و تحت هذه الحراسة الضرورية، أخذت أڤادير تفرغ من السكان الموسرين الذين كانوا يعمرونها، و التي وصل عدد القاطنين بها ـ على قول عبد الرحمن بن خلدون ـ إلى 125.000 نسمة . و لما لم يبق بأڤادير سوى المتواضعين من الحرفيين و البستانيين، و هم الذين عز عليهم مغادرتها بسبب تعلقهم بها، تهيأ لساحرة شريرة ـ و ربو شاية منها ـ إضرام حرب أهلية و وحشية و تحويل أڤادير إلى لهيب من نار و نزيف من دم، و هو مشهد رهيب ما تزال الأسطورة تحتفظ به(1) .

هذا هو المنهج الذي نلتزم به، و بأدواته و قواعده، و هذه هي المرجعية النظرية الأساسية التي نعتمدها لتحليل و تقدير المخزونات التي تزخر بها، الذاكرة الشعبية في شأن السنوسي، لأن هذه المخزونات نشأت و ترعرعت في هذا الجوّ السحري .

---

(1) D.FAREDEHEB, Berceau de Tlemcen .
يقول المثل الشعبي ملخصا هذه القصة: " المراة اللي خلت أڤادير" . (انظر، ج. بوقلي حسن، ما سمعته في تلمسان ...، حرف الميم .) .

القسم الثاني: تطبيق الأساس المنهجي على مخزونات الذاكرة الشعبية

الجزء الأول: تطبيق الأساس المنهجي على المخزون المادي

الجزء الثاني: تطبيق الأساس المنهجي على المخزون الاجتماعي

الجزء الثالث: تطبيق الأساس المنهجي على المخزون الشفوي

الجزء الأول: تطبيق الأساس المنهجي على المخزون المادي

أولا: روضـة الشيخ السنوسي

1- الضريح و احترام الوليّ
2- الحكمة من احترام الأضرحة
3- ضريح السنوسي و خصائصه
4- أيهما سابق في البناء، المسجد أم القبة؟
5- الأضرحة المجاورة للسنوسي و أدعيتها

ثانيا: مسجدا درب مسّوفة و بني جملة

1- أسطورة الجدار و حب البناء
2- مكانة مسجد درب مسوفة
3- تعلّق حيّ درب مسوفة بآسم السنوسي
4- وظيفة مسجد درب مسوفة
5- مكانة مسجد بني جملة
6- موضع مسجد بني جملة
7- أسماء أماكن، تذكّر بالسنوسي

ثالثا: الأوقاف

1- نظرة التلمسانيين إلى الأوقاف
2- الغرض من أوقافهم
3- قائمة المشاركين فيها
4- محتويات أوقاف السنوسي
5- تحديدها و مصيرها

أولا : روضـــة الشيخ

لا يكفي في الميدان الأنثروبولـوجي ، الاقتصار على مجرد تسجيل المخزونات العينية التي تحتفظ بها الذاكرة الشعبية .إنه لا بدّ من الارتقاء بها، إلى مستوى الفهم والتحليل حيث يتعيّن علينا الاعتماد على أدوات التفسير،كوضع الفروض و اختبارها .

1ـ الضريح واحترام الولي :

فنحن في مدينة أسطورية، فيها كل ما يدعو إلى تنشيط الذاكرة الشعبية، هذه الذاكرة التي لا يمكن أن تتوقف عن وظيفتها في حفظ الماضي، و تحدّي الزمان مهما كان انتشار الخط و المخطوطات.

وإنها " لأطرٌ اجتماعيـة" مفيدة، هاته التي تقدمها لنا اليوم، الذاكرة الشعبيـة . فالباحث الأنثروبولوجي أو الزائر للشيخ السنوسي يهمّه الانطلاق من مدفنه و منبتـه لتحفيز التأمل و تثبيت الذكرى.

فالأستاذ شيربونو عندما حلّ بتلمسان و تقدم إلى زيارة ضريحي الحفيد بن مرزوق والشيخ السنوسي ، قال: "عندما زرت ضريحيْهما، شعرت بفضول معرفة فضلهما، و بالحاجة إلى أن أطلب من التاريخ، العناوين التي على أساسها، قامت الشهرة الواسعة الـتي اكتسباها في العالم الإسلامي " .(1)

إنه كان، و كأنهمـا يقولان له،كما قال الشاعر:

تلك آثارنا تـدلّ علينا .•. فانظروا بعدنا، إلى الآثـار.(2)

ومن البديهي عندنا، أن كل ما يتعلق بالمقدسات، لا بد أن يحافَظ عليه، وأقوى ما في حافظتنا ـ مهما كانت الظروف ـ هو الذّكر بمختلف أشكاله المادية و المعنوية .

---

(1) Revue africaine, A. CHERBONNEAU, Les écrivains de l'Algérie au Moyen - Age, document historique sur es-Senouci:son caractère & ses écrits, XIVè année,1870.

(2) ورد ذكر هذا البيت في كتاب "تعريف الخلف برجال السلف" لأبي القاسم محمد الحفناوي ، الجزء 1 ، ص: 01 .

وإذا كان الذّكْر يتعلق بالأوْلياء الصالحين، زاد النفع وعظم الخير.

وفي هذا الباب، يستشهد ابن مريم المديوني في مقدمته لكتاب البستان، بمقال للشيخ السنوسي، و قد أخذه عنه من تقييده في مناقب الأربعة. يقول الشيخ :

" و لْيكن اعتناؤك يا أخي، بمن تأخّر من الصالحين وخصوصا، من أهل بلدك حلولا بالسكنى والدفن أكثر من اعتنائك بمن تقدم منهم، و ذلك لأوْجه:

أحدها، أن الغالب فيمن تقدم، إمكان الاستغناء عن التعريف بأحوالهم بتأليف من مضى.

الثاني، أن نشاط النفوس للخير و الاقتداء بذكر محاسن المعاصرين لها أو من قرب من المعاصرين، أكثر من نشاطها بذكر محاسن من بعُد زمانهُ". لأنّ منافسة المعاصر لمعاصره في الخير معلومة، و أيضا، النفوس في هذه الأزمنة المتأخرة، قد يمنعها من الاجتهاد في العمل الصالح و رياضة النفس عنها، أن الولاية قد طوي بساطها، فترى أن الاجتهاد لا فائدة فيه. فإذا عرفت أن بعض المعاصرين أو من قرب من المعاصرين قد فُتح له بابها، قوي رجاؤها حينئذ في الفتح، و نشطت و اجتهدت[..]

الثالث، أن ذكر محاسن المتأخرين، لا سيما إنْ كان لهم مدفن في البلد أو ذرية أو أصحاب يوجب لمن وقف على ذلك، المحافظة على خدمتهم و الهروب من انتهاك حرمتهم في ذريتهم وأصحابهم أو كلامهم، أو فيمن تعلق من الملهوفين بمن لابسهم أو خدمهم. و الجهل بأحوالهم، لا سيما أهل الخمول منهم، يوقع في انتهاك حرمتهم. و ذلك موجب للعطب الذي [لا] يمكن تداركه دنيا وأخرى. و قد وقع كثير من الناس في بعض من يتعلق بالأوْلياء، و هو جاهل بهم، فهلك، و العياذ بالله، هلاكا عظيما في دنياه وأخراه.

الرابع، أن فيه تخلصا مما عليه أهل الزمن من القدح بمن عاصرهم من الصالحين أو عاصرهم من بعض ذريتهم و القرابة إليهم. و هذا خلق ذميم جدا. وقد نال منه أهل المغرب، خصوصا أهل بلدنا، حظا أوفر مما نال غيرهم. و لهذا، لا يجد أكثرنا اعتناء بمشائخنا و لا يحسن الأدب معهم، بل يستحيي كثير منا أن ينسب بالتلمذة لمن

كان خاملا، و يكون جلُّ آنتفاعه بذلك الخامل، فيعدل عن الأنتساب إليه إلى من هو مشهور عند الظلمة. و ربما نَسَب بعضُ من لا خلاق له العداوة و السبّ والإذاية لمن سبقت شيخوخته عليه و لا يبالي، و ذلك مذموم جدا و إن لم يكن شيخه من الصالحين، و هو الهلاك دنيا و أخرى". (1)

إن الغاية من هذه الكلمة هي الحث على آحترام الصالحين و ذويهم، و ذكرهم، و الاقتداء بهم في الاجتهاد و الصلاح و السعي إلى الفوز بشرف الأنتساب إليهم.

إن ذكر الناس للشيخ السنوسي أتّخذ عدة أشكال، يمكن آلتماسها في الضريح كما قلنا، و الأبنية و الأوقاف، و كذلك في المرويات أو الشفويات من قصص و أساطير و كرامات و أمثال و شعر، و من أنسجة عائلية.

وهكذا، فتقديس الأولياء، الأمواتُ منهم و الأحياءُ، ليس أمرا غريبا عندنا في تلمسان، و في غيرها من المدن الإسلامية. فلقد أثبت السنوسي أنه من حقهم أن يخدموا و يصانوا في حرمتهم و مأثوراتهم.

2- الحكمة من آحترام الأضرحة:

و إذا آنتقلنا إلى الحكمة من ظاهرة آحترام أضرحتهم و التقرب إليها بالزيارة و الدفن، يمكن قول ما يلي:

أ- إن أبسط ما يدل على آحترامهم هذا، هو تعيين الضريح و تحويطه و العمل على صيانته و ذكر مأثور كلامه. و لهذا، دفن التلمسانيون الشيخ السنوسي، في المكان الذي يناسبه، و بنوا عليه قبة تليق بمقامه. فحوّطوا الروضة، و رفعوا فيها القبة عالية لا يسعها إلا أن تشد آنتباه المار. يقول جاك بيرك في هذا الصدد: "إن القبر (2) الأشد تأثيرا، إنما هو قبر عالم التوحيد، العالم الجليل سيدي السنوسي، الذي يوجد على الحافة الشمالية - الشرقية من

---

(1) ابن مريم، البستان، مقدمة الكتاب، ص: 06 - 07.

(2) و يقصد بالقبر هنا في الحقيقة، القبة الشامخة. (Le tombeau).

المقبرة .فلا زخرفة في مظهره الخارجي".وحتى داخل القبة، لا يفوتك أن تلاحظ بساطة تقشفية .هذا هو المَعْلَم الذي يناسب السنوسي .إن تواضعه كان سينزعج من الزخرفة المقبرية المبالغ فيها و التي تسلط على قبور العظماء" .(1)

و يقول ك.م .روبير: "أنا لا أعرف في تلمسان، و لا في غيرها، موضعا أخصب للتأمل من هذه المقبرة السنوسية .فمن هذه القبور الإسلامية، يفوح سلام و طمأنينة يجعلان من الموت الوحشية، ضالةً و إغراء .وعليه، أنشدت هذه السنوات، قائلا:

هذه المقابرُ لها من الجمال،

متروكةً أضرحتُها من غير بال،

حتى أن الراقدين - أنا شاعر الحياة -

يشوقونني بشهوة الممات .

رأيت هذه "الجبانة" التلمسانية في كل الفصول".وفي كل مرة، ألقاها بنفس الانفعال. وإن زائرها، يجد عند قطع بابها جوّا آخر حيث ترتاح الروح في انجذاب هادئ". (2)

ب- و مما يدلّ على احترام الناس لأوليائهم، الاستجابة لدعوة السنوسي نفسه، و هي التي سجّلها ابن مريم عن مناقب الأربعة .فكثير من التلمسانيين، يعرفون و لا شكّ أولياء مدينتهم إحصاءً و مدفناً أحياناً، وعلْما ونسَبًا، أحيانا أخرى.ولقد شاعت منذ قرون، كتب في السير والتراجم كبغية الرواد ،

---

(1) J.BERQUE,L'Algérie,terre d'art et d'histoire,Alger,1937,p.206

(2) وفي الأصل وردت هذه الأبيات على الشكل الآتي:

Ces cimetières sont si beaux
Dans l'abondon de leurs tombeaux
Qu'à moi l'aède de la vie
Tous ces gisants me font envie!

C.M.ROBERT,Tlemcen, jardin d'Eden, p.45-46.

وجاء في مجلة" تلمسان و منطقتها" أنه "بمجرد ما تبلغون المقبرة الاسلامية الشاسعة [...]، يبدو أنكم قطعتم حدود عالم آخر، ليس عالم الأموات و الكآبة، و لكن حدود مكان تختلف فيه الحياة" .

Tlemcen et sa région , N° 18, p.126.

و النجم الثاقب، و البستان". فـفيها عن حياة كلّ منهم، الكـثير.

ج- يعرفون من السنة ما يزكي هذا السلوك. جاء في الأثر عن النبي (ص) : "فمن أراد أن يـزور القبور، فليزر. فإنها تذكّرنا بالآخرة". (1) وعن بريدة رضي الله عنه، أن النبي (ص) قال: " كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروهـا". (2) .

وليس من قبيل اللامعقول الحفاظ على القبور لهذه الأغراض. ثم إن الإنسان، كما في المأثورات، يبعث يوم القيامة مع من أحبَّ.

فلقد توفي السنوسي، و وُوري في التراب الذي سيتسع إلى روضة. و هذا تلميذه يحيى بن محمد المديوني أبو السادات يلازم ضريحه. ولقد ضاق به الحال، " حتى باع جميع ما عنده، و لم يبق عنده ما يسدّ به رمقه". (3)

د- طلب المدد الروحي و الاجتماعي، لأنه حامل كلمة التوحيد و هي الكلمة التي لا بدّ من أن يموت عليها كل مسلم، و يحتاج إليها لتأسيس حياته مع المؤمنين.

هـ- الميل العفوي إلى رعاية الروضات، و خاصة إذا كانت تابعة للعائلة الـتي ينتمي إليها، أو للولي الذي يسكن مدينته و يحبّه.

إن الروضة لغةً، هي الأرض المخضرة لانتشار الماء فيها و لوجود شتى النباتات. و هي، في الاستعمال الديني، الحديقة أو الجنة. جاء في الكشاف (4) أن روضة الجنة هي أطيب بقعة فيها أو هي البقاع الشريفة من الجنة، يدخلها المؤمن جزاء على إيمانه وأعماله الصالحه. (5) أما في الاستعمال الجاري التلمساني، فهي المكان الذي تدفن به العائلةُ أفرادَها و أقاربها و الذي يسهل على الزائر وجوده ليترحم عليهم، و كأنه وقْفٌ عليها دون غيرها.

---

(1) عن يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين، ط. 5، مط. الاستقامة، القاهرة، بدون تاريخ، باب استحباب زيارة القبور، ص: 267 .

(2) رواه مسلم، نقلا عن النووي، المصدر السابق.

(3) ابن مريم، البستان، ص: 306 .

(4) و قد انتشر في تلمسان في الجوامع و المدارس المختلفة.

(5) الزمخشري، تفسير الكشاف، تحقيق محمد مرسي عامر، ط. 2، في ستة أجزاء، د ا ر المصحف، القاهرة، 1397هـ/ 1977م، ج. 5، ص: 05.
انظر أيضا، الرازي، التفسير الكبير، ج 27، ص: 163 .

و التلمسانيون محبّون لمدينتهم، وحافظون للقرآن، وغيورون على تقاليدهم. و يعبّر الشاعر الشعبي (1) عن هذه الحقيقة في قصيدة، هذه بعض أبياتها:

تلمسان يا العاليه ∴ و ما أحلاك في السكنان

فيك الحمام و الا مام ∴ و الثالثه سلطان

فيك القرآن العظيم ∴ يَقْروه الشبان.

إنهم يعتقدون بأن الروضة في الدنيا هي مدخل للروضة الأبْدية التي وعد بها الله عباده الصالحين. يقول تعالى: "والذين آمنوا و عملوا الصالحات في روضة الجنات". (2)

و هم يؤمنون بأن كل نفس ذائقة الموت، و مهما عمّر صاحبها، فإنه راحل. و يعبرون عن ذلك، في أدعيتهم المنقوشة و المنحوتة على شواهد أضرحتهم. ومن هذه الأدْعية، ما يأتي:

- تزوّد من الدنيا، فإنك راحل ∴ وآعلم بأن الموت لا شك نازل

نعيمك في الدنيا غُرورٌ وحسْرةٌ ∴ و عيشك في الدنيا محال و باطل (3)

- سبحان من تعزز بالقدرة، و قهر العباد بالموت. يا من لا يموت، إرحمْ من يموت (4)

و لهم أيضا في الموضوع، أمثال شعبية، منها:

- فآينْ عندك تهرب يا لّي تابعاتْك الموت.

- تفكّر الموت ترتاح.

- كل شي يفوت، و آحسابنا من بعد الموت.

وفي زيارة الروضات و التشديد على العمل بعقيدة التوحيد، يقول المثلان التلمسانيان:

- الزيارة بركة، و كل خطوة في الجنة.

- الّي ما آعطى وجهه للقبلة، على ظهر القابلة. (5)

---

(1) صاحب القصيدة شاعر مجهول.

(2) الشورى، الآية: 22.

(3) انظر، الشاهدة رقم: [illegible] لـ المنور سي بومدين.

(4) انظر، الشاهدة رقم: [illegible] لـ السيدة المنوار الغغرية.

(5) ج. بوقلي حسن، ما سمعته في تلمسان، حسب الحرف الذي يبدأ به المثل.

و- تدهورُ تلمسان بعد وفاة السنوسي: لقد غادرها كثير من أعيانها عندما آستولى عليها الإسبانيون بالقوة، و "فقدت الكثير من سمعتها و قيمتها خلال العهد العثماني". و(1) لقد ذهب بنو زيان والإسبان، و ذهب العثمانيون و الفرنسيون، و بقيت الروضة شامخة في مكانها تحدث أخبارها بأن هناك شيخا عرف بالعلم و الصلاح، له حق علينا أن نذكره بما أراد وأن نقدّر مسعاه.

إن تدهور مستوى التعليم و التخوف من ضياع الدين و تزامنهما مع مجئ العثمانيين، كلّ ذلك، زاد من آنتشار الزهد والجهل إلى درجة الآنحراف. وهنا، إضطر العثمانيون إلى اللجوء إلى أهل الصلاح والطرق يطلبون منهم، البركة والمدد الروحي، الأموات منهم و الأحياء. لقد أوقف الباي حسيّن سنة 1173هـ وقفا على زاوية الطيب الوزاني [بتلمسان] حين آشترى لها دارا ...و بنى الباي إبراهيم الملياني سنة 1174، ضريحا للولي محمد بن علي حفيد الولي عبد الله بن منصور. وجدد الباي مصطفى المانزالي سنة 1218هـ، ضريح هذا الولي الجد. (2) و زاد نفوذ "المرابطين" بالتسهيلات التي كانت تقدمها السلطة العثمانية لهم عن طريق العطايا السخية و الإعفاء من الضرائب(3)

هذا عن بعض المعاني التي يحملها آعتزاز التلمسانيين بهذه الروضة، و قبتها الشامخة.

3- ضريح السنوسي و خصائصه:

و إذا أتينا إلى ضريح السنوسي نفسه، لاحظنا أنه يختلف عن الأضرحة الأخرى داخل القبة، في هذه الخصائص الأربع، و هي:

أولا، انفراده بالتابوت الموضوع فوقه،

ثانيا، وجوده في خط منحرف ب 11 درجة بالنسبة إلى الخط الموازي للأضرحة المجاورة له.

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى القرن الرابع عشر الهجري، جزآن، ط. 2. م.و.ك.، الجزائر، 1985، الجزء 1، ص: 171.

(2) سعد الله، المصدر السابق، ص: 264. أنظر أيضا، Revue africaine, BROSSELARD, 1860.

(3) سعد الله، المصدر السابق، ص: 267. أنظر أيضا، ص: 16 و 171.

ثالثا، كسرة اللحد و فراغه من التراب بما يزيد عن المتر المكعب .

رابعا، بينه و بين ضريح التّالوتي ـ أخيه لامّه ـ مسافة ضيقة تقدر بحوالي شِبْرَيْن .
و وسط هذه المسافة، نقرأ شاهدة من الرخام لضريح آخر، و هو لامرأة يعود تاريخ وفاتها إلى خمس و خمسين سنة .

و هذه الخصوصيات تدفعنا إلى وضع هذه الافتراضات:

أ ـ إن القبة رفعها التلمسانيون لتخليد اسم السنوسي ليس إلاّ، نظرا إلى وجود التابوت فوقه، و نظرا إلى الانحراف الذي يميزه عن غيره .

ب ـ إن القبة غيرت الوضع الطبيعي لضريحي التالوتي و أخيه لضرورة اقتضاها البناء، و كذلك احترام الاضرحة المجاورة لهما، و هذا بإدخال الشواهد في القبة أو إخراجها عنها، و بتقديمها أو تأخيرها .

ج ـ إن نبش اللحد و إفراغه من بعض ترابه يفترضان عدة احتمالات، منها: أنه قد يعود السبب في ذلك، إلى ضرورة التبليط أو لتوسيع المكان لضريح المرأة المدفونة بين الاخوين أو لاعتقادات أشرنا إليها في الفصل الاول من هذا الباب كاغتراف التراب للعلاج .

د ـ إن وجود المرأة بين الرجُلين، يجعلنا نتأمل فرضيات في اتجاه هُويتها و طبيعة علاقتها بالاخويْن . مَنْ هي هذه المرأة؟ ألا يكون بينها و بين السنوسي (أو التالوتي)، علاقة عائلية أو روحية أو مهنية؟ كما نتساءل عن وضعية ضريحي السنوسي و أخيه الاولى أي الطبيعية، مع العلم أن مقدار المسافات بين القبور يتسع أو يتقلص حسب أن نكون في بقعة ترابية خالية أو مكتظّة بالقبور، قبل بناء القبة و بعده ...؟ و عليه، فنحن لا نستبعد أن تكون المسافة بين الاخوين أكبر مما تقدمه الذاكرة الشعبية عينيا، لأن المسافات بين القبور تضيق حول الولي و تتسع في الخلاء أو في المواضع التي ليس فيها ما يدعو إلى الانتباه . ومن هنا تجد الخيال الشعبي الفرصة سانحة لإبداع خرافات، مثل الاعتقاد بوجود مدفِنيْن للسنوسي، أحدهما في تلمسان، و الاخر في بني سنوس .

ثم إن الدراسة الموضوعية تدفعنا إلى الحذر مما ورد في كتب السير من بعض الحروف و العبارات . نقرأ في البستان أن فلانا أو فلانة مثلا، مدفون (بـ) أو (في)

أو (عند) أو (بجوار) ضريح السنوسي أو روضته. (1)

عندما يقول صاحب البستان: "بالروضة" فهو لا يقصد المقبرة العامة لأنها كانت في وقته تعرف بمقبرة "عيْن وآنْزوتة". ولكنه يقصد التراب المكشوف الذي يجاور أو يقترب من مركز ضريح السنوسي. وعندما يقول: "في الضريح"، يفهم من هذا، أن القبة كانت موجودة في عهد الكاتب ابن مريم، وإلا فكيف نفهم (في)، إن لم يكن الأمر يتعلق بداخل مبنى؟ و تبقى العبارتان الظرفيتان، (عند) و (بجوار)، مفتوحتين على النسبية التي لا تخرج في الحقيقة، عن حدود الروضة.

4- أيهما سابق في البناء، المسجد أم القبة؟

و هناك، فضلا عن ذلك، ما يدعو إلى التساؤل التالي، و هو، هل المسجد سابق في البناء، على القبة؟

أ- إن تتبع قضية الأسبقية بين الضريح و القبة يساعدنا على تقديم بعض الاحتمالات منها، احتمالان إثنان: إما أن يكون الضريح أسبق من المسجد (أي قاعة الصلاة) أو العكس.

فمما يؤيد الاحتمال الأول، أن الإسلام لا يمنع بناء مساجد أو مصليات قرب الأضرحة: فضريحا عبد السلام التونسي و أبي مدين مثلا، سبقا في التاريخ بناء المسجد، و يوجدان بجنبه. ويسمى المسجد بآسم أحدهما و هو أبو مدين.

و لكن، لماذا لم يعرف - من هذا المنظار - هذا المسجد أو المصلّى، بآسم السنوسي أو التالوتي رسميا كما هو شأن سيدي أبي مدين و مسجده؟

و مما يؤيد الاحتمال الثاني، فمن قبيل المنطق و الخيال على حد سواء:

أولا، إن الذاكرة الشعبية جمعتهما بسياج واحد، و لا يمكن بناء قاعة للصلاة بمحرابها و سقفها المنهار على أرضية تنتشر فيها القبور. فلو كان المسجد حديثا لوقع نبش القبور وآنتهاك حرمتها.

ثانيا، إن بناء المسجد على الضريح، و أحيانا متاخما له، لا يليق في الدين، ويمجّه

---

(1) جاء في البستان في شأن مدفن سيدي محمد بن يحيى المديوني المدعو أبا السادات، أنه توفي بعد الخمسين و تسعمائة و دفن عند ضريح سيدي محمد بن يوسف السنوسي (ص: 262)، و في شأن محمد القلعي، أنه توفي بمشهده مع أصحابه في ضريح الشيخ السنوسي، (ص: 272).

الناس.و إذا بني على هذا الأساس،فغالبا ما يهجر و يترك للطبيعة و صوارفها .

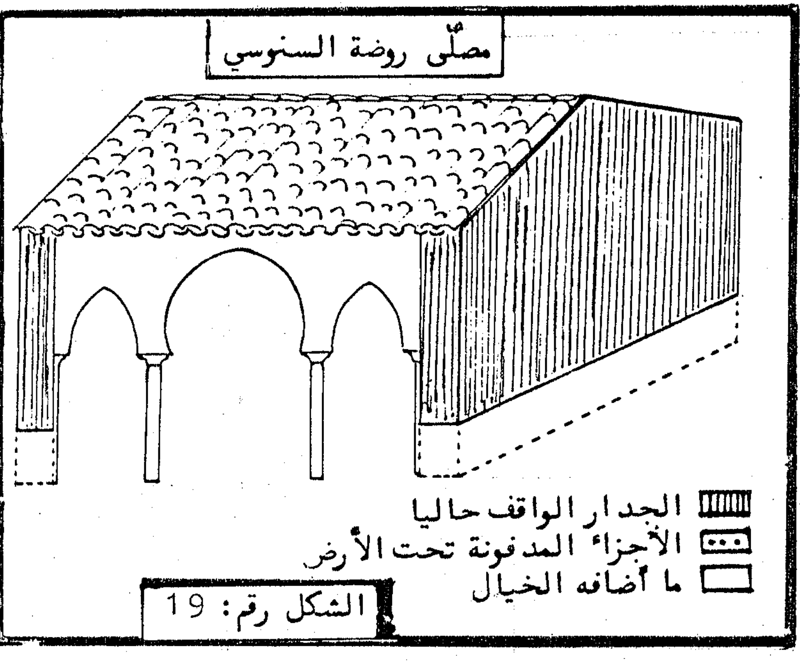
ثالثا،إن مصلى الروضة مكتظ بالأضرحة عمقا و آستواء . ولهذا،بقي من المحراب في آرتفاعه، ثلثه تقريبا، بسبب دفن الموتى، الواحد فوق الآخر،على مدى القرون .

رابعا، و تروي الذاكرة الشعبية أن التالوتي كان يدرس بمسجد عين وانزوتة ، و هجره أخوه السنوسي مرة، لرؤية رآها في المنام .

ب - و لكن وجود القبة يحملنا إلى تحويل بعض التخمينات إلى واقع.

أولا، إن القدم ظاهر على محراب المصلى و الجدران الحاملة للسقف، بالمقارنة مع القبة .

ثانيا، طبيعة المواد التي صُنع منها المصلى تدل على قدم البناء .وما آنهيار سقفه إلّا دليل على القدم و عدم الاكتراث بدوره . (انظر، الشكل رقم: 19)



الشكل رقم: 19

ثالثا، بناء القبة الشامخة عوّض مساحة المصلى، و شد آنتباه الزائرين للمقبرة، فأنقص من وظيفة المصلى، و خلق أسباب اللامبالاة لديهم، و حملهم على مجاورة السنوسي بالدفن حول القبة .

رابعا، لو كان المسجد حديثا، لنافس القبة في الجمال والهندسة، و لكان سيحتاج أهله إلى من يفتيهم في آنتشال جثث مَنْ في القبور و آنتهاك حرمتهم .

خامسا، لو كانت القبة أسبق، لكان الاهتمام بالمصلى يوازي الاهتمام بها، و لكانت صيانتُه بقدر صيانتها، لأنه يكون عندئذ، تابعا روحيا للشيخ السنوسي صاحب القبة .

و يؤكد هذه الحقيقة الأستاذ جاك بيرك في مجرد جملة بقوله: "إن القبة مبنية على مسجد قديم" . (1)

J.BERQUE, L'Algérie,terre d'art et d'histoire,p.206. (1)

5ـ الأضرحة المجاورة للسنوسي و أدعيتها:

سنعرض الآن، ببعض التفصيل، جداول الأضرحة بأسماء أصحابها، وأشكال شواهدها، و الأدعية التي تحملها قبل تحليلها و حسب العناوين التالية:

أـ عرض جداول:

*أولا: جداول الأضرحة

*ثانيا: جد ول أشكال الشواهد

*ثالثا: جـدول الأدعية

بـ تحليل أولي لهذه الجداول:

*أولا: أسماء شخصيات علمية

*ثانيا: أسماء صناع الشـواهد

*ثالثا: نسبة الذكور و الإناث

*رابعا: علاقات عائلية

*خامسا: عدد كلمات الشريف.

أـ عرض جداول:

*أولا: جداول الأضرحـة

و لقراءتـها لا بد من معرفة المعطيات التالية:

المعطيات الأولى: أجزاء الروضة:

القسم الأول: و هو مدخل الروضة

القسم الثاني: و هو مصلى الروضة

القسم الثالث: و هو القسم الخلفي للروضة

القسم لرابع: و هو قبة الروضة.

المعطيات الثانية: الأضرحة صفّان

الصف الأول من الأضرحة في كل قسم نعني به الصف الذي يتجه متعامـدا مع القبلة، و نشير إليه بهذا الرمز السهمي (🡅).

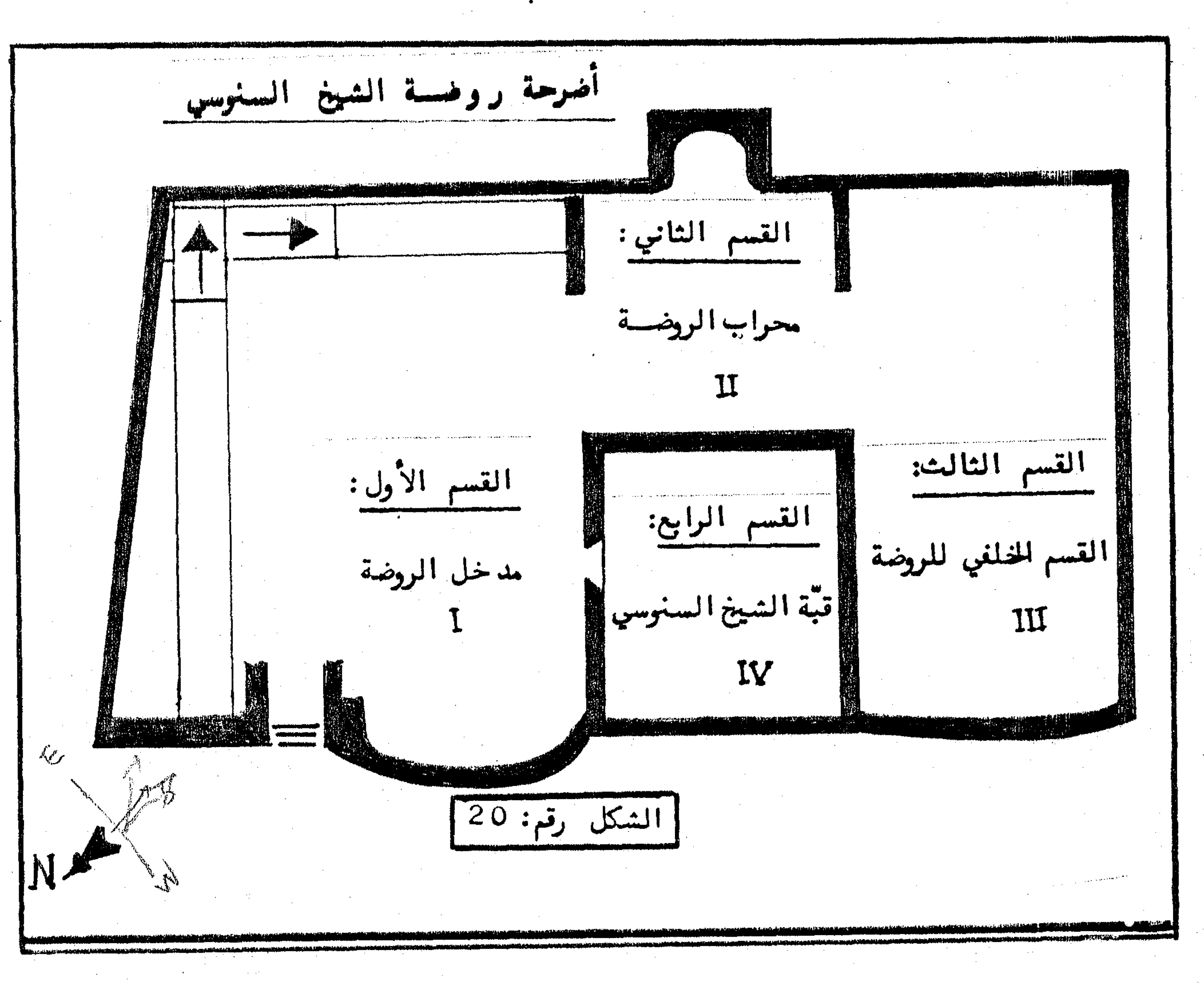
أما الصف الثاني، فنقصد به الصف الذي يتجه متوازيا مع القبلة و نشير إلـيه

بهذا الرمز السهمي (←) .

المعطيات الثالثة: الرقم التسلسلي بحيث ينطلق من جديد، مع إحصاء أضرحة كل قسم من أقسام الروضة الجديد .

المعطيات الرابعة: معلومات خاصة بصاحب القبر: و تشتمل على ما يأتي :

الإسم العائلي، والإسم الشخصي، والمكانة الاجتماعية، وإسم الزوج، والأجداد، وتاريخ الميلاد و الوفاة أو العمر، ومادة الشاهدة، و شكلها بالرقم المقابل لها في جدول خاص بها، ورقم الدعاء وفقا لجدول خاص، ومدفون على، والجنس، وصانع الشواهد، وملاحظات، مع العلم أننا لم نرقّم المدفونين عليهم . (انظر، الشكل رقم: 20) .



الشكل رقم: 20

الرقم	الاسم العائلي	الاسم الشخصي	المكانة الاجتماعية	اسم الزوج	الأجداد	تاريخ الميلاد والوفاة/العمر	مادة الشاهد	رقم شكلها	رقم دعائها	مدفون على	الجنس	صانع الشواهد	ملاحظات ↑
1	منور	سنوسي			ولد محمد	1975_16	3	12	18		ذ		(1)
2	حسين	طموم			بنت محمد بن محمد	1937/7/29	3	20		فاطمة بنت الحاج أحمد قاره مصطفى	أ		(2)
3	الشاهدة مغروسة في الأرض يستحيل قراءتها.												
4	الزياني	الزهرة			مولاي الهاشمي		1	15	27		أ		
5	العقباني	يحيى			بنتسي محمد بن ورقة		1	14			ذ		(3)
6	الشاهدة صعبة القراءة												
7	برصالي	محمد الأمين				1995_22	2	01	03	ربما على 6	ذ		
8	مصمودي	آمنة		سي أحمد المنور	الحاج محمد	1968 72 سنة	1	13			أ		
9	منور	غوثية	الشريفة الخشية	قاني أول	عبد الله المنور من ذرية الولي سيدي علي بن يوبا الموتغى 1946/8/19	1992_33	1	13			أ		(4)
10	المنوار	الغفرية			بنت سي قويدر	ت1945	1	29	06		أ		
11	المنور	محمد			بن سي عبد الله بن سي بومدين بن المنور نجل سيدي علي بن يوب.	ت1944	1	29	01	الفقيه الشريف أبي مدين بن المنور بن محمد بن يوبا الشهير با بن المنور	ذ		(5)

[illegible]	...ور	محمد	الشريف										
13	بن المنور	مصطفى			بن عبد الله نجل الولي سيدي علي بن يوب	ت. 1947	1	26	07		ن	الميلود	→
					بن عبد الله بن سي بومدين بن المنور نجل سيدي علي بن يوب	ت. 1944	1	26	01		ن		
14	المنور	سي بومدين	الفقيه		ابن سي آمحمد الحافظ لكلام الله	ت. 1960	1	08	22		ن		
15	بن ديمراد	محمد			محمد الصغير	1988_10	3	06	02	الحاج بن محمد بن عودة بن ديمراد، ت. 1951/3/5 و هو مدفون على الشريف الحسني مولاي المختار ولد مولاي بن الحاج الناصر، ت. 1287هـ الشاهدة رقم: 17/1.	ن		
16	بوعبد الله	ادريس	الشريف		مولاي جلول الشريف	1974_91	1	12	02	مولاي جلول بن محمد بن ابي عبد الله الشريف، ت. عام 1329هـ، 8 ذو القعدة	ن		
17	قاره محمد	حاج محمد			الحاج أحمد	1990_08	3	13	03	الطالب الأجل التالي لكتاب الله، الفقيه الإمام بالجامع الأعظم سي الحاج أحمد بن قاره محمد، ت. 27 شوال 1339هـ.	ن		

جدول القسم الأول: مدخل الروضة

تعليق على الملاحظات المرقمة: (1) سيدي محمد المنور التلمساني أجاز علي بن محمد الجزائري (الحفناوي، التعريف، ج. 2). (2) المدفونة عليها شاهدتها ناقصة، توفيت سنة 1211هـ. (3) نقص الشاهدة الثانية. (4) شكل شاهدة القبر المدفونة عليه رقم: 1/ 06. (5) كان السيد أبو مدين المنور مؤذنا بمسجد درب مسوفة. انظر: A. LECOCQ, Tlemcen ville française, p.225.

1	السقـال	سي محمد			ولد الحاج محمد		1				ن		ضاعت الشاهدة ال2 ↑
2	؟	البغدادي	العلامـة		ابن محمد الباي بن يوسف	مارس 1926/ 15 شع 1323	1	27	26	على خدوجة بنت عبد القادر البغدادي	ن		(1)
3	ضريح لمجهـول												
4	المختاري	أحمد	الشريف الفقيه العـلامة		ابن البشير بن عبد الله بن ويس	5 ربيع ث 1329	1	27	25		ن		
5	بن يمينة	الحاج لبوخ	الفقيه العلامة		ابن عمر	1914/4/25			25		ن	مولاي بومدين	
6	السقال	خيرة			محمد بن مصطفى	1319هـ	1	30		على أبيها	أ		
7	ضريح مجهول، شاهدته من رخام مكسرة.												
8	آغـا	جنات	الشريفة الحسنية الولية الصالحة	الفقيه البغدادي	بنت حامد بن حمادي بن علي بن حمادي		1	07	14		أ		
9	مصمودي	حسنة		حمو رسطان	بنت سي محمد	1934 — 1871					أ		
10	ضريح لمجهول لألتصاق الشاهدة بأخرى												
11	السقال	سي جلول	إمام مسجد السنوسي التالي كتاب الله الطالب الأجر		بن الحاج محمد بن سي حمادى	27 رمض 1351 1935/12/24	2	21	24		ن	بومدين مرابط	→
12	بوزار	جنات			بنت بومدين	1252/ 1836م	1	29	17		أ	محمد مرابط	
13	السقال	سـالـم			ابن حميدة بن جلول الفقيه المفتي العالم		1	02	17		ن	بن قلفاط	

جدول القسم الثاني : مصلى أو محراب الروضة

(1) هذا نجل الولي الصالح سيدي عبد الله الخطاب دفين مستغانم.

1	مولاي	بومدين	مؤذن الجامع الأعظم، الشريف الحسني		ابن مولاي الخضير	ت.1281هـ	1	16	16		ذ	
2	برصالي	يمينة	الحاجة		بنت العربي	1989_1896	3	13		خيرة ما مشة بنت محمد، علي أمها المتوفاة 1376هـ	أ	
3	قهواجي	منصور			بن محمد الصغير	1948	1	13		الزهرة بنت جلول الطرابلسي، توفيت في 1304هـ	ذ	
4	بلوسي	محمد عبد السلام	حاج الحرمين الشريفين، الغارس		ابن ابراهيم	1287هـ	1	02	16		ذ	مولاي بومدين مرابط
5	مجدابا	الغوثي	الفقيه العلامة		ابن الحاج محمد بن علي	1932_1351			25		ذ	= =
6	برصالي	بن مولاه			ابن سيدي الحاج محمد بن محمد	5 رجب 1339	1	10			ذ	أحمد الشاوي
7	بن مراد	الحسين مولاي محمد	الشريف			ت.1296هـ	1	17			ذ	
8	ابن مراح	الزهرة	الحرة الجليلة		محمد بن الحاج بن عودة	1933_1353	2	15	28		أ	بومدين مرابط
9	المالطي	فاطمة			حمو	ت.1382هـ	1	29	11	مجهول	أ	
10	بن مراح	عبد القادر			سي محمد	ت.1328هـ	1	29	11	أبيه محمد ولد الحاج بن عودة	ذ	
11	بن ديمراد	زليخة			عبد القادر	1992_1909	3	13			أ	
12	بن ديمراد	سيدي محمد			ابن علي	ت. 1928_1246	1	29	20		ذ	= =
13	آيت عبد الرحيم	علي			الحاج بلقاسم	1992_1921	3	13			ذ	
14	بن ديمراد	آمنة	الحرة الجليلة		بنت محمد ولد بن علي ولد حسن	ت.1337هـ	1	27		مجهول	أ	
15	بن يلس	أحمد	حاج الحرمين		ابن حمو بن محمد	1924_1343	1	27		أبيه حمو ولد حمادي	ذ	ت. 1295هـ

16	قايد سليمان	خديجة	السيدة	الحاج أحمد قاره محمد	بنت يحيى	1964 _ 1383	1	27	25		أ		
17	قاره امحمد	يامينة		X	الحاج أحمد	1959 _ 1377	1	13	05		أ		
18	برصالي	فاطمة الزهراء			العربي بن محمد	1994 _ 1899	1	13	11	أبيها الفقيه العربي بن محمد	أ	—	رقم الشاهدة: 1/ 29
19	الدحاوي	سي محمد	التالي كتاب الله		سي المحداد بن عبد القادر	ت. 1336هـ	1	29	24	مجهول على مجهول	ذ		
20	بن دي ويس	سي محمد	الفقيه العلامة حامل كتاب الله		ابن أحمد	ت. 1342هـ	1	27			ذ		لا وجود للدعاء
21	برصالي	بن عودة	الفقيه		ولد الحاج محمد	غير مقروء	1	27	12	ولد القايد بن عودة برصالي توفي عام 1276هـ(رقم: 3/ 3)	ذ		(1)
22	بن رسطان	جلول	الشهيد الطالب		ولد السيد أيوب ابن الفقيه البشير	ت. 1928م	2	23	28		ذ		(2)
23	برياح	علي			ولد الحاج قدور ولد مراح	ت. 1289هـ	1	02			ذ		(3)
24	بن عبد الرحيم	الحاج قاسم			بن عبد الرحيم	ت. 1938	2	/	25		ذ		(4)
25	برصالي	فاطمة	أخت برصالي بن عودة		بنت الحاج محمد	1990 _ 1895	3	13	11		ذ		
26	الشافعي	مولاي	الشريف الحسني		بن البشير العلوي	غير مقروء	1	/			ذ		
27	مزيان	؟	الفقيه العلامة الشريف		ابن محمد سليل سيدي الحاج	ت. 1351	1		13		ذ		جده مفتي تلمسان

جدول القسم الثالث: القسم الخلفي للروضة

تعليق على الملاحظات المرقّمة: (1) القائد بن عودة قائد الكراغلة بالمشور عند دخول الفرنسيين لتلمسان في المرة الأولى سنة 1836م.
(2) قبر وحيد ملاصق لضريح الشيخ السنوسي، تمتاز الشاهدة بتحديد يوم وساعة الوفاة: الثلاثاء الحادية عشر ونصف. (3) هو كذلك قبر وحيد ملاصق لضريح الشيخ. (4) كتب الدعاء فوق القبر على شكل إطار مستطيل، تكسّرت الشاهدة الثانية.

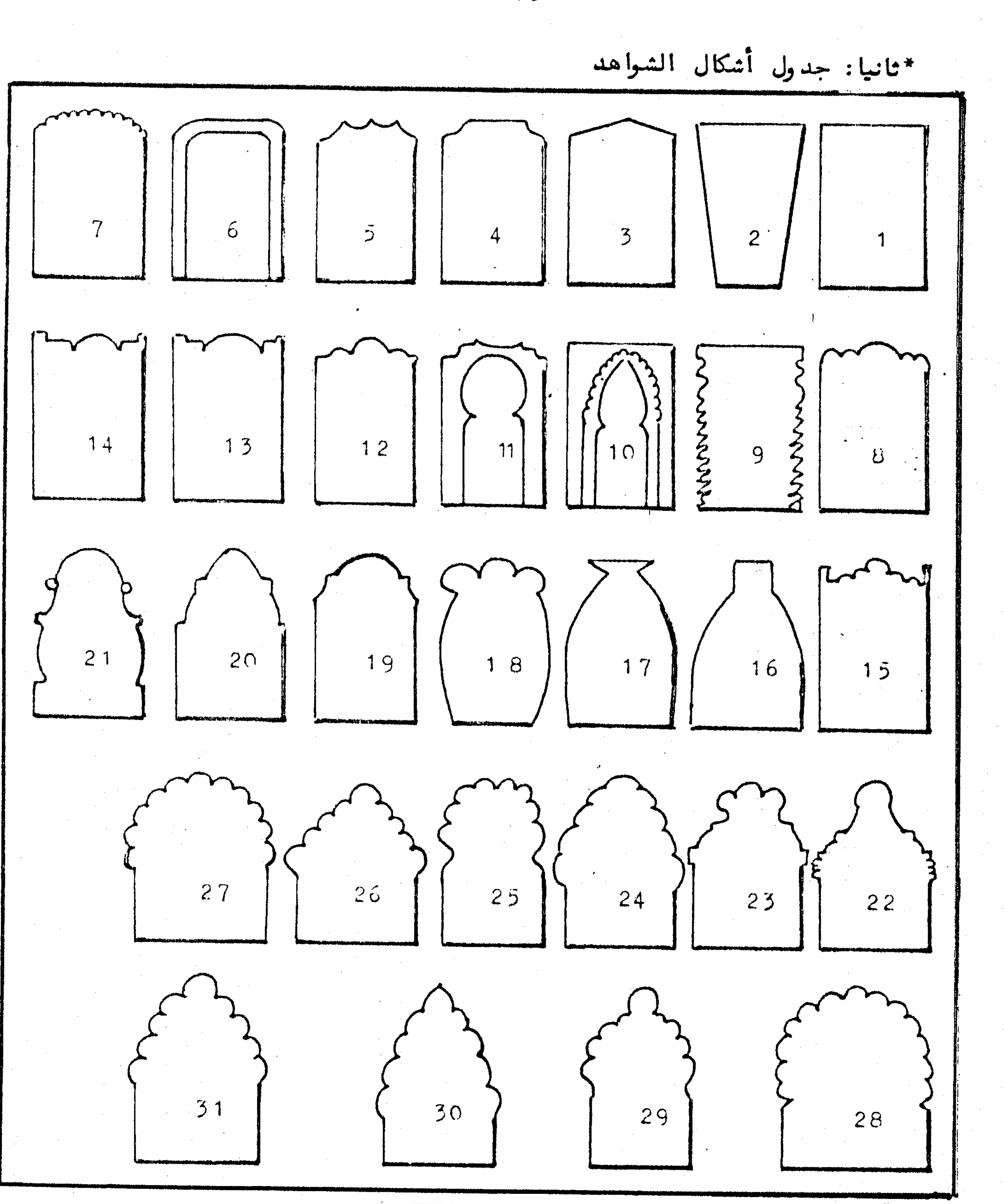
1	التالوتي	علي	العالم الفاضل الصالح		ابن محمد	ت / 895هـ	1	1			ذ	لا توجد شاهدة الدعاء، الطلاء الزيتي مع الدخان أتلف رسم الأحرف
2	المنور	الزهراء	ولية صالحة	الحاج محمد بن آشنهو	بنت أبي مدين	ت. 1362هـ	2	1	08		أ	دفنت بين السنوسي وأخيه على التالوتي
3	السنوسي	محمد	العالم الولي الصالح		بن يوسف	ت. جمادى ث/ 895هـ	1	1	01		ذ	(1)
4	المرلاتي ؟		الشريف الحسني				1	29			ذ	يوجد القبرورا قبر الشيخ السنوسي
5	بن رسطان	حمو	العلامة القاضي هو أخو أيوب		ابن البشير المفتي أبوه شيخ الإسلام	12 ربيع الـ2 1329هـ	2	1		أبيه العلامة الفقيه حمو بن بنعلي المتوفى في 1280 وعلى الشاهد مصطفى بن الحاج احمد بن رسطان المتوفى في 1303 .	ذ	مالطي لحمد بن محي الد
6	الديب	فاطمة	الحرة الجليلة	حمادي بن جلول بن قلفاط	بوسلطان بن قادة بن الحاج محمد الديب	ت 1351 ـ 1932 تناهز القرن	2	1	04		أ	
7	بن قلفاط	أحمد			ولد البشير بن حمادي بن جلول	ت. 1335هـ	2	1	10		ذ	محمد ولد البشير بن قلفاط أخو المتوفى .
8	بن الحاج علال	محمد	الفقيه العلامة المفتي الذرّ الأنيق		بن مصطفى	ت. 1931	2	21			ذ	
9	بن رسطان	بن علي (حمو)	الشهيد مفتي تلمسان			ت. 1328/ 1929	2	14	24		ذ	
10	قاره محمد	صالح			بن بوعياد	ت. 1296هـ	1	27			ذ	
11	چلابي	جلول	العلامة الفقيه مفتي الجامع الأعظم		بن عبد القادر بن محمد بن مصطفى	ت. 1335هـ عن 70 سنة	2	22	09			(2) على الشاهدة إشارة لوقت الوفاة بالأبراج .

جدول القسم الرابع: القبة

تعليق على الملاحظات المرقمة: (1) نقرأ على شاهدتيه ما يلي : "الحمد لله. هذا قبر الشيخ الولي الصالح سيدي محمد بن سيدي يوسف السنوسي . توفي رحمه الله، في شهر جمادى الثانية من عام خمسة و تسعين و ثمانمائة. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون."

(2) 37 سنة في الإفتاء بالمسجد الأعظم، الشاهدة الثانية غير موجودة .

*ثانيا: جدول أشكال الشواهد



الشكل رقم: 21

أشكال الشواهد أو "الرؤوسيات" الواقفة بروضة الشيخ السنوسي

* ثالثا: جدول الأدعـية

أنواع الدعاء	رقم الدعاء	نـــص الــدعـــاء
أدعية من القرآن الكريم I	01	بسم الله الرحمن الرحيم: "كل شيئ هالك إلا وجهه، له الحكم، وإليه ترجعون" .صدق الله العظيم. (القصص، 88.)
	02	إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له: كن، فيكون. (يس، 82) إنا لله و إنا إليه راجعون. (البقرة، 156).
	03	يا أيتها النفس المطمئنة آرجعي إلى ربك راضية مرضية، فآدخلي في عبادي وآدخلي جنتي. (الفجر، 27_30).
	04	كل من عليها فان، و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام. (الرحمـن، 26_27).
	05	قل: يا عبادي الذين آمنوا أتقوا ربكم. (الزمـر، 10).
أدعية نثرية II	06	سبحان من تعزز بالقدرة و قهر العباد بالموت، يا من لا يموت إرحم من يموت.
	07	فلا تعجبك الدنيا و حسن أمورها، ألا إنما الدنيا ستفنى يـا رسول الله.
	08	البقاء لله، بشرى لنا معشر الإسلام، إن لنا من العناية ركـنـا غير منهدم.
	09	هو البـاقي.
	10	و لله الحمد وحده.
	11	يا واقفا على قبرنا، ادع الله لنا بالرحمة و المغفرة، فيرحـمنـا جميعا.
	12	يا نفسي، لا تقنطي من زلة عظمت، إن الكبائر في الغفران.
	13	يا رب يا مولاي، غوثك يرتجى للغوث، هذا عبدك بن محمد، وآجعله في حزب الضيوف المكرمين ممتعا بحمى النبي محمد.
	14	اللهم إنك من هذه الأرض خلقتني، و فيها أعدتني، و منهـا تخرجني إلى الحساب و الوقوف بين يديك، فآجعل حسابي يسيرا وآنقلابي إلى أهلي مسرورا.

	15	اللهم ارحم جميع المسلمين.
	16	يا واقفا، ادع لنا بالرحمة والمغفرة يرحمنا جميعا بمنّه وكرمه.
	17	كاللــم لعل رحمة ربي، حين يقدمها تأتي على حسب العصيان في القسم.
	18	تزوّد من الدنيا فإنك راحــل وآعلم بأن الموت لا شك نازل
	19	مولاي، ها هو عبدك أتى إليك و هو بكبل الذنب مكبول
	20	يا رب إن ذنوبي في الورى كثرت و ليس لي عمل في الحشر ينجيني وقد أتيتك بالتوحيد صحبة حب...... و هذا الذي يكفيني
	21	عليك بتقوى الله وآحفظ حدوده و من ضيّع التقوى، فذاك معذب على قدر تقوى الله تأتي المواهب و تأتي على قدر الذنوب المصائب (1)
أدعية شعرية III	22	تزوّد من الدنيا، فإنك راحل وآعلم بأن الموت لا شك نازل نعيمك في الدنيا غرور وحسرة و عيشك في الدنيا محال و باطل
	23	يا صاحبي لا تغترر بتنعم فالعمر يفنى و النعيم يزول و إذا حملتَ في القبور جنازة فآعلم بأنك بعدها محمول.
	24	حياة المرء في الدنيا منام و يقظته، و لو كرم الحمام فعش في دين ربك مستقيما و مت بحب ربك و السلام. بجاهك يا إلهي، ارحم عبيْدا تزوّد من كتابك (2) ما يرام.
	25	يا من أتانا زائرا لقبورنا تذكر هجوم الموت، إنك مغتر فلا تغترر بصحة و سلامة فكم من صحيح ضمه اللحد والقبر

(1) هذا البيت لسيدي عبد الرحمن بن محمد بن موسى (توفي في 1011هـ)، انظر، البستان لابن مريم، ص: 133.

(2) و في رواية، طاعتك، بدلا من كتابك.

الحمد لله وحده. قد خلقت من تراب . ٠ . ها أنا فيه نزيل وخروجي يوم حسرة . ٠ . من هنا عما قليل إنني بالباب أرجو . ٠ . صفح ذي العرش الجليل يا إلهي إرحم عبيْدا . ٠ . ظنه فيك جميل .	26	
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .كل نفس ذائقة الموت.يا واقفا لقبورنا، هذا قبر المسلمين، ادع لنا بالرحمة و المغفرة .	27	أدعية متداخلة IV
و إن هي ترك الفانية . ٠ . و سعد من حاز الباقية يا رب أنت الكريم . ٠ . و الذنب مني عظيم و قلت حقّا و صدقا . ٠ . و قولك الكريم . نبئ عبادي أنني أنا الغفور الرحيم . (1)	28	

ب- تحليل أولي لهذه الجداول:

و على ضوء هذه المعطيات العينية المفصلة، يمكن أن نسجل استنتاجات أولية في المستويات التالية:

* أولا: أسماء شخصيات علمية

الرقم	الجنس	التعريف بالأسماء الواردة على شواهد الأضرحة
01	ذ	العلامة البغدادي بن محمد الباي بن يوسف، المتوفى في 15 شعبان 1323هـ/ مارس 1926 .
02	ذ	الفقيه أبو مدين بن المنور بن محمد بن يوب.
03	ذ	الولي الصالح سيدي علي بن يوب.
04	ذ	سيدي آمحمد الحافظ لكلام الله.
05	ذ	أبو مدين المنور كان مؤذنا بمسجد درب مسوفة .
06	ذ	الطالب التالي لكتاب الله الفقيه الإمام بالجامع الأعظم سي الحاج

(1) و من الأدعية التي سجلناها من شواهد لأضرحة جديدة، دعاءان:
"و أما من خاف مقام ربه، و نهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى" . (النازعات، 41).
سبحان الباقي .قل: ربّ آغفر و آرحم، و أنت خير الراحمين . (دعاء نثري) .

		أحمد بن سي أحمد بن قاره محمد، توفي في 27 شوال 1339هـ.
07	ذ	الولي الصالح سيدي عبد الخطاب دفين مستغانم، و هو جد عبد القادر البغدادي .
08	ذ	الفقيه العلامة المختاري أحمد الشريف بن البشير عبد الله بن ويس.
09	ذ	الفقيه العلامة بن يمينة الحاج لبوخ بن عمر.
10	أ	الولية الصالحة آغا جنات الشريفة الحسنية زوجة الفقيه الأجل سيدي البغدادي .
11	ذ	السقال سي جلول امام مسجد الشيخ السنوسي، التالي كتاب الله الفقيه العالم الجليل الشيخ المفتي .
12	ذ	مجدابا الغوثي الفقيه العلامة بن الحاج محمد بن علي .
13	ذ	الدحاوي سي محمد ولد سي المحداد بن عبد القادر الأجل، التالي كتاب الله.
14	ذ	بن دي ويس محمد بن أحمد، الفقيه العلامة الطالب، حامل كتاب الله.
15	ذ	برصالي بن عودة الفقيه ولد الحاج محمد مدفون على ولد القائد برصالي المتوفى عام 1276هـ.
16	ذ	الشهيد بن رسطان جلول ولد أيوب ابن الفقيه السيد البشير.
17	ذ	الفقيه العلامة الشريف مزيان ابن محمد بن مزيان سليل سيدي الحاج تلميذ الشيخ السنوسي، حفيد مفتي تلمسان.
18	ذ	العالم الفاضل الصالح علي التالوتي أخو السنوسي لأمه.
19	أ	الولية الصالحة المنور الزهراء بنت أبي مدين زوجة الحاج محمد بن آشنهو. دفنت بين السنوسي وأخيه.
20	ذ	العالم الولي الصالح محمد السنوسي .
21	ذ	العلامة القاضي بن رسطان حمو بن البشير المفتي (أبو شيخ الاسلام) .
22	ذ	بن الحاج علال محمد بن مصطفى الفقيه العلامة المفتي الدر الأنيق) توفي في 19/ 8/ 1931 .
23	ذ	بن رسطان بن علي مفتي تلمسان (ولده حمو) توفي في 16ربيع الثاني

24	ذ	1328هـ/ 20/ 9/ 1929. العلامة الفقيه مفتي الجامع الأعظم، جلابي جلول بن عبد القادر بن محمد بن مصطفى، قضى 37 سنة في الافتاء. توفي في صفر 1335هـ.

و في اللوحة التالية، جدول توزيع هذه الأسماء بأرقامها فقط، حسب آعتبارها العلمي و الاجتماعي.

أرقام الأسماء	الولاية والصلاح	حمل القرآن	التأذين والقيمة	الفقه	العلم	الإمامة	الإفتاء	القضاء
	3، 7، 10، 18، 19، 20	4، 6، 11، 13، 14	5،	2، 6، 8، 9، (10) 11، 12، 14، 15، 16، 17، 22، 24.	1، 8، 9، 11، 12، 14، 17، 18، 20، 21، 22، 24.	6، 11،	11، (17)، (21)، 22، 23، 24.	21

* ثانيا: أسماء صناع الشواهد

استطعنا أن نحصي الأسماء الخمسة التالية:

1ـ محمد مرابط

2ـ مولاي بومدين مرابط

3ـ أحمد الشاوي

4ـ أحمد مالطي بن محيي الدين

5ـ محمد بن قلفاط ولد البشير.

* ثالثا: نسبة الذكور و الإناث المدفونين بالروضة:

بعد آستقراء العمود الخاص بجنس الأضرحة، سجلنا النسبة التالية:

الجنس	العدد	النسبة المائوية
الذكور	55	68,75٪
الإناث	25	31,25٪
المجموع	80	100٪

* رابعا: علاقات عائلية:

و من المصاهرات و العلاقات العائلية التي سجلناها، تزاوج عائلتي المنور و قازي أوّل فيما بينهما، و كذلك الأمر فيما بين عائلتي رسطان و مصمودي. كما أننا قرأنا ترادفا بين عائلتي العقباني و بن زرقة.

* خامسا: عدد كلمات الشريف

لقد تكررت كلمة الشريف أكثر من ثلاث عشرة مرة على شواهد الأضرحة المجاورة للشيخ السنوسي، و كأن العائلات "الشريفة" ترغب في تدعيم شرفها، بمجاورتها لعالم التوحيد في روضته.

ثانيا: مسجدا درب مسوفة و بني جملة

1 - و انطلاقا من كون "تلمسان" مدينة أسطورية"، يمكن القول بأن أم الأساطير - و هي أسطورة الجدار - خلقت في نفوس التلمسانيين حب البناء و الحفاظ عليه. (1) فلقد عمّروا فعلا، و أجادوا التعمير. و الدليل على ذلك، أن هذه المساجد التي بنوها، ما تزال واقفة، و نخصّ بالذكر منها، مسجدي درب مسوفة، و درب بني جملة، و بعدهما المسجد الجديد قبالة روضة السنوسي. وهي من ناحية المظاهر الهندسية، تدخل في نطاق البناء و تثبيت الأطر الخارجية للذاكرة. و لكنها من ناحية البواطن الروحية، تحمل دلالات إنسانية و متميزة. فهي في الناحية الأولى، تعكس

(1) "فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه". (الآية، 77 من سورة الكهف).

الذهنية التي درج عليها أهل المدينة". و في الناحية الثانية، فإن البناء همزة وصل بين الحياة الدنيوية و الحياة الآخرة، و له دلالات اجتماعية.

و كثيرة هي الأمثال الشعبية التي تعكس هذه الذهنية المتميزة و هذه المضامين الرّوحيـــة، نذكر منها هذين المثلين:

المثل الأوّل: ابْنِ قبور الدنيا.

المثل الثاني: ابْنِ وعَلِّ، روح و خَلِّ. (1)

2ـ أما مسجد درب مسوفة، فيمكن القول بأنه لم يهتم به الباحثون بالقدر الذي يوضح مكانته في المجالين الاجتماعي و التربوي، فضلا عن المجال الهندسي رغـم بساطته "الشعبية".

فالأستاذان وليم و جورج مارسي يكتفيان بالقول: "إن ما يميز هذا المسجد هو من جهة، قاعة الحجارتين [أي حجارتي الأحباس]، وهو من جهة أخرى، صومعة حـسنة الموقع رشيقة بطبقات عقيداتها الثلاث". في أحد وجوهها، تشدّك بعض الصفائح المزخرفة بالقصدير و الملونة بالأزرق و الأصفر، مرصعة داخل تجاويف مقوسة". (2)

و يكتب الأستاذ بروسلار عنه، فيقول: "إن بناء المسجد هندستُه عادية. و ليس من المستبعد أن يكون قد طرأ عليه بعض الترميم، ما عدا الصومعة التي يعود بناؤها إلى النمط البدائي. ويمكن التعرف عليها، بفضل الآجر المصفرّ نتيجة البصمات الجليلة الـتي تركها الزمان. إن زخرفة رسمها، لا تخلو من أصالة و لا من أناقة. ونجد أيضا فيها، فنّ التناسق و النحت. وبالرغم من أن الإلهام قد فتر، فإننا نحس بأنه لم ينطفئ.

إن مسجد درب مسوفة يبدو أنه يعود تاريخه إلى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي أو بداية القرن الخامس عشر الميلادي. و المؤكد أنه كان، على أقل تقدير، موجودا في عهد السنوسي، إذ كان هذا العالم المتضلّع [أي السنوسي] ـ حسب بعض الروايات التي لا يستطيع أحد الشك فيها ـ من عادته، أن يمارس فيه صلواته، و عباداته اليومية،

(1) جمال الدين بو قلي حسن، ما سمعته في تلمسان، حرف الباء.

(2) W.& G. MARCAIS, Monuments arabes de Tlemcen, cité par J.BERQUE, L'Algérie, terre d'art et d'histoire, p.202-203.

و كان يجمع فيه الطلبة المداومين على دروسه.وآعترافا له بهذا الفضل، و تخليدا لذكرى ملازمة الشيخ له، سمي المسجد بآسمه" .(1)

3- ولقد جاء في ترجمة السيد محمد بن يلس (صاحب الزاوية ، 1271-1346هـ) ، أن إسم السنوسي لم ينحصر في مسجد درب مسوفة، بل تعداه إلى الحي أو كما يقولون، " الحومة" .يقول المترجم و هو مصطفى بن يلس ما يلي :

كان سيدي الحاج محمد بن يلس" من صغره، يجتمع مع رفاقه في مكان لهم في (حومة) [أي حيّ] الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد السنوسي الشريف الحسب، صاحب التوحيد بدرب مسوفة" .(2)

4- و لقد قيل عن وظيفته، إنه - بالإضافة إلى كونه مسجدا تقام فيه الصلوات الخمس- كان جامعا يلتقي فيه الطلبة لتلقّي الدروس من الشيخ السنوسي .و الحقيقة، أن الشيخ لم يكن يعتبر هذا المسجد مدرسة بالمفهوم الذي يقصده في نظامه التعليمي . لقد كان يلازم المسجد لإمامة الناس في الصلوات الخمْس، وكان يخصّص الفترة الصباحية ما بين الساعة و الساعة و نصف، للتدريس يوميا، لأنّ طريقة التعليم التي كان يفضلها هي - كما سنرى في الفصل الثاني من الباب الثاني - التعليم بالمطالعة، حيث يخلو الطالب بنفسه، و يأخذ في القراءة، بعد أن يكون قد أخذ الضروري مما يحتاج إليه من العلم عن طريق شيخه.

5- وأما مسجد بني جملة، فإنه يكتنفه بعض الغموض لسبب واحد، و هو أن الذين كتبوا عنه، يستندون كثيرا إلى القيل والقال و الشائع من الروايات المختلفة.

إنه حسب بروسلار، مبنى صغير في حي بني جملة مقّوس سفلي و رطب لا صومعة فيه.إنه [مجرد] مصلى .وكل فضله هو أنه - رغم فقره المعماري - يتقدم على أنه شيّد في المكان السكني الذي يكون السنوسي قد رأى فيه الحياة.وليس لنا أي دليل

---

(1) Revue Africaine, BROSSELARD, Inscriptions arabes de Tlemcen, N°29, sept.1961.

(2) العشعاشي مصطفى، السلسلة الذهبية... تحقيق مصطفى يلس شاوش محمد، ص: 37

على رفض هذه الرواية. (1)

6- و مما يزيد الأمر غموضا، أنه جاء في تقييد حبس هذا المسجد، أن له دارين موقوفتين عليه، واحدة فوقه، و الأخرى ملاصقة له. و نحن نعلم أن الموضع الذي يوجد فيه هذا المسجد - على آعتبار أنه هو مسكن الشيخ الأصلي - ملاصق من الجهتين، التحتية و الفوقية أو وراءه منازل أخرى.

7- هذا، و لقد حفظت الذاكرة الشعبية عن طريق الشعر العامي، بعض هذه الأماكن بأحيائها و دروبها و منافذها المختلفة. و للشاعر ابن سهلة في هذا الشأن، قصيدة طويلة بعنوان "يا ضوء عياني"، نقتطف منها الثلاثيات التالية:

1- من ثَمّ عوّل .·. درب مسوفة(2) و دليلي حيران
2- بالك تغفل .·. حوّس بعينيك القُرّان (3)
3- الزين الكامل .·. يا ترى باقي كيف زمان

4- يا ولد الطوبي .·. نرسلك للدرب المُقبي (4)
5- افقد محبوبي .·. في جامع الحفرة يا الورشان
6- فضلها ربي .·. بزينها على جميع النسوان

7- من ثَمّ تبرم .·. إلى درب بن حربيط 5) تقدم
8- توجد العارم .·. بنت النسب غالية الشان
9- لو نعي نكتم .·. صاحب السر يبان يبان

10- يا جيد الأطيار .·. نرسلك الى سيدي الجبّار
11- الزين المسرار .·. ينذكر ما بين البنيان
12- يَكْوِيوْا بلا نار .·. من يراهم يمشي دهشان

(1) و في آخر ترجمته لأحباس الشيخ السنوسي، يسجل آعتقاده في أن هذا المسجد بُني في أواخر القرن 15 الميلادي، أي بعد مدة قليلة من وفاة السنوسي. (انظر، ص: 334، من Revue africaine, BROSSELARD, N°29, année 1861.).

(2) درب يقابل درب الصبّاغين القديم الرابط بين مرابط محمد و نهج آبن خلدون.

(3) يطلق هذا الاسم على دربين، الكبير و الصغير. وليس من المستبعد أن يكون الإسم مبالغة في تلاوة القرآن.

(4) مدخل درب سيدي اليدون من الجهة الشمالية، و به خلوة السنوسي.

(5) الدرب الموازي للدرب المقبي.

13ـ يا كحل النجـلـه .·. طِـرْ في الأَحْـــزان تعـلى
14ـ لأهل بني جملـة .·. يحفظك مولانا الرحــمــن (1)
15ـ من درب الغفلـة .·. و الحسود و جميع الرقبـان

16ـ يا صافي الاجنــاح .·. عند سيدي اليدون (2) ارتاح
17ـ في الزين الوضاح .·. انظر بعينـيك يا ورشــان
18ـ ثَمّ راه افـتـــح .·. ورد فـاح مع بن نـعـمـان (3)

ثالثا: الأوقـاف

لقد مرّ بنا، وصف الأوقاف الحية و الساكنة. و لكن في هذا المقام، سنحاول أن نقدم نظرة تحليلية لبعض ما تفيد به قوائم الأوقاف الثلاث الحية. و لذلك، يتعين علينا الجواب عن هذه الأسئلة:

1ـ كيف ينظر التلمسانيون إلى الأوقاف، و كيف يبررون ضرورتها نقليا و تراثيا؟
2ـ ما الغرض من أوقافهم هاته؟
3ـ و مَن الذين شاركوا في تقديمها؟
4ـ ما هي محتويات الأوقاف التابعة للشيخ السنوسي؟
5ـ و هل يمكن تحديدها و الاستفادة منها؟

1ـ أما السؤال الأول، فالجواب عنه، يقتضي منا التمييز بين مرحلتين في حياة الناس العامة: مرحلة بناء المؤسسات و تحريكها من بيت مال المسلمين، ومرحلة تأسيس مؤسسات من مال الدولة. فالأولى يشارك فيها المسلمون صدقة أو هبة أو وقفا. وأما الثانية، فإنها تشرف عليها الدولة لأغراض حكومية. و لكن، في المرحلة الثانية ـ مهما تضخمت اهتمامات الدولة و نفقاتها على مختلف مؤسساتها ـ فإن هناك أنواعا من المؤسسات كالمسجد و الزاوية و المدرسة و المكتبة... يساهم في تمويلها المسلمون بشتى القنوات و الأساليب. لأنّ الأمر له عندهم

(1) هما دربان في الواقع، أحدهما غير نافذ و به قوس يدل المار على ذلك، و الثاني نافذ، و ينفتح على مستوى درب الصبّانين.
(2) مدخله الرئيسي من ساحة الشهداء أو "المَدْرَس" في عرف التلمسانيين.
(3) أخذنا هذه الأبيات عن محمد النقادي، التصميم العمراني لمدينة تلمسان، ص: 267 ـ 270. انظر أيضا، محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص: 557ـ560.

أبعاد اجتماعية و ثقافية و اقتصادية، فضلا عن الأبعاد الشرعية و الروحية.

و لهذا، فإن الأوقاف صدقة جارية، و كل صدقة جارية لا ينقطع الثواب فيها حتى بعد موت صاحبها.

و التلمسانيون على دراية بأن الوقف شرعه الله و ندب إليه و حث عليه الرسول (ص)، بل و شارك في تقديمه هو و أصحابه. فعن أبي هريرة أن الرسول (ص) قال : "إذا مات الإنسان، انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له" (1) و روى أحمد و البخاري عن أبي هريرة أن الرسول (ص) قال: "من آحتبس فرسا في سبيل الله إيمانا و آحتسابا، فإن شعبه (أي وبره) و روثه (أي زبله) و بوله في ميزانه يوم القيامة حسنات". (2)

و في الأمثال الشعبية ما يدل على حرص التلمسانيين من جهة، على تطبيق وصية الواقف و الحفاظ عليها كعادة أو عرف اجتماعي، و من جهة أخرى، على السعي إلى التصريح بطبيعة الأشياء الموقوفة و التدقيق في تشخيصها و حسابها. ونذكر لهم دليلين أو مثلين:

الأول: حبوس إذا مات مولاه.

الثاني : حسّبْت خشْب الحبس، خمس أخْشاب. (3)

2- ما الغرض من أوقافهم هاته؟

إن الأغراض العامة التي تخدمها الأوقاف مختلفة، أشهرها خمسة:

الغرض الأول: الاهتمام بالعلم و العلماء و الطلبة.

الثاني : التكفّل بالفقراء و العجزة و اليتامى و أبناء السبيل.

الثالث : العناية بالمساجد و المدارس و الزوايا و الأضرحة، بناءً و صيانة و تنشيطا.

الرابع: رعاية قراءة كتب معينة في بعض الفنون المعلنة.

وبالرغم ممّا للتصريح بالغرض من الأشياء الموقوفة من أهمية، إلا أن قوائم أحباس

(1) رواه مسلم و أبو داود و الترمذي.

(2) السيد سابق، فقه السنة، دار الكتاب العربي، ط.8، السنة: 1407/1987، ج.3، ص: 377-379.

(3) جمال الدين بوقلي حسن، ما سمعته في تلمسان، حرف الحاء.

السنوسي ساكتة فيما تتضمنه من المحتبسات الأربعة و الثمانين إلا في أربعة منها ، و هي :

الأول: لقراءة سيدي البخاري بمسجد درب مسوفة . (انظر، القائمة I، رقم 10) .

الثاني : لضريح الشيخ السنوسي . (انظر، القائمة II، رقم 10) .

الثالث: للحزابين في الجامع العتيق . (انظر، القائمة II، رقم 27) .

الرابع : للشيخ السنوسي . (انظر، القائمة II، رقم 28 ، ص: 52ـ56، من بحثنا هذا) .

3ـ من الذين شاركوا في تقديمها ؟ و ما هي الأماكن التي تحتضن الوقف؟

اعتمادا على قراءة تحليلية للقوائم الثلاث التي سبق لنا عرضها، في الدراسة الوصفية، يمكن تسجيل المعطيات التالية ضمن ثلاثة جداول، مقابل قوائمنا الثلاث .

أسماء الأشخاص و الشركات	أسماء الأماكن	
1 ـ مؤذن مسجد درب مسوفة	1 ـ درب مسوفة	18ـ العنبر
2 ـ أولاد سيدي أحمد بن يوسف بن تادمايت عزة فاتح	2 ـ واد العطشان	19ـ مطمر سيدي العبدلي
	3 ـ واد الزيتون (مرتان)	20ـ المغادر الحمر
	4 ـ قصر الشعره (روض الغزال)	21ـ تيداغ
3 ـ عزوز	5 ـ سيدي بوسعيد	22ـ حاسي مرسوط
4 ـ دار الحاج بيحي علي	6 ـ سكاك	23ـ زديقة
5 ـ شركة جامع بن مرزوق	7 ـ حوز العنقوف و بلاد الشول	24ـ بجرار
6 ـ = أولاد سيدي الرايح	8 ـ السدرة	25ـ أولاد بن علي .
7 ـ = جامع درب الشول	9 ـ الصفصافة	26ـ الصفصيف
8 ـ = بن دالي يوسف	10ـ الصنصال	27ـ بين حانوت بوهدة و المغرب
9 ـ = بن زرقة أوعرب	11ـ حي بن شعبان	28ـ فندق (المغرب)
10ـ = بن دالي يحيى	12ـ الولجة (ثلاث مرات)	29ـ زنقة الغرابليين (بعد القران)
11ـ = بن آباجي	13ـ الولجة خيدر الكبير	30ـ الخراطين (مرتان)
12ـ = بن الحاج لإبراهيم	14ـ المقامات	31ـ السراجين
13ـ = بن تركية	15ـ الطلحاوية	32ـ باب القيسارية
14ـ = بن سارمشيق (1)	16ـ عمير	33ـ صفاح الكاتب تجاور روضة بن حبيب
	17ـ جب آرفاف	34ـ دار الحاج علي بيجي

جدول القائمة الأولى (I)

(1) اشتهرت هذه الأسرة التلمسانية بهندسة البناء والنقش والخطوط: لقد بنى أحمد بن محمد بن سار مشيق جامع العين البيضاء في معسكر سنة 1175هـ. و رمّم المهندس الهاشمي بن سار مشيق جامع سيدي بومدين في تلمسان سنة 1208هـ. وعرف من فناني هذه الأسرة و خطّاطيها، محمد الذي وجدت نقوشه على عدة آثار عمرانية، وكان موجودا سنة 1164هـ. (انظر، أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ج . 2، ص: 460) .

أسماء الأشخاص و الشركات	أسماء الأماكن	
1 ـ العباس	1 ـ زنيقة البارود يين ✗	14ـ سيدي صالح
2 ـ بن قازي سعيد	2 ـ التماقين	15ـ أوفاتح
3 ـ بن خضر	3 ـ باب الزاوية	16ـ عمير
4 ـ بن مراد	4 ـ القلعة قبالة باب الحديد	17ـ القعدة
5 ـ بن آعراس	5 ـ الكيس	18ـ سيدي سليمان
6 ـ عزوز	6 ـ سيقن قسيم عياد و قدور	19ـ البغيلة
7 ـ القائد حسن	7 ـ روض الشويخ (مدشر بو هددة)	20ـ البغالي
8 ـ شركة الحاج أحمد بن ابراهيم	8 ـ روض الغدير (مدشر ابن مرزوق)	21ـ تبداوت
9 ـ شركة حسين بن بابا أحمد	9 ـ روض ابن مالك	22ـ المغادر لحمر
10ـ شركة مسجد درب الحجامين	10ـ واد الزيتون	23ـ الرمشي
11ـ شركة بن خذ الوردي	11ـ بطيطا أنسدة	24ـ صفاح بوروبة
12ـ = محمد بن الحاج سليمان (حبس بنت بن مصطفى)	12ـ سكاك	25ـ الولجة
13ـ شركة بن شعبان	13ـ الحورة	

جدول القائمة الثانية (II)

لا شيء	1 ـ المدرس 2 ـ بني جملة 3 ـ دوي يحيى	/

جدول القائمة الثالثة (III)

4ـ ما هي محتويات الأوقاف التابعة للشيخ ؟

نتناول في جدول واحد كل قائمة من هذه القوائم بمحتوياتها حسب المنهجية التالية:

1ـ السكة
2ـ الفرد
3ـ قطع ترابية (روض)
4ـ حوانيت
5ـ الديار
6ـ أفران
7ـ زيت
8ـ كتب

رقم القائمة	السكة	الفرد	قطع ترابية	حوانيت	ديار	أفران	زيت	كتب
I	33	10	3ر20	7ر5	/	أفران	رطل	06
II	14ر33	06	2ر75	0ر5	0ر5	/	3ربعيات	/
III	02	/	/	01ر5	02	/	/	/
المجموع	49ر33	16	5ر95	9ر5	2ر5	أفران	22ل	6

إذا عرفنا، حسب لغة الفلاحين عندنا، أن السكة تساوي فردين، و أن الفرد يساوي 5 هكتارات، استنتجنا المساحة التي تُمثّلها الأوقاف في الأراضي الفلاحية. و هي أنها أكثر من 573 هكتار، على أساس 49,33 + 8= 57,33 × 10= 573,3 هكتار.

و إذا عرفنا أيضا، أن القُلّة الزيتية تحتوي على 24 لترا، استطعنا أن نقدر الربعية و هي $\frac{24}{4}$ = 6 لترات. أما الرطل، فهو عند المعصراتي التلمساني، يساوي سدس القُلّة أي $\frac{24}{6}$= 4 لترات. و عليه، فإن 22 لترا من الزيت تمثل أوقاف الشيخ كل سنة. و بإمكان التجار تحديد مداخيل الحوانيت إذا عُينت لهم مواضعها. و كذلك الأمر بالنسبة للديار و الأفران و القطع الترابية من عرصات و روض... أما الكتب، فلا تقدر أثمانها بمال، وهي مع الأسف، لا أثر لها في أوقاف السنوسي الساكتة.

5- و هل يمكن تحديدها و الاستفادة منها؟

و إذا عدنا إلى هذه الجداول، استطعنا أن نخرج منها، بالاستنتاجات التالية:

أ- يتساوى الكراغلة و الحضر (1) عددا، في آحتباس أرزاقهم.

ب- إن مسح أرزاقهم الموقوفة يؤكد على العموم، أنها ملأت مساحات مشتتة، و لكنها تكتظ ما بين حيه السكني و مسجده حيث كان يمارس التدريس و الإمامة، و تنتشر في ضواحي تلمسان لتتمركز بوجه أخص في أماكن مثل الولجة و عمّيّر و واد الزيتون و المغادر الأحمر.

ج- و بالرغم من أن الوقف "لا يباع و لا يوهب و لا يورث" لقول رسول الله (ص) في حديث ابن عمر (2)، فهو لم يكن في شأن السنوسي و غيره أيضا، محل آحترام من طرف العالمين به و القيّمين عليه. لقد وقع الإهمال من حيث كان ينتظر النفع. إن آنحطاط روح المتابعة تزامن مع فترة ضعف الحكم الزياني. ففي ميدان التعليم مثلا، قد آستولي على أوقاف مدارس تلمسان، و آنتُهكت قواعد الشرع فيها. و من بين المدارس الخمس التي تحدث عنها حسن الوزان Léon l'Africain، لم يبق إلا آثنتان

---

(1) و الحضر هم البربر و العرب.

(2) السيد سابق، المصدر السابق، ص: 379.

استولى على أوقافهما الولاة.و ترتب عن ذلك،إضعاف وظيفة المدْرستين.و هنا نفـهم بأن رعاية مؤسسة الاوْقاف،من شأنها أن تزيد في عمر هذه المدارس و في نموهـا. لقد نشط الاُستيلاء على الاوْقاف منذ أواخر الحكم الزياني، و تواصل في فترات من العهد العثماني، و دخلت في عالم الضبابية عند الاُحتلال الفرنسي.إن الوقف هو مصدر عيش مؤسساتنا التعليمية و الدينية، و مصدر عيش العاملين بها و هو من ثمة، المحرك الذي يتوقف عليه مصيرها.

و نحن نعتقد أن الاوْقاف التي حللناها، تفي بحاجة ما أوقفتْه الذاكرة الشعبية على السنوسي.ولا شك في أن الناس آحتبسوا للسنوسي أملاكهم و أرزاقهم قبل ظهور هذه القوائم الثلاث، و خاصة القائمتين الاوْلى و الثانية.ولهذا، فيمكن أن نقدّر الفترة ما بين وفاة السنوسي و نحت الحجارتين، بما يزيد عن القرن و النصف.(1) و لقد كانت هذه الاوْقاف وحدها ـ لولا الإهمال ـ كافية لجعل معالم السنوسي الاثْرية من المؤسسات الغنية مثلما كان الجامع الاعْظم و خاصة جامع سيدي أبي مدين.

فهناك إذن، ما يدعو إلى الحكم على الحالة التي آل إليها جزء كبير مـن المخزونات العينية التي تُخلّد بها الذاكرة الشعبية الشيخ السنوسي، و هو الحكم عليها بأنها مهملة و منـكوبة.

و لعل السبب الجوهري في ذلك، هو صعوبة تحديد المسؤوليات وآستثقال إزعاج الناس المتربّعين عن وعي أو عن جهل، على أوقاف السنوسي.

و لقد صدق المثل التلمساني الذي يقول في هذه الحالة: "كي يكون الـشيْ مهمـوك، اَعرفْ بليّ حبوس و لا مشروك". (2)

هذا، وعلى الرغم من أن القوائم دقيقة ـ في معظمها ـ في تحديد الحبس مـادة و مقدارا، زمنا و مصدرا، فإننا نجد اليوم، صعوبة في تـتبع المعطيات العينية للذاكرة الشعبية في هذه النقطة، نظرا إلى تغير بعض أطرها الاجتماعية مثل الاسْماء العائلية و أسماء المناطق و تنقّل الناس.و مما زاد في تعقيد هذه الظاهرة، الفترات التاريخية

(1) Revue africaine, BROSSELARD, N°29,année,1861,p.334.

(2) جمال الدين بوقلي حسن، ما سمعته في تلمسان، حرف الكاف.

التي عرفها مجتمعنا و التي ليست بالهيّنة، و هي كثيرة، و آخرها الثورات التنموية التي أفرزها استقلال الجزائر.

هذا، و لقد عبّر بروسلار سنة 1860، عن هذه الحالة التي أصابت حبس السنوسي، بكلام نسجّله من غير تعليق:

" إن هذه الأوقاف بقيت سليمة غير منقوصة، و تمثّل قيمة محترمة، تقدّر ماليا، بحوالي 100.000 فرنك فرنسي وضعها الاحتلال بين أيدينا" (1)

و مع هذا، فما تزال بعض معالم السنوسي الأثرية معرّضة لصوارف الدهر. إنها فقدت الكثير من رأسمالها الوقفي، و قلّت في شأنها، الحبس الجديدة. بل العجيب هو أن الأوقاف الساكنة هي التي بقيت واقفة في مقابل الأوقاف الحية، تتحدّى الزمان. و إذا كانت لا تستغيث بأحد، فإنها على الأقلّ، تطالب بحقوقها الشرعية، و تريد أن تصارع الحياة بوسائلها الطبيعية.

(1) Revue africaine, BROSSELARD, N°29, année, 1861.

الجزء الثاني : تطبيق الأساس المنهجي على المخزون الاجتماعي

أولا : اهتمام التلمسانيين بأصولهم السلالية

ثانيا : انتسابهم إلى البيت الشريف

ثالثا : أسطورة الانتساب

1- مغزى الاعتقاد في هذه الأسطورة

2- علم الأنساب يثير التشكك

رابعا: أسباب الانتساب و أهدافه

1- الأسباب السياسية

2- الأسباب الروحية

3- الأسباب الدينية

4- الأسباب الاجتماعية

5- الأسباب الظرفية

عبرت الذاكرة الشعبية عن ذكرها للسنوسي، في مستوى المخزون الاجتماعي، من خلال ثلاث نقط تثبيتية كما رأينا: العائلات الحاملة لأسمه، و العائلات الحافظة لتراثه، و بوجه أخص، العروة الروحية الوثقى التي تصل أغلبها، مثل السنوسي، إلى البيت الشريف.

أولا: إهتمام التلمسانيين بأصولهم السلالية

إن الأصول السلالية الأولى لسكان مدينة تلمسان، ليست واضحة، و ليس من السهل الفصل في تحديدها. و مع ذلك، فكثير من المؤرخين أمثال عبد الرحمن بن خلدون، تحدثوا عن العنصر البربري فيها. فالتلمسانيون يعتزون بالنسب اعتزاز العرب به. و بالفعل، فالعرب في الجاهلية أمة نسابة يفتخرون بنسبهم. و يعتمدون عليه في مآثرهم و مصائرهم. لقد كان هو الذي يعين أصول قبائلهم، و أصول ذوي الرئاسة فيها. و كان عليهم – بعد مجيئ الإسلام – الحفاظ على النسب لمعرفة أصول بيت النبي و تحديد روابط القرابة في تعيين الميراث الاجتماعي و السياسي.

فلم يكن التلمساني يفتخر بسلالته البربرية إلا في فترات زمانية خاصة. فلقد كان يشيد مرة، بنسبه العربي و شرفه الإسلامي، و مرة ثانية، بأصوله الاندلسية، و مرة ثالثة، بآنتمائه العثماني، و مرة رابعة، بمنابته البربرية. و لقد طرح القضية السلالية على جانب و ترفع عنها بوجه أخص، عند آقتراب الثورة التحريرية الجزائرية عام 1954. و لكنه، عاد إليها من جديد في الثمانينيات، و بوجه الدقة، في الفترة التي أنشئ فيها معهد الثقافة الشعبية بجامعة تلمسان. (1) وهي الفترة التي وجد فيها السيد الغوثي شريف الفرصة مهيأة لنشر كتاب بعنوان "شجرة تلمسان". (2)

ثانيا: انتسابهم إلى البيت الشريف

---

(1) فتح هذا المعهد أبوابه في تلمسان سنة 1986، بناء على مرسوم 1985.

(2) الغوثي شريف، شجرة تلمسان، مطبعة صاري الجهوية، تلمسان، 1993.

ويظهر أنه مهما كانت السلالة التي يراد الوقوف عندها، فإن الانتساب إلى بيت الشرف النبوي، أضحى ظاهرة شائعة عند كثير من العائلات. فهي على علم أن الشرف الذي تعتز به، إنما هو علامة الفضل و مصدر العزة النبوية و البركة الإسلامية.

وهكذا، فلا يهم التلمساني، العامل العنصري بقدر ما يهمه الانتماء العضوي و الروحي إلى بيت الشرف الذي فضله المولى عز و جل، و تباهى به الإسلام.

و أهل البيت تحدث عنهم القرآن الكريم في سورة الأحزاب، الآية: 33، حيث يقول تعالى: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، و يطهركم تطهيرا". و للمسلمين عن أهل البيت تأويلات مختلفة، تتسع و تضيق. فالشيعة مثلا، يحصرونها في علي و فاطمة و أبنائهما. و أهل السنة يضيفون إلى هؤلاء، نساء النبي. و يصرف بنو العباس عبارة "أهل البيت" على العباس و بنيه. و لقد جعلها بعض المسلمين تضم الطالبيين و العباسيين أي من لا يجوز لهم أخذ الصدقة، و خاصة آل علي و آل عقيل (1)، و آل جعفر و آل عباس. فهؤلاء فروع بني هاشم من الوجهة التاريخية. و لقد اصطفى الله محمدا من بني هاشم. (2)

و لعله من الأسباب التي جعلت التلمسانيين يحفظون نسبهم إلى بيت الشرف الرفيع أو الاقتراب منه عن طريق المصاهرة، الحديث الذي يروى عن النبي (ص)، إذ قال: "فأنا (أي محمد عليه الصلاة و السلام) خيركم بيتا و خيركم نسبا". (3)

ثالثا: أسطورة الانتساب

1- و لكن، هل معنى هذا، أن كل من يدعي "الشرفية"، ينتسب دمويا إلى أهل البيت مهما اتسع مفهوم هذا البيت كما رأينا؟

إن العائلات التلمسانية التي ترجع -عن اقتناع- أصولها الأولى إلى البيت الشريف، لبإمكانها أن تضع أمامك شريطا من الحجج و الشهادات لتدلل على صدق و صفاء

(1) هو أخو علي بن أبي طالب، ناصر معاوية على علي في صفين. كان خبيرا بالأنساب.
(2) انظر، دائرة المعارف الإسلامية، موضوع: "الشرف".
(3) الحديث عن دائرة المعارف الإسلامية، موضوع: "الشرف".

l'un n'empêche pas l'autre

نسبها كأن تُقرئك مخطوطا أو رسما لشجرة العائلة أو تُسمعك كلاما متواترا تسنده إلى الأجداد. فمن الممكن أن تجد اليوم -عن طريق الأسماء و الألقاب- عائلات عربية شبه خالصة في مدينة تلمسان مثل الثوابت و الطوالب، و لكنك تجد أيضا أخريات بربرية لم يمتزج بها إلا قليل من الدم العربي مثل مغراوة و الواندة. و مع ذلك، و في الحقيقة، فسكان تلمسان اليوم، لمزيج من عناصر متعددة بدءا بالامتزاج العربي البربري الذي أخذت معالمه تتجلى منذ القرون الأولى للفتح العربي. (1)

إن الانتساب إلى ذرية النبي، له أكثر من دلالة. فهو صون للنسب الشريف و دفع للأدعياء من طلاب الفضل و الجاه. و يفضّل التلمسانيون أن يكون هذا الانتساب عن طريق الحسن بن علي بن أبي طالب تارة، و عن طريق إدريس الأول تارة أخرى، و تارة، عن طريق آل عقيل و هو نادر، كما هو الشأن لدى عائلة "الستوتي". و لكنّ عددا من العائلات التلمسانية تفضل الانتساب إلى النبي عن طريق ادريس الأول أو الحسن، أي عن طريق فاطمة الزهراء، لأنهم يقيمون حقهم في الشرف و الفضل، على أساس أسباط النبي،

---

(1) يرى أستاذنا، ع. مزيان أن الامتزاج وقع مع دخول الفينيقيين الشمال الإفريقي قبل الرومان حيث أخذوا معهم نساء بربريات للتزوج بهن، نظرا لما تتميزن به من طاعة للرجل و مسالمة. و لقد اتصل البربر باللغة العربية عن طريقهم قبل الفتوحات الإسلامية (جلسات مع الأستاذ، في مارس و أفريل 1995). و في محاضرة تتعلق بتحديث الفكر الخلدوني (13/ 3/ 97) ألقاها بمقر جمعية أحباب العربي بن دي صاري، نبه الأستاذ إلى أن الوحدة العرقية ليست ظاهرة بيولوجية و إنما تظهر في الشعور الواحد بالتعايش في المكان الواحد". و بإمكان اللهجات المحلية أن تساعد الباحث على اكتشاف هذه الحقيقة.

و في مجلة تلمسان و ناحيتها (رقم: 18، ص: 147)، إشارة إلى أن عائلات ندرومية بربرية مثل صنهاجة و الغمارة و المصامدة و الزراهنة" تحلم بالانتماء إلى الدم العربي".

و في الأمثال الشعبية نسجل النماذج الثلاثة التالية:

1- أحن هذا في هذا.

2- ريحة الشحمة في الشاقور.

3- الشريف شريف بأفعاله ما شي بأقواله.

انظر، جمال الدين بوقلي، ما سمعته بتلمسان، الحروف، ألف، الراء، الشين.

و أنهم أبناء علي بن أبي طالب.(1)

2- إن لقب الشريف كان يطلق عندنا، على كل من ينتسب إلى أهل البيت عن طريق إدريس الأول ابن عبد الله كما هو الشأن عند بني عبد الواد الزيانيين مثلا، أو عن طريق الحسن أو الحسين مباشرة أو عن طريق أبناء عُقيْل، نادرا. و لقد أصبحت عائلات معروفة بآسم الشريف أو جرى العرف على قرنها بهذا الأسم ضِمْنيًا، كعائلات أبي عبد الله و آبن منصور و القواسم، و خاصة بعْد النفوذ الذي عرفه الفاطميون بتلمسان، في وقت آستطاعوا أن ينتزعوا فيه، السلطة من يد العباسيين.

و من المفيد الإشارة إلى أنه عندما قامت الدولة الفاطمية، وقع الطعن في نسب بعض العائلات التي تُرجع شجرتها إلى أهل البيت. فوقع اللبس في الكِنى و الألقاب، بل وقع الطعن حتى في آنتساب الفاطميين إلى السيدة فاطمة. وآشترك في هذه المنابذات، أناس من علماء النسّابين شملتهم غواية السياسة.(2)

---

(1) وخاصة في الوقت الذي قويت فيه فكرة، و هي أن الأنتماء إلى فاطمة هو آنتماء إلى بيت النبي نفسه، و ليس إلى الأعمام و لا أبناء الأعمام، مع العلم أن العباسيين ينازعون هذا النسب و دعوى الوصاية في الشرق و الغرب، و ينكرونها و يقولون: إن الأنتساب إلى النبي من جانب عمّه العباس أقرب من جانب علي إبن عمّه أبي طالب. و لما آستحكم العداء بين بني العباس و بني علي، لجأ العلويون إلى الأختفاء، و شاعت يومئذ، العقيدة في الإمام المستور. وكان للتحزب السياسي تأثيره في الطعن أو الأعتراف بصحة النسب. (للتفصيل، انظر، عباس محمود العقاد، الموسوعة، الإسلامية، المجلد 3، كتاب فاطمة الزهراء، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ، ص: 73 م).

و قد منح العرب تأييدهم و مساعدتهم لمن آنتسب لذرية علي بن أبي طالب. (انظر، مصطفى أبو ضيف، القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين و بني مرين، د.م.ج. الجزائر، 1982، ص: 100).

وعن ثبوت الشرف من قبل الأم، جاء في فتوى لأبن مرزوق: "هذا هو الذي آختاره و أفتى به علماؤنا التلمسانيون من أصحابنا المعاصرين و أشياخهم و أشياخ أشياخهم". (انظر، أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف د. محمد حجي، ج. 12، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص: 193). و في المعيار أيضا، فتاوى لفقهاء تلمسانيين آخرين في ثبوت الشرف من قبل الأم كأبي عبد الله الشريف (ص: 207)، و سعيد العقباني (209) و أبي عبد الله اليحصبي، و أبي الحسن علي بن محمد بن منصور الأشهب (ص: 210). و لكن هناك فتاوى أخرى لا تثبت الشرف عن طريق البنت (ص: 226-227).

(2) انظر، العقاد، المصدر السابق، ص: 73.

لقد بهر العرب التلمسانيين و غيرَهم بالشمال الإفريقي، و أثاروا فيهم الغيرة لحملهم الرسالة المحمدية، و لمكانتهم الحضارية و تفوّقهم العسكري. و كأن الله تعالى آصطفاهم لينشروا الدعوة الإسلامية في كل أنحاء العالم. و ليس غريبا إذا آتخذوهم قدوة، و مثالا في التشبه بهم في اللباس و الأسماء و الألقاب.

يذكر ألفريد بيل أن قبيلة "بني هذيل" بمنطقة تلمسان، تنحدر حسب أسطورة تلمسانية، من قبيلة بني حبيب العربية. و كان بنو هذيل ـ المخيّمون بـ"عيْن غرابة" ـ يسخرون في الواقع، من بني سنوس المستقرين بـ"تافسرة" و "العزايل"، لا لشيء إلا لأنهم برابرة لا ينحدرون من أصل عربي. و قد رد ابن خلدون و جورج مارسي هذه القبيلة إلى مضر حيث جعلاها تنحدر من هذيل بن مدركة بن إلياس. واعتبراها، قد هاجرت من الحجاز و رافقت بني هلال في المغرب في القرن الحادي عشر الميلادي (1).

و كان برابرة هوارة ممتزجين بعرب غزوات القرن الحادي عشر الميلادي، من بني هذيل و بني حبيب في عهد ابن خلدون (14م)، و كانوا مستقرين في شمال تونس، ثم توجهوا إلى الغرب و كان ذلك تقريبا، في القرن 14 أو 15 م.

هذا، و كان يغمراسن بن زيان العبد وادي و الزناتي، الحامل للقب العربي أبي يحيى، إدريسيا ينتمي إلى بيت الرسول (ص). و لم يكن له قرابة بالمصامدة البربر و لا بالكومية الموحّدين، و لم يكن في وسعه أن يرتفع بنسبه إلى أي شخص من حاشية مهدي الموحدين. (2) و مع ذلك، جعل المؤرخون المسلمون ابن تومرت ينحدر من صلب النبي (ص)، إما بطريق الأدارسة أو بطريق آخر. و كان المقصود من ذلك، تبرير آتخاذه لقب "المهدي"، و رفع مكانته بين البربر، كما فعلوا أيضا، بالنسبة إلى خليفته عبد المؤمن. (3)

(1) أ. بيل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ص: 434ـ435.
(2) أ. بيل، المصدر السابق، ص: 307. و من يستقرئ قائمة أمراء بني زيان، لا يسعه إلا أن يسجل مدى تعلقهم بالأسماء و الكنى العربية. و لو عاد القارئ إلى بني مرين، للاحظ "أن معظم أسلاف الأمير (مايو) ـ و كنيته عربية إسلامية و هي أبو خالد ـ يحملون أسماء بربرية، بينما ذريته لا نجد فيها غير أسماء عربية إسلامية". أ. بيل، المصدر السابق، ص: 319.
(3) أ. بيل، المصدر السابق، ص: 250ـ251. يقول مصطفى أبو ضيف: إن سلطة العرب أزدادت في العصر [الزياني] عنها في العصر الموحّدي لتزويج معظم أمرائها من النساء العربيات و آستخدامهم لأخوالهم في الحجابة و الكتابة. (القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين و بني مرين، ص: 169).

جاء في المسند الصحيح، لمحمد بن مرزوق أنه "وقع بين النسّابين من المؤرخين من الاختلاف في نسب زناتة ما لا يخفى على ذي مشاركة، عدا أن الذي صار إليه الحافظ أبو عمر بن عبد البر، و هو التَّبَتُ، و صاحبُ المشرق و البكري في بعض تواليفه، و الحافظ أبو الحسن بن سعيد العبسي، و مالك بن المرحل، و أبو بكر بن عبد الله بن الخطاب". و مما وقفتُ عليه، أن زناتة من ذرية قيس عيلان من غير نزاع في ذلك، و لا خلاف ممن يُعتمد عليه [...] . كيف و قد ذكر الكلبي صنهاجة (1) و زناتة أو كتامة في العرب؟ و نقل ذلك، الاثبات و ملؤوا كتبهم به". منهم: أبو عبيد القاسم بن سلام و الطبري وغيرهما. و قال أبو عبيد: في أنساب حمير". و قد ذكر إفريقس الذي افتتح إفريقية و سميت به. و قيل: ملكها بربير و يومئذ، سميت البرابرة". فإنه قال لهم: بربرتكم هذه، فسُموا بذلك.

و قال غير واحد، منهم ابن عبد البر و غير[ه] ممن ذكرنا: إن برّ بن قيس عيلان خرج يبغي إبلا له، حتى وصل إلى أول بلاد البربر فتزوج بها". و ولد له". ثم مات". فمن ولده: البربر، و إليه ينسبون" . (2)

هذا، و مهما كان صدق إسناد الروايات و تقلص دور الخيال، فهذا النسب يبدو و أنه يثير كثيرا من الشك، مما حمل بعضهم (3) إلى اعتباره مصطنعا. و إذا وصل الأمر إلى هذا الاعتقاد عند المؤرخين، فلأن السكان الأصليين في المغرب الإسلامي – بما فيهم التلمسانيون – كانوا في اتصال دائم مع المشارقة و في احتكاك متواصل معهم (4)، وكانوا يشعرون بأنهم من أصل مشترك. و لكن هذا الشعور لا يجب أن يحجب عنا الحقيقة. و إذا كنا نقرأ بحذر، هذه الأخبار لابن مرزوق و المؤرخين الذين يستند إليهم، فكذلك يجب أن نقرأ ابن حزم – والذي انتقده ابن مرزوق – لأنه يرفض الشرف في بعض العائلات و يثبته في عائلات أخرى: لقد رفع العروبة عن البرابرة في كتابه "جمهرة الأنساب..."، بقوله: "و ما علم النسابون لقيس عيلان ابنا اسمه برّ أصلا" (5)، و رفع

---

(1) كل المؤرخين المسلمين بما فيهم ابن خلدون، يُرجعون صنهاجة إلى أصل عربي.

(2) محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن، دراسة و تحقيق ماريه خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، ش.و.ن.ت. الجزائر، 1981 ص: (107-108)

(3) أمثال أ. بيل، انظر، المصدر السابق، ص: 227–228.

(4) عن لقاء مع أستاذنا عبد المجيد مزيان، أفريل 1995.

(5) عن محمد بن مرزوق، المصدر السابق، ص: 107.

عن الفاطميين (الإسماعيليين) شرف الانتساب إلى بيت النبي (ص) عن طريق إسماعيل بن جعفر ليثبته للأمويين. (1)

هذا، و يرى بعض الباحثين، عن الشجرة الإدريسية التي تعتزّ بالانتساب إليها عائلات و قبائل تلمسانية، كبني عبد الواد الزيانيين، أن غالبية النسّابين يذهبون إلى أنه كلام ناتج عن الهوى و التحزب لأهل السلطة و الجاه، مثل ما صنع التنسي و بنسبة أقل، يحيى بن خلدون قبله.

و في بعض تآليفه، و قد ترجمها أرنو (ARNAUD) تحت عنوان "رحلات غريبة و أخبار عجيبة"، يعترف أبو راس بحقيقة اختلاط الأجناس مشككا في صحة علم الأنساب. و يستشهد المؤلف على ذلك، بحجج نردّها إلى الأربع الآتية:

الحجة الأولى: ارتياب مالك بن أنس، و مقته للارتفاع بقائمة الأسلاف إلى عدنان و مَنْ وراء ه، و الاحتكام إلى قوله تعالى: "و الذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله. (2)

الحجة الثانية: اتّهام بعض المؤرخين النسابين بالكذب.

الحجة الثالثة: عدم جدوى تاريخ الأنساب بدليل أن الجرجاني وابن حزم وابن عبد البر النمري، لا يعتقدون له أية صفة من صفات الجد.

الحجة الرابعة: كون الروايات و كتب الأنساب ليست أقل من اللغة العربية تعرّضا للتزوير. فإنْ كنا لا نملك أي ضمان في الأخذ بصدق نسب ما، فلا بد من رفض هذا النسب. (3)

و على هذا الأساس، يمكن لنا أن نسجل قصور تصنيف التلمسانيين الذي وضعه

---

(1) كان ابن حزم أمويا غاليا في التشيع للأموية، لأنهم من قريش، وكانت دولتهم في الأندلس على خطر من الدعوة الإسماعيلية. و بلغ من كراهته للإسماعيليين، أنه تحول من المذهب الشافعي إلى المذهب الظاهري، أي المذهب الذي يأخذ بظاهر النص و يرفض التأويل، لأنّ مذهب الإسماعيليين يقول بالتأويل و بأنه من حق الإمام.

(2) إبراهيم، 09 .

(3) Revue africaine, Arnaud, Histoire de l'Afrique septentrionale. Voyages extraordinaires et nouvelles agréables, N°22, année, 1878, p. 434.

الغوثي شريف في كتابه "شجرة تلمسان"، و بيّن فيه بأنهم ينقسمون إلى "جدار" و"عثماني" و"أندلسي". إن عدد أسماء العائلات الواردة فيه هو647، و هي تتوزّع بالنسب المائوية على الشكل التالي:

الأصل	عدد الأسر	النسبة المائوية
الجدار	335	٪ 52
الكراغلة (1)	293	٪ 45
الأندلسيون	19	٪ 3
المجموع =	647 =	٪ 100

إن سكان تلمسان، إذا كانوا أجناسا و سلالات بشهادة التاريخ، فليس على أساس هذا التميز المحدود أو التصنيف الذي نقرؤه، و إنما على أساس التزاوج الأجتماعي الواسع و التفاعل البيولوجي العميق. فممّا أورده في "الجدار" (2) و هو الأصل الأول للمدينة، من أسماء نذكر على سبيل المثال عائلات: "هلال" و "ابن منصور" و "ستوتي". أما عن الاسم الأول، فتبين لنا، من خلال تنقيبات و مطالعات، أن "هلال" حمله أيضا، أندلسيون اعتنقوا الإسلام بعد أن كانوا مسيحيين، يوم دخلوا تلمسان. وأما عائلة "ابن منصور" فهي اختصارا للطريق، تتجه في الأنتساب إلى سيدي عبد الله بن منصور أو سيدي محمد بن عليّ الذيْن يعود أصلهما إلى سليمان أخي مولاي إدريس الأول. (3) و مَنْ يُرجعها إلى سليم، يسجّل أنها نرع من قيس عيلان الذي هو من أقوى قبائل العرب، وهي قبائل قطنت بين مكّة و المدينة على الحدود بين نجد و الحجاز في بلاد خصبة غنية بالمعادن، وكان لها شغف بتربية الخيل". رحل منها قوم إلى ما بين النهرين، و قوم إلى مصر (747م)، و منها إلى المغرب

---

(1) و يسميهم الكاتب ب "العثمانيين".

(2) و يقصد ب "الجدار" في الغالب البرابرة، أو العرب و هو نادر.

(3) Tlemcen et sa région , N° 18 , France , 1954 , p. 54 .

مع بني هلال (1050م) .و لكنها تبربرت في بعض تفريعاتها.فمنها من "تصنهج" و منها من "آستمغر" . (1) أما فيما يخص عائلة "ستوتي"، فإنها حسب بعض رواياتها نفسها، تنتمي إلى ابن عقيل إبن أبي طالب، و هو من آل البيت.

و فيما يخص العائلات العثمانية، فإنها جمعت في إرثها البيولوجي عدة عناصر و أجناس، يذكر منها المؤلف ثمانية، مع العلم أنها تصاهرت مع بربريات و غيرهن لتعطي ما يسمى بالعنصر الكرغلي . و هذه الأجناس الثمانية هي :

الأجناس الثمانية	بعض الأسماء لعائلات
1- من آسيا الصغرى أو الأناضول	مصلي، مصالي، مالطي .
2- من آسيا الوسطى	رسطان، رمضان شاوش، بلعسكة، بالي
3- من الشرق الأوسط	محجوب .
4- من سوريا	خديم
5- عناصر من أفغانستان، و باكستان، و الهند، والترك .	مزاري
6- من ألبانيا	مامي، غرناوط .
7- من القوقاز	قاره آوزان
8- من النمسة	شكشو

و هي أجناس حملها إلى الجزائر، العثمانيون بصفتهم حاملي المشروع الإسلامي الأكبر.

هذا، و فيما يتعلق بالعائلات الأندلسية، يجب أن نعترف بأنها أيضا، خليط من عناصر متعددة، كالعنصر البربري، و العربي الأموي، و الإسباني، و البرتغالي، و ما يقتضيه كل عنصر من تفريعات مختلفة، كما يدل على ذلك، تاريخ الحركة الحضارية بالمنطقة. فعندما

---

(1) يكفي الإنسان أن يستوطن منطقة ما و يستقر بها مدة، حتى يكون من أهلها، و ينسب إليهم .جاء في البستان لابن مريم، عن الجد القريب لعائلة ابن منصور: أن سيدي عبد الله بن منصور الحوتي ينتسب إلى مغراوة عن طريق جده الأخير و هو عثمان . (انظر، عنوان الترجمة، الصفحة: 135) .

يذكر عائلتي العشعاشي و العزّوني مثلا،ضمن قائمة العائلات الأندلسية، يفوته أن الأولى تعتز أيضا، بِعَشْعاشتها و الثانية بـبربريّتها .و ليس أدل على ذلك، من التزاوج بين هذه العناصر مثل الأسماء المركبة كـ "بودغن (أو "دغين") "أسطنبولي" و"شاوش رمضان" و"سنوسي بريكشي" و "ابن السيد العربي" .و لقد حكى لي السيد سيدي أحمد بوعْلي (1) طرفة بشأن عائلته، قال فيها،إنه يملك أدلة تثبت له تارة، الأصل البربري لاسم "بوعْلي"، و تارة، الأصل العربي أو الأندلسي أو العثماني ...

رابعا: أسباب الانتساب و أهدافه

هذا،ولا نعرف من الأقوام من كان أكثر اهتماما بنسبه و أشد افتخارا به، مثل العرب. فهم يقدسون الانتساب إلى الأصول .و لعله من الأسباب التي تفسر هذه الميزة عندهم، ما يلي:

السبب الأول: تعيين المكانة الاجتماعية (ضمن القبيلة) .

الثاني: قوة لسانهم و فصاحته و شدة وقعه.

الثالث: نزول القرآن بلغتهم.

الرابع: اصطفاء الله تعالى سيّدنا محمدا منهم.

الخامس و الأخير: اعتزاز الإسلام بالأسرة و الحفاظ على نسلها.

و لعل أيضا، من الأسباب الجوهرية التي تعلل ارتباط التلمسانيين بالأصل العربي و البيت الشريف، أسباب سياسية، و أخرى روحية، و دينية، و اجتماعية، و ظرفية.

1- الأسباب السياسية:

عندما صار الملْك للبربر، كانت قبائلهم تَردّ المرجعية في الولاء حسب التقلبات السياسية، تارة، إلى الأمويين الخلفاء بالأندلس، و تارة، إلى الهاشميين من بني العباس و بني الحسن، واستمروا على هذا، حتى استقلّوا بالدعوة لأنفسهم على مدى خمسة قرون. هذا، ولقد كانوا في استقلالهم يعزّزون مكانتهم و سلطتهم بمرجعية سلالية أو إسلامية، تعزيزا يدلّ على أن

---

(1) هو كاتب عصامي، من جملة ما ألف باللغة الفرنسية، "حصار تلمسان". صاحب محل يبيع فيه الكتب.

ليس لانتساب البربر إلى غيرهم من العرب و المسلمين، بريئا من الأغراض السياسية. (1)

و لعل الكثير من النسابين لم يضعوا أشجارهم السلالية إلا ليثبتوا حق قبيلة أو جنس في الحكم، مثل ما وقع لابن حزم، فهو لم يضع كتابه في جمهرة أنساب العرب، إلا ليؤكد حق بني أمية في الخلافة لأنهم من قريش.

2- الأسباب الروحية:

إن توقير التلمسانيين لذرية النبي، تجلّى منذ وقت طويل، و خصوصا في القرن الثامن الميلادي، و لقد تعلّق توقيرهم هذا، بإدريس الأول و ذريّته، إذ كانوا يحملون لهم، توقيرا عظيما بوصفهم ورثة للقوة الباطنية التي كان ينعم بها جدّهم النبي (ص).

و لقد كانت المكانة المتميّزة التي كانوا يولونها للنبي (ص) في عالم الآداب، إنما ترجع إلى نموّ الأفكار المهدوية التي تبلورت في التصوف و الطرقية حيث لم يعد النبي (ص)، مجرّد إنسان بسيط مختار لتلقّي كلام الله، بل صار - كما هو عند الشيعة - إنسانا أعلى مملوءا بالروح القدس، و بالعلم اللدنّي، و كان فيه من قدرة الله، ما يمتاز به عن غيره، و قد توارثت ذريته كل هذا منه. و لأسطورة الجدار تأثيرها في ترسيخ هذا الاعتقاد، لأنها ترمز إلى العلم الظاهر والعلم اللدنّي، و ما "إدريس" - في قولٍ - إلا الخضر، العبد الصالح.

و لقد جهر بهذا العامل الروحي، التصوف العربي البربري، منذ القرن الخامس عشر الميلادي إلى يومنا هذا. (2) فغلا الناس في قوة الشريف الوارث لصفات الجد العظيم. و ذلك نتيجة لتعظيم شخصية النبي محمد بكل المناقب التي يمكن أن ينسبها

---

(1) إن هذه القبائل البربرية، انتسبت إلى العرب بعد إسلامها، فاصطنعت أنسابا عربية حتى تتساوى مع القبائل العربية و تستطيع المشاركة في الحياة السياسية الجديدة. (انظر، مصطفى أبو ضيف، المصدر السابق، انطلاقا من الصفحة 50.).

(2) انظر، السلسلة الذهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية، للحاج مصطفى العشعاشي، إن فيه أخبارا مهمة في هذا السياق.

عن محمد بن حمو العشعاشي، قال الشيخ الحاج محمد الهبري: "لا بد للفقير أن يبحث عن نسبه، فكل من ليس له نسب، فهو لقيط". (السلسلة الذهبية، ص: 90).

و في مقدمته لكتاب الأنساب، كتب أحمد العشماوي يقول: "فاتَنا الأصلُ، و لم ندرك زمانا، بَحَثْنا على الفروع لكي نرجو بذلك وصلا في محبة الأصل، لأنّ من تعلق بفرع جذبه إلى عرقه". (مخطوط، ص: 01).

و في البحث عن حسن الأصل، يقول المثلان التلمسانيان: 1- "آشركون الباك، خالي العود 2- الدم يجبذ". انظر، كتابنا، ما سمعته في تلمسان، الحرفان، الألف و الدال.

المؤمن لأول المسلمين الذي تلقى من الله علما لدنّيا و قوة إلهية أورثهما لذريته .

و للوقوف على هذا السبب عند التلمسانيين و سكان الشمال الإفريقي، لا بد من الاعتماد على بعض المعطيات التاريخية الخاصة بميزات المجتمع العربي و الحكم الإسلامي، انطلاقا من وفاة النبي (ص)، و كما يتصورها الشيعة إلى مجيء إدريس الأول . (1)

كان لصفة الشريف سحرها عند التلمسانيين.ولقد بدأت تظهر مع مجيء ادريس الأول في القرن السابع الميلادي، فكانت لقبا متميزا للأقربين .ثم أخذ الانتساب إلى بيت الشرف أبعادا اجتماعية روحية، و خاصة عند المتصوفة كما رأينا .

ففي القرن الخامس عشر الميلادي، ادّعى النسب الشريف عالم التوحيد و الصوفي البربري محمد السنوسي الذي لم يكن من الممكن جعله ينحدر من نسل النبي من جانب أبيه. فجعل حسنيا من ناحية أم [أبيه]. (2) و هو في هذا لم يشذّ

(1) يذكر أ.بيل أن النبي لم يعقب ولدا بل خلف بنتا هي فاطمة زوجة ابن عمه علي بن أبي طالب. ولما كان هذا المجتمع أبويا ونظم على هذا الأساس، لم يكن ممكنا أن يتولى حكم الأمة، امرأة". لهذا، و لعدم وجود وريث، رأى بعضهم أن ميراث الخلافة يجب أن يكون من حق علي"...و أنه أولى الناس بخلافة النبي .وفيما بعد، أكد هؤلاء المتحمّسون لآل بيت الرسول، أن عليا تلقى من النبي وديعة مذهبية و إلهية هي نوع من الميراث الصوفي، لا يحق لأحد أن يشارك فيه .و هذه الوديعة المقدسة جعلت من علي إنسانا أعلى، فيه شيء من القدرة الإلهية، و أنه نائب الله على الأرض و وسيط بين الله و الناس. و هذا الميراث من الصفات و الفضائل، انتقل إلى وريثه، و هكذا . (الفرق الإسلامية، ص: 151) .

يرى الشيعة أن الإمام الشرعي الوحيد من الناحية الروحية و الزمنية على السواء، هو الإمام المقرر لذلك، بقرار إلهي، و هم يلقّبونه بآسم "الإمام" بدلا من الخليفة، لأنه يتفق أكثر مع مكانته الدينية .و يشترط في الإمام أن يكون من عترة النبيّ و هم يتعرفونه في كل عصر.

(2) ألفريد بيل، الفرق الإسلامية، ص: 423 .

و لكن الغريب أن أحمد العشماوي يجعل الشيخ السنوسي شريف الأبوين في قوله: هو "محمد السنوسي الحسني كامل الشرف من أبيه و أمه .وأصله من مناصة و قبائل بني بو عبد الله المعروف بمدينة تلمسان" .(كتاب الأنساب، مخطوط، ص: 49.) .

عن عادات عصره الشائعة. (1) و لقد عُرف قبله محمد الهواري ولي وهران و دفينها، بأنه شريف من جهة أبيه.

هذا، ويبدو أن هذه العادة في تلمسان، وفي الشمال الإفريقي، لم تكن موجودة عند الصوفية في القرون السابقة، و خاصة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ويبدو أنها تضاعفت على مدى القرون التالية للقرن الخامس عشر الميلادي، بحيث شاع في الأوساط الشعبية أن المتعلمين و العوام يعبرون عن تقديرهم لنسل النبي بإضافة صفة "الشريف" (أو الشريفة)، أو صفة "الحاج" (أو الحاجة) بدرجة أقل، إلى أسمائهم وهي الصفة المنسوبة إلى أهل التقوى و الإيمان. و في الحكم، إن الأمير أو السلطان الشريف يختلف عن غيره من الحكام في كونه يجمع السلطتين: الزمنية و الروحية التي ورثها عن جده الرسول. (2)

3ـ الأسباب الدينية:

إن الذين يدّعون الشرف اعتماداً على التعليم السنّي، و على أحاديث نبوية ـ عن إدراك أو تقليد ـ يعرفون أن أهل البيت هم وحدهم الذين سينفعهم نسبُهم ويغفر الله لهم كلهم. يرى أهل السنة أنه من مميزات أهل البيت، أنهم مترفعون عن أوساخ الدنيا، فلا يأخذون الصدقة. و عن النبي (ص) أنه قال: "كل نسب و صهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي و صَهْري". (3)

و كان للتشيع في الإسلام دور في توجيه الناس و إغرائهم بالانتساب إلى بيت الشرف أو الأصل العربي ـ لقبا و كنية ـ و خاصة مع عبيد الله الشيعي (المهدي).

4ـ الأسباب الاجتماعية:

إن الانتساب، باعتباره معرفة روابط القرابة، يمكّن من تحديد أصول العائلة، (4)

---

(1) و من المعروف أيضا، أن أبا عبد الله محمد الجزولي المراكشي ادّعى أنه من الأشراف.
(2) أ. بيل، المصدر السابق، ص: 424.
(3) عن دائرة المعارف الإسلامية، موضوع: الشرف.
(4) في الأمثال الشعبية التلمسانية، نسجل الأمثال الثلاثة التالية:
الأول: "أصْلَك، أصلك". الثاني: "بانْ جدّي مَنْ جدّك". الثالث: "ولد القاع والباع".
(انظر، ج. بوقلي حسن، ما سمعته في تلمسان، الحروف، الألف، الباء، الواو).

و علاقات أفرادها، فيتعيّن إطار المصاهرة و التزاوج، و يسهل من ثمة، الفصل في توزيع التركة عند الاقتضاء.

و الانتساب إلى "الأشراف" بآعتباره آنتماء إلى أهل البيت، هو وسيلة يكتسب بها المرء الاحترام و الجاه.

و هكذا، فكما كانت السيدة فاطمة الزهراء تحبّ أن يقال لها: إن أسباط رسول الله يشبهون رسول الله، كانت عائلات تلمسانية كثيرة، تشعر بالسعادة عندما ينظر الناس إليها نظرتهم إلى بيت الرسول.

و أصبح عرفا عند التلمساني، محبةُ من ينحدر من ذرية الرسول (ص)، بل صار واجبا دينيا و سببا في تشفيع الرسول و ربح الثواب الرباني يوم القيامة. و على "غير الأشراف" من المؤمنين احترامُ الأشراف دائما، و إظهار التعظيم لهم خصوصا، الصالحين و العلماء منهم.

5- الأسباب الظرفية:

كان السكان الأصليون لمدينة تلمسان يشعرون بنوع من الحطة أمام الجيوش العربية الفاتحة القوية، فكانوا مضطرين إلى التعايش مع الغالب و التكيف مع منطقه حبا أو كرها. (1) و ما يرويه بعض المؤرخين العرب من نوادر في الاستصغار من شأنهم، كان يزيدهم شعورا بالنقص.

جاء في "رياض النفوس" عن شيخ مصري أن النبي سليمان كلّف بربريا و عفريتا من الجن بمهمة، فعاد العفريت و هو يدعو الله أن يحفظه من البربري. (2) و في هذا السياق أيضا، يقول الشاعر خلف بن فرج السميسر:

رأيتُ آدم في نوْمي، فقلتُ له . ∵ . أبا البريّة، إن الناس قد حَكَموا

إن البرابرَ نسْل منك، قال: إذن . ∵ . حواءُ طالقةٌ، إن صحّ ما زَعَموا.

---

(1) و يلاحظ بعضهم أنهم، في فترات متأخرة، أصبحوا يعيشون على الماضي يبحثون عن سمة يتمايزون بها عن غيرهم بعد أن ضاع منهم التاج.

(2) أ. بيل، المصدر السابق، ص: 96.

و لهذا نجد العلماء المسلمين في إفريقيا، منذ القرون الأولى، لا يفتخرون بالانتساب إلى البربر. و لا يسع علماء البربر في مقابل ذلك، إلا أن يتعلقوا بنسب عربي. و ليس بعيدا أن تكون هذه الكراهية آتية من أهل السنة في القرنين الثامن و التاسع للميلاد، بسبب انتشار الخوارج بين البربر في القرن الثامن الميلادي.

و لعل الإحساس بهذا التفاوت الظرفي في القوة و الحضارة و الدين، جعل بعضهم يدعي ادعاءات حتى يلفت النظر -فيما يبدو- إلى بربريته و وجوده. يذكر أ. بيل، في إطار هذه الادّعاءات، أن هناك أحد المؤذنين في تلمسان، ادعى النبوة كبربري في القرن الثالث للهجرة، (و بوجه الدقة، في 881م) (1) بعد أفول الصفرية. و في المغرب الأقصى زعم صالح بن طريف النبوة و ادعى لذلك، أنه تلقى من الله قرآنا باللغة البربرية مؤلفا من ثمانين سورة، و أسماؤها هي أسماء الأنبياء و الأشخاص شبه الأسطوريين، و كثير منهم، مذكورون في القرآن الكريم، و في "العهد القديم" من الكتاب المقدس لليهود. (2) و ظهر متنبئ آخر اسمه حاميم من غمارة، و قرآنه نزل عليه باللغة البربرية.

إن الذاكرة الشعبية استطاعت أن تخزن السنوسي عن طريق الحفاظ على اسمه، انتسابا أو انتماءا أو عن طريق حفظ تراثه تبركا و تيمنا به. و ما كان لها أن تثبت في مهمتها هاته أيضا، لولا اعتقاد الكثير من العائلات أنها تشترك مع السنوسي في الانتماء إلى البيت الشريف. و مهما كانت مصداقية هذا الاعتقاد، فإن الشيخ السنوسي يبقى العامل الأساسي الذي بوّأ لنفسه، مكانة داخل الفئات الشعبية لعلمه و صلاحه، في مدينة تؤمن بالأولياء، و بعباد الله الصالحين، و توحي لأهلها بتوقيرهم و الارتباط بهم.

---

(1) أ. بيل، المصدر السابق، ص: 182.

(2) أ. بيل، المصدر السابق، ص: 174-177.

الجزء الثالث : تطبيق الأســاس المنهجي على المخزون الشفوي

أولا : انتشــار العجائب في عصــر السنوسي

1- خوارق و اعتــقادات السنوسي و من عاصــره

2- كــتب السير و ما تناقــلته في تلمســان، من عجائب

ثانيا : كيف يمكن أن نفهم هذه الخــوارق، و لماذا جــاءت عــلى هذه الصــفة ؟

1- النمــط الفلسفــي

2- النمــط شبه العلمي

نحاول في هذه الصفحات، الاقتراب من فهم ما نسجته الذاكرة الشعبية حول الشيخ السنوسي من مرويات ـ وخاصة منها الخوارق ـ على أساس أن لكل شيء سببا، و السعي إلى تفسير هذه المرويات انطلاقا أيضا، من أن لكل حدث منطقا و مدلولا. فيكون الاهتمام بها كما هي من جهة، وكظاهرة معقدة مشحونة بضامين انفعالية، من جهة أخرى. و نكون بهذا، قد أجبنا عن هذين السؤالين: كيف؟كما يطرحه الفكر العلمي، ولماذا؟كما يطرحه الفكر الفلسفي.

إن الوقائع "العجيبة" من كرامات و أساطير و خرافات و معتقدات، لا تتقدم كظواهر غريبة، إذا نحن أرجعناها إلى المناخ الثقافي و التاريخي الذي ترعرعت فيه، انطلاقا من كون تلمسان "مدينة أسطورية"، و ما انتشر فيها من إنتاج يثير العجب.

أولا: انتشار العجائب في عصر السنوسي

و هذه العجائب صنفان: الأول ما ارتبط بالشيخ نفسه أو بمن عاصره". و الثاني ما تضمنته كتب السير و التراجم المعروفة منذ زمانه.

1ـ خوارق و اعتقادات السنوسي و من عاصره:

في هذا الصنف من العجائب، نقتصر على ذكر أربع وقائع: المنامات، و الكرامات، و الاعتقاد في العين، و نخصص الوقائع الأخيرة، لسلطة زوجة الشيخ السنوسي.

أـ الوقائع الأولى: منامات الشيخ السنوسي و غيره:

و مما رأى الشيخ في نومه (1) نذكر المنامين الآتيين:

* المنام الأول:

رأى السنوسي و هو نائم، "عمر بن الخطاب" (ض) واقفا عند رأسه، وبيده سيف أو عصا، فهزها على رأسه و هدده بها"، و كأنه يقول له: "ما هذا الخوف من الناس!". فأصبح و قد زال حزنه، و اشتد قلبه على المنكرين". فخرست حينئذ، ألسنتهم و عفا عنهم، فرجعوا مقرين بفضله. (2)

(1) يقول المثل التلمساني: "اللِّي يزيد في منامه، يزيد في عذابه". (انظر، ج. بوقلي حسن، ما سمعته في تلمسان، حرف اللام).

(2) ابن مريم، البستان، ص: 242.

و بالرجوع إلى السياق الذي ذكر فيه الملالي (1) هذا المنام، نستطيع أن نفهم أكثر أسبابه و معناه. إن الشيخ كان شغوفا بعلم التوحيد، و كان يسعى جاهدا إلى نشره في قالب عقلي أشعري، بحيث يصل كل فئات الناس بٱختلاف مستوياتهم الفكرية و الٱجتماعية. و لكن، مهما كانت عبقريته في ٱمتلاك هذا العلم و في براعة تعليمه، فإن الرجل كان ينهار، إذا أنكر عليه العلماء في وقته ما ألفه من عقائد، بالقذف و الكلام البذيء. و لما كان الشيخ من جهة، مقتنعا بمواصلة البحث و التأليف و التعليم في التوحيد، و كان هؤلاء مصرين على القدح و النكران من جهة أخرى، ظهر المنام، و فيه تقدم عمر بن الخطاب أو الفاروق، كرمز للحق، ليحثه على تجاوز الخوف و الٱستمرار في أعماله.

* المنام الثاني:

و رأى الشيخ في المنام، دارا عظيمة في فراش مرتفعة. فقيل له: هي لأخيك علي، يدخل فيها عروسا. و لقد جاءه هذا المنام قبل شهر صفر 895 هـ، و هو تاريخ وفاة أخيه هذا. (2)

قد يفهم من هذا المنام، أن الشيخ السنوسي أصاب في علمه للغيب من حيث إن أخاه مات قبله و ليس بعده، و أنه من شدة محبته لعلمه و صحبته، و إيمانه بصدق ولايته، رآه في منزلة وعد الله بها الصالحين. (3) فلقد أقامه الله عروسا في جناته، يطوف عليه ولدان مخلّدون و حور عين في فرش مرفوعة.

هذا، و كان الشيخ السنوسي نفسه موضوعا لمنامات كثيرة. استطاع أن يؤثّر بها، في العقل و الخيال، في اليقظة و النوم. من ذلك، ما وقع لتلميذه يحيى بن محمد المديوني أبي السادات. "إنه نام ليلة، فأتاه الشيخ السنوسي بفرس مسرّجة ملجمة، و بغلة. ثم أمر تلميذه يحيى بركوب تلك الفرس و آمرأته على تلك البغلة. و سار السنوسي أمامهما و هما خلفه إلى بني راشد بموضع و أمره بالنزول في ذلك الموضع و بالبناء فيه. ثم بعد ذلك بأيام

(1) و الملالي تلميذ السنوسي، اشتهر بتأليف كتاب "المواهب القدوسية في المناقب السنوسية" اعتمد عليه مترجمو السنوسي، و لم يكن لنا الحظ في الحصول عليه.

(2) الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 2، ص 92، عن الملالي.

(3) يقول تعالى: "و السابقون السابقون" إلى قوله: "و ثلة من الآخرين". (الواقعة، 10ـ40)". انظر أيضا، في هذا المعنى، سورة الغاشية، 8ـ16.

يسيرة، وإذا ببني راشد قادمين إلى سيدي يحيى بفرس و بغلة، وآرتحل معهم إلى الموضع الذي أنْزله الشيخ فيه. فبنوا فيه مدشرا، وحبّسوا عليه أرضا إلى زمان الحرث، و حرثوا له تويزة". (1)

و ليس مستبعدا أن تكون للسنوسي في أحد المداشر، أراض محبسة.

و جاء عن الملالي أنه قال: "حدثني بعض من لقيته، قال لي: مات رجل قريب، و كان صالحا، فرأيته في النوم، فسألته عن حاله". فقال: دخلت الجنة، فرأيت فيها إبراهيم الخليل عليه السلام يقرئ صبيانا عقيدةَ الشيخ السنوسي، يدرسونها في الألواح، ويجهرون بقراءتها". (2)

و مما يفسر هذا المنام، أنه لما كان الميت لا يعود إلى العالم الدنيوي، و كان حرص المرء شديدا في أن يعرف ماذا يجري في العالم الأخروي، استطاع الخيال التلمساني أن يبدع ظروف منام حيث يظهر الميت، و يحدث الناس ببعض الأسرار. و لما كان الشيخ في عقيدته الصغرى، قد بلغ الغاية في التأثير على كل الفئات الشعبية، و خاصة منها الصبيان، كان حديث الرجل الميت مخصصا لهذه العقيدة. و نظرا إلى ما يكنّه المرء من آعتزاز لها، راح الخيال يجعل من "خليل الله" عليه السلام، المقرئ لإنتاج الشيخ و المدرس لها. و من المحتمل جدا، أن يستبدل الخيال الشعبي عندنا، اسم الخليل بالخضر العبد الصالح، أو موسى أو إدريس، نظرا إلى الأساس الروحي الذي ترتكز عليه مدينة تلمسان.

ب- الوقائع الثانية: كرامات السنوسي وآستجابة الله له في طلبه لخرق العادة:

في هذه الوقائع نتناول موضوعين: كراماته في حد ذاتها، و دعوته لتحقيقها.

*الموضوع الأول: كرامات السنوسي

أما عن كراماته، فإن له عددا لا يحصى منها". تناقلها أهل السير و التراجم، معظمها يدل على خرقه للعادة في آستجابة الله لرجائه، و دعوته، و لمن يتوسل به:

أما عن الرجاء، فمما يذكر أن " رجلا آشترى لحما من السوق، فسمع الإقامة في المسجد فدخل و اللحم في قبّه، فخاف من طرحه، فوات ركعة، و كبّر كذلك". فلما سلّم ذهب لداره

(1) ابن مريم، البستان، ص: 306. و"التويزة" معناها التعاون في أعمال المواسم أو المناسبات

(2) ابن مريم، البستان، ص: 245.

فطبخت أهلُه (آي زوجتـــه) اللحم،فبقي إلى صلاة العشاء .فأرادوا طرح اللحم،فإذا هو بدمه لم يتغيّر عن حاله .فقالوا: لعله لحم شارف.فباتوا يوقدون عليه إلى الصبح .فلم يتغيّر عن حاله حين وضعوه.فتذكـر الرجل".فذهب إلى الشيخ فأعلمه.فقال له:

" يا بني أرجو الله تعالى أن كل من صلّى ورائي،لا تعدو عليه النار، و لعـل هذا اللحم كان معك حين صليت معي .و لكن،اُكتُمْ ذلك" . (1)

فهذه الكرامة تفيدنا في أشياء تتعلق بالحياة الاجتماعية، و أخرى تتعلق بمسائـل نفسية و تربوية، منها:

أولا ،إن المسجد الذي كانت تقام فيه الصلاة كان قريبا من السوق.

ثانيا،إن الشيخ السنوسي كان يصلي بالناس.

ثالثا،إن الشيخ يؤمن بخرقه للعادة بواسطة التلبية الربانية للرجاء .

رابعا، يجتهد الشيخ في التقرب من الله في إمامته للصلاة بحيث تتحقق النجاة من النار لكل المصلين من ورائه.

خامسا، يفسر الشيخ ما وقع للشخص بأن اللحم كان معه وقت الصلاة، تلطفا به مع نصحه بالكتمان .هذا عن الرجاء .

أما عن الدعوات، فيذكر أن الشيخ رأى في مسكن، منكرا لا يقوى على السكوت عنه . فغضب و دعا عليه بالخلاء ،كأن يقول لصاحبه مثلا: "الله يخليك!" فنفذت دعوته فـي أقرب مدة . (2)

و من هذه الخارقة، يمكن آستنـتاج الملاحظات الثلاث الآتية:

الاولى: كان الشيخ يحب الصلاح و يغضب للمنكر و الفساد .

الثانية: من وسائل محاربة المنكر، توجيه الدعوى لله قصد التأديب، و آستجابة لقوله (ص) : "من رأى منكم منكرا ،فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبـه و ذلك أضعف الإيمان" . (3)

---

(1) ابن مريم، البستان، ص: 244ـ245 .

(2) ابن مريم، البستان، ص: 242 .

(3) رواه مسلـم

الثالثة: أن الله آستجاب له في مدة سريعة.

و في التوسل، روي أن آمرأة ضاع منها مفتاح بيتها و حاولت بكل حيلة، العثور عليه، فوضعت يدها على الفرخة، و نادت: " يا جاه سيدي محمد بن يوسف السنوسي !"، فجذبته و آنحل البيت. (1)

وفي هذا، ما يدعو إلى القول بأن الآستجابة لمن يتوسل بالسنوسي كانت تتحقق في حضور الرجل و غيابه، في حياته و موته، نظرا إلى ما كان يتمتع به من قدر وشرف ومن علوّ المنزلة.

* الموضوع الثاني: دعوة السنوسي لتحقيق كراماته

و مما يحفّز الخيال الشعبي في مختلف المرويات بشأن نجاعة التوسل و حقيقة خرق العادة، ما تناقلته كتب التراجم من مأثور كلامه. لقد روي أنه كان يقول: " من كان له إلى الله حاجة، فليتوسلْ بنا و ليقدّمنا ". (2)

و كتب في شرح العقيدة الوسطى، في شأن العبد التّقي، ما يلي: يجب "أن يعتزل الناس جملة، و يكون جليس بيته، و يبكي على نفسه، و يدعو دعاء الغريق، لعل الله سبحانه يخرق له العادة بفضله من هذه الفتن المتراكمة في نفسه و دينه إلى أن يرتحل عن هذه الدار بموته". (3)

وكان عند خرق العادة أحيانا، ينصح الشاهد بالكتمان، كما صنع مع صاحب اللحم الشارف في إحدى الخوارق السابقة. (4)

هذا، ولا يغضب الخيال الشعبي في روايته للقصص العجيبة، إنّ تبدّل آسمُ الولي في الكرامة الواحدة، كما وقع في قصة الطيران بحيث يشترك فيها كل من السنوسي و سيدي البنا. و من ينسبها إلى سيدي البنا يروي الكرامة على الشكل التالي: كانت لهذا الولي

---

(1) ابن مريم، البستان، ص: 245.
(2) ابن مريم، البستان، ص: 242

(3) محمد بن يوسف السنوسي، شرح العقيدة الوسطى، الطبعة الأولى، مطبعة التقدم الوطنية، تونس، بدون تاريخ، ص: 5-6.
(4) و كان السنوسي ينقل في كتابه "مناقب الأربعة" عددا من الخوارق التي تواترت عن بعض الشيوخ، من ذلك، أن سيدي أحمد بن الحسن الغماري كان من أصحاب طي الأرض و الطيران. (ابن مريم، البستان، ص: 34-35.)

زوجة معروفة بالعصيان له، و سوء المعاملة. و بغية أن يثبت لها أنه من أولياء الله الصالحين الذين يجب توقيرهم، وقف سيدي البنّا على "طيفور" (1)، فصار طيرا، و طار. و لكنْ رغم هذا، فإنه عند الاقتضاء، لم ينْجُ من تعليق زوجته على فعله حيث قالت: " باش طرتك عوجاء ". (2)

ج - الوقائع الثالثة: الإصابات بالعين

إن الاعتقادات في تأثير "العين" على الناس، ساهمت هي الأخرى، في إعداد أسباب ظهور أصناف من المرويات المختلفة. و هو تأثير لا يقصد التلمسانيون منه إلا الإصابة بالشر و الضرر بسبب حدة الحسد.

ألّف السنوسي - و هو ابن تسع عشرة سنة - شرحا كبيرا على الحوفية عنوانه "المقرب المستوفي"، و هو مؤلف كبير الحجم كثير العلم. (3) فلما وقف عليه أستاذه الحسن أبركان، تعجب منه، و أمره بإخفائه حتى يبلغ أربعين سنة. و عندئذ، لا يصاب بالعين، خصوصا، و أن الكتاب - فيما يقول عنه الأستاذ - لا نظير له فيما يعلم، و دعا له [الله ليستره من العين]. (4)

و يتجسد هذا الاعتقاد عند التلمسانيين في جملة من الأمثال، نقدمها على التوالي، في ثلاثة أنواع:

النوع الأوّل يثبت وجود العين و ضررها كقولهم مثلا:

1) "العيْن حقّ، و الطيرة باطل".

2) "خرجَتْ فيه العين".

3) "ضربته العين".

النوع الثاني يقدّم المقابلَ بُغْيةَ الحذر. و للرد على وخامة العين، يَبْرز الاعتقادُ في "الخامسة"، كقولهم مثلا،

---

(1) الطيفور هو مائدة سطحها مقعر.

(2) قارن مع إحدى كرامات السنوسي في التحدّي في الصفحة (92) من بحثنا هذا. انظر المثل المذكور في الحرف الطاء من كتابنا، هذا ما سمعته في تلمسان.

(3) يوجد مخطوط من هذا الكتاب في المكتبة الوطنية بالجزائر، تحت رقم: 1450.

(4) ابن مريم، البستان، ص: 245.

1) خمسة في عْينين الحُسّاد .

2) خمسةٌ و خُمُس عليه .

3) الباب يِبّدّ اليدّيْن بأشْفارها عسّاسِين .

النوع الثالث يفيد تصفية النية بـ "الفال" الذي هو على نقيض العين، كقولهم مثلا،

1) أهدرْ و آصنّتْ للفال .

2) زيّن النية و جئ ليّ . (1)

فعلى المرء أن يحذر من الأشياء المهلكة و الأغذية الضارة، و يسعى إلى تحصيل المنافع و دفع المضار بقدر الإمكان، و يحترز مما يثير الحسد ويغضب الأعداء. و هكذا، فكأن كل من سكن "أقاذير" أضحى فريسة الغيرة و الضرير. و إذا قيل إن تلمسان مدينة العينيْن، فلا تستبعد الحكمةُ أن تكون فيها، إحداهما مصدر سوء، و أن تكون الأخرى، مصدر حياة، جعل منها الله تعالى، كلّ شئ حيّ .

ولا شك في أن هذا الاعتقاد، وجد في القرآن و الحديث ما يؤكده و يطعّمه. جاء في القرآن الكريم، في قول يعقوب لبنيه: " يا بنيّ لا تدخلوا من باب واحدة وآدخلوا من أبواب متفرقة". (2) و هو قول يثبت أن العين حق .

و جاء في الاثر أن النبي (ص) كان يعوذ الحسن و الحسين بقوله: "أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان و هامّة، و من كل عين لامّة" .

و كان جبريل عليه السلام يَرْقي النبي (ص) عند الوجع بقوله: "بسم الله أرقيك من كل شئ يُؤذيك و من كل عين و حاسد، الله يَشْفيك" . (3)

و تفسير هذا الاعتقاد لا يتعدى في جملته الأمرين التاليين ، أحدهما أو هما معا: الأمر الأول: إن العائن (أي صاحب العين) ـ سواء كان في حياته فاشلا أو ناجحا،

---

(1) و في سياق النوع الأول من الأمثال، نذكر المثل التالي: "إذا شفت واحد ربح، اَعرفْ باللي ابن عمّه ما حضّرْلُوش". لضبط هذه الأمثال، ارجع إلى كتابنا، ما سمعته في تلمسان، حسب الحروف الأبجدية .

(2) سورة يوسف، الآية: 67 .

(3) للتفصيل، انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير، الجزء 21، ص: 87 .

إذا كان من طبعه أو بسبب تربيته، حسودا للناس، فلا يريد لهم التفوق عليه في حركاتهم و سكناتهم ـ شعر بالغضب الشديد، و واجههم بما يدل على غيرته و سوء نظرته كجحوظ العينين و البذاءة في الكلام.

الأمر الثاني: و المعين إذا كان يظن السوء بالناس اعتقادا منه أنهم يحسدونه، فإنْ حل به مكروه، أرجع مصدره إليهم من غير سبب و لا علة.

د ـ الوقائع الرابعة و الأخيرة: ما ذا عن سلطة زوجة السنوسي؟

إذا كثر الحديث عن الزوجة في الكرامات الشعبية المنسوبة إلى الشيخ السنوسي، فلأنّ المترجمين أنفسهم ينسبون إليها بعض الأخبار عن الشيخ، و يشيرون إلى معاملته لـها. فلقد كان ـ على قول الملالي ـ يأمر أهله بالصدقة رغم الفقر، حتى إذا دخل البيت و وجد عندها ما يزيد عن اللازم أو وجد أنها قبلت هدية من أمير أو حاكم، تبدّل حالُه، و حمل عليها بالإنكار. (1)

2 ـ كتب السير و ما تناقلته في تلمسان من عجائب:

إن العقائد الدينية في تلمسان، ليست بعيدة عن مساهمتها في خلق أسباب الاستعداد لتقبل الوقائع الخارقة للعادة و الرغبة في تطويرها. فلقد آتصل التلمسانيون منذ آنتشار الإسلام، بأخبار حول السير و التراجم، و حفظوا منها الغرائب و العجائب. و كان لهذه العجائب تأثيرها في كثير من مروياتهم. و من القصص التي كانت مشهورة عندهم و التي كانوا يستقونها من الآثار و التعليم، بعض كرامات الخلفاء الراشدين و الصحابة و غيرهم.

أ ـ خوارق الخلفاء الراشدين:

فمن كرامات أبي بكر الصديق بعد وفاته، أنه لما حملت جنازته إلى باب قبر النبي (ص)، و نودي: "السلام عليك، يا رسول الله، هذا أبو بكر بالباب!"، فإذا الباب قد آنفتح، و إذا بهاتف يهتف من القبر: "أدخِلوا الحبيب إلى الحبيب". (2)

أما عمر بن الخطاب، فقد ظهرت أنواع كثيرة من كراماته، أهمها آثنتان:

---

(1) ابن مريم، البستان، ص: 243.
(2) الفخر الرّازي، المصدر السابق، ص: 87.

الأولى: وقعت زلزلة في المدينة، فضرب عمر الدِّرة على الأرض، و قال: اُسكني بإذن الله! فسكنت و ما حدثت زلزلة بالمدينة بعد ذلك. (1)

الثانية: كتب قيصر إلى عمر في رسالة يطلب منه دواء. فبعث إليه عمر قلنسوة. فكان إذا وضعها على رأسه، سكن صداعه. و إذا رفعها عن رأسه عاوده الصداع. فعجب من ذلك. ففتش القلنسوة، فإذا فيها كاغد مكتوب فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم". (2)

أما عن عثمان، فروى أنس، قال: "سرت في الطريق، فرفعت عيني إلى امرأة، ثم دخلت على عثمان، فقال: ما لي أراكم تدخلون عليّ و آثار الزنا ظاهرة عليكم؟ فقلت: أجاء الوحي بعد رسول الله (ص)؟ فقال: لا! و لكن فراسة صادقة". (3)

و أما عليّ، فيروى أن واحدا من مُحبّيه سرق، و كان عبدا أسود. فأُتي به إلى عليّ. فقال له: أسرقت؟ قال: نعم. فقطع يده. فانصرف من عند عليّ، و كان عندما يُسأل عن عليّ، يمدحه و كان عندما يناقش في الأمر، يقول: و لِمَ لمْ أمدحه و قد قطع يدي بحق و خلص من النار؟ فعلم عليّ بالأمر، و دعا الأسود، و وضع يده على ساعده، وغطاه بمنديل، و دعا بدعوات. و إذا باليد المقطوعة، تعود سالمة و تبرأ. (4)

ب- خوارق الصحابة و غيرهم:

طلب بعض الناس آية من خالد بن الوليد. فقال: "إنك تدّعي الإسلام، فأرِنا آية لنسلم؟ فقال: إيتوني بالسّم القاتل. فأُتي بطاس من السم. فأخذها بيده، و قال: بسم الله الرحمن الرحيم. و أكل الكل، وقام سالما بإذن الله تعالى. فقال المجوس: هذا دين حقّ. (5)

و من الكرامات أيضا، قصة أبي ذرّ الغفاري مع الوحشي، و قصة سفينة مولى رسول الله (ص) مع الأسد.

---

(1) الفخر الرازي، التفسير الكبير، الجزء 21، ص: 87.
(2) الفخر الرازي، المصدر السابق، ص: 171.
(3) الفخر الرازي، المصدر السابق، ص: 88.
(4) الفخر الرازي، المصدر السابق.
(5) الفخر الرازي، المصدر السابق، ص: 172.

ثانيا: كيف يمكن أن نفهم هذه الخوارق، و لماذا جاءت على هذه الصفة؟

إنّــــــه لا بد من طرح بعض التساؤلات تمهيدا لمحاولة فهم الخوارق.

إننا إذا فسرنا الخارقة بإرجاعها إلى مبدأ السببية، رفعنا عنها مبرر وجودها، و لم تعد ظاهرة غير عادية في الحقيقة. وفي مقابل ذلك، نجد أن الأشياء العادية، لأنها خاضعة لنظام الكون، تشكل هي وحدها، موضوعا للفهم و التفسير. و على أساس هذه المفارقة، نجد أنفسنا بين آثنين:

فإما أن نفسر الخوارق تفسيرا علميا، و عندئذ نرفع عنها صفتها و هي خروجها عن العادة أو نقيسها بمقاييس غير شرعية، و هي تلك المقاييس التي وضعت خصيصا، لتقدير الظواهر العادية.

و إما أن نكتفي بقبول هذه الوقائع العجيبة بآعتبارها غير عادية، لا تستجيب لأيّ نظام في الكون و لا لأيّ وحدة قياسية في العقل.

و لكن، للفضول البشري حلٌّ آخر و هو أنه يحتاج إلى الرد على تساؤلاته مهما ضاقت به سبل العقل الصوري أو العقل المادي. فهو إذن، يحتاج إلى تفسير مهما كانت طبيعة هذا التفسير، سحرية أو فلسفية أو دينية.

و على أساس وجود هذا الفضول في الإنسان، نحاول الاقتراب من فهم ما نسجته الذاكرة الشعبية حول الشيخ السنوسي من مرويات. و في هذا الشأن، يمكننا تقديم نمطين من الفهم و التفسير: النمط الفلسفي، و النمط شبه العلمي.

1- النمط الفلسفي:

إن المرويات التلمسانية تنشأ من جوّ المدينة نفسها أي من الموروثات العقائدية المتنوعة التي تلتقي فيها الديانات المختلفة و خاصة الإسلام. فالإيمان بالله، و اليومُ الآخر، و الجنةُ، و النار، و الملائكة، و وجود الجنّ، و الرُؤى، كل ذلك هيأ الذاكرة الشعبية للإبداع، و أفرز فيها الاستعداد لذلك. هذا، و إذا كانت المدينة أسطورية أزلية تتخطى حدود الزمان، فإن الموروثات فيها، تتواجد في لَازَمان. فمن يعيش في تلمسان - هذه المدينة الروحية - يكون في مروياته مفتونا بالغيب دون الشهادة، بالباطن دون الظاهر، بالخفاء دون العلن، شغوفا بالترميز دون التبريز، بالتلميح دون التصريح.

لقد تعلم التلمساني من الأشعرية أن مختلف الخوارق التي تقع، إنما تقع من الله إلهاما و نعمة منه إلى عباده المكرمين، و تعلم من أهل الفلسفة و التصوف أن النفس الصالحة تتلقّى في الرؤيا، الأنباء بالمغيبات عنها و عن غيرها، و أنه لا مانع من تلقيها العلم يقظة متى تهيأت له بالرياضة و صفاء السريرة، وتعلم أن نفس الإنسان تتصرف في مادة الجسد، فلا مانع أن تتصرف في مادة الكون بقدرة تستمدها من علة العلل التي تتصرف في جميع الأشياء. (1) و قد وصل العقل التلمساني مع الشيخ السنوسي في توحيد الله، إلى غاية التجريد، و هو أمر جعل الناس يدركون حاجتهم إلى مثبّتات حسية كزيارة الأضرحة، و ذكر خوارق الأولياء، و التوسل بهم. و قريب من هذا ما ذهب إليه الفيلسوف الأنجليزي دافيد هيوم (D.HUME) المتوفى سنة 1776م، عندما كتب يقول في شأن التوحيد، و خاصة لدى اليهود و النصارى: إن المجتمعات تنتقل من التعددية إلى التوحيد، ثم إلى التعددية من جديد عندما يصبح مفهوم الله شديد التجريد، فيحتاج المؤمن إلى "وسيط"، يصل بينه و بين الله.

و لهذا أضحى العالم عالما بكرامته لا بتفكيره و دروسه، لأنه بالخارقة يمزق المحدود و يسع المكان و الزمان.

2- النمط شبه العلمي:

هنا، و يدفعنا الفضول العلمي هنا، إلى التفكير في حتميتين: حتمية أسطورية، و حتمية نفسية.

أ- الحتمية الأسطورية:

إذا كانت هذه المعتقدات، قد دخلت في صراع دائم منذ زمان بعيد و على فترات، مع قوالب العقل، فإنه لم يعد اليوم، لهذا العقل مبرر يرفض به فرصة تقويم أخطائه و توسيع آفاقه. و إذا كان لا بد من محاولة في تفسير هذه المرويات المختلفة، فنحن لا نخطئ الصواب إن آعتبرنا تلمسان نفسها، المرجعية الجوهرية. إن أسطورة الجدار وضعت المدينة في الأزل من حيث أُريدَ أن تكون لها بداية في التاريخ. و إلى هذه

---

(1) انتشرت هذه الأفكار مع الفيلسوف الصوفي ابن سينا و مذهب الأفلاطونية الحديثة الذي حملته كتب المشارقة.

القاعدة الروحية، يمكن ردُّ كل الإنتاجات الشعبية من خرافات و آعتقادات و أمثال و شعر بحيث يكفي أن نقرأ أو نسمع جزءا من هذا التراث حتى نهتدي إلى المصدر الذي نهل منه. و بتعبير آخر، إنه لمن المفيد الوقوف على خصوصيات تراث تلمسان على ضوء أم الأساطير و هي الجدار، و ما يترتب عن الإيمان بها من طبيعة العلاقات الاجتماعية. (1)

ب ـ الحتمية النفسية:

إلى جانب المدينة، إن للحياة النفسية ـ لدى الأفراد و الجماعات ـ حتميتها في تفسير مختلف السلوكات و الإنتاجات التي قصدت بها الذاكرة الشعبية تثبيت صورة الشيخ السنوسي و من ثمة، التنفيس عن مكبوتاتها و تحرير تطلعاتها.

أولا، تثبيت الذكر:

فالناس إن تكلّموا عن الشيخ السنوسي، و بنوا له قبّة، و ذكروه في عدد من المرويات، فإنهم يتكلّمون عنه لكي تتهيّأ شروط التخزين لدى الذاكرة الشعبية. و هكذا، فكلّما عادت الذكرى (أو الذكر) ـ عن هذا الطريق ـ تعمّقت أسباب التثبيت، لأن الصورة لا ترسخ في الذهن إلا إذا آستفادت من تكرار طويل، كما يقول "ريبو" (RIBOT)، والذي يراه "برغسون" (BERGSON) أن نسيان الأشخاص يبدأ أولا، من آسم الشخص المجرد، و ينتقل إلى الاسم الموصوف، ليصل أخيرا، و بصعوبة، إلى الشخص بلحمه و دمه، في سلوكه و أفكاره. و يعني هذا، أن الاسم المجرد يتعرّض بسهولة، للتلف لضعف محصّناته. و لكنه، عندما يدعّم بنعت أو بعمل، يكون في مأمن عن الضياع، و يكون أكثر تحصّنا مما لو بقي في صورته المجردة.

و نحن نعتقد أن للذاكرة الشعبية قاعدتها. فهي لا تكتفي بذكر آسم الشخص و صفاته و أعماله العادية. إنها تضيف إلى ذلك، أمرين: عجائب الأعمال، و المكان الذي يخلد آسمه.

---

(1) فلرواسب الفكر المرابطي تأثيره مثلا، في توجيه الخيال الشعبي إلى صور عجيبة. ذلك، لأن المرابطين ـ مؤسسي "تاقرارت" (أي مدينة المحلة و الجدار) ـ كانوا يفسرون القرآن على أساس القراءة الظاهرة و المجسمة. انظر،
G.MARCAIS, L'Afrique du nord musulmane du VIIè au XIXè siècle, texte dactylographié, bibliothèque des professeurs, lycée al-Méchouar, Tlemcen, p.6.

إن الذاكرة الشعبية تتجاوز قانون برغسون من حيث إنها توطد الأعمال العادية بما يعرف عن الشخص من العجائب و الغرائب. إننا حقيقة، ننسى بسهولة الأسماء المجردة بالقياس إلى الأسماء المدعمة بالصفات و النعوت. و لكننا ننسى أيضا، أعمال الأشخاص العادية بسرعة، إذا قارناها بأعمال الأشخاص العجيبة أو غير العادية.

و لا يمكن أيضا، للذاكرة الشعبية أن تنسى السنوسي، لأنها خصصت له مقبرة. و هنا نعود إلى التساؤل، لماذا تعرف المقبرة المركزية في تلمسان، بمقبرة الشيخ السنوسي، و كذا بعض المساجد و الحمامات و القرى، إن لم يكن لهذا الغرض؟

ثانيا، التنفيس عن مكبوتات الذاكرة الشعبية و تحرير تطلعات الخيال:

إن التلمساني لا يعيش في حدود اللحظة الراهنة. إنه يسبقها بذاكرته و يتجاوزها بخياله. و ما يستحضره، يتجدد بالرواية يوميا، و ما يبدعه بالخيال، يسعى به إلى تمديد محفوظاته و تحديثها.

فما يزال يبحث عن ربه لمعرفته أو للتقرب منه أكثر. و له في ذلك، طرق و تقنيات. و ليس أسهل عنده من الارتباط بما خلق الله من أشياء، و من توقير من كرّم.

و قريب من هذا المعنى، ما ذهب إليه الأستاذ "بروكلين" (BROOKLYN) عندما قال: " لقد توقف معظم الناس عن البحث عن الله إما لأنهم لا يؤمنون بوجوده، وإمّا لأنهم يشكّون في وجوده". (1)

وهكذا، فالتلمساني يشعر بكلّ السعادة، عندما يجنح إلى الخيال بعد أيام، لا بل و بعد سنوات من التعب و مواجهة صعاب الدنيا و آلامها. لقد كان منذ أمد بعيد، يحمل تطلعات و انشغالات و يطرح تساؤلات عميقة. و كان إيمانه بربّه و باليوم الآخر في القرون المتأخرة، محور اهتماماته و مصدر سلوكاته.

و يمكن القول، بلغة المدرسة الفرويدية، و خاصّة مع "يونغ" (YOUNG) المحلّل النفساني المجدّد، أن اللاشعور الجمعي مسؤول بنسبة معتبرة، عن هذه المرويات التي تبدو لنا، عجيبة و غير منطقية. فهو – سواء كان في النوم أو في اليقظة – يعمل على

(1) A. de C.Motylinsky, A'qida populaire des Abadhites algériens, p.328.

التنفيس عن مكبوتاته الدفينة التي تراكمت عبر الزمان .

إن المخزون الخارق للعادة له معناه .ولقد أخذت تتبدد أماراته المنفرة للبحث العلمي، عندما أرجعناه إلى أصالته الثقافية . لقد ظهر الشيخ السنوسي من خلاله، رجلا يقدس الأخوة، شغوفا بعلم التوحيد، جريئا في نشره، خشوعا في إمامته للعباد، يسعى إلى الصلاح و يغضب للفساد". رفعته الذاكرة الشعبية إلى درجة الولاية حيث تستجاب الدعوة كل حين". فأضحى هو نفسه، خارقة تستجاوب في هذا المنظور، مع مدينة الجدار. و بقدر ما حملته هذه الذاكرة، بقدر ما كان ملهما لها .

و في خاتمة هذا الباب، يمكننا القول، إنه تبين لنا أن الذاكرة الشعبية، آهتمت بالشيخ السنوسي في مستويات مختلفة، المادية منها و الأجتماعية و الشفوية، و لعبت دورها، في تحصين أمارات تثبيتية و خلق أطر اجتماعية جديدة، استطاع الرجل من خلالها، أن يتحدى مقاصد الناس المتعاقبة في الزمان و صروف الدهر المتقلبة .

و إن المخزون الشعبي في هذه المستويات المختلفة، إن آستطاع أن يجيبنا عن جملة من التساؤلات، فلأنه فعلا، واقع اجتماعي و نفسي ملموس، يؤمن به الناس و يمارسونه، و لأننا أيضا، و من جهتنا، وضعناه في إطاره الفكري المناسب. و عليه، فليس غريبا عند تحليله، إنْ حملنا أكثر من مرة، إلى الغوص في أعماق الذات الشعبية التلمسانية و خاصّة، في لاشعورها و تطلّعاتها .

إن السنوسي الذي حملته الذاكرة الشعبية أكثر من خمسة قرون، ليس أيا كان . فالذاكرة الشعبية ليست مجرد مستودع لشظايا خرساء و فتائت صماء. إنها كائن حي محترم له قاعدة اجتماعية، و نشاط نفسي يُمارِسُ على منواله، التذكر و التخيل انطلاقا من الحياة المعيشة. فهي ظاهرة تشكل كلا في حد ذاته، و جزءا من كل". أقول، إنها كل، لأن لها حرمتها و نظامها، و وحدتها و منطقها المتميز". و لها فوق ذلك، قرارها". و قرارُها أن تصارع الحياة بوسائلها الخاصة. و أقول، إنها جزء من كل، لأنها تشكل جانبا من جوانب المناخ الثقافي الذي تعرفه مدينة تلمسان، و لأنها مظهر من مظاهر حياة أهلها العامة.

هذا عن السنوسي في الذاكرة الشعبية". فماذا عنه، في الواقع؟

الباب الثاني: السنوسي في الواقع

الفصل الأول: السنوسي في المؤلفات العربية والأوروبية

الفصل الثاني: أسس مذهب السنوسي

مقدمة الباب الثاني

نأخذ الواقع، في هذا الباب، كمصدر معرفي موضوعي يتمثل في مؤلفات السنوسي نفسه و ما كُتب عنها و عن صاحبها. و على هذا الأساس، يتعين علينا التعامل رأسا، مع آثار السنوسي المكتوبة و ما سجّلتّه في هذا الشأن، كتُبُ التراجم و الحواشي، و كذا بعض المقالات و التعاليق. و سنتعامل مع هذه النصوص بآعتبارها موضوعا ماثلا أمامنا، لا يرضى أن تتسرّب في تحليله، أحكام مسبقة، و لا أن تجهّز في إعداده، مقاصد مبيّتة.

نبدأ بقراءة السنوسي، فيما كتبه العرب والمستشرقون الأوروبيون عنه، لنُصغي إليهم جميعا: نسجل نقاط آهتماماتهم، و طريقتهم في عرضها، ثم نسعى إلى تحليلها، و آختبارها ابتغاء التقويم أو النقد و التعليق. هذا، في الفصل الأوّل.

و أما في الفصل الثاني، فإننا، أعتمادا على عمليتي التحليل والتركيب، سننتقل إلى قراءة مكتوبات الشيخ السنوسي سعيا وراء دراسة و فهم مضمونها الفكري: سيتبيّن لنا كيف يستطيع هذا المسعى، أن يحملنا إلى الوقوف على مذهبه الفكري في خصوصياته بأكثر شمولية. ومن ذلك، أننا سنوجه العناية إلى كشف النقاب عن جوانب من تفكير الشيخ لم تطرق بعْدُ، كالإيمان و نسقه، و التوحيد بآعتباره العروة الجامعة لكل المدارس الإسلامية على آختلاف أتّجاهاتها، و المترفعة عن السياسة الظرفية". و أننا سنجلي خصوصيات تجربته الذوقية بصفتها ملازمَة ذكرٍ واع للكلمة المشرفة "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، المعبّرة عن الحقيقة و الشريعة، و مميزات تفسيره لآياتٍ قرآنية، و هو تفسير يعكس كامل مذهبه الفكري. و من الجوانب التي لم تأخذ حقّها من الأهتمام إطلاقا، نظامه في التعليم، و هو نظام يستهدف تكوين العقل و ترسيخ الإيمان". و فيه سيتبيّن لنا، كيف أن السنوسي يسعى حقا بالمتعلم أو الدارس إلى تجاوز روح الاتّكالية و التحرر من غطرسة المعلمين و غرور الحكام، و من ثمة، تأمين المدرسة من السياسة.

الفصل الأول: السنوسي في المؤلفات العربية و الأوروبية

القسم الأول: السنوسي في المؤلفات العربية

القسم الثاني: السنوسي في المؤلفات الأوروبية

القسم الثالث: نقد المؤلفات العربية والأوروبية

مقدمة الفصل الأول

في هذا الفصل، يتعيّن علينا الوقوف عند ثلاثة عناوين:

أولا: كيف قدم المؤلفون العرب الشيخ السنوسي، مع التساؤل عن مصادرهم في شأن ذلك، و ما هي النقاط الأساسية التي شدّت آنتباههم؟

ثانيا: ما هو التصور الذي آشتهر به الأوروبيون في كتاباتهم عن السنوسي، عصره، و شخصيته، و تفكيره؟

ثالثا و آخيرا: إلى أي حدّ يمكن الأخذ بصحة أعمالهم جميعا، ما هي مآخذهم شكلا و مضمونا مع إبراز ضرورة الاقتراب من دراسة السنوسي بطرق تناسبه و تقنيات تتماشى و العصر؟

القسم الأول: السنوسي في المؤلفات العربية

الجزء الأول: السنوسي ،حياته و شخصيته

الجزء الثاني: السنوسي ،مؤلفاته و تأثيره

الجزء الأول : السنوسي ، حياته و شخصيته

أولا : المصادر العربية

1- المصادر المباشرة الأولى

2- كتب التراجم و السير

3- أخبار المحشّين و الشراح لبعض مؤلفات السنوسي

4- دراسات خاصّة

ثانيا : اهتمامهم الأول ، عصره و شجرته المدنية

1- شجرته المدنية

2- عصره

ثالثا : اهتمامهم الثاني ، حياة السنوسي

1- أخلاق السنوسي و علاقته بالناس

2- علاقته بالأمراء

3- جوانب من حياة السنوسي من خلال علاقته بشيوخه

رابعا : اهتمامهم الثالث ، شجرة السنوسي العلمية

ما هي المصادر التي نقل فيها، المؤلفون العرب أخبارهم عن السنوسي ؟ و في إطار آهتماماتهم الأولوية، كيف قدموا شجرته المدنية، و وصفوا العصر الذي عاش فيه؟ و ما هي الجوانب التي وقع التركيز عليها في حياة الرجل ؟ و أخيرا، ما مدى آتساع شجرته العلمية؟

أولا: المصادر العربية

إن المصادر العربية التي نقلت إلينا، أخبار الشيخ السنوسي متنوعة، ويمكن تصنيفها إلى أربعة:

1- المصادر المباشرة الأولى:

أ- إن المشرب الأول الذي نهل منه عمداء المترجمين للشيخ السنوسي و عوّلوا عليه في أخباره، هو كتاب " المواهب القدسية في مناقب السنوسية". ألفه أحد تلامذة الشيخ، و هو عبد الله الملالي. و يبدو أن الغرض من هذا التأليف هو آستجابة لما كان يكنّه المؤلف لأستاذه من تقدير و تبجيل، و شهادة للمكانة التي كان يحتلها في مجال العلم و الصلاح. و لو لا هذا الكتاب، ما كان الشيخ ليذكر في أمهات التراجم بالقدر الذي وصلنا به.

و نظرا إلى كون هذا الكتاب ما يزال مخطوطا، و إلى آعتزاز بعضهم بوجوده في

?
ça prouve quoi

مكتباتهم الشخصية ـ وخاصّة عند السؤال عنه ـ ونظرا إلى التقدير المُفْرط الذي تمنحه له بعض الأسر، فإنّني لم أُفلح في الحصول على نسخة منه، ولم تتهيّأ لي الفرصةُ لتصفّحه والاطّلاع على مضمونه كاملا. ولهذا، اضطررت إلى الاعتماد على المترجمين الذين نهلوا منه. ومهما كان قصور هذه الطريقة في العمل، فإنها وسيلتنا الوحيدة، وهي قراءة تأليف الملالي من خلال قارئيه أو قارئ قارئيه.

ب ـ ولقد ساهم الشيخ السنوسي في تقييد بعض أخباره الشخصية من خلال ما كتبه في شأن من عاصره من الشيوخ والعلماء، كالحسن أبركان أستاذه، وأحمد بن الحسن الغماري، وسيدي محمد بن عمر الهواري. ولقد آعتمد ابن مريم على تقييده هذا، في وضع كتاب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"، وصرّح بذلك، في قوله: "وقد آنتخبته من نيل الابتهاج بتطريز الديباج للشيخ أحمد بابا السوداني، ومن بغية الرواد في أخبار الملوك من بني عبد الواد، ومن تقييد سيدي محمد السنوسي في مناقب الأربعة...". (1)

ج ـ هذا، وقد نقل أخباره بعض معاصريه من العلماء ومن التلاميذ.

فلقد أثنى عليه أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي (المتوفى سنة 1479م) صاحب اللامية المشهورة في العقائد عندما آستجاب له السنوسي بشرح قصيدته هاته. (2)

وراسله محمد بن يحباش التازي (المتوفى سنة 1514م) بقصيدة بعثها إليه بمناسبة آنتهاء المراسل من شرح عقيدة الإمام الصغرى. (3)

---

(1) ابن مريم، البستان، ص: 314. والملاحظ أن ابن مريم وضعه في المرتبة الثالثة. وإذا كانت كلّ الكتب المعول عليها موجودة، ترانا نتساءل، لماذا وقع إهمال ذكر الكتاب لدى كل من ترجم له. ولقد أشرنا إلى هذه الظاهرة في تأليفنا، الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد في الصفحة، 86. ويغلب الظن أن رابع الأربعة هو محمد بن قاسم بن تومرت التلمساني إذ يقول ابن مريم عنه: "قال تلميذه السنوسي كان شيخنا صالحا عالما..." (البستان، ص:237).

(2) وسنذكر بعض ما قال أبو العباس الجزائري هذا، في شأن الثناء على السنوسي في الجزء الثاني من هذا القسم.

(3) يقول بن يحباش: "فالله يحفظه ويبلغ قصدَه .:. ويُحلّه في أرفع الدرجات مع والده، وجملة الإخوان .:. ولداته وترّبانه وحمات".، ابن عسكر، دوحة الناشر، مخ، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم: 2136 م.

و في النجم الثاقب، تعرض ابن صعد إلى الحديث عن شيخه السنوسي من خلال كلامه عن بعض العلماء المعاصرين للسنوسي. (1)

و في قصيدة يرثي فيها محمد بن عبد الرحمن الحوضي شيخه السنوسي، يجد القارئ حزمة من الخصال السامية، يعزّي بها التلميذ نفسه. (2)

و في الجملة، اتجه الاهتمام في هذه العيّنات من المصادر المباشرة، إلى أصل الشيخ الشريف، و إلى أسماء الشيوخ الذين درس عليهم، و قائمة التلاميذ الذين أخذوا عنه، و إلى تآليفه المختلفة. كما وقع التركيز على نمط من الأخبار كعلمه و صلاحه و ولايته، و ما تفترضه الولاية من زهد و ظهور كرامات، و على بعض الإشارات إلى علاقته بالناس و الأمراء مع التنويه بخصاله الحميدة و فضائله الخلقية و على رأسها الحياء.

هذا، و عن الذين اعتنوا به رأسا، فإنهم خصصوا له كلاما منظوما في الثناء عليه، و الإشادة بمنزلته العلمية أو في رثائه عند الموت، و تعزية أهله و أقاربه.

2 ـ كتب التراجم و السير:

و لم تعد بعد هذا، كتب السير و التراجم تتعامل مع الشيخ السنوسي إلا على أساس تناقل هذه الأخبار جملة أو تفصيلا، تبركا بذكره أو لضرورة قاموسية معجمية.

ومن المصادر القديمة التي تناولت أخبار الشيخ :

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي،
- والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم،
- ودوحة الناشر لابن عسكر.

و تداولتها أيضا، كتب المتأخرين، و هي عديدة و متنوعة، نذكر منها ما يلي:

- تعريف الخلف برجال السلف لأبي القاسم محمد الحفناوي،

---

(1) لم يصرح ابن مريم في البستان ـ كما رأينا ـ عمّن هو العالم الرابع الذي قيّد أخباره الشيخ السنوسي. و إذا كان الاحتمال يرشدنا إلى ابراهيم التازي، ترانا نتساءل، لماذا عوّل ابن مريم على ابن صعد في النجم الثاقب، مع العلم أن ابن صعد ترجم للثلاثة المذكورين ؟

(2) سنذكر بعض ما قال الحوضي في شأن رثاء أستاذه، في الجزء الثاني من هذا القسم.

X ـ كشف الظنون لحاجي خليفة،

و ـ إيضاح المكنون لإسماعيل باشا.

و من المعاجم المعروفة التي يتداولها الناس، يمكن تسجيل ما يلي:

و ـ دائرة المعارف الإسلامية،

و ـ الأعلام لخير الدين الزركلي،

و ـ معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر لنويهض،

و ـ معجم المؤلفين لكحالة،

و ـ معجم المطبوعات العربية و المعربة لإلياس سركيس،

3 ـ أخبار المحشين و الشراح لبعض مؤلفات السنوسي:

إنهم في حواشيهم و شروحهم يشيرون إلى بعض أخبار السنوسي، وخاصة في ديباجتهم، حسب مقتضيات الكتابة و موضوعاتها، كالأشعرية التي ينتمي إليها، و مسائل علم التوحيد، و كذا، ذكر بعض من أنكر عليه الخروج من المذهب من معاصريه. و من هؤلاء المؤلفين نذكر الإنبابي، و إبراهيم البيجوري، و محمد الدسوقي، و محمد عليش. (1)

4 ـ دراسات خاصة:

و في هذه المصادر الأخيرة، يمكن التمييز بين نوعين من التأليفات، تأليفات نقدية و أخرى علمية معاصرة.

أ ـ في النوع الأول، يتولى المؤلفون مناقشة السنوسي في بعض المسائل الكلامية، كما صنع محمد بن علي بن منصور في قضية "أن التواتر هو من البراهين القاطعة، وأن طلب الدليل العقلي جهل بالله و رسوله"، (2) و أبو راس الجزائري في قضية التكوين.(3)

ب ـ أما النوع الثاني، فإنه يتضمن دراسات خاصة بالشيخ السنوسي، فكره، و مؤلفاته يمكن تصنيفها إلى أبحاث جامعية و تحقيقات و محاضرات، نؤجل الكلام فيها إلى الجزء

---

(1) و قائمة هؤلاء المحشين و الشراح طويلة، سنذكرها بالتفصيل في الجزء الثاني من هذا القسم.

(2) محمد بن علي بن منصور، في كيفية دخول ضعفاء العوام و مساكين الطلبة الذين لهم قليل الإلهام في دائرة أهل الإيمان، مخ عند السيد عبد الرحيم بن منصور.

(3) أبو راس، فتح الإله و منته، تحقيق محمد بن عبد الكريم، م.و.ك. الجزائر، 1990.

الأول من القسم الثالث.

ثانيا: اهتمامهم الأول، عصره و شجرته المدنية

لا يختلف المترجمون للشيخ كثيرا، في نقل أخباره الخاصة بعصره و شجرته المدنية، و كذا، في حمل أخباره بشأن حياته الاجتماعية و الأخلاقية و شجرته العلمية. و ما كان فيه آختلاف، سنختبره في القسم الثالث من فصلنا هذا.

1- شجرته المدنية:

أ- إسمه و لقبه:

هو أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي. هكذا، في كل المصادر إلا في شجرة العشماوي حيث يُلحق المؤلف يوسف الوالد بعلي و بعده محمد. (1) و كثيرا ما كان أهل عصره و ما بعده، ينعتونه ببعض الأسماء و الألقاب على حسب الاعتبار العلمي أو الديني. فيدعونه الشيخ أو الإمام. و يلقبونه أيضا، بالأشعري (2)، و صاحب التوحيد (3)، و إمام الموحدين (4)، و خليل الأشعرية (5)، و قطب التوحيد (6)، على حسب ما آشتهر به من تخصص.

ب- أصله:

أصله شريف، يعتز به من جهة جدته، أم أبيه، فيعرف بالحسني نسبة إلى الحسن، (7) ابن علي بن أبي طالب، و حفيد النبي صلى الله عليه و سلم. (8)

---

(1) يقول العشماوي في كتاب الأنساب (ص: 49)، و هو مخطوط عند الأستاذ شعيب "أبو بكر" في شأن نسب السنوسي أنه محمد بن يوسف بن علي بن محمد بن عيسى بن محمد الكرماني بن الحسن بن موسى بن عمر بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن رابح بن عبد الله بن محمد بن إدريس الثاني بن إدريس الأول بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنّى بن الحسن السبط بن فاطمة بن محمد بن عبد الله (ص).

(2) رابح بونار، مقدمة لتحقيق كتاب مصباح الأرواح لمحمد المغيلي، ش.و.ن.ت. الجزائر، 1968، ص: 08.

(3) الحفناوي، تعريف الخلف، انظر فهرست الكتاب، ص: 213.

(4) محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ش.و.ن.ت.، الجزائر، بدون تاريخ، ص: 233.

(5) جمال الدين بوقلي حسن، الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، ص: 102، 380.

(6) جمال الدين بوقلي، عقلنة الإيمان عند قطب التوحيد الإمام ابن يوسف السنوسي، محاضرة ألقيتها سنة 1992 بمقر الجمعية التربوية بثانوية ابن زرجب.

(7) انظر النسب في نظم أحمد بن الحاج لصغرى الصغرى، و هي من العقائد التي ألفها شيخه السنوسي. (البستان، ص: 18).

(8) و قد أرجعه إلياس سركيس في معجم المطبوعات إلى الحسين، فتكون نسبته في هذه الحالة: الحسيني.

ج ـ ولادته:

ولد بين سنتي 832 و 838 الهجريتين، و توفي يوم الأحد الثامن عشر من جمادى الثانية سنة 895 هـ/ 1490 م، و دفن بالعباد السفلي بجوار أخيه من أمه، علي التالوتي .

د ـ أسرته:

و ترعرع في بيت يعتز بشرف العلم و التُّقى، وكان والده أبو يعقوب رجلا صالحا و زاهدا معروفا بخشوعه و بحبه للمعرفة .

هذا، وله زوجة و ذرية، ترك بعد موته فتاة(1)، و فتى (2) اسمه عبد الله(3)، و له أخوان يفوقانه في السن، عليّ التالوتي و يعقوب: الأول من أمه و الثاني من أبيه . (4)

2 ـ عصر السنوسي :

عاش الشيخ السنوسي في زمن انتشر فيه الخوف و قطع الطرق و اللصوصية! نشأت وقتئذ، طوائف في صحراء المغرب العربي و آنفردت بالحكم على السلطة المركزية بتونس آو فاس أو تلمسان .و لجأ بعض العصاة في القبائل العنيدة إلى التجبر و التعسف و الظلم و التعدي على الأهل .فآنتشرت السرقة في كل مكان من المدن و الأرياف و الصحراء، و أخذت العصابات تقطع الطرق و تتصدى بالعدوان على القوافل الآتية من البلاد السوداء أو الذاهبة إليها : لقد فوجئ عبد الباسط بن خليل باللصوص يوم حلّ بمدينة تلمسان عام 868هـ/ 1463 م، و عبّر عن تهوّر القُطّاع في رحلته من فاس إلى تلمسان سنة 870هـ/ 1465 م .و هذا أبو العباس أحمد الونشريسي، وقعت له كائنة من جهة السلطان في الفاتح من محرم سنة 874هـ، فآنتُهبت داره، و فرّ إلى مدينة فاس، فآستوطنها . (5)

و كان العهد الذي عاش فيه السنوسي، عهدا عظمت فيه أطماع الحفصيين والمرينيين

(1) ابن مريم، البستان، ص: 244 .
(2) عن استنتاج من بيت شعري من قصيدة بعثها ابن يحباش التازي إلى السنوسي، بمناسبة آنتهاء الناظم من شرح عقيدة الإمام الصغرى .انظر التعليق رقم: 3، صفحة 228، من بحثنا هذا .
(3) جمال الدين بوقلي، الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، ص: 59 .
(4) جمال الدين بوقلي، المصدر السابق .
(5) الحفناوي، تعريف الخلف، ج . 1 .ص: 67 .و هنا لا يجب أن يغيب عنا أن الونشريسي صاحب المعيار، أفتى بتحريم نبش القبور و آستغلال عائدات الأحباس.

في تملك تلمسان بآعتبارهم الوارثين الشرعيين لخلفاء مراكش الموحّدين.وتعددت الحروب ضد الدولة الزيانية شرقا و غربا.

و قُبيْل أن يرى الشيخ السنوسي الحياة،كانت تلمسان ما تزال خاضعة في ولايتها، إلى بني حفص التونسيين بحيث تعددت تدخلات جيوشهم إلى المدينة مع السلطان أبي فارس سنة 827هـ و كذا، في 832هـ(1)،و آشتدت محاصرتهم لها سنتي 833 و 835، و زاد آهتمامهم بها في 866هـ/ 1461م مع السلطان الحفصي الجديد أبي عمرو عثمان الذي تمادى في قتل أهلها سنة 870هـ/ 1465م،إلى أن آعترف بنو زيان بالولاء الشرعي لـــه.

عاش شيخنا إذن، في عصر أصيب فيه الشعور بالآنتماء إلى أمة التوحيد، بحالة من الفتور بسبب الشره في حب السيطرة الذي آستولى على فئات من الناس، و الجشع السياسي الذي كان وقتئذ، يتملك أصحاب الإمارات المحلية و الاندلسية، تملكا هيأ أسباب سقوط مملكة غرناطة: فتعددت غارات المسيحيين على مناطق عربية إسلامية، منها المهدية بتونس في أواخر القرن الثامن الهجري، و في عهد الشيخ، على سبتة و أصيلا و طنجة بالمغرب الأقصى.

و عاش فوق ذلك، في عهد تجاوز فيه اليهود الحدود الشرعية فآستعلوا على المسلمين بالتعدّي و الطغيان و التمرد على الحكام، و وجدوا كل السبل في إحداث الكنائس و البيع.

و لقد تركت هذه الحادثة ضجة قوية، و أحدثت قلقا و آنشغالا في أرجاء المغرب العربي لذلك العهد، بين علمائه و خاصة، لدى العالم التلمساني ابن عبد الكريم المغيلي مع يهود توات و عالم التوحيد شيخنا السنوسي و معاصريهما من الفقهاء غربا و جنوبا.

هذا، ويقول السنوسي نفسه، عن تدهور هذه الفترة الزمانية و ما يلزم فيها (2): "ما

(1) محمد النقادي، الشيخ السنوسي من خلال عصره، مقالة في طريق النشر، 1996.
(2) و قد آستشهد بهذا القول أيضا، تلميذه سيدي محمد بن يحيى بن موسى المغراوي، انظر، ابن مريم، البستان، ص: 279.

عسى أن يصف الواصف من شرور هذا الوقت و شرور أهله، و قد أغنى فيه الخبر عن العيان. و الواجب فيه قطعا، لمن أراد النجاة بعد تحصيله ما يلزم من العلم، أن يعتزل الناس جملة، و يكون جليس بيته، و يبكي على نفسه، و يدعو دعاء الغريق ...". (1)

ثالثا: اهتمامهم الثاني، حياة السنوسي

لقد اتجهت عناية المؤلفين العرب في هذا المستوى، إلى نقل أخباره عن أخلاقه و علاقته بالناس و بالأمراء، و عن جوانب من شخصيته تسترعي اهتمام الفضولي المدقّق.

1 ـ أخلاق السنوسي و علاقته بالناس:

لقد نوّه المترجمون للشيخ، فضلا عن شيوخه و تلامذته، بسموّ أخلاقه و طيبوبة علاقته مع الناس. فلقد عُرف في هذا الشأن، بالصبر و الوفاء و التواضع، و بالحياء بوجه أخص، لأنه أمّ الفضائل عنده، و ميزة جوهرية جُبل عليها. و لقد تواتر عنهم في هذا السياق، أنه كان لا يقدر أن يخالف الناس في أغراضهم أو يقابلهم بسوء، و أنه كان يكره أن يكاتب الأمراء، و إذا حدث له أن كاتبهم، فذلك استجابة لحيائه. و قد عاتبه أخوه علي التالوتي يوما، و قال له: "لأيّ شيء تُكثر الكتب للسلطان و غيره؟ فقال له: كلفت به. فقال: لا توافق عليه، و قل: لا أكتب! فقال: و الله يا أخي، يمنعني منه غلبةُ الحياء، و لا أقدر أن أقول: لا! فقال له: لا تستحيْ من أحد. فقال له: (إذا كان الحياء يُدخلُ صاحبَه النارَ فأنا أدخلُها)." (2)

و تفيض من حيائه، شيمُ الصبر و الوفاء و التواضع.

فكان حليما كثير الصبر، ربما يسمع ما يكره، فيتعامى عنه و لا يؤثر فيه، بل يقابل ذلك، بوجه بشوش تعلوه الابتسامة. و هذا شأنه في كل ما يغضبه، لا يلقى له بالا بوجه، و هو لا يحقد على أحد، و لا يعبس في محيّاه إذا لقيه، يفاتح من تكلم في عرضه بكلام طيّب و إعظام، و لا يلومه حتى يعتقد أنه صديقُه. ولقد وقعت له وقائع ممن يدّعي أنه

---

(1) السنوسي، شرح العقيدة الوسطى، ص: 5ـ6.
(2) ابن مريم، البستان، ص: 241.

أعلم أهل الأرض ينقصه و ما بالى به.

و لما ألف بعض عقائده، أنكر عليه كثير من علماء وقته، و تكلموا بما لا يليق. فتغير لذلك كثيرا، و بقي محزونا أياما.

و كان يحمله **الوفاء** إلى ردّ حقوق الناس قبل آستحقاقها. من ذلك مثلا، أنه إذا أعار كتابا، ردّه في أقرب زمان قبل طلب صاحبه، و ربما كان سِفْرا ضخما لا يمكن مطالعته إلا في ثلاثة أيام، فيطالعه يوما واحدا و يرده.

و بحكم **تواضعه**، كان لا يرفع صوته، بل يعتدل فيه و يصافح الناس و لا يمنع من يقبّل يده، و كان لا يلبس لباسا مخصوصا يعرف به. (1)

2- علاقته بالأمراء:

و عن علاقته بالأمراء و الحكام، فالمترجمون للرجل **يُبْرزون تعفّفه و** إعراضه عن الدنيا في أطماعها السياسية. أتي إليه يوما، ابن الخليفة و معه عيْنٌ، فقبّل يديْه و رجليه، و طلب منه قبول عطية خصّصها له. فتبسم في وجهه، و دعا له، و أبى. فلما أيِس منه، قال له: تصدق بها، يا سيدي، على من شئت من الفقراء، فآمتنع منها. و في الصحراء، رأى ناسا راكبين على خيول بثياب فاخرة، فأدرك أنهم خواص السلطان، فتعوذ بالله، ثم جعل وجهه للحائط و غطاه. (2)

3- جوانب من حياة السنوسي من خلال علاقته بشيوخه:

إن أخبار المترجمين لعلاقة الشيخ السنوسي بشيوخه - اعتمادا على ذكر السنوسي لهم - تُبرز للقارئ الأمين، أربع نقاط في شخصيته و هي: قصور ذاكرته و عموم خجله، و خروجه من تلمسان، و تولّيه " أمانة" أخيه عليّ التالوتي، و مأثور كلامه.

أ- قصور ذاكرة السنوسي و عموم خجله:

مما يدل على هذه الحقيقة، ما قيّده السنوسي نفسه و هو يترجم لأستاذه الحسن أبركان. قال: " ما سمعته أنا و أخي سيدي علي من الشيخ إبراهيم بن ردان، و قد أعاد

---

(1) ابن مريم، البستان، ص: 242-244.
(2) ابن مريم، البستان، ص: 241.

عليّ سيدي عليّ هذا الكلام في هذه الأيام، لأنني نسيته و هو أثبت مني". (1)

و في مسألة الرعاف موضوع الجلسة مع أستاذه الحسن أبركان، يقول: "فذكر مسألة الرعاف بعينها التي خضنا فيها، و ذكر ما يليق بجواب المسألة، و لم أحقق لفظه الآن، لطول العهد و صغر السن في ذلك الزمان". (2)

و في هذا السياق، و مما يلمّح إلى عموم خجله، يقول السنوسي بصدد ذكر أخبار شيخه محمد بن قاسم بن تومرت التلمساني: "و كنت أحضره مع شبان، لهم فهم ثاقب في الفرائض. فبنفس ما يشير عليهم بشيء، فهموه وحصلوه، و أنا لا أفهم شيئا. فتخلفت عن مجلسه أياما، ثم جئته و وجدته وحده. فقال: تغيبت عنا. فقلت: يا سيدي، أنا لا أعرف شيئا، و لا أفهم شيئا. فقال لي: إنْ أردت القراءة، تأتيني وحدك بعد العشا". (3)

ب- خروجه من تلمسان:

هذا، و أمّا الذين تعرّضوا لحياة الشيخ السنوسي، فإنهم لم يشيروا إلى مغادرته تلمسان، مسقط رأسه، إلا الأستاذ قادري حافظ طوقان، في كتابه تراث العرب العلمي حيث يقول و هو بصدد حديثه عن أبي الحسن القلصادي: "وفي أثناء وجوده في غرناطة، تتلمذ عليه كثيرون، و نبغ منهم نفر غير قليل كأحمد داود البلوي، والإمام السنوسي". (4)

ج- توليه أمانة أخيه، علي التالوتي:

إن من يدقق النظر فيما قاله المترجمون عن الشيخ السنوسي و أخيه عليّ، يخرج بالاستنتاج التالي، و هو أنه كان بينهما تعاون و تكامل بحيث إن الشيخ كان يشعر بالحاجة إلى حافظة أخيه، ليعوض النسيان الذي كان ينتابه، و كان عليّ بدوره يشعر بالحاجة إلى تقييدات سيدي محمد السنوسي لقلة تعوّده على الكتابة و التحرير. و على هذا الأساس، يمكن اعتبار السنوسي، في بعض المسائل، كاتبا لأخيه، كما يمكن اعتبار عليّ خزّان أخيه الذي لا ينضب.

(1) ابن مريم، البستان، ص: 75.

(2) ابن مريم، البستان، ص: 82.

(3) ابن مريم، البستان، ص: 237.

(4) قادري حافظ طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات و الفلك، دار الشروق، بيروت، بدون تاريخ، ص: 461.

د- مأثور كلام السنوسي :

هذا، وأما ما يتعلّق بمأثور كلامه، فمن المحتمل أن يكون ما سجّله أصحاب السير في شأنه، قد جاء عن طريق المشافهة، و لا يوجد له أثر مكتوب في مؤلفاته، كقولـه مثلا: " ينبغي للإنسان أن يمشي برفْق، و ينظر أمامه لئلا يقتل دابّة في الأرضْ". (1) وكقوله الـذي سمعه منه الملالي آخر عمره: " من الغرائب في زماننا هذا، أن يوجد عـالم جُمع له علم الظاهر و الباطن على أكمل وجه، بحيث يُنتـفع به في العلمين". فوجود مثل هذا، في غاية الندور". فمن وجده، فقد وجد كنزا عظيما دنيا و أخرى". فـلْيشدّ عليه يده لئلا يضيع عن قريب، فلا يجد مثله شرقا و غربا أبدا" . (2)

رابعا: اهتمامـهم الثالث، شجرة السنوسي العلمية

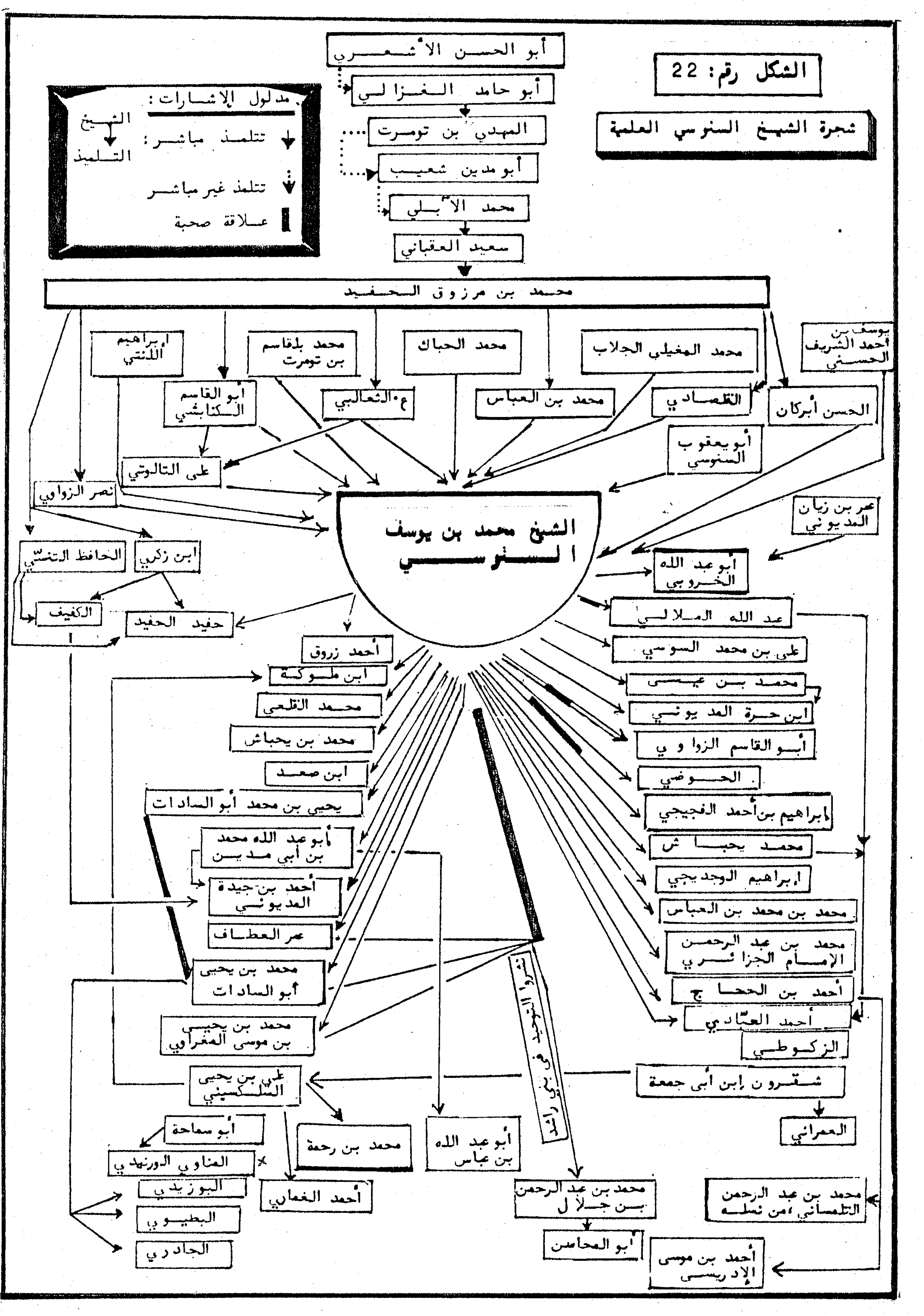
و فضلا عن كل هذه الانشغالات ، وقع آهتمام المترجمين للسنوسي بشجرته العلمية، شيوخا و تلامذة، كما هي عادتهم .و بعد ما قمنا بما يكفي من القراءات، تمكّـنا من رسم هذه الشجرة، أردنا بها أن نعرف بعض أمهات الأصول فيها، و بعض ما يتشعب عنهـا من فصول و فروع". مع العلم أننا آقتصرنا فيها، على الصورة العامة و الشكل الإجمالي تاركـين بعض تفريعـاتها المتأخرة إلى الحديث عن الحركة السنوسية التي آنتشرت في القرنين التاسع عشر و العشرين للميلاد، في الجزء الأوّل من القسم الثالث، و هو الجزء الخاص بنقد و آختبار أعمال المؤلفين العرب.

ومن خلال قراءة هذه الشجرة العلمية (انظر، الشكل رقم: 22) ، يمكن الـخـروج بالملاحظات التالية:

إن عدد الشيوخ الذين درّس عليهم السنوسي ، يصل إلى ثلاثة عشر شيخا". ستـة منهم فقط، تتلمذوا للعلامة محمد بن مرزوق الحفيد المتوفى سنة 842هـ/ 1438 م الذي كان بدوره تلميذا للشيخ سعيد العقباني .و هؤلاء الستة هم: نصر الزواوي و أبو الـقاسم الكنابشي و عبد الرحمن الثعالبي و محمد بن العباس و أبوالحسن القلصادي و الحسن أبركان .

(1) ابن مريم، البستان، ص: 242 .

(2) ابن مريم، البستان، ص: 240 .



الشكل رقم: 22
شجرة الشيخ السنوسي العلمية
مدلول الإشارات:
الشيخ
التلميذ
تتلمذ مباشر:
تتلمذ غير مباشر
علاقة صحبة
أبو الحسن الأشعري
أبو حامد الغزالي
المهدي بن تومرت
أبو مدين شعيب
محمد الآبلي
سعيد العقباني
محمد بن مرزوق الحفيد
إبراهيم اللنتي
محمد بلقاسم بن تومرت
محمد الحباك
محمد المغيلي الجلاب
يوسف بن أحمد الشريف الحسني
أبو القاسم الكنابشي
ع. الثعالبي
محمد بن العباس
القلصادي
الحسن أبركان
أبو يعقوب السنوسي
علي التالوتي
نصر الزواوي
الشيخ محمد بن يوسف السنوسي
عمر بن زيان المديوني
أبو عبد الله الخروبي
ابن زكري
الحافظ التنسي
الكفيف
حفيد الحفيد
عبد الله الملالي
علي بن محمد السوسي
أحمد زروق
ابن ملوكة
محمد بن عيسى
محمد القلعي
ابن حرة المديوني
محمد بن يحباش
أبو القاسم الزواوي
ابن صعد
الحوضي
يحيى بن محمد أبو السادات
إبراهيم بن أحمد الفجيجي
أبو عبد الله محمد بن أبي مدين
محمد يحباش
أحمد بن جيدة المديوني
إبراهيم الوجديجي
محمد بن محمد بن العباس
عمر العطاف
محمد بن عبد الرحمن الإمام الجزائري
محمد بن يحيى أبو السادات
أحمد بن الحاج
أحمد العبادي
محمد بن يحيى بن موسى المغراوي
الزكوطي
شرح التوحيد في زمن راشد
علي بن يحيى السلكسيني
شقرون ابن أبي جمعة
أبو سماحة
العمراني
المناوي الورنيدي
محمد بن رحمة
أبو عبد الله بن عباس
البوزيدي
أحمد الغماري
محمد بن عبد الرحمن بن جلال
محمد بن عبد الرحمن التلمساني، من نسله
البطيوي
الجادري
أبو المحاسن
أحمد بن موسى الإدريسي

أما عدد التلاميذ الذين درسوا على الشيخ السنوسي، فإنه يصل إلى ستة و عشرين، منهم من آشتهر بالتدريس كأبي عبد الله محمد بن أبي مدين، و محمد بن يحيى "أبي السادات" و أحمد بن الحاج⁽¹⁾. و منهم من عرف بالإضافة إلى ذلك، بنشر التوحيد كأصحاب السنوسي و هم عمر العطاف و محمد بن يحيى أبو السادات و محمد بن يحيى بن موسى المغراوي. و من أراد التفصيل في حياة هؤلاء الأعلام، نحيله إلى كتب السير و التراجم.

وهكذا، تبقى المصادر العربية الأولى التي حملت إلينا أخبار السنوسي، المشرب المتميز الذي نهلت منه، أمهات التراجم و السير مادتها و مركز آهتماماتها، لأنها قريبة العهد بالرجل و تتضمن في شأنه، المعطيات الأساسية. و إذا كان للمترجمين العرب فضل، فإنه لا يتعدى مستوى الحفاظ على هذه الأخبار جملة أو تفصيلا⁽²⁾. مع العلم أن بعض شراح السنوسي، وسّعوا دائرة آهتماماتهم إلى التنويه بمذهبه الأشعري⁽³⁾. و على أساسه -أو بسببه- راح بعض المعلّقين يقوّمون أعماله في بعض المسائل العقائدية.

الجزء الثاني: السنوسي، مؤلفـاته و تأثيره

أولا: مؤلفـات الشيخ السنوسي

القائمة الأولى
القائمة الثانية
القائمة الثالثة
القائمة الرابعة
القائمة الخامسة
القائمة السادسة
القائمة السابعة
القائمة الثامنة
القائمة التاسعة
القائمة العاشرة
القائمة الحادية عشر
القائمة الثانية عشر
القائمة الثالثة عشر

ثانيا: تأثير الشيخ السنوسي

القائمة الأولى
القائمة الثانية
القائمة الثالثة
القائمة الرابعة
القائمة الخامسة
القائمة السادسة
القائمة السابعة

في إطار آهتمامات المؤلفين العرب بالشيخ السنوسي، نقف معهم عند عنوانين كبيرين: مؤلفات السنوسي، و تأثيره.

أولا: مؤلفات الشيخ السنوسي

ذكر المترجمون العرب للشيخ السنوسي، و خاصة منهم الأقدمين، مؤلفاته من غير تصنيف و لا ترتيب. و لقد آجتهدنا في تنظيمها، و ردها إلى فنونها حسب محتوياتها أحيانا، و حسب ما يدل عليه العنوان، أحيانا أخرى. (1) و يقارب عددها الستين تأليفا. منها ما هو كبير الحجم، و منها ما لا يتعدى الورقة الواحدة أو أقل منها. و إذا عرفنا أن الورقة تتضمن صفحتين، الوجه و الظهر، و أن كلمات الصفحة الواحدة المكتوبة في المطبعة اليوم، تصل إجمالا إلى مائتي كلمة، استنتجنا عدد كلمات الورقة. و إذا عرفنا أن الكراس الواحد المتوسط الشكل، يتضمن حوالي خمس و عشرين صفحة، كما درج على ذلك بعض الناسخين، قدّرنا عدد صفحات أو كلمات التأليف الإجمالية المحسوب بعدد الكراريس. (2)

و سنعرض الآن، ما تناقله العرب من مؤلفات الشيخ، في القوائم التالية:

القائمة الأولى: في علم المنطق، و هي ستة مؤلفات:

1- شرح ايساغوجي.

2- شرح جمل الخُونْجي.

3- مختصر ابن عرفة، مع هذه الملاحظة، و هي أن المؤلف كان يضطر إلى الخلوة، للاجتهاد في حل صعوبته.

4- مختصر في علم المنطق، فيه زوائد عن الخُونْجي.

5- شرح المختصر في علم المنطق.

---

(1) و هنا اكتفينا بقراءة عناوين، لكتب لم تصلنا بعد.

(2) بالإمكان القيام بحساب حجم الكراس إذا أخذنا كمقياس، تآليف السنوسي المطبوعة. إن كتاب شرح العقيدة الوسطى الذي نشرتّه مطبعة التقدم التونسية، أخرجته في 330 صفحة، و يؤكد المترجمون للشيخ أن المخطوط ألفه صاحبه في 13 كراسا.

6ـ شرح تأليف البرهان البقاعي (1): يقولون عنه إنه مؤلّف كثير العلم.

القائمة الثانية: في علم التوحيد، و هي تسعة عشر مؤلفا:

1ـ "عقيدة أهل التوحيد و التسديد المخرجة من ظلمات الجهل و ربقة التقليد، المرغمة أنف كل مبتدع عنيد"، و هو تصنيف آشتهر بالعقيدة الكبرى، و يعتبر أول ما كتب الشيخ في فن علم التوحيد. و هو في عشر أوراق.

2ـ "عمدة أهل التوفيق و التسديد، في عقيدة أهل التوحيد"، و هي شرح مفصل للعقيدة الكبرى، يُرجع إليه المؤلف كلّ من أراد التحقيق و التفصيل. (2)

3ـ العقيدة الوسطى، و هي "أخصب من الأولى [أي الكبرى] وأقرب... و فيها من التنبيه على جزئيات من العقائد، ما لا يوجد في كثير من المطولات، فضلا عن المختصرات". (3)

4ـ شرح العقيدة الوسطى، و هو "شرح مختصر... يسهل ما عسى أن يتوعّص من عرائس معانيها على خاطبها و مكابدها". (4) في ثلاثة عشر كراسا. (5) و لقد آنتهى من تأليفه هذا، حسب بعض الروايات، يوم عرفة سنة 875هـ/ 1470م. (6)

5ـ العقيدة الصغرى المشهورة بالسنوسية أو أم البراهين، و هي "أحسن المؤلفات في التوحيد، و أخلصها من الحشو و التعقيد" (7)، و هي مختصر مفيد يحتوي على جميع عقائد التوحيد. (8)

---

(1) هو برهان الدين البقاعي، ولد بخربة روحا (البقاع) في 1406م. من مؤلفاته، الأقوال القويمة في حكم النقل من الكتب القديمة.

(2) يتولّى الأستاذ الربيع ميمون دراسة و تحقيق هذا الشرح المفصل للعقيدة الكبرى.

(3) السنوسي، شرح العقيدة الوسطى، ص: 06.

(4) السنوسي، شرح العقيدة الوسطى، ص: 06.

(5) و هي التي نشرتْها مطبعة التقدم التونسية في 330 صفحة. أتولّى دراستها و تحقيقها في إطار أشغال وحدة البحث التي يشرف عليها الأستاذ الربيع ميمون.

(6) و قد بحثت عبثا، عن هذا التاريخ، في شرح العقيدة الوسطى، و هو الكتاب الذي يزعم لوسياني أن السنوسي قد حدد فيه زمن الفراغ منه.

M. SENOUSSI, Les Prolégomènes théologiques, texte arabe et traduction de J.D.LUCIANI, préface et notes, Alger, 1896, voir préface.

(7) إبراهيم البيجوري، حاشية على متن السنوسية، ط. 1، 1352هـ، ص: 02.

(8) سركيس، معجم المطبوعات العربية و المعربة، الجزء الثامن، ص: 108، و تولى الأستاذ محمد فتحي مرا بودية، ترجمة العقيدة الصغرى إلى اللغة الإسبانية، و هي في طريق النشر.

6- شرح العقيدة الصغرى، في ستة كراريس. (1)

7- صغرى الصغرى و هي تأليف يختصر فيه المصنف عقيدته الصغرى في منهجية خاصة. و قد خصصها أحمد بن الحاج بقصيدة لطيفة. (2)

8- شرح صغرى الصغرى و هو شرح ينطوي على أفكار جديدة، لم أجدها في غيره من مؤلفات المصنف، في أربعة كراريس.

9- المقدمات "المبيّنة لعقيدته الصغرى"، و لقد ألفها السنوسي عندما وصل إنتاجه الكلامي إلى صورته النهائية.

10- شرح المقدمات في خمسة كراريس. (3)

11- عقيدة في دلائل قطْعية في الرد على المُثْبتين لتأثير الأسباب العادية، كتبها لبعض الصالحين.

12- عقيدة خامسة وضعها المصنف للنساء والأطفال (4).

13- عقيدة سادسة، و هي مجهولة عند الكثير من الناس، وضعها السنوسي خصيصا، للنساء و الأطفال. (5)

14- شرح أسماء الله الحسنى حيث يفسر المؤلف الاسم و يذكر حظ العبد منه، و هو في عشرين ورقة.

15- شرح نظم الحوضي في العقائد. (6)

---

(1) يتولّى دراسته و تحقيقه الأستاذ أحمد بن ديمراد، و هو في طريق النشر، 1997.

(2) و مطلع القصيدة هو: و بعْدُ، فأعلم أنني أريد . . نظم عقيدة، بها التوحيد. أنظره للتفصيل، ابن مريم، البستان، ص: 18.

(3) و ليس هو الشرح الأصغر للصغرى، كما ذهب إلى ذلك، الأستاذ سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص: 89.

(4) و يغلب الظن أن الذين تناقلوا عنوان هذه العقيدة من الباحثين المتأخرين عندنا في الجزائر، أمثال عبد الرحمن الجيلالي، و الحفناوي ...، يكونون قد قرؤوه في مقالات شيربونو نقلا عن الملالي.

(5) يقول الحفناوي، إن محمد بن أحمد ساسي البوني المتوفي في 1116هـ، قد نظم عقيدة السنوسي السادسة و شرحها صاحبه عبد الرحمن الجامعي. (تعريف الخلف، ج. 2، ص: 377).

(6) شرَح السنوسي هذا النظم، واعتذر عن شرحه لرجز ابن زكري و هو "محصل المقاصد به تعبر العقائد". يقول ابن عسكر عن هذا الرجز بأنه عمل لا نظير له. و سبب اعتذاره، هو أنه لا أحد يقدر على شرحه سوى الناظم نفسه. (انظر، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2. ص: 99). و لكن، ألا يعدُّ أيضا، الصراعُ الفكري بين الرجلين، سببا آخر؟

16ـ شرح على قصيدة أبي العباس أحمد الجزائري (1)، و فيه دقة نظر و إمعان فكر. (2) و هو يقع في 241 ورقة.

17ـ شرح جواهر العلوم للعضد، على طريقة الحكماء، قيل إنه عجيب إلا أنه متعسر على الفهم.

18ـ شرح المرشدة للمهدي بن تومرت.

19ـ الحقائق في تعريفات مصطلحات علماء الكلام.

القائمة الثالثة: علم التفسير، و له فيه أربعة عناوين:

1ـ مختصر حاشية التفتازاني على الكشاف.

2ـ تفسير القرآن إلى قوله " أولئك هم المفلحون "، في ثلاثة كراريس، مع هذه الملاحظة و هي أن المصنف أراد التفرغ لتفسير المصحف الكريم، فما تمكن.

3ـ تفسير سورة الفاتحة في صفحة واحدة.

4ـ تفسير سورة " ص " و ما بعدها من السور.

القائمة الرابعة: في الفقه و الفرائض، تحتوي هذه القائمة على ستة تآليف:

1ـ " المقرب المستوفي في شرح فرائض الحوفي "، و لقد ألفه الإمام السنوسي و هو ابن تسع عشرة سنة. (3)

2ـ شرح الشاطبية الكبرى، و هو شرح لم يكمل.

---

(1) هو أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي، المتوفى سنة 884هـ/ 1479م، صاحب اللامية المشهورة في العقائد، مطلعها:

الحمد لله، و هو الواحد الأزلي .·. سبحانه جلّ عن شبه و عن مثل.

انظر، الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 1. ، ص: 39. تحتفظ المكتبة الوطنية بالجزائر، بمخطوط من اللامية التي تحتوي على أكثر من 350 بيتا، تحت رقم: 1440.

(2) و قد نظمها الجزائري و هو في ريحان الشباب، وبعثها إلى السنوسي بتلمسان ليتولى شرحها، فشرحها و حبّبها أكثر للشيوخ و تلامذتهم رغم سهولة المنظومة و قربها من عقول الناس. و أضحى السنوسي في أعين علماء عصره، شـّراحا يحتذى به.

انظر، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2. ص: 98.

(3) و ليس هذا تأليفا في العقائد كما جاء في تاريخ الجزائر الثقافي لسعد الله، ج. 1. ص: 87.

3ـ شرح الوغليسية، و هو شرح لم يكمل.

4ـ نظم في الفرائض.

5ـ شرح التسبيح دبر الصلوات، يتناول فيه، المؤلفُ الحكمة منه.

6ـ تعليق على فرعي ابن الحاجب.

القائمة الخامسة: في الذكر و التصوف، نقرأ ستة عناوين:

1ـ شرح الأبيات المنسوبة إلى الإمام الألبيري.

2ـ شرح أبيات لبعض العارفين، أوّلها: "تطهّرْ بماء الغيب إن كنْتَ ذا سرٍ".

3ـ اختصار "رعاية" المحاسبي.

4ـ مختصر الروض الأنف للسّهيلي، و هو تأليف لم يكمل.

5ـ مختصر بغية السالك في أشرف المسالك، للساحلي.

6ـ نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير. (1)

القائمة السادسة: في قواعد اللغة، سجل المترجمون تأليفا واحدا و هو،

ـ "الدرّ المنظوم" في شرح الجرومية.

القائمة السابعة: في علم الإسطرلاب و الطب و الرياضيات: نسجل خمسة تآليف:

1ـ "عمدة ذوي الألباب و نزهة الحساب في شرح بغية الطلاب في علم الإسطرلاب"، و هو شرح لقصيدة الحبّاك، قيل إنه عمل جليل. (2)

2ـ رجز ابن سينا في الطب، و هو شرح لم يكمل.

3ـ تفسير حديث "المعدة بيت الداء و الحمية رأس الدواء، وأصل كل داء البردة".

4ـ "مجربات" في التدبير و التطبيب، و هو "كتاب نفيس".

5ـ شرح مقدمة الجبر و المقابلة لابن الياسمين.

القائمة الثامنة: في علوم القرآن، لم يسجل المترجمون سوى عنوان واحد، و هو

ـ مختصر في القراءات السبع.

---

(1) وهي رسالة يرد فيها السنوسي على اعتراض أبي الحسن الصغير على أهل الطريقة. و لقد قمت بتحقيقها، و نشرتها في كتاب الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد.

(2) يتولى الأستاذ محمد بن أحمد باغلي تحقيق هذا الشرح. و هو ما يزال قيد البحث.

القائمة التاسعة: في علوم الحديث، ترك لنا السنوسي خمسة مؤلفات:

1- شرح على صحيح البخاري، لم ينته منه، وصل فيه إلى باب "من آستبرأ لدينه". و هو مصنف عجيب على قول المترجمين.

2- شرح مشكلات البخاري، في كراسين.

3- مختصر الزركشي على البخاري.

4- مختصر الأبي على مسلم في سفرين، فيه نكت حسنة.

5- مكمل كمال الإكمال للأبي.

القائمة العاشرة: في السير، لم يذكر المؤلفون العرب أي كتاب للسنوسي فيها، إلّا ابن مريم في البستان حيث يصرح أن للرجل تقيدا واحدا و هو:

- مناقب الأربعة المتأخرين، يعتمد عليه ابن مريم في ترجمته لبعض العلماء أمثال الحسن أبركان و أحمد بن الحسن الغماري و محمد بن عمر الهواري، و كذلك محمد بن قاسم بن تومرت التلمساني حيث لا يشير إلا إلى المؤلف دون إسناد إلى أخيه أو غيره.

القائمة الحادية عشر: في المراسلات، نذكر منها مراسلة واحدة: و هي،

- رسالة في قضية يهود توات. (1)

القائمة الثانية عشر: مجموع الفتاوى، و هو على ثلاث مجموعات:

1- فتوى في الوتر جالسا. (2)

2- فتوى في شأن مرتبة المدرس، هل هي للمقدم أم للمؤخر؟ (3)

3- أجوبة عن أسئلة في مسائل مشكلة. (4)

---

(1) نشرها ابن مريم في البستان، ص: 253، و أحمد الونشريسي في المعيار، الجزء الثاني، ص: 252.

(2) انظر، ابن مريم، البستان، نص الفتوى، ص: 140.

(3) لقد أُخّر عبد الله الورياجلي الفاسي في مدارس فاس سنة 876هـ، و قُدّم عوضه أبو العباس أحمد الونشريسي، فتنازعا فيمن يستحق المرتبة منهما؟ فأفتى السنوسي بما مقتضاه أن المرتبة للمقدم دون المؤخر. و لعلّ المقصود بالمدارس، جامع القرويين.

(4) مخطوط هذه الأجوبة في حوزتي.

القائمة الثالثة عشر: أوراد و وصايا و من مأثور كلامه المتناثر. (1)

هذا ما استطعنا أن نسجله من إنتاجه الفكري في واقع المؤلفات العربية، و لا شك أن هناك عناوين أخرى، ستطلعنا عليها الأيام في المستقبل.

ثانيا: تأثير الشيخ السنوسي

أثّر الشيخ السنوسي في أجيال مختلفة عبر العصور، فآرتبطت به ثُلّة من المهتمين بفكره، و خاصة منه، العقائدي و المنطقي. و آتّخذ سَنَدُهم إليه أشكالا -على ما قال المؤلفون العرب- منها، التتلمذ له، و القراءة له، و حفظ إنتاجه و العناية به، و دراسته دراسة تحقيق و تدقيق، و ملازمة مذهبه محبّة، و السعي إلى نشره، و الختم بمألوف آثاره. و لقد رفع بعضهم عقائد السنوسي الأصيلة، إلى درجة التوسل بها عتقا من النار، و إلى الإجازة بها. و لقد ترك صنف من المعجبين بالشيخ، مكتوبات يختصرون فيها بعض أعماله أو ينظمونها شعرا أو يشرحونها أو يثنون على صاحبها أو يكتفون بالتأليف على منوالها.

و في إطار تأثير السنوسي، نعرض سلسلة من الأسماء التي آهتمت به، في القوائم السبع التالية: (2)

القائمة الأولى:

يعتبر التتلمذ للشيخ السنوسي -رأسا أو بطريق غير مباشر- أو التفقه في علومه و خاصة علم التوحيد و مقتضياته، مقياسا لعلوّ قدر المتعلم و سموّ منزلة المتفقه. و من الأسماء التي زخرت بها كتب التراجم في هذا الشأن، ما يلي:

1- ابن أبي مدين محمد التلمساني حائز قصب السبق في المنقول والمعقول، خصوصا علم الكلام، إذ لولاه لتلاشى علم الكلام بل علم المعقول بأسره بمغربنا، و المقصود بعلم الكلام، مقدمة الشيخ السنوسي، و عقيدته الكبرى، و عقيدته الصغرى، و مختصره المنطقي. قال أبو عبد الله العباس: "تفقهت عليه دراية في مقدمة السنوسي

---

(1) له حديث في إسناد الرعاف إلى إرادة الله تعالى". انظر، ابن مريم، البستان، ص: 81. لقد أرسل ابن عبد الكريم المغيلي إلى السنوسي و ابن الغازي كتاب مصباح الأرواح في أصول الفلاح، فأثنيا عليه و قرضاه. هذا، بالإضافة إلى رسالة الشيخ إلى الأمير.

(2) لقد أوردنا تلامذة السنوسي في شجرته العلمية، و نقتصر هنا على بعضهم في مهامّ تولّوها.

و صغراه و كبراه و مختصره المنطقي و دولا من شرح الكبرى.(1)

2_ابن جلال محمد بن عبد الرحمن التلمساني أخذ عن جماعة من أصحاب أبي عبد الله السنوسي.وأخذ عنه الشيخ أبو المحاسن و لازمه كثيرا، و قرأ عليه التفسير و الأصول و الفقه و الكبرى و الصغرى للسنوسي .ولد سنة 908هـ و توفي في 981هـ(2)

3_ابن عبد الرحمن محمد الإمام الجزائري الذي ختم السنوسية دراية.وقد كان لعبد الرحمن الثعالبي مجلس قرب الخروبة حيث آلتقى عندها بصاحب الصغرى سيدي محمد بن يوسف السنوسي و أخيه سيدي علي التالوتي .(3)

4_ابن عبد الرحمن محمد [الحافظ]، يحمل من المتون حفظا، نحو الخمسين متنا منها السنوسية في التوحيد . توفي سنة 1270هـ.(4)

5_ابن المبارك أحمد بالمغرب، درّس مختصر السنوسي في المنطق، و قرأ عليه عبد الرزاق بن حمدوش .(5)

6_ابن موسى محمد تلميذ السنوسي أخذ عنه أحمد بن محمد الوهراني المعروف بآبن حرة المديوني الوهراني، مقدمة الإمام الصغرى.(6)

7_ابن يحيى أمحمد أبو السادات مقرئ الجان.تتلمذ على الشيخ السنوسي بتلمسان، و هو الذي أذن له في الذهاب إلى الراشدية أي قلعة بني راشد ، لنشر علم التوحيد الذي تخصص فيه و ألف عقائده الثلاثة، الكبرى و الوسطى و الصغرى. فآمتثل و آستقرّ بها و أسّس معهدا علميا لا تزال آثاره الباقية، و ما حُبّس عليه من الأملاك و الأموال، باقية إلى اليوم، و خلف ذرية كثيرة بالجزائر و المغرب الأقصى.(7)

---

(1) ابن مريم، البستان، ص: 259 .

(2) أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف، الجزء الثاني، ص: 258 .

(3) أبو القاسم الحفناوي، المصدر السابق، ص: 393_396 .

(4) أبو القاسم الحفناوي، المصدر السابق، ص: 240 .

(5) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.2.، ص: 161 .

(6) أبو القاسم الحفناوي، المصدر السابق، ج.1.، ص: 329 .

(7) المزاري آغا بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و إسبانيا و فرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق و دراسة يحيى بوعزيز، ج.1، ص: 89، نقلا عن تعليق بدليل الحيران .

8ـ ابن يحيى محمد بن موسى المغراوي التلمساني أخذ مباشرة عن أبي عبد الله السنوسي و هو أحد الثلاثة الذين أوصلوا التوحيد إلى بني راشد. (1)

9ـ أبو عبد الله بن العباس، تفقه على محمد بن أبي مدين التلمساني، دراية في مقدمة السنوسي و صغراه و كبراه و مختصره في علم المنطق و دولا من شرح الكبرى (2)

10ـ أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد القادر، أخذ عنه ابن زاكور في التوحيد، كبرى (3) و صغرى السنوسي، و في علم المنطق مختصر السنوسي. (4)

11ـ أبو المحاسن تلميذ محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني، أخذ عنه التفسير و الأصول و الفقه و الكبرى و الصغرى للسنوسي، و لازم أستاذه كثيرا. (5)

12ـ البطيوني محمد بن محمد بن عيسى التلمساني، كان يحضر مجلس الشيخ محمد بن يحيى أبي السادات في التوحيد، في عقيدة السنوسي الصغرى، و قيل آعتمد البطيوي في تأليفه "مطلب الفوز" على كتب السنوسي و يسميه "حجة الإسلام"، والغزالي هو "شيخ الإسلام". (6)

13ـ بغيغ محمد كان يدرّس كبرى و صغرى السنوسي في العقائد و يسميهما مقدمات. توفي سنة 1002هـ. (7)

14ـ البوزيدي محمد بن عبد الله المناوي، أخذ في التوحيد عقائد السنوسي عن محمد بن يحيى المديوني و علي بن يحيى السلكسيني، قيل إنه كان صاحب (8) دعوة كبيرة في علم الكلام. و من مأثور كلامه أن "المقلّد غيرُ مؤمن، و أن العامة مختلف في إيمانها"، و هو في هذا على مذهب الشيخ السنوسي.

---

(1) و بنو راشد في ناحية "غريس" بولاية معسكر.

(2) ابن مريم، البستان، ص: 259.

(3) يقصد شرح الكبرى، لأنّ المؤلف ابن زاكور، يذكر متن العقيدة الكبرى، و يشفعه بالعنوان و هو "عمدة أهل التوفيق".

(4) محمد بن زاكور، نشر أزاهر البستان، فيمن أجازني بالجزائر و تطوان، المط. الملكية، الرباط، 1387هـ/ 1967م، ص: 81ـ83.

(5) أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف، الجزء الثاني، ص: 258.

(6) أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ج. 2، ص: 129.

(7) أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف، ص: 339؟

(8) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2، ص: 97.

15ـ الترجمان محمد الذي كان يدرّس و يكتب في التوحيد السنوسي. (1)

16ـ الجرار الذرعي محمد بن مهدي، اشتهر بتدريس شرح العقيدة الصغرى، أخذه عنه عبد الواحد الشريف. توفّي سنة 979هـ. (2)

17ـ حرة (ابن ـ) أحمد بن محمد الوهراني المديوني، أخذ عن الإمام السنوسي "مقدمته الصغرى"، و أيضا عن الشيخ محمد بن موسى تلميذ السنوسي. توفي سنة 951هـ. (3)

18ـ الخروبي محمد بن علي أخذ عن الشيخ السنوسي و غيره ما يرقّي به الذكر و التصوف. (4)

19ـ الدلسي أحمد بن عمر، كان يقرأ على تلميذ الحفناوي، و هو محمد الكسلاوي، الجزائري، كبرى الشيخ السنوسي بالشيخ اليوسي. (5)

20ـ الرماصي محمد بن عبد الله بن مؤمن، أخذ عنه محمد عليّ الشريف الجعدي عقيدة السنوسي الصغرى بشرح مؤلفها بطريقة البحث و التدقيق. كان قطبا و عالما في التوحيد.

21ـ زاكور محمد (بن ـ) أخذ عن أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد القادر شرح كبرى السنوسي، و عقيدته الصغرى، و مختصره في علم المنطق. (6)

22ـ الزكوطي أحمد بن عيسى الورنيدي، ويعرف بأبركان من جبل بني ورنيد كان يقرئ عقائد الشيخ السنوسي. توفي سنة 930هـ. (7)

23ـ السجلماسي أبو الحسن علي بن عبد الواحد الانصاري، أخذ عنه عمر بن محمد المانقلاتي الجزائري مختصر الشيخ السنوسي في المنطق. (8).

24ـ سعيد (ابن ـ) سيدي محمد بن محمد، كان يحفّظ عقائد السنوسي، و يقرأ الصغرى كل يوم.

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2. ص: 102.

(2) أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف، ص: 339 ؟

(3) أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 1. ص: 329.

(4) انظر، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 1. ص: 505.

(5) أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 1. ص: 318.

(6) محمد بن زاكور، نشر أزاهر البستان، ص: 81ـ83.

(7) ابن مريم، البستان، ص: 24. 26. الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 1. ص: 321.

(8) الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 2. ص: 124.

25ـ السلكسيني علي بن يحيى أخذ عنه عقائد السنوسي في التوحيد، محمد بن عبد الله المناوي البوزيدي. (1)

26ـ الشاوي يحيى، أقرأ بمصر، عقائد السنوسي و شروحها. توفي سنة 1074هـ (2)

27ـ الشريف الإدريسي أحمد بن موسى تلميذ أحمد بن الحاج، اشتهر بإقراء العقائد السنوسية. توفي بعد سنة 950هـ. (3)

28ـ الشريف الجعدي محمد عليّ قرأ على القطب سيدي محمد بن عبد الله بن مؤمن الرماصي أم البراهين بشرح صاحبها قراءة بحث و تحقيق.

29ـ الشريف عبد الواحد قرأ شرح الصغرى على شيخه محمد بن مهدي الذرعي الجرار.

30ـ الشريف محمد بن عياد الكبير الراشدي العمراني، أخذ التوحيد عن سيدي شقرون، و كان كثير العناية بقراءة عقائد السنوسي.

31ـ شقرون (سيدي ـ) درس عليه محمد بن عياد الشريف الكبير توحيد السنوسي.

32ـ الشنقيطي محمد بن المختار بن الأعمش العلوي، اشتهر بشرحه لنظم "إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة" لأحمد بن محمد المقري صاحب نفح الطيب. وقد اعتمد في شرحه هذا، على عقائد الشيخ السنوسي. (4)

33ـ العطاف عمر تلميذ الشيخ السنوسي، استطاع في مهمته مع رفيقيه محمد بن يحيى بن موسى المغراوي و محمد بن يحيى المديوني، نشرّ عقائد التوحيد في منطقة بني راشد.

34ـ العمالي سيدي محمد كان عاكفاً على تدريس العقائد السنوسية. وتوفي سنة 1326هـ. (5)

35ـ القبلي محمد بن زائد الجادري التلمساني، كان يختم عقيدة السنوسي الصغرى و يعاودها كل سنة مرتين أو ثلاثا إلى أن توفّي في المدينة المنوّرة، و دفن

---

(1) ابن مريم، البستان، ص: 145.
(2) انظر ترجمة يحيى الشاوي في تاريخ الجزائر الثقافي لسعد الله، ج. 2. ص: 108.
(3) ابن مريم، البستان، ص: 104ـ105، الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 1. ص: 353.
(4) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2. ص: 104.
(5) الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 2. ص: 403.

بالبقيع.و لقد أخذ علم التوحيد و العقائد السنوسية عن محمد بن يحيى المديوني أبي السادات.توفي سنة 982هـ.(1)

36ـ قدورة سعيد، درس عقيدة التوحيد متنا و شرحا.(2)

37ـ الكسلاوي محمد الجزائري تلميذ الحفناوي، قرأ عليه أحمد بن عمر الدلسي كبرى الشيخ السنوسي بالشيخ اليوسي.(3)

38ـ المانقلاتي عمر بن محمد الجزائري، كان يدرس و يقرأ على مشايخه، وخاصة منهم أبا الحسن عليّ بن عبد الواحد السجلماسي الأنصاري.أخذ عنه مختصر السنوسي في المنطق.(4)

39ـ المديوني يحيى بن محمد أبو السادات تلميذ السنوسي، عاش في كنف الفكر العقائدي.فلازم قبر شيخه منذ وفاته حتى باع كل ما يملك و لم يبق عنده ما يسدّ به رمقه.و كان يحبّه إلى درجة أن المترجمين له من العرب سجلوا عنده رؤيته لشيخه في منامه.(5)

40ـ المطغري بن رحمة الجادري محمد بن عبد الله، أخذ عن عليّ بن يحيى السلكسيني عقائد السنوسي.

41ـ المقري سعيد بن أحمد بن بلعيش، كان مشاركا في كل فن، و غالبه التوحيد حيث كان علّامة فيه و في الفقه. كان حيا، سنة 1011هـ.(6)

42ـ المناوي محمد بن عبد الله الورنيدي، أخذ عن محمد بن يحيى المديوني و عليّ بن يحيى السلكسيني التوحيد و عقائد السنوسي.

43ـ المنصوري محمد بن الناصر، كتب في آخر أم البراهين ما يلي: "تمّ عام

---

(1) ابن مريم، البستان، ص: 281.
(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.2.ص: 101.
(3) أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف، ج.1.ص: 318.
(4) أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف، ج.2.ص: 124.
(5) ابن مريم، البستان، ص: 306، وأكد المترجم أنه أحد تلامذة السنوسي.
(6) ابن مريم، البستان، ص: 104ـ105، انظر، أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف، ج.1. ص: 353.

1113، و ولد الفقير محمد بن الناصر عام 1073، و بعْدُ ولد آبننا أحمد عام 1105، و محمد عام 1107، و محمد عام 1110. (1)

44ـ المنوّر محمد، يقول عنه أبو راس عن شيخه المشرفي، أنه لا نظير له في تحقيق الكبرى. فلو نقدنا "الكبرى" أو "السعد" أو "المحلّي" لأحياها من حفظه و فهمه و لُبّه بحيث لم تجد له في عصره مماثلا، و لا قطره و لا غير قطره معادلا. (2)

45ـ الوجديجي التجيني محمد بن موسى فقيه تلمسان و عالمها و مفتيها، أدرك طبقة السنوسي. كان ما يزال حيا سنة 930هـ. (3)

46ـ الوجديجي محمد الصغير، حافظ عقائد السنوسي، أخذ التوحيد عن سعيد المقّري. توفّي سنة 981هـ.

47ـ الورززي أحمد العالم المغربي، له دراية في علم المنطق للسنوسي، وأجاز فيه عبد الرزّاق بن حمادوش عند زيارته للجزائر، سنة 1159هـ. (4)

القائمة الثانية:

و من شدة تعلق المتعلمين بعلم التوحيد و حبّ الشيوخ له، أصبح من التقاليد عند بعضهم، أن تمنح إجازة التعلم بنظم في التوحيد، أو تُتخذ عقيدة السنوسي لمن يقرؤها عِتْقاً من النار أو يُتوسّل بصاحبها نظما.

1ـ في إجازته لأحد تلامذته، يقول يحيى الشاوي في هذه الأبيات، منوّها بمنزلة علم الكلام الأصيل، انطلاقا من البيت السادس:

(6) أجزتُ المسمى البدر في الشرع كله . . كما صح لي فآتْرِكْ مراء مكدرا

(7) و علم كلام خَالِيٌ عن أكاذيب الـ . . فلاسفة الضّلال، للعدلِ نكّرا

(8) أقول لكل فلسفي بدينه . . ألا لعنةُ الرحمن تعْلو مزوّرا (5)

---

(1) أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 2. ص: 425.

(2) محمد أبو راس الجزائري، فتْح الإلـه و منّته، ص: 91، 109.

(3) ابن مريم، البستان، ص: 260.

(4) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2. ص: 161.

(5) أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 1. ص: 224.

2ـ و هذا سيدي محمد بن عبد الرحمن الأزهري يأمر تلميذه أن يفدي نفسه من النار، و كيفية القدوة أن يذكر لا إله إلا الله سبعين ألف مرة، ثم يقول: اللهم إن هذه السبعين ألف نويتُ بها فداء نفسي من النار، كما صرّح بها سيدي محمد السنوسي في شرح صغراه. (1)

3ـ و في التوسل، لا يفوت أبا عبد الله محمد بن عبد الكريم المجاوي التلمساني أن يذكر الشيخ السنوسي فيقول:

(1) بمحمد و ببنته و ببعلها . . وآبنيهما السبطين أعلام الهدى

(2) و بأهل بدْر و الصحابة كلهم . . و التابعين لهم دواما سرمدا

(3) و بعبدك النعمان ثم بمالك . . و الشافعي قطب الوجود و أحمدا

(4) و بغوثنا و بشيخه و ابن حرزهم . . و بجده عبد السلام الزاهدا

(5) و بصاحب التوحيد والعلم والتقى . . ذاك السنوسي بالمكارم قد بدا

(6) و بجاه أحمد الحبيب و شيخه . . و بسرهم يا رب خذ جملة العدا

(7) و بجاه آسمك العظيم و من به . . متخلق يا رب يا سامع الندا

(8) فرج كروب المسلمين و حزبهم . . يا خير من مدّ العصاة له اليدا. (2)

القائمة الثالثة:

و لقد أبدى المعجبون بالشيخ السنوسي تقديرهم لأعماله، تارة بآختصار بعضها أو نظمه أو شرحه، و تارة أخرى، بالتأليف على منواله و الثناء عليه.

فـفيما يتعلق **بآختصار** بعض أعماله، يمكن أن نذكر الأسماء التالية:

1ـ سيدي سليمان بن أبي سماحة، اختصر العقيدة الصغرى للنساء و العوام، و قد شرح هذا المختصر ابن مريم المديوني صاحب البستان. (3)

2ـ ابن عمرو محمد التلمساني، اختصر شرح العقيدة الصغرى.

---

(1) و محمد الأزهري هذا، هو الغوث الأكبر و المربي الأشهر جامع الناس على كلمتي الشهادة، ولد بين سنتي 1126 و 1133هـ، و توفي سنة 1208هـ/ 1793م. انظر، الحفناوي، تعريف الخلف، جـ 2، ص: 299ـ313.

(2) الحفناوي، تعريف الخلف، جـ2، ص: 296.

(3) ابن مريم، البستان، ص: 314.

و فيما يتعلــق بــنــظم التوحيد، نسجل الأسماء التالية:

1ـ أحمد بن الحاج، له نظمان في علم التوحيد السنوسي، نظم صغرى الصغرى (1) و نظم العقيدة الصغرى و سماه ب "الفريدة الغراء". (2)

2ـ محمد بن أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البونـي المتوفى سنة 1116هـ. له:

أـ نظم عقيدة السنوسي السادسة، و هي مجهولة عند كثير من الناس، و شـرحـه صاحبه العلامة سيدي عبد الرحمن الجامعي. قيل إن الشيخ السنوسي وضعها للنسوان و الصبيان.

ب ـ نظم صغرى السنوسي.

ج ـ نظم صغرى الصغرى.

د ـ نظم العقيدة الوسطى. (3)

3ـ سيدي معزوز البحري المستغانمي، له نظم لمتن السنوسية و هو في غاية البسط و البيان، و التحرير و الإتقان. توفي حـوالي 1250هـ. (4)

4ـ محمد بن عبد الرحمن [الحافظ]، له في التوحيد السنوسي منظومة و شرْحها سماه " الموجز المفيد "، بالإضافة إلى أنّ له منظومةً في العقائد و شرْحَها سماه " تحـفـة الإخوان". (5)

القائمة الرابعة:

و عن الذين شرحوا أو لهم حاشية على إنتاج السنوسي، نذكر الأسماء الآتية، على الترتيب الأبجدي:

1ـ أبو راس محمد الجزائري صاحب " كفاية المعتقد و نكاية المنتقد" على شرح الكبرى للسنوسي. (6)

---

(1) و مطلعها: و بعدُ، فاعلم أني أريد .: نظم عقيدة، بها التوحيد. (ابن مريم، البستان، ص: 18)
(2) و مطلعها: الحمد لله الذي عرفنا .: بنفسه، و بالهدى شرفنا. و القـصـيـدة، تناهز أبياتُها المائة و الأربعين بيتا، المخطوط الأصلي موجود عند أستاذنا، عبد المجيد مزيان.
(3) الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 2. ص: 377.
(4) الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 2. ص: 446.
(5) كان يحب الخمول و يكره المحمدة و الظهور. الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 2. ص: 240 252.
(6) أبو راس، فتح الإله، ص: 180.

2ـ أحزمي أحمد بن محمد، له شرح المختصر في علم المنطق للسنوسي.

3ـ الأخضري عبد الرحمن، وهو من الأوائل الذين شرحوا العقيدة الصغرى. (1)

4ـ أغادير أحمد، و هو من جبال بني راشد، اشتهر في علم التوحيد بمقدار آشتهار السنوسي و أحمد بن زكري. و هو أيضا، من الأوائل الذين شرحوا العقيدة الصغرى. (2)

5ـ أمزيان محمد، له شرح حافل على العقيدة الصغرى، سماه " المستفيد في عقيدة التوحيد" بل" كنز الفوائد في شرح صغرى العقائد". أفاد فيه و أجاد، و إنه أبان فيه التضلع بعلم الأصول و الفروع و علم الحكمة.

6ـ البحري سيدي معزوز المستغانمي، توفي حوالي 1250هـ، له شرح على متن السنوسية. و له في هذا الشرح، فوائد حسنة رائقة و تنبيهات مفيدة. (3)

7ـ بن عبد الله أحمد، له حاشية على العقيدة الكبرى.

8ـ البناني محمد بن الحسن، له حاشية على مختصر السنوسي في المنطق.

9ـ البناني أبو إسحق إبراهيم الأندلسي بن أبي الحسن عليّ البناني، شرح المقدمات. (4)

10ـ البيجوري إبراهيم صاحب الحاشية المشهورة على متن السنوسية.

11ـ التنبكتي أبو العباس أحمد بابا، شرح العقيدة الصغرى في أربعة كراريس.

12ـ الثعالبي أبو مهدي عيسى، له حاشية على أُمّ البراهين بشرحها للسنوسي، من قوله " و يجمع معاني هذه العقائد كلها، قول لا إله إلا الله..." إلى آخره، و له أيضا، حاشية على المقدمات بشرحها له، و طرف من العقيدة الكبرى. (5)

13ـ جبريل (بن ـ) عليّ بن خلف المتصوف عاش في مصر على طريقة الشاذلية، شرح العقيدة الكبرى. (6)

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2. ص: 100.
(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2. ص: 100.
(3) أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 2. ص: 447.
(4) طبع الشرح بمصر، سنة 1304هـ/ 1886ـ1887م.
(5) أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 1. ص: 95.
(6) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ط. 1. ط ابن شقرون بالفحامين، مصر، 1351هـ، ص: 212.

14ـ حمادوش (ابن ـ)، له شرح على العقيدة الكبرى سمّاه "مباحث الذكرى في شرح العقيدة الكبرى"، في تسعة عشر كراسا. (1)

15ـ حمادوش (ابن ـ) عبد الرزاق، له شرح مختصر السنوسي في المنطق بعنوان "الدرر على المختصر" في ثمانية كراريس (أو 79 ورقة). كان قد قرأ المختصر هذا، عندما كان بالمغرب، على الشيخ أحمد بن المبارك و أجازه به، كما أنه قد صححه في الجزائر على العالم المغربي أحمد الورززي عند زيارة هذا، للجزائر سنة 1159هـ، وقد أكرمه الورززي في ذلك، بشهادة تعبيرا منه عن اعتزازه ببراعة ابن حمادوش في معالجة هذا الموضوع. (2)

16ـ خدة (بن ـ) أبو محمد عبد القادر الراشدي، له حاشية أو "شرح" (3) على العقيدة الصغرى". و الكثير من الطلبة و العلماء الذين ألفوا في علم التوحيد و غيره، يعتمدون على ما في هذه الحاشية. (4)

17ـ الخرشي محمد بن عبد الله الشيخ المالكي، له شرح على المقدمات سمّاه "الفرائد السنية في شرح المقدمات السنوسية"، و كان أول من تولى مشيخة الأزهر، توفي سنة 1101هـ. (5)

18ـ الخروبي (بن ـ) سيدي محمد بن علي القلعي، له شرح محقق في العقائد السنوسية. (6)

19ـ الدسوقي محمد، له حاشية على شرح أم البراهين، عرفت انتشارا واسعا في أوساط العوام و الخواص.

20ـ الرماصي مصطفى، له حاشية على متن السنوسية حيث يذكر أنه أشبع الكلام فيما يتعلق بالبسملة و الحمدلة. (7)

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.2. ص: 103.
(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.2. ص: 161.
(3) كما يقول الأستاذ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.2. ص: 107". جاء في التعليق: إن الشرح هذا، موجود بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم: 2421 د، في حوالي ثلاثين صفحة.
(4) الحفناوي، تعريف الخلف، ج.2. ص: 432.
(5) مصطفى الغماري، عن مقدمة لتحقيق شرح أم البراهين في علم الكلام للسنوسي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص: 13 (تعليق).
(6) الحفناوي، تعريف الخلف، ج.2. ص: 397.
(7) الحفناوي، تعريف الخلف، ج.2. ص: 443. يقول سعد الله أن له حاشية على شرح الصغرى. (تاريخ الجزائر الثقافي، ج.2. ص: 101). فهل يفهم من هذا أن للرماصي كتابين: شرح على العقيدة الصغرى و شرح على شرح العقيدة الصغرى؟

21ـ الزواوي محمد الصالح بن سليمان العيسوي، المتوفّى سنة 1251هـ، له شرح على أمّ البراهين سماه " تكملة الفوائد في تحرير العقائد ". (1)

22ـ السرقسطي أبو إسحق، له شرح على شرح الوسطى، سماه " النبأ المعطى في شرح العقيدة الوسطى ".

23ـ السلكتاني المراكشي، له شرح على أم البراهين. و قد حشّى هذا الشرح الورثلاني. (2)

24ـ الشاوي يحيى، له حاشية على شرح أمّ البراهين في حوالي عشرين كراسا، و حاشية أخرى على العقيدة الصغرى. (3)

25ـ عليش محمد، له على كبرى السنوسي شرح مفصل و مشهور سماه " القول الوافي في السديد بخدمة شرح عقيدة أهل التوحيد ".

26ـ الغنيمي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد الأنصاري المتوفى سنة 1044هـ، له شرح على العقيدة الصغرى في تسعين كراسا، سماه " بهجة الناظرين في محاسن أم البراهين ". (4)

27ـ الفاسي عمر، له حاشية على مختصر السنوسي في علم المنطق.

28ـ قدورة أبو عثمان سعيد بن ابراهيم، له حاشية على شرح السنوسية حيث وضح الألفاظ و المعاني و قيد بعض التعاليق. (5)

29ـ القماري خليفة بن حسن، له شرح ضخم على العقيدة الصغرى. فقد قسمه إلى خمسة أقسام، و ضمّن كل قسم أجزاء. (6) و يبدو لنا أن منهجية " السنوسية " كان لها الأثر الأكبر في الإلهام و التوجيه.

---

(1) أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 2. ص: 389.

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2. ص: 101ـ102.

(3) أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 1. ص: 225.

(4) عن مصطفى الغماري، مقدمة لتحقيق شرح أم البراهين، ص: 11.

(5) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2. ص: 101. و توجد هذه الحاشية في الخزانة العامة بالرباط، رقم 4469، و في المكتبة الوطنية بتونس، (ح ح. عبد الوهاب)، رقم: 18713. انظر أيضا، الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 1. ص: 71.

(6) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2. ص: 102.

30ـ المقري أحمد بن محمد صاحب نفح الطيب، له حاشية على شرح العقيدة الصغرى. (1) و له نظم مشهور يبلغ حوالي خمسمائة بيت، في أصول الدين و قضايا التوحيد، سماه "إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة"، اعتمد محمد بن الأعمش الشنقيطي في شرحه له، على عقائد السنوسي. (2)

31ـ الملالي محمد بن عمر أبو عبد الله (3) تلميذ و مترجم الشيخ السنوسي، هو من أوائل من شرح العقيدة الصغرى، و حقق ذلك في ست و عشرين ورقة. (4)

32ـ الميسوم الشيخ، له شرح على عقيدة السنوسي. (5)

33ـ الوارثلاني محمد، كان مولعا بعلم التوحيد، قام بشرح و تحشية عمل الشيخ السنوسي، هذا الذي يسمونه ب "شيخ الموحدين". له أيضا، حاشية على شرح السلكتاني على صغرى السنوسي. (6)

34ـ الوزان عمر بن محمد الكماد الأنصاري القسنطيني، له حاشية على شرح أم البراهين، و توفي سنة 960هـ. (7)

35ـ الونيسي محمد القسنطيني، له حاشية على العقيدة الصغرى. (8)

36ـ يعقوب (ابن ـ)، له شرح على مختصر السنوسي في المنطق، سماه "لوامع النظر في تحقيق معاني المختصر". (9)

37ـ اليوسي أبو الحسن له حاشية على الكبرى و أخرى على الصغرى.

38ـ اليوسي الحسن بن مسعود أبو علي المراكشي، له شرح على المختصر في المنطق، سماه "نفائس الدرر في حواشي المختصر". (10)

---

(1) الحفناوي، ج. 1. ص: 52.
(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2. ص: 104.
(3) ابن مريم، البستان، ص: 71، 239. و هو في روايات أخرى، محمد بن إبراهيم أبو عمر، المتوفى سنة 897هـ/ 1492.
(4) توجد نسخة في الخزانة الملكية بالرباط، رقم: 9073.
(5) يذكر "موتيلانسكي" تاريخ وفاة الميسوم و هو 1883، و لم يشر الى أية عقيدة شرحها. (MOTYLINSKY, p. 50.)
(6) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2. ص: 101ـ102.
(7) الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 1. ص: 88ـ89.
(8) الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 2. ص: 342.
(9) Catalogue général des manuscrits de France, édition Fagnon, Alger, p.377.
(10) Catalogue général des manuscrits..., p.377.

القائمة الخامسة:

و فضل بعضهم أن يكتب في التوحيد على منوال الشيخ السنوسي، فمنهم الناظمون و منهم الناثرون :

1ـ ابن عاشر الاندلسي، (1) الإمام عبد الواحد أبو محمد، اشتهر بوضع أرجوزة في العقائد و الاصول، نذكر بعض أبياتها متفرقة مع تحديد مكانها في القصيدة بالرقم:

1ـ يقول عبد الواحد بن عاشر	مبتدئا بآسم الإله القادر.
4ـ و بعْدُ، فالعون من الله المجيد	في نظم أبياتٍ للأمي تفيد
5ـ في عَقْد الاشعري و فقه مالكِ	و في طريقة الجُنَيْد السالكِ
6ـ و حكمنا العقلي قضية بلا	وقْفٍ على عادة أو وضعٍ جلا
7ـ أقسامُ مقتضاه بالحصر تُماز	و هْي الوجوب الإستحالة الجواز
8ـ فواجب لا يقبل النفي بحال	و ما أبى الثبوتَ عقلا المحالْ
9ـ و جائزا ما قَبِل الأمريْن سِمْ	للضروري و النظري كلٌّ قُسِمْ
10ـ أول واجب على من كُلِّفا	ممكّنا من نظر أن يعرفا
11ـ اللهَ و الرسل بالصفاتِ	مما عليه نَصَبَه الآياتِ
12ـ و كلّ تكليف بشرط العقلِ	مع البلوغ بِدَمٍ أو حمْلِ
14ـ يجب لله الوجودُ و القدمْ	كذا البقاء و الغنى المطلقُ عَمْ
15ـ و خَلْفُه لخلْقه بلا مثالْ	و وحدة الذات و وَصْفٍ و الفعالْ
16ـ و قدرةٌ إرادةٌ علمٌ حياتْ	سمْعٌ كلامٌ بصرٌ ذي واجباتْ
17ـ و يستحيل ضدُّ هذه الصفاتْ	العدمُ الحدوثُ ذا للحادثاتْ
31ـ يجب للرسل الكرام الصِّدقُ	أمانةٌ تبليغُهم يحقُّ
38ـ و قول لا إله إلا اللهُ	محمد أرسله الإلهُ
39ـ يجمع كلّ هذه المعاني	كانت لذا علامةَ الإيمانِ
40ـ و هْي أفضل وجوه الذّكْرِ	فآشغلْ بها العُمْرَ تفزْ بالذُّخْرِ (2)

(1) هو أبو محمد الفاسي، المتوفى سنة 1040هـ/ 1630م.

(2) عبد الواحد بن عاشر الاندلسي، المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، مكتبة مصطفى فندي فهمي الكتبي، شارع الازهر. بدون تاريخ.

2- أبو عبد الله محمد بن عبد المؤمن الحسن الجزائري الذي يرجز في العقائد الأشعرية على الطريقة السنوسية، فيقول في أبيات نذكرها متفرقة مع تحديد موقعها من القصيدة بالرقم:

1- يقول راجي رحمة المهيمن محمد نجل أبي عبد المؤمن
2- الحمد لله و صلى ربي على النبي و آله و الصحب
3- و بعد، فالقصد بهذا الرجز جمع المهم بكلام موجز
4- من واجب لله و الرسول و من فروع لذوي التحصيل
5- الله موجود قديم باق مخالف للخلق بالإطلاق
6- و قائم بنفسه و أحدُ ذاتا و فعلا، صفة يعتقد
11- ثم الذي على الإله يستحيل العدم، الفناء، الحدوث، المثيل
28- للرسل أوجب صدقا الأمانة تبليغا أيضا، و أحل ز، خيانة
35- و يجمع القول الذي سقناه قولك لا إله إلا الله
37- هذا تمام القول في العقائد و هاك في الفروع ذي الفرائد ...(1)

3- الحاج محمد بن يلّس الذي يقول في نظم عقائدي بالاشتراك مع الشيخ البوزيدي في مستغانم و الشيخ سيدي أحمد بن عليوة، هذه الأبيات التي نعرضها متفرقة مع الإشارة إلى موقعها من القصيدة بالرقم:

1- حمدٌ لرب الأنام و الصلاة و السلام
2- على مصباح الظلام الرؤوف الرحيم
3- مصباح لكل موجود و نور عمّ الوجود
4- إجمالا و تعدّدا فخصص أو عمم
5- وجود المولى الجليل عمّ العالم الحفيل
6- و العدم مستحيل فنزّه الدائم
7- نزّهه عن التنزيه وانفِ جميع التشبيه

---

(1) محمد بن زاكور، نشر أزاهر البستان، فيمن أجازني بالجزائر و تطوان، المطبعة الملكية، الرباط، 1387هـ/1967م، ص: 24-27. و قد تم نسخ هذا الزجل بحضور ناظمه، يوم الجمعة 23 من جمادى الآخرة عام 1094هـ.

69ـ يجب لرسل الله الصدق و الفطانة

70ـ التبليغ و الأمانة هديهم مستقيم

71ـ الأمانة سر الله مكتومة عن خلق الله

72ـ الأمن يهديه الله للصراط المستقيم

73ـ الكذب و البلادة و الكتمان و الخيانة ...

113ـ تجمع ذا الشهادة لا اله إلا الله

114ـ محمد رسول الله في ذا السر الرحيم

115ـ تجمع ذا المعتقدات و الأسما كذا الصفات ...

117ـ احْصِ الست والستين تدخل في الدين. (1)

4ـ شعيب بن علي بن عبد الله، قاضي الجماعة بتلمسان (1266هـ/ 1849م ـ 1347هـ/ 1928م)، له " الرجز الكفيل بذكر عقائد أهل الدليل"، و له عقيدة أخرى رجزية أيضا، اقتصر فيها على ذكر العقائد الواجبة و تعريفها. و لقد ضمن الرجز الأول خمسة و خمسين بيتا، نحا فيها منحى الشيخ السنوسي في أم البراهين. (2) و قد قرظه كثير من الأجلاء أمثال الشيخ محمد عبده، و آعتنى بشرحها الشيخ عبد السلام اللجائي العمراني، و الشيخ الحاج محمد بن عبد الرحمن الديسي. (3)

ومما يقول في "الرجز الكفيل"، نسجل هذه الأبيات الخمسة الأولي:

1ـ يقول راجي رحمة الجليل عبيده شعيب الجليلي

2ـ الحمد لله القديم الباقي ثم على السيد بالأطباق

3ـ محمد وآله الأعلام صلاة ربنا مع السلام

4ـ و بعد، فالواجب شرعا أوّلاً على جميع البالغين العقلا

5ـ عرفان تا لله و الإرسال من واجب وجائز محال ...

---

(1) الحاج محمد بن يلس التلمساني ثم الدمشقي، ديوان، مطبعة ابن خلدون، نشرة أحد أولاده، و هو مصطفى، 27 رجب 1371هـ. ص: 35ـ42.

(2) الحاج محمد عبد الرحمن، الكلمات الشافية في شرح العقيدة الشعيبية الجليلة الكافية، على الرجز الكفيل بذكر عقائد أهل الدليل لشعيب بن علي بن عبد الله. المطبعة التونسية، ط. 2، 1349هـ، تقديم المؤلف.

(3) الحاج محمد بن عبد الرحمن، المصدر السابق.

5ـأبو عبد الله محمد بن مريم المديوني صاحب تأليف "كشف اللبس و التعقيد عن عقيدة أهل التوحيد" ولم ينج هو الآخر من تأثير التوحيد السنوسي". إلا أننا نجهل هل هذا التأليف هو حاشية أم شرح أم إنتاج المؤلف الشخصي. (1)

القائمة السادسة:

و نجد كلاما عن الشيخ السنوسي، خصصه كُتّاب لترجمته أو لمراسلته أو للثناء عليه أو لرثائه. من هؤلاء الكتاب نذكر الأسماء الآتية:

1ـأبو العباس أحمد بابا التنبكتي ألف مختصرا في ترجمة السنوسي في ثلاثة كراريس. (2)

2ـأحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي، له كلام منظوم يثني فيه على الشيخ السنوسي ردا للجميل، و هو أنه لما بعث الأول منظومته الجزائرية إلى الثاني طالبا منه، شرحها، أجابه هذا الشارح الأخير إلى مطلوبه و أرسل إليه الشرح، فقرضه الناظم أحمد بقوله:

1ـ شرحُ الكفاية أيُّها المتديّن ∴ تحْصيلهُ فرْض عليك معيّن

2ـ تجْلو معانيه القلوبَ من الصّدا ∴ و تُنيرُها و اللفظ سهلٌ بيّن

3ـ ما هو إلا الروْضُ يَحسُن منظرا ∴ مَنْ ذا يَرَى حُسْناً ولا يسْتحسِن

4ـ يا ناظريه وكاسبيه بِغَيْظةٍ ∴ فأعز من ثمن النفيس المُثْمنُ

5ـ يجزي مؤلفَه الإلهُ بجنة ∴ دارِ النعيم بها تَقرُّ الأعْينُ. (3)

3ـأبو عبد الله محمد بن يحباش التازي، يخص الشيخ السنوسي بشعر رقيق يُشيد فيه بفضله من خلال ثنائه على عقيدته الصغرى، و هي قصيدة بعثها إلى الشيخ بمناسبة انتهاء المراسل من شرح عقيدة الإمام الصغرى. و مما قال فيها:

فالله يحْفظه و يبّلغ قصده ∴ و يحله في أرْفعِ الدرجات

مع والده، و جملة الإخوان ∴ ولِدَاته و قربانه و حُمات. (4)

---

(1) ابن مريم، البستان، ص: 314". الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 1، ص: 178ـ179.
(2) الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 1، ص: 16.
(3) الحفناوي، تعريف الخلف، ج. 1، ص: 40.
(4) ابن عسكر، دوحة الناشر، مخ. الورقة، 31". انظر أيضا، Archives marocaines, trad. A. GRAULLE, p. 120.

في نقطتين: الأولى يبرز فيها، أن التواتر هو من البراهين القاطعة و الدلائل الساطعة التي ينفرد بها العوام، و أن أهل الدليل و البرهان عند أهل الشهود و العيان، جهلاء بالله غير عالمين بمقتضى شريعة رسول الله (ص)". وفي النقطة الثانية، يرى أن فهم السنوسي لشهادة الوحدانية و للصفات المعنوية، يصدّ الناس عن سبيل الله و رسوله". و على هذا الأساس، يبدّع الناقدُ كل خائض في علم الكلام و مسائله. (1)

2- محمد أبو راس بن أحمد بن ناصر الراشدي الناصري:

عندما سُئِل أبو راس في مصر عن مسألة "التكوين" أجاب بأن الشيخ السنوسي قد أخلّ بها غاية الإخلال في كتبه الخمسة. (2) و المقصود بالتكوين ما يعبّر عنه بـ" التعلق التنجيزي" للقدرة، كالإيجاد و العدم أو التخليق و الترزيق و الإحياء والإماتة. يرى الأشاعرة أن التكوين حادث إذ لو كان الصدور قديما، لـلزم قدم العالم و هو محال، و يكوّن الله الأشياء لأوقاتها بكلمة أزلية هي كلمة "كن". و على هذا الأساس، فالتكوين ليس صفة حقيقية، بل هو أمر آعتباري لا وجودي، في حين أنه عند أبي راس، صفة أزلية. (3)

في الخلاصة، يمكن القول بأن السنوسي ألف في معظم الفنون التي كانت شائعة في عهده"، إلا أنه نبغ في عقائد التوحيد و المنطق. و عند آستقراء شريط مصنفاته المختلفة، نلاحظ من حيث طبيعتها، أنه كان - بدرجات متفاوتة - مؤلفا لأفكاره، و مختصرا و ناظما على غيره، و شارحا لنفسه و على غيره (انظر، الشكل رقم: 23). و بلغة النسب المائوية، نسجل على الجدول التالي، حقائق مفيدة، مع العلم أننا لو ألحقنا شروحه لنفسه بشروحه على غيره، لظهر لنا السنوسي رجلا محبا للشرح، ميّالا إلى التعليق و التعقيب:

---

(1) أبو محمد الحبيب محمد بن بنعلي بن منصور، في كيفية دخول ضعفاء العوام، و مساكين الطلبة الذين لهم قليل الإلهام في دائرة أهل الإيمان"، مخطوط.
(2) و هي رباعياته العقائدية و المقدمات.
(3) محمد أبو راس، فتح الإله، ص: 136-139.

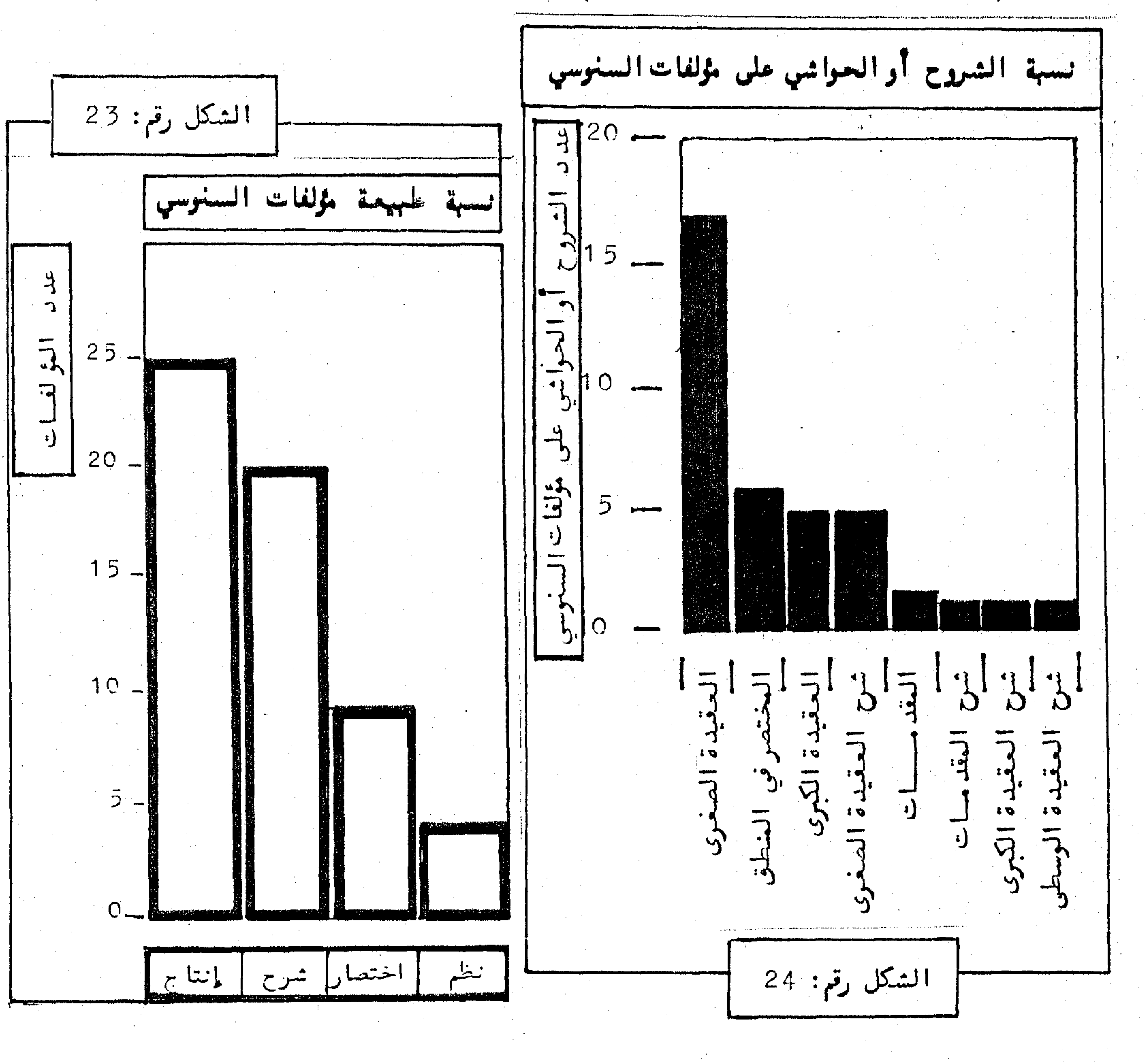
إنـــتاج أفكـــاره : . . . .   11ر44 ٪

شروح على غيره. . . . .   34ر48 ٪

اختصار على غيره: . . . . . .   15ر51 ٪

نظـم على غيره: . . . .   06ر90 ٪

و من خلال إحصاء أسماء الكتّاب الذين تناولوا أعماله بالشرح و التحشـيـة ، يتـبيّن لنا أن هناك عناوين حظيت بعناية خاصة من طرفهم،فآنتشرت و شغلت الخواص و العوام .و بالإمكـان تقدير هذا الاهتمام بلغـة النسب المائوية . (انظر،الشكل رقم:24) .



القسم الثاني : السنوسي في المؤلفات الأوروبية

الجزء الأول : السنوسي، حياته و شخصيته

الجزء الثاني: السنوسي، مؤلفاته و تفكيره

الجزء الأول : السنوسي ،حياته و شخصيته

أولا : مصادر الأوروبيين

ثانيا : نظرة الأوروبيين إلى عصر السنوسي

ثالثا : دراسات السنوسي و شيوخه

رابعا : مدرسة السنوسي ، تلامذته، أصدقاؤه

خامسا : شخصية السنوسي

1- أخلاقه

2- مكانته العلمية و الأدبية

3- موازين الحكم

4- تصوّفه

بدأ آهتمام الأوروبيين بالشيخ السنوسي في فترة متأخرة من وفاته، و خاصة، ابتداء من سنة 1848 حيث ظهرت ترجمة العقيدة الصغرى باللغة الألمانية. و تلتها أعمال أخرى نشرت باللغة الفرنسية في المجلتين: الآسيوية و الإفريقية، نذكر منها ما يأتي:

1- مقال لـ"شيربونو" نشر سنة 1854 في المجلة الآسيوية بعنوان "وثائق غير منشورة عن السنوسي، طبعه و كتاباته". (1) و أعيد نشره في المجلة الإفريقية بعنوان: "كتّاب الجزائر في القرون الوسطى، وثيقة تاريخية عن السنوسي: طبعه و كتاباته". (2)

2- و في سنة 1861، كتب "بروسلار" مقالة مطوّلة في المجلة الإفريقية بهذا العنوان: "تقييدات عربية لتلمسان - رجوع إلى سيدي السنوسي: تقييدات مسجديه"، و نشرها في جزأين. (3)

3- وظهرت الترجمة الفرنسية للعقيدة الصغرى سنة 1896، و هي ترجمة أنجزها الأستاذ "لوسياني" بعد أن حققها في لغتها الأصلية. (4)

4- و في 1897، نشر "ديلفين" في المجلة الآسيوية، مقالا بعنوان: "فلسفة الشيخ السنوسي من خلال عقيدته الصغرى". (5)

5- و لكن، لم يلبث أن ردّ عليه و على "بروسلار"، الأستاذ "لوسياني" في مقالة نقدية نشرها في المجلة الافريقية فيما بين 1897 و 1898، بعنوان "في شأن ترجمة

---

(1) Journal asiatique, vè série, t.III. A.CHERBONNEAU, Documents inédits sur es-Senouci; son caractère et ses écrits.

(2) Revue africaine, A.CHERBONNEAU, Les écrivains de l'Algérie au Moyen-Age, document historique sur es-Senouci: son caractère et ses écrits, XIVè année, 1870.

(3) Revue africaine, Vè année, n° 28 & 29, 1861, BROSSELARD, Inscriptions arabes de Tlemcen, retour à sidi Senouci: inscriptions de ses deux mosquées.

(4) LUCIANI, Petit traité de théologie musulmane (Senoussia) de SENOUSSI, texte arabe et traduction alger, 1896.

(5) Journal asiatique, IXè série, t.X. sept.-oct. 1897. G.DELPHIN, La philosophie du cheikh Senouci d'après son aqida es-So'ra.

السنوسية". (1)

6- و بعد عشر سنوات آي في 1908، يحقق الأستاذ "لوسياني" للشيخ شرحه للمقدمات في لغته الأصلية، و يترجمه إلى اللغة الفرنسية، و يصدّر الكتاب بمقال حول محتوى الشرح و مكانته العلمية. (2)

هذا، بالاضافة إلى أعلام آخرين آمثال "جورج مارسي و" آلفريد بيل" و" كلود ماري روبير" و" غاردي" و صديقه " قنواتي"، و "جاك بيرك". (3) فهم لم يخصصوا مؤلفا للشيخ، و إنما عقدوا له بعض الفقرات عندما آضطروا إلى الحديث عن مدينة تلمسان أو عن تطور العلوم الدينية من تصوف و على الكلام.

أولا: مصادر الأوروبيين

إن الأوروبيين الذين آهتموا بالشيخ السنوسي، نهلوا معطياتهم الأساسية من أربعة مصادر:

المصدر الأول: مؤلفات السنوسي نفسه كعقيدتيه، الكبرى و الصغرى و شرحيهما، و المقدمات و شرحها.

المصدر الثاني: أمهات السير و التراجم و خاصة منها، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان لابن مريم المديوني، و نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي.

المصدر الثالث: تلامذة الشيخ أمثال محمد بن عمر الملالي في كتابه "المواهب القُدّسية (4) في مناقب السنوسية"، و أحمد العبادي (5) في رسالة له بعثها إلى

(1) Revue africaine, année 1897-1898, n°224 à 231, t.41 & 42, J.D.Luciani, A propos de la traduction de la Senoucia.

(2) Les prolégomènes théologiques de Senoussi, texte arabe et traduction de J.D. Luciani, préface et notes, Alger, 1908.

(3)
- G.MARCAIS, Tlemcen, librairie Renouard, Paris, 1950.
- G.MARCAIS, L'Afrique du Nord musulmane du VIIè au XIXè siècle, texte dactylographié, bibliothèque Lycée al-Mechouar, Tlemcen.
- C.M.ROBERT, Tlemcen, jardin d'Eden, Baconnier, Alger, 1959.
- J.BERQUE, L'Algérie, terre d'art et d'histoire, Alger, 1937.
- غاردي و قنواتي، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام و المسيحية، الترجمة العربية، دار العلم للملايين، ج.1، 1967، ج.3، 1969.
- أ. بيل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمه عن الفرنسية، عبد الرحمن بدوي (ظهر في الأصل، سنة 1938) دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981.

(4) القدسية و القَدّوسية و القُدّوسية كلها في العربية جائزة.

(5) يعتبره بروسلار من تلاميذ الشيخ محمد السنوسي و الشيخ الملالي، انظر، Rev.af.1861.

أحد أصدقائه، و هو أستاذ بمدينة فاس، يتناول فيها حياة السنوسي في بعض جوانبها. (1)

المصدر الرابع: بعض المقالات التي سبق نشرها في المجلتين، الإفريقية و الآسيوية، و ما ألّف، قبل ذلك، شُرّاحُ السنوسي من حواشٍ و غيرها.

1- يعتمد **بروسلار** في مقاله الذي نشره في المجلة الإفريقية سنة 1861، على ما كتبه أحد الأساتذة المدرسين بمدرسة سيدي أبي مدين، و هو أحمد العبادي. و كان ما كتبه، استجابة لرسالة بعثها إليه صديق له يدرّس بفاس، ويطلب فيها منه إفادته بما استطاع أن يجمع من أخبار عن حياة سيدي السنوسي. اعتمد عليه بروسلار، لسببين فيما يُفهم، لأنه عرف في شبابه الرجل و حظي بحضور دروسه الأخيرة، و لأنه، فضلا عن ذلك، كان أحد تلاميذ سيدي الملالي المفضّلين. و لما قدّر له أن يعيش في أحضان تقاليد الشيخ السنوسي، كان -في رأي بروسلار- كل ما يرويه عنه كلاما موثوقا به أكثر من أيّ راوٍ آخر. و المصدر المعوّل عليه، هو مخطوط انتهى منه الخطّاط في تلمسان خلال السنة الهجرية 991/ 1583م. (2)

2- و عندما بدأ **ديلفين** سنة 1897 يكتب عن تفكير الشيخ على ضوء عقيدته، استوحى منهجيته من بروسلار، بما فيها من غثّ و سمين.

3- **والذي عليه الغالبية من علماء أوروبا، هو أنهم يفضّلون المرْجعية العربية و يصرّحون بها** ككتب التراجم و السير، و ما أخبر به التلامذة، و النصوص الأصلية لكتابات الشيخ. (3)

4- و عن اللجوء إلى الشراح العرب، يصرح **لوسياني** في تصدير لترجمته لشرح مقدمات السنوسي، أنه اضطرّ إلى الاعتماد على محمد الدسوقي (4) لفهم النص و ما ينطوي عليه من مفاهيم كالحكم و المكلف و الوجود، و على إبراهيم البيجوري (5) لضبط

---

(1) انظر، المجلة الإفريقية، رقم، 28، سنة 1861، مقال بروسلار.

(2) لا أثر اليوم، لهذا المخطوط عند أسرة أولاد العبّادي و لا في المكتبات القديمة بتلمسان.

(3) إن الرجوع الى مؤلفات الشيخ السنوسي، لم يتعدّ شروح متْنيْن أو ثلاثة كالعقيدة الصغرى (و شرحها) و الكبرى (و شرحها) و المقدمات (و شرحها).

(4) للدسوقي هذا، حاشية على شرح أمّ البراهين، المط. الميمنية، مصر، 1312هـ.

(5) للبيجوري هذا، حاشية على متن السنوسية، ط. 1. 1352هـ.

الصفات و العقل و التعليل مثلا .و كان أحيانا، يعرض بعض تعليلات الشراح في قضايا معينة كما صنع مع السرقسطي (1) في قضية التفكك الذي ظهرت عليه مواضيع كتاب " شرح المقدمات " .

ثانيا: نظرة الأوروبيين إلى عصر السنوسي:

إن الذين تطرّقوا لعصر السنوسي ، في القرن الخامس عشر الميلادي ، وجدوا من الحجج ما يؤكد لهم أنه عصر جمود و آنحطاط في ميادين شتى .

1- فهذا جورج مارسي، يرى في كتابه " إفريقيا الشمالية المسلمة " ، أن ذلك اللمعان الذي عرفه التلمسانيون في مختلف المجالات، و خاصة في " علوم العقل " ، أخذ يضعف و يتقلص ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي مع آنتشار الطرقية، و سوف تفْقُد المصنفات في التفسير أو في الفقه، الكثير من قرائها لصالح التأليفات الصوفية و كتب المناقب حيث يحرص المؤلفون على التنويه بفضل الزهاد و ذكر كراماتهم من غير أدنى نقد أو جدال .

2- هذا، و يقسم كثير من الباحثين - وخاصة الأوروبيين منهم - تاريخ علم الكلام إلى أربع طبقات أو مراحل:

الأولى: طبقة المتقدمين و يمثلها الأشعري ، و الباقلاني ، و الجويني .

الثانية: الطبقة الآنتقائية و يمثلها عدد من المفكرين الإسلاميين، منهم أبو حامد الغزالي .

الثالثة: طبقة المتأخرين - و تضم الشهرستاني و فخر الدين الرازي و الإصفهاني - حيث أصبح الخلط بين الفلسفة و علم الكلام " أظهر وضوحا في المصنفات المتأخرة " ، و صار التميز جدّ عسير بين المنهجيْن في المبادئ و الموضوعات و النتائج .

الطبقة الرابعة و الأخيرة: أصحاب " طريقة الجمود على التقليد " .و العبارة للباحثيْن الفرنسيين غاردي و قنواتي، فهما يريان أن علم الكلام أصابه " الجفاف في أزيائه الأشعرية

---

(1) هو أبو إسحق إبراهيم الأندلسي بن أبي الحسن علي البناني ، له " المواهب الربانية في شرح المقدمات السنوسية " ، المط. الميمنية، مصر، 1324هـ.

فـفقد طراوة نشاطه الأول، و أخذ يتجمد في الأطر التي تناقلتها [الكتب المدرسية] تقليديا" .(1) و يضع الباحثان الشيخ السنوسي في بداية هذه المرحلة الطويلة، مـع أهل الجمود على التقليد .أكثر من هذا، فإن كتب عصره ـ في تقديرهما ـ هي في الغالب، مجامع لتراث الماضي كله .إلا أنه تراث يلخـص مقيّـدا، بمنهجية البقاء على التقليد .
" فليس الأمر أمر تقدم، بل هو نصوص تمرّ بها ذاكرة الطالب لتحفظها" .(2)

ثالثا: دراسـات السنوسي و شيوخه

إن الأوروبيين يتناقلون و يعيدون نفس القائمة المألوفة في كتب التراجم و السير الخـاصّة بشيوخ السنوسي .و لكن بروسلار ينفرد عنهم في كوْنه يعتني بالمدرسة التي درّس فيها الرجل علم التوحيد، و يضيف اسما آخر إلى مجموعة شيوخه التقليدية .يقول: " إنه درس علم التوحيد في مدرسة وليّ الله سيدي أبي القاسم الكـناشي (3) و العالم المعروف بالمجائي" .(4)

رابعا: مـدرسة السنوسي، تلامذته، أصدقاؤه

من المفيد في هذه النقطة، التذكير بمؤلفيْن فرنسييْن أولـيا آهتماما خاصا بـبعض جوانب الشيخ العلمية و الاجتماعية وهما المؤلف بروسلار و الشاعر الأديب كلود مـاري روبـير. فالأول أضاف إلى معلوماتنا، اسميْن جديدين لم يسبق لنا أن صادفناهما فـي مطالعاتنا، هما أحمد العبّادي و سيدي محمد بن هيدور". و الثاني أفادنا بأن السنوسي درّس بمدرسة العباد .

يقول بروسلار: "إن أحمد العبّادي كان له الحظ في حضور الدروس الأخيرة التي ألقاها السنوسي، إضافة إلى أنه كان التلميذ المفضل لدى سيدي الملالي". هذا السيـد الذي يكون الشيخ قد خصّـه بحبّه و حمايته" .(5)

(1) غاردي و قنواتي، فلسفة الفكر الديني، ج. 1 .ص: 137 .
(2) غاردي و قنواتي، المصدر السابق، ص: 139 .
(3) هكذا، و لعله يقصد الكـنباشي أو الكـنابشي، و هو أستاذ مذكور في كتب السير.
(4) Revue africaine, n° 28, BROSSELARD.
(5) Revue africaine, n° 28, BROSSELARD, p.243.

و من خلال الرسالة التي بعثها أحمد العبادي و التي ترجمها بروسلار كاملة نظرا لأهميتها، نقرأ أنه كان للسنوسي واحد من أكبر أصحابه، هو المؤذن سيدي محمد بن هيدور و كان رجلا تقيا مثله. (1) و نطّلع أكثر، على فضل محمد القلعي، و هو من تلامذة الشيخ، و نادرا ما يتكلم عنه أصحاب السير المعروفون عندنا .لقد كان محمد القلعي هذا، و المعروف بريحان زمانه، أحد أكابر مشاهدي العالم، و شخصا يمتلكه العلم الروحاني آمتلاكا بحيث كان يعيش مثل الغريب بالقياس إلى الأشياء الدنيا، مواظبا على مشاهدة الحق سبحانه و تعالى.

و يفيدنا ك. م. روبير بأن السنوسي، هذا العالم و الشاعر أيضا، توفّي بعد أن درّس مثل ابن خلدون و آبن تومرت (2) بمدرسة " العبّاد " التي أسسها المرينيون. (3)

خامسا: شخصية السنوسي

1- أخلاقه:

يأخذنا الفضول إلى تتبع ما تعرّض له ثلاثة من مؤلفين أوروبيين في هذه النقطة، و هم: بروسلار، و شيربونو، و بيرك. الأول لا ينوّه بما يمتاز به الشيخ إلا بغرض الوصول إلى تساؤل، و هو: ألم يكن الرجل في نبل خصاله و تعامله، متأثرا بما يكون قد طالعه من كتب و نصوص مقدسة لدى اليهود و النصارى؟ أما المؤلف الثاني، فيشيد بتوسط الشيخ طلبا لشفاعة السلطان لصالح المحتاجين، و ذلك بغية إبراز هروبه من الدنيا. أما جاك بيرك، فيهتم أكثر بما يسميه الخجل (4) نظرا إلى رقة قلبه و عطفه.

أ- يقول بروسلار بآختصار:

كان سيدي محمد بن يوسف السنوسي في معاملاته الاجتماعية رقيق القلب عطوفا، واسع الصدر كريما، حليم الفؤاد صبورا، بشوش الوجه مبتسما. و كان من شدة شفقته على الناس، يتجرّأ لقضاء حوائجهم رغم خجله و نفوره من الدنيا. و كان من عمق حبّه للخير،

---

(1) Revue africaine, n°28, 1861, BROSSELARD. p.244

(2) لعله يقصد أستاذ الشيخ السنوسي، و هو محمد بن القاسم بن تومرت.

(3) C.M. ROBERT, Tlemcen, jardin d'Eden, p. 48.

(4) (Timidité)، و الحق أنه الحياء، و الفرق بينهما أن الخجل طبع و الحياء تربية تسخر ما يلائمها من آستعداد طبعي.

يصلح بين خصمين، و لا يحقد على من أذاه بكـلام بذيء، و لا يعبس في وجهه بل يفاتحه بالكلمة الطيبة و أدب اللياقة. و يتصدّق بيده، و يأمر غيره بالتصدق في كـل الأوقات، و خاصة وقت الجوع و الغلاء.

و كان في **أخلاقـه** ، معروفا بالتواضع: يوقر الكبير و يقف للصغير، و يتذلل للضعفاء، و يدعو إلى الصبر مقابل الإذاية. و إذا وقف مع الناس، فلا يقوى على مفارقـة أحدهم حـتى ينصـرف.

و كان **مع البهائم و الأطفال**، أشد شفقة و حنانا. فلقد بكى ابن يوسف لمّا رأى من نهش الكلاب لأحد الذئاب على **مرأى** الصياد. و كان ينصح المرء في مشيته، أن يسير برفق حتى يعرف أين يضع قدميه، فلا يطأ دابة أو يقتلـها. كما أنه ينهى الآبـاء و المعلمين عن ضرب الصبيان.

و لقد آمتنـع السنوسي أكثر من مرة، من **الاستجابة للأمير** يوم عرض عليه آستغـلال مداخيل مدرسة سيدي الحسن أبركان، و كذلك يوم دعاه إلى القصر ليتولّى ـ بحضرته ـ تفسير القرآن على عادة العلماء في ذلك العهد. و لقد شرح أسباب آمتناعه هذا، في مراسلات بعثها للأمير. و يغلب الظن، أنه كان للحياء الحيّز الأكبر في الاعتذار. فكان إذن، رفيع الهمة عن أهل الدنيا، لا يقبل عطية سلطان.

ويتساءل بروسلار بعد هذا، فيقول: " من أين، كانت **تأتي لهذا المسلم**، [هـذه الفضائل من] عاطفة و صبر و زهد و تفان و هروب من الدنيا، و ذلّ، و هي كلهـا فضائل ترفعه فوق أكثر الناس تقوى في زمانه؟ أليس هذا ناتجا عن آسترجاع جديد لما يكون قد طالعه من نصوص الأناجيل؟ ألم يكن في قلب هذا المسلم، ما يشبه النفحـة المسيحية، إذ كان قلبه أشدّ حنانا على الطفولة و أشفق على ما تصير إليه الحيوانات؟ و كان ـ رغم ما يحتمل أن تثيره مصافحته الأعداء من ضعف السرور ـ يستعجل لمفاتحتهم بوجه مبتسم و كلام لطيف.

إن إحسان المسلم لـمكتئبٍ و بارد، وشأنه في هذا، شأن مساجده و مـذهـبه العقائـدي. صحيح، أنه يخفف من مصائب الدهر، و لكن، من غير أدنى إيمان بالرأفـة.

إن السنوسي يمارس الإحسان حسب الإنجيل، و أنه تعلّم ـ ليس في القرآن ـ مساعدة أولئك الذين كان من الممكن أن يكرهوه" . (1)

ب ـ هذا، و يتمثّله شيربونو على الصورة التالية:

" كل ما كان يمكن أن يغتنمه السنوسي للبحث و الصلاة من أوقات، كان يسخره للتشفع بالسلطان لصالح أهل تلمسان، و أكثر من واحد، يعيد إليه فضل تحقيق حاجته". (2)

ج ـ وأما جاك بيرك، فيركز في شأن الخصائص التي يتميز بها الشيخ، على مّحمدتين: الحياء ـ و يسميه الخجل ـ و الشفقة. و يفضل الاستشهاد بأقوال الرجل نفسه، من ذلك، ما نقرؤه في كتب التراجم عن السنوسي. يقول الشيخ : "إذا كان الحياء يُدخل صاحبه النار، فأنا أدخلها" . و يقول عن الشفقة : "إن لله مائة رحمة، واحدة لا مطمع فيها لأحد إلا لمن اتسم برحمة جميع الخلق و الشفقة عليهم" . (3) و يقصد بيرك من وراء الاستشهادين و غيرهما، تقديم ابن يوسف السنوسي في غاية السمّو الإنساني العالمي . (4)

2 ـ مكانته العلمية و الأدبية:

لقد تناول عدد معتبر من الباحثين الأوروبيين موضوع مكانة السنوسي العلمية و الأدبية، و جاءت آراؤهم في هذا الشأن، مختلفة و على تفاوت في الدرجات: فمن منزلة متواضعة إلى أعلى السلم، و من التصلب على التقليد و ضيق المذهب إلى الإشعاع و التنوير، و من مرتبة الشاعر إلى عالم الدين و وارث الرسول (ص) .

أ ـ يرى غاردي و قنواتي أن أبا عبد الله السنوسي أقل مرونة بسبب مالكيته (5)، و أقرب إلى التقليد منه إلى النظر، بحكم نشأته في عهد التصلب على التقليد حيث لم يبق أثر للخصوم، كالمعتزلة و الفلاسفة. أما الأشعرية التي يناصرها، فلقد أصبحت معه

---

(1) Revue africaine,n°28,année 1861,p.245-246.

(2) Journal asiatique,Vè série,t.III;Rev.af.XIVè année,1870.

(3) قارن مع البستان لابن مريم، ص: 241ـ242 .

(4) J. BERQUE,L'Algérie,terre d'art et d'histoire,p.206.

(5) غاردي و قنواتي، فلسفة الفكر الديني، ج. 1 .ص: 140 .

ضيقة خالية من الإبداع .(1) و لهذا انحطّ علم التوحيد إلى " مستوى العوام، و تخلى عن المظهر العلمي الذي كان له في مقالات الإيجي و الجرجاني و التفتازاني الضخمة".(2)

و يضيفان أن الذي أصبح أوليا في عهد ابن خلدون و بعده،غدا بالذات، ذلك التحليل أو ذلك التقويم للعقائد . و هذا تجمّد، بدا على إثره علم الكلام مجردا بعض الشيء، من الغاية التي قام من أجلها .(3) فالغاية منه في رأيهما، هي الرّد على الخصوم من معتزلة أو فلاسفة، بلغة ترقى إلى ما فوق مستوى العوام .(4)

ب- و عندما تحدث ك . م . روبير عن الشيخ السنوسي في كتابه " تلمسان، جنة عدن" ،أشار إليه كعالم في شؤون الله و كشاعر.(5)

ج- و أنه عند ديلفين،عالم كلام بربري، ما تزال عقيدته الصغرى تشكل إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، و مطلع القرن العشرين،أساس التعليم التقليدي العقائدي في كل مدارس المغرب العربي .(6)

د- و يقول جورج مارسي في كتابه " تلمسان" : "إن سيدي السنوسي هوأحد أمجاد الفكر الإسلامي و الممثل المتأخر لعهده الذهبي .فعندما توفّي سنة 1490، ترك حوالي أربعين تأليفا حيث إن [علوم] الطب و الفلك و المنطق و قواعد اللغة، تُجاورُ مذهب التصوف.إنه كان في التوحيد بوجه أخص،عالما عظيما و أن [متْن] عقيدته الصغرى أضحى كلاسيكيا .أما إنتاجه،فإنه تطغى عليه الشروح التي توضح المتون و تثريها بوجهات نظر شخصية" .(7) و في كتابه " إفريقيا الشمالية " ، ينبه إلى أن

---

(1) غاردي و قنواتي، المصدر السابق، ج. 3 .ص: 32، 125 .

(2) غاردي و قنواتي، المصدر السابق، ج. 1 .ص: 313 .

(3) غاردي و قنواتي، المصدر السابق، ج. 3 .ص: 32 .

(4) غاردي و قنواتي، المصدر السابق .

(5) C.M.ROBERT,Tlemcen,jardin d'Eden,p.48.

(6) Journal asiatique,IXè série,t.X.1897,

(7) G.MARCAIS,Tlemcen,p.69.

الدراسات الخاصة بعلم الكلام و الشريعة، ما تزال حيّة و تشعّ ببعض اللمعان بفضل علماء أمثال السنوسي التلمساني .(1)

هـ- و الشيئ الذي لفت آنتباه الأستاذ شيربونو فيما يتعلق بمكانة الشيخ وحثّه على البحث، هو الشهرة الواسعة التي آكتسبها الرجل، هو و الحفيد بن مرزوق. و لقد وقف عند ثلاث خصائص يتميز بها أبو عبد الله السنوسي، و هي أنه يملك:

أولا، موهبة البيان، بشهادة المترجمين له،

ثانيا، القدرة على كتابة أفكاره و التعبير عنها بشتى الأساليب،

ثالثا، الجبلّة في نشر الضوء على الكتب المؤلفة في لغة غامضة، و إحيائها بالشرح .(2)

و- و يرى بروسلار أن السنوسي هو أحد النوابغ البارزين الذي أنتجته إفريقيا الإسلامية في عهدها الجميل، و أنه وارث لرسول الله، تسطع الأنوار منه بكل لمعانها، و أنه يبقى الأستاذ الجليل لكل من يرغب في العلم، و كذلك للأتقياء من الناس و المؤمنين الذين يتطلعون إلى التقوى .(3)

3- موازين الحكم:

في هذه النقطة، سنكتشف كيف أن الباحثين الأوروبيين ينطلقون من مقاييس للحكم على الرجل في صورته الإجمالية. فهو يقرن -عند تقديمه- بآسم عالم آخر، و قد يقوّم تسلسل إنتاجه العقائدي على ضوء القياس الأرسطي. و إذا وقع الأهتمام به أيضا، فـلعالميّة معارفه أو للفائدة التي يمكن جنيها اليوم، من إنتاجه الفكري .

يقول شيربونو، في مقدّمة مقاله عن طبع ابن يوسف السنوسي و مؤلفاته: " إذا كان صحيحا القول بأن إفريقيا الشمالية كانت عقيمة من العلماء منذ آحتلال الأتراك،

(1) G.MARCAIS,L'Afrique du Nord,p.23.

(2) Journal asiatique,Vè série,t.III.

(3) Revue africaine,n°28,p.248.

و يرى ألفريد بيل أن السنوسي سلك طريق الصوفية، و عاش في عهد، أنتشر فيه التصوف بين الجماهير الشعبية، في الأرياف و المدن في المغرب. (الفرق الإسلامية، ص: 407).

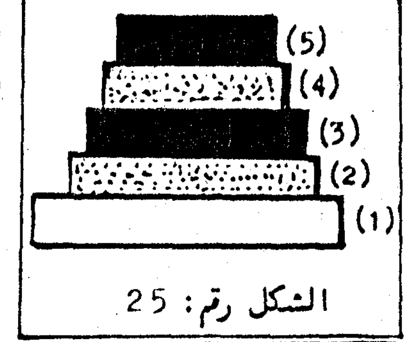
أي منذ ثلاثة قرون، و بأن العلوم فيها لم تدْرس إلا من طرف عدد قليل من الطلبة، فلا بد من الإقرار أيضا، أنها أنتجت في القرن الخامس عشر، رجليْن كان يكفي آتساع ذكائهما و سمّو تفكيرهما و عمق ورعهما لتشريف بلد. هذان الرجلان هما [أبو عبد الله السنوسي و الحفيد بن مرزوق]. ولد الأوّل في 830هـ/ 25ـ1426م، والآخر سنة 766هـ/ 64ـ1365م» . و يضيف قائلا: «أرى أنه يجب أن نبدأ بذكر الأوّل [قبل الحفيد] ليس فقط، بسبب عالمية معارفه بقدر ما هو للفائدة التي ما زلنا نجنيها اليوم، من مؤلفاته في معظم مدارس إفريقيـا» . (1)

و في دراسته للعقيدة الصغرى، يعتقد ديلفين أن السنوسي قد آستعار عنوان مـؤلفه هذا، بالمقارنة مع مؤلفاتـه العقائدية الأولى، من أحد حدود القياس الأرسـطي . و الحكم هذا، ليس جديدا، إذا عرفنا الصورة التي قدّم بها بروسلار سلسلة الإنتـاج الكلامي للشيخ .

يقول بروسلار: إن آبن يوسف السنوسي آقتبس من القياس، حدوده الأساسية ليعرّف بكل واحد من متونه العقائدية. و على هذا الأساس، و حسب النظام الذي وقـع فيه التأليف، راح يحدد الأسماء .

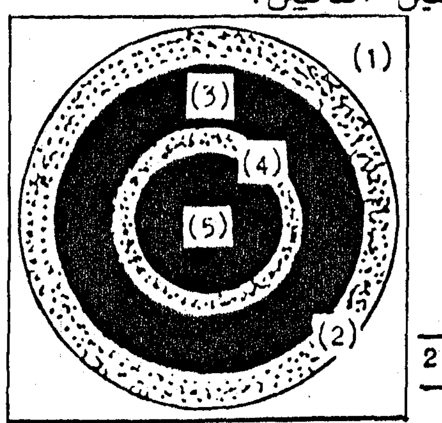
فالعقيدة الكبرى تمثل الحد الأكبر، و يقدّر حجم متنها و شرحها بعشرين كراسا .
و العقيدة الوسطى تمثل الحد الأوسط، و = = = = بثلاثة عشر كراسـا .
و العقيدة الصغرى تمثل الحد الأصغر، و = = = = بستـة كراريـس.
أما المقدمـات، فهي بمثابة المسلمات الأولى، و يقدر حجم متنها و شرحها بـخمسة كراريس.

و لتوضيح هذه الصورة، نبادر بتجسيدها فـي الشكلين التاليين:



(1) المقدمـات
(2) العقيدة الكبرى
(3) العقيدة الوسطى
(4) العقيدة الصغرى
(5) العقيدة: صغرى الصغرى

الشكل رقم: 25



الشكل رقم: 26

(1) Journal asiatique, Vè série, t.III.

4- تصوفه:

إن الميزة التي تكاد تطغى على معظم جوانب حياة الشيخ السنوسي، هي أنه رجل تقي و زاهد، استطاع بفضل الله و نعمته أن يفوز بالولاية و أن يخرق العادة إكراما منه تعالى. و يبدو أن الذين آهتموا بهذه الميزة - سواء كانوا أوروبيين أو غيرهم - وجدوا في التصوف ما يليق بالرجل. و في هذا الصدد، ينوه الباحثون الأوروبيون من جهة، بإحساسه المرهف و شعوره السامي الذي يؤهله للتقرب من ربّ العالمين، و نبذ كل ما سواه، و يحرصون من جهة أخرى، على ذكر ما صدر عنه من كرامات، و ما فيها من مغزى حتى يخيل إلى القارئ أن السنوسي لم يبْرع في فنّ آخر غير فن التصوف هذا.

أ- يقول جاك بيرك: إن الشيخ السنوسي يملك من الإحساس السامي ما لا يستطيع به أن يؤذي ما في الطبيعة من حياة. فهو يبتهج في تأملاته لتلك النفس الملوكية التي تطمئن في الخلوة العميقة و تستمتع بذلّها، فلا يغريها التشهير و لا الشهرة. و لقد آستطاع صاحب البستان أن يجمع بعض أسراره النادرة في هذا الموضوع، في تقييدات تدعو إلى التأمل: يقول السنوسي، برواية الشيخ بلقاسم الزواوي أحد تلامذته و أصدقائه: " طفت بهذه العوالم كلها من العرش إلى الفرش، و لم أر منها ما يسرني فلم آمل لشيء منها بالكلية". (1)

ب- و يكون أبو عبد الله السنوسي، عند شيربونو، الرافض القوي و النابذ الجاهر لأيّة سلطة يريدونها له، فيكتب مقالا طويلا يعلّل فيه موقفه الحاسم هذا حيث يعرب عن آنسحابه من ضجة حياة الناس، و عن رغبته في آنقطاعه للذكر و تعبّد ربّ العالمين. (2)

ج- و لبروسلار اهتمام أوسع بهذا الجانب. فلقد تعرّض معه إلى ثلاث نقاط: مظاهر زهده ثم بعض كراماته و أخيرا، خصائص تصوفه و الورع المسيحي.

---

(1) J.BERQUE, L'Algérie, terre d'art et d'histoire, p.206. انظر، البستان، ص: 243.

(2) Journal asiatique, Vè série, t.III; Rev.af.XIVè année, 1870.

*النقطة الأولى: مظاهر زهده

يقول بروسلار على لسان أحمد العبادي: "حتى نعرف بذله و بتجرده من أشياء الدنيا، يكفي أن نذكر بأن [ابن يوسف السنوسي] كان دائما يرفض الدخول في علاقته مع الأمير الحاكم وقتئذ. فلقد اجتهد [هذا الأمير] مرارا و في مناسبات مختلفة، ليراه و يجلبه إليه طالما كانت له رغبة في أن يستمتع بالاجتماع به و الاستفادة من فضله. إلا أن جهوده ضاعت، و لم يوفق في هذا إطلاقا".

" و أملا في الانتصار على حشمة [الشيخ]، بعث إليه مرة، عن طريق أمينه [السيد] محمد العبادي، مبلغا معتبرا من المال مصحوبا بهدية نفيسة الثمن. و لكن الشيخ امتنع من قبول أي شيء، و أرسل إلى الأمير - عن طريق مبعوثه - كتابا يشكره فيه، و يعتذر".

و هناك قصة أخرى تدل أيضا على سموه، و هي أن معاصريه من بلده المقدرين لفضله، أرادوا أن يشيدوا له دارا من أموالهم الخاصة. و عن هذه الإرادة الطيبة، أجاب بهذه الكلمة المأثورة: "دخلت الدنيا، و أنا لا أملك شيئا، و أريد أن أخرج منها و أنا لا أملك شيئا."

و على لسان محمد القلعي، يسجل بروسلار، أن زهد السنوسي في الدنيا كان مثالا: فلا يحس بالأشياء المخلوقة، و لم تكن نفسه ليتقتات إلا بالروحانيات". و لقد سمعوه يقول: "ما الجنة بحورها؟ ألا إنها لذلك الولي - باعتباره الصاحب الحقيقي لله - الذي لا يعقد لها، نظرة واحدة حتى و إن كشفت له في كل جمالها. لأن الله هو مبتغاه الأسمى، و لأن نفسه تذوب في نزوعها الذوقي إلى ذات الله".

*النقطة الثانية: بعض كراماته

و عن أحمد العبادي، يروي بروسلار هاتين الكرامتين:

الكرامة الأولى:

ذهب السنوسي لفسحة إلى المقبرة القديمة خارج أسوار تلمسان بصحبة صديقه الوقور، محمد السقاطي. فما أن رآهما القائم بأشغال البستان الملكي، حتى سارع إلى إخبار أميره. فخرج الأمير من القصر حين تلقيه الخبر، لأنه كان عظيم التشوق إلى

لقاء الشيخ .و قد حدث للشيخ أن آمتنع عن الاجتماع و التقرب إليه .و عندما وصل الأمير إلى عين المكان، شاء الله أن يزيح الصديقين عن مجال رؤيته". و ظن الأمير أن البستاني قد كذب عليه، و ما كذب عليه .لقد تحوّل السنوسي و صديقه إلى كائنين غير مرئيين على حجر، يستطيع أن ينظر أحدهما إلى الآخر من غير أن يبصرهما أحد .

الكرامة الثانية:

و مما يدلّ على قدرته الخارقة للطبيعة التي وهبها له الله، أن والد الشيخ مات، فظهر لرجل تقي أحبّه كثيرا في حياته .فسأله هذا الرجل، و قال: " أخبرنا كيف عاملكم الله؟ فهل كان متشددا معكم أم رحيما؟ فأجاب الميّت: إن ولدي عندما حضر جنازتي، دُعي إلى النظر إلى الجبال". و تحت تأثير عظمة أعمال الخالق الذي صنع من حبّات الغبار ملكوت الأرض، رفع صوته متضرّعا: "الحمد لله". فعندئذ، غفر لنا الله جميعا، نحن موتى ذلك اليوم، و كان عددنا خمسمائة شخص" .و هذا ينطبق مع قوله صلى الله عليه و سلم، فيما معناه: أيا أمتي، إن كلمة شكر واحدة أو عملا صالحا واحدا يخرج من فمك، يزن أكثر من الجبل في ميزان الرحمة" .

*النقطة الثالثة: خصائص تصوفه و الورع المسيحي

و في هذه النقطة الأخيرة، يقول بروسلار: لا أود أن أفارق هذا الرجل الجليل دون أن أوجه تحية إجلال إلى قدسية حياته .إن آساس تقواه يكمن في وراعة الصوفية و هي أخت الوراعة المسيحية، وراعةً متأملة و لدنّية مثلها، فهي تشبهها في كونها سائحة في عوالم فوق طبيعية و لامرئية .إنها تصبّ في حب عظيم ليس له اسم في الأرض، و هو الذي حدده أحد المؤلفين المسلمين المطلعين على هذه الأسرار، بما يلي: " تحريك القلب إلى الله و آحتقار كل ما سواه" .(1)

إن الشيخ السنوسي عاش و مات فقيرا كما أراد، إذ كان يقول هو نفسه، أريد الخروج من الحياة كما دخلتها .(2)

---

(1) Revue africaine, n°28, Vè année, 1861, p.259-260.

(2) Revue africaine, n°28, Ve année, 1861, BROSSELARD.

و في خاتمة هذا الجزء، يمكن القول، إنه إذا كان المؤلفون العرب قد حملوا أخبار السنوسي و آثاره منذ أكثر من خمسة قرون، فإن الكتّاب الأوروبيين تأخروا في ذلك، إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أي بعد حوالي عقدين من آحتلال الجزائر سنة 1830. و ليس غريبا ـ و الحالة هاته ـ أن ينظر الكثير منهم إلى عصر السنوسي نظرة آزدراء و آستصغار، لأنه في آعتبارهم، عهد آنحطاط و تخلف حيث لا فكر و لا إبداع.

و لم ينحصر آهتمامهم به في الحقيقة، إلا في بعض المتون العقائدية و شروحها. و ما كان يبدو لهم منها أصيلا، وجدوا له في الفكر اليوناني أو " الغربي " ما يعلّله. و إن حدث التنويه بفضائل السنوسي السامية، فبغرض أن يتصيّد لها بعضهم مرجعيّةً لدى النصارى و كتبهم المقدسة، أو ليلحقوها ـ في أوضع الحالات ـ بالتصوف أو الطرقية و ما تفترضه من نبذ الحياة و ظهور الولاية و آنتشار الخوارق.

الجزء الثاني: السنوسي، مؤلفاته، و تفكيره

أولا : مؤلفات السنوسي

1- عدد مؤلفاته

2- أساس تصنيفها

3- المؤلفات التي تشدّ الانتباه

ثانيا : أحكام الأوروبيين المسبقة

1- قيام كتب السنوسي العقائدية على مبدأ واحد

2- مدى انسجام تطبيق القواعد المنطقية و الماورائية على العقائد

3- تواضع إنتاج السنوسي، و صعوبة فهمه

ثالثا : مسلمات الباحثين الأوروبيين

1- مسلّمة منطق أرسطو و فلسفته

2- مقاييس غربية (أخرى)

رابعا : مناظرة بين محمد السنوسي و أحمد بن زكري

خامسا : مواضيع تفكير أبي عبد الله السنوسي

1- الحكم

2- الحرية

3- الألوهية

4- الصفات

5- تفسير القرآن

6- بعض خصوصيات الشيخ السنوسي

لقد أحصى الأوروبيون كتب أبي عبد الله السنوسي، و صنّفوها و قوّموا محتوى بعضها، و عبّروا عن مواقفهم إزاء مسائل محددة. فكيف وقع تصنيف مؤلفاته هاته، وعلى أيّ أساس تمّ الحكم على بعضها في مضامينها؟ و ما هو الإنتاج الذي شدّ آنتباههم أكثر، و ما هي الأحداث و القضايا الفكرية التي شكلت مركز آنشغالاتهم؟

أولا: مؤلفات السنوسي

اهتمّ المؤلفون الأوروبيون بمؤلفات أبي عبد الله السنوسي، فأحصوها و علّقوا على بعضها. و الحيّز الذي نعقده لهم في هذا المضمار، نخصصه لذكر عددها و تقييد ما يبدو لنا، إضافة معلومات أو هوامش.

فما عدد المؤلفات التي خلفها الرجل؟ و كيف يُقام تصنيفها؟ و ما هي الكتب التي تشدّ الأنتباه؟ للإجابة عن هذه الأسئلة لدى الأوروبيين، يكفي الرجوع إلى بعض مقالاتهم.

1- إن العدد الذي يحصونه يتراوح بين ثمانية و ثلاثين كتابا كما هو عند شيربونو (1) و خمسة و أربعين كما هو منقول عند غالبيتهم، أمثال بروسلار حيث يلجأ إلى رسالة أحمد العبادي بإسناد إلى أستاذه محمد الملالي. (2) و يشير الأستاذ لوسياني إلى تفاوت العدد هذا بين الإنبابي و شيربونو أي على التوالي، بين خمسة و أربعين و ثمانية و ثلاثين كتابا، من غير أدنى تعليق. (3)

2- و يرى بروسلار في إطار التصنيف، أن التآليف السنوسية التي تحتل الصف الأول، هي تلك التي تختص بموضوع العقيدة، و عددها خمسة: (4)

التأليف الأول: العقيدة الكبرى (و شرحها).

التأليف الثاني: العقيدة الوسطى (و شرحها).

---

(1) Journal asiatique, Vè série, t.III. A.CHERBONNEAU.

(2) Revue africaine, n°28, année 1861, BROSSELARD.

(3) Les prolégomènes théologiques de Senoussi, LUCIANI, préface.

(4) Revue africaine, n°28, année 1861, BROSSELARD.

التأليف الثالث : العقيدة الصغرى (و شرحها) .

التأليف الرابع: عقيدة صغرى الصغرى (و شرحها) .

التأليف الخامس: المقدمات (و شرحها) .

و للتعليق على بعض هذه التآليف، يقول شير بونو: إن كتاب العقيدة الكبرى هو أول ما ألف الشيخ السنوسي في علم التوحيد." و يوجد شرح وضعه علي بن خلف بن جبريل، و هو أحد العلماء المصريين السالكين طريقة **الشاذلية** في **التصوف**. و ينبّه بالإضافة إلى هذا، إلى أن محمد الملالي يذكر في قائمة الإنتاج الفكري لأستاذه، عقيدة خامسة حيث يتولى المؤلف دحض المذاهب الفاسدة للفلاسفة بأدلة دامغة. كما أن شير بونو ـ أثناء كلامه عن علاقة السنوسي بالأمير ـ يسجل تأليفا دون أن يضمّه إلى قائمة الكتب المحصاة، و هي رسالة طويلة موجهة إلى السلطان، يقدم المؤلف له فيها آعتذاراته. (1)

3ـ و من التأليفات السنوسية التي حظيت بآهتمام هؤلاء الباحثين، العقيدة الصغرى و المقدمات،

فعن العقيدة الصغرى، يقول شير بونو: إنه الكتاب الذي يشكل أساس تعليم التوحيد في مدرسة الكتاني بقسنطينة. (2) و أنه عند بروسلار، زادُ الطلبة في علم التوحيد و أساس تعليم هذا الفن، في المدارس العليا التي أصلحها الكيان الفرنسي في الجزائر. إن كتاب السنوسي هذا، يُعدّ أوضح و أنقى تعبير عن العقيدة السنية، و هو فضلا عن ذلك، تأليف يشرح كلمتي الشهادة بطريقة جديدة كل الجدة. و لعله لهذا السبب، فاز بعناية واسعة. لقد كان سيدي عبد الله بن منصور ولي " عين الحوت " (3)، أكبر سنا من السنوسي." فلما آطلع على هذه التحفة، لم يُخْف آنشراحه عن الأصدقاء إذ قال: " إننا بالتأكيد، نجدد الإيمان بآتصالنا بكتاب سيدي محمد

---

(1) و لقد أوردها في نفس النسق، بعض المترجمين العرب نقلا عن الملالي دون إلحاقها بمجموع كتب السنوسي .

(2) Journal asiatique, Vè série, t.III.A.CHERBONNEAU.

(3) و " عين الحوت" من الأحواز القريبة من تلمسان، تبعد عن المدينة بحوالي 6 كلم .

بن يوسف السنوسي". (1) و يروي أحمد العبادي، و يتتبّعه في ذلك بروسلار، أنه رأى في منامه، سيدي عامر الراشدي بعد موته، و سأله كيف عامله الله في آمتحان القبر. قال: "لقد حملت عقيدة الشيخ الصغرى كسلاح دفاعي فنجّاني الله". و ينقل بروسلار عن الملالي، أن رجلا ظهر له في المنام ليؤكد له أنه في عذاب لكونه أهمل دراسة العقيدة الصغرى. (2)

ثانيا: أحكام الأوروبيين المسبقة:

إن الأحكام الأولية التي آنطلق منها الباحثون الأوروبيون في السنوسي، يمكن ردها إلى ثلاث نقاط:

1- النقطة الأولى: كتب السنوسي العقائدية تقوم على مبدأ واحد:

وعن هذه النقطة، يقول بروسلار: لقد أعطى أبو عبد الله السنوسي اسم "العقيدة" لكل كتاب من كتبه الخمسة (3) التي ألّفها في علم التوحيد. و الحقيقة، أن هذه الكتب الخمسة ليست في نهاية الأمر، سوى كتاب واحد. إنك تجد فيها نفس المسائل العقائدية و في نفس الترتيب تقريبا. و لا يختلف بعضها عن بعض إلا في حجم التوسيع المخصص لبعض الفصول من الموضوع. و في كلمة، يمكن آعتبارها جميعا تآليف متدرجة حسب مستوى دراسة الطلبة الذين يوجهون إليه. و لقد أرفق السنوسي كل واحد من هذه الكتب بشرح دائم يلازم التأليف [أو المتن] و كأنه مكمّله الضروري. (4).

2- النقطة الثانية: مدى آنسجام تطبيق القواعد المنطقية و الماورائية على العقائد:

و عن هذه النقطة، يبدو أن الأستاذ لوسياني لم يستسغ تطبيق الشيخ أبي عبد الله لقواعد المنطق و مبادئ الميتافيزيقا من أجل إثبات صدق العقائد المنزلة أو آختبارها. كما أنه غير مطمئن لقبول التحليل الذي قدّمه في شأن أصناف الحكم، و خاصة منها صنف الحكم التجريبي. (5)

---

(1) Revue africaine, n° 28, année 1861, BROSSELARD, p.247.

(2) Revue africaine, n° 28, année 1861, BROSSELARD.

(3) إذا كان المقصود بالخامسة هو العقيدة الخامسة، فإنها مجهولة لدينا. أما المقدمات فإنها لا تحمل آسم العقيدة، رغم أن بروسلار يدرجها ضمن قائمة الكتب العقائدية.

(4) Revue africaine, n° 28, année 1861, BROSSELARD.

(5) Les Prolégomènes théologiques de Senoussi, LUCIANI, préface.

3 ـ النقطة الثالثة: تواضع إنتاج السنوسي و صعوبة فهمه:

يعتقد لوسياني على ضوء ميزان المستجدات، أن المقدمات ـ متناً و شرحا ـ لم يعد لها شأن و لم تستطع مواكبة المنشورات المعاصرة اليوم. و على أساس ما جاءت به بعض المؤلفات السابقة في موضوع علم التوحيد، يرى " بربروجر " (BERBRUGGER) أن ابن يوسف السنوسي لا يستبعد أن يكون قد اطلع على كتاب في المجادلة الدينية الصادر سنة 823هـ/ 1420م، و يكون قد تأثر به في وضع عقيدته الكبرى. (1) أما العقيدة الصغرى في نظر " ديلفين "، فهي تأليف يختلف في كتابته عن العقيدة الكبرى اختلافا كبيرا من حيث روحه. فهو ليس كتابا في الجدال". فالجدال يشغل فيه حيزا لا يكاد يذكر. و لكنه في مقابل ذلك، يمكن اعتباره كتابا في الفلسفة المدرسية يعالج ببعض الاستقلالية وبما يكفي من الاطلاع، القضايا الميتافيزيقية التي تطرح بجانب العقائد الدينية. (2)

و أخيرا، لا يُخفي الأستاذ لوسياني الاعتراف بأن النصوص العقائدية السنوسية ليست سهلة عن الفهم في تدبّرها. (3)

ثالثا: مسلمات الباحثين الأوروبيين:

للنفاذ في تفكير السنوسي، ينطلق الباحثون الأوروبيون من مسلمات أولية". و على أساسها يضفون الشرعية المنطقية الكافية على ما يصلون إليه من استنتاجات. و مسلماتهم تأخذ منطلقاتها تارة، من الفكر الغربي المتمثل في منطق أرسطو و فلسفته، و تارة أخرى، من الفكر الإسلامي المتمثل في الأشعري و تلامذته، و في صفاء أهل الذوق الصوفيين.

1 ـ إن سيطرة المنطق الأرسطي في القرون الوسطى و شهرته عند العرب وغيرهم،

---

(1) لعله يقصد كتاب " عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد " للحفيد بن مرزوق. انظر، كتابنا، الإمام ابن يوسف السنوسي و علم التوحيد، ص: 77.
BERBRUGGER est cité par DELPHIN.

(2) Journal asiatique, IXè série, 1897, DELPHIN.

(3) Revue africaine, t.41 & 42, n°224 à 231, année 1897_1898, J.D.LUCIANI, A propos de la traduction de la senoucia.

حملتا الكثير من الباحثين إلى الآرتقاء به إلى مستوى الميزان الثابت و الصالح لتقدير كل تفكير. ففي شأن السنوسي، يذهب بروسلار إلى القول بأن مؤلفاته العقائدية تقابل ـ تبعا لعنوان كل واحد منها ـ الحدود التي يتضمنها القياس الأرسطي كما مرّ بنا في الجزء الأوّل من هذا القسم. و ليس من باب الصدفة، أن ينحو منحى بروسلار هذا، من لا يأخذ بنفس المسلمة. إن العقيدة الصغرى مثلا، كما يرى ديلفين، تُمثّل في القياس، الحد الأصغر، لأنها جاءت بعد العقيدتيْن، الكبرى و الوسطى، أي بعد الحدين، الأكبر و الأوسط. و فوق كل هذا، يعتقد ديلفين أن السنوسي في برهنته على وجود الله، لا يأخذ إلا بدليل واحد، و هو المعروف عند أرسطو، بالمحرك الأوّل. (1) و مفاد هذا الدليل، أن كل متحرك يتحرك بسبب يسبقه. و لكن، مهما تتالت أسباب المتحركات، فلا بد أن يقف عقل الإنسان عند سبب أول ليس قبله سبب آخر، و يعتبر أرسطو هذا السببَ، المحركَ الذي لا يتحرك و إلّا وقعنا في التسلسل الدوري، و هذا محال. و ما هذا المحرك الأوّل الذي لا يتحرك إلا واجب الوجود، و هو الله.

2ـ و ليس أيضا، غريبا أن ينظر الباحثون الأوروبيون إلى أعمال السنوسي من خلال مقاييسهم الغربية.

يقول جاك بيرك ـ رغم طول المدة التي عاشها بين المسلمين في الشمال الإفريقي ـ : إن السنوسي رجل عظيم في حياته، و لكنه أيضا، عظيم في فلسفته التي أعلنت عن سماتها الغربية، و التي هي شغوفة بطرح قضايا حديثة. (2)

و كان ديلفين قبل ذلك، قد كتب مقالا حيث آعتبر عقيدة الشيخ الصغرى كتابا في الميتافيزيقا، و أن العقيدة الصغرى هاته، تكفي ـ في رأيه ـ للإحاطة بكل فلسفة مؤلفها. (3)

و في رده على هذا المقال، يعتقد الأستاذ لوسياني أن الميتافيزيقا ليست

---

(1) Journal asiatique, IXè série, 1897, DELPHIN.

(2) J. BERQUE, L'Algérie, terre d'art et d'histoire, p.172.

(3) Journal asiatique, IXè série, 1897, DELPHIN.

هدفا كما صرح بذلك ديلفين، و إنما هي مجرد واسطة فقط للدفاع عن العقائد الدينية. (1)

و في تحليله لتفكير السنوسي من خلال العقيدة الصغرى، لا يشعر ديلفين بأيّ ضيق عندما يعيده تكوينه المدرسي إلى بعض فلاسفة أوروبا، أمثال لايبنيتز و سبينوزا. فيلجأ إلى الأول، ليتساءل عن المعنى الذي يقصده السنوسي من كلمة إدراك، و يلجأ إلى الثاني طمعا في فهم الصفات المعنوية. (2)

و يذهب بنا بروسلار إلى أبعد من هذا، عندما يكتب قائلا:

لنا كل الأدلة التي تثبت أن سيدي محمد السنوسي قد درس بعمق كتبنا المقدسة. فكان يبحث فيها عن حجج يدعم بها صرح الديانة المحمدية. و لكن، ألم يتمكّن ربّما - و هذا غصبا عن علمه - من استخراج أمور أخرى؟ هناك ما يدعونا إلى القول بأنه اغترف منها تلك الإلهامات العالية التي تنعكس على كامل مراحل حياته مثل إكليل القداسة... لقد قرأ و اطلع - فيما يبدو - على التوراة و كتاب الرسل و الإنجيل، و استعار من نصوصها، ما يحتاج إليه لتعزيز أطروحته.

و يخلص بروسلار إلى القول بأن سيدي السنوسي على ما هو عليه من فضائل و عيوب، و ربما لسبب عيوبه، باعتباره ناقدا للمسيحية، له علينا حق ترجمة كتابه العقيدة الصغرى إلى اللغة الفرنسية. (3)

و هو عند جاك بيرك، عالم كلام يبقى في حدود التقليد السني الإسلامي". فهو لا يتجاوز الأشعري، بل يدققه و يوضحه، ينظّمه أحسن تنظيم و يخرجه من المشرق. و يضيف قائلا: إنه في مقدماته، بالنسبة إلى التوحيد كنسبة ابن خلدون إلى التاريخ و علم الاجتماع". و إنه جامع لتآليف، و يبقى فوق هذا و ذاك، أحد الوجوه البارزة في الجزائر المسلمة اكثر نبلا و نقاء، إذ كانت حياته التقشفية حياة طاهرة كبياض

---

(1) Revue africaine, t.41 & 42, année 1897-1898, J.D.LUCIANI.

(2) Journal asiatique, IXè série, 1897, DELPHIN. "انظر، كتابنا، الإمام ابن يوسف السنوسي و علم التوحيد، ص: 170.

(3) Revue africaine, n° 28, année 1861, BROSSELARD.

صوف الصوفية . (1)

رابعا: مناظرة بين محمد السنوسي و أحمد بن زكري :

إن الحادثة التي خصص لها بعض الباحثين الأوروبيين بعض العناية، هي تلك المناظرة التي وقعت بين السنوسي و عصريّه أحمد بن زكري المتوفى سنة 900هـ/ 1494م. و كان بروسلار أول من نشر عنها .

لقد أسس الشيخ السنوسي تعليمه على العقل، و بيّن أنه على أساسه، يحكم على إيمان العباد . و لكنْ ماذا يكون موقفنا من السواد الأعظم، و هم العوام الذين يؤمنون بالواحد الأحد بالقلب لا بالعقل، بالتقليد لا بالتفكير؟

إن الأمّة فئتان، فئة تمثل الأغلبية و هم العوام، و فئة تمثل الأقلية و هم الخواص. **أما أصحاب الفئة الأولى، فيعتقدون في ربوبية الله تعالى، و يحسّون به من غير إدراك، لأنهم لا يطوقون التفكير العقلي. و أما الثانية، فتجمع أهل العقل .**

يرى أحمد بن زكري، على عكس السنوسي، أن المقلدين لا يجوز أن نقْسو عليهم، فنكفّرهم . فإذا كان معظم هذه الأمّة هم السواد الأعظم من المسلمين، فلا يعقل الحكم عليهم بالكفر على أساس أن المقلدَ ليس بمؤمن . أفلا يكفي الإيمان القلبي، هذا الإيمان القائم على القصد و النية؟ و الحقيقة التي يريد ابن زكري إبرازها، هي أن شعور المؤمن شعور سليم يحس بالله و يحبه، فيعبده من غير أن يكلّف نفسه عناء إدراكه . أفلا يكفي هذا، للحصول على أعلى المقامات عنده تعالى ؟ ثم أليس الله فوق كل ذلك، رحيما غفّارا، و لا يكلف عباده فوق طاقتهم ؟

و قد عبّر عن موقفه هذا، في منظومته في علم التوحيد (2) و هي النّظْم الذي اعتذر الشيخ السنوسي عن شرحه .

و هذه الحادثة، فصّل بروسلار فيها الكلام . و من جملة ما قال فيها : " ألا يكفي أن نملك الإيمان؟ و هل كل آمرئ مجبر على أن يكون متعلما أو يحضر دروس أساتذة؟

---

(1) J.BERQUE, L'Algérie, terre d'art et d'hist., p.172-173.

(2) و هي المنظومة الكبرى كما سماها ابن مريم في البستان (ص: 41)، و تحتوي على ألف و خمسمائة بيت.

ألا يكون الله طبقا لهذا، قد عزم على تعذيب أكبر عدد من الذين كتب عليهم العيش تحت رحمة الجهل ؟ أليس الإيمان هو النية، و أجتهاد القلب البسيط الذي يحس بربه، فيحبّه و يعبده من غير أن يعرفه حقيقة؟ و لكن، ماذا يهمّ؟ إن الله غفور يفرج البؤس على عباده، و لا يكلفهم بما لا يطوقون" . (1)

و يشير بروسلار إلى أنه وقعت أيضا، بين الرجلين مجادلة مشهورة أحدثت ضجة في أوساط المدارس آنذاك. و كانت هذه المجادلة تدور حول قضية منطقية. (2) كان المتناظران يتصارعان، بحيث كان القياس يقرع القياس، و آل الأمر إلى تجارُحٍ بليغ في المشاعر . و لكن الانتصار بقي مجهولا، و النتيجة غير مضبوطة. (3)

خامسا: مواضيع تفكير أبي عبد الله السنوسي :

عندما تقرر عند الأوروبيين الوقوف على أفكار السنوسي، انتقوا لهذا الغرض عيّنات من مؤلفاته، و ذلك إما لصعوبة كتاباته جملة أو لأنّ بعضها يوحي بأنه حامل لكامل مذهبه الفكري. و من الكتب التي حظيت أكثر من غيرها، بعناية خاصة لديهم، "السنوسية" أي العقيدة الصغرى، و "المقدمات" .

يرى بروسلار أن كتاب "السنوسية" هو أقرب كتب المؤلف من أفكاره و أكثر كتبه العقائدية الخمسة آختصارا (4) حيث يشتد التركيز على حساب الوضوح. و فيه يعرف المؤلف كيف يجرّد الأفكار بلطافة نادرة، فيبدأ بنظرة عامة في مفاهيم الوجود و اللاوجود، و الأزل و الزمان، و المتناهي و اللامتناهي، و المثال و الواقع، و الهيولى و الذات، و هي مواضيع لا ينكرها باحث من تلاميذ "كانط" أو "هجل" . (5) و في مجال آهتمامه بالمقدمات، سيثير الأستاذ لوسياني مع السنوسي، قضايا فكرية نتطرق إليها في وقتها .

---

(1) Revue africaine, n°28, année 1861, BROSSELARD.

(2) و لقد نقل هذه المجادلة قبل بروسلار، محمد أبو راس (1165هـ/ 1751م - 1233 أو 1238هـ/ 1817 أو 1822م) بشيء من التفصيل في كتابه، فتح الإله، ص: 141 .

(3) Revue africaine, n°28, année 1861, BROSSELARD.

(4) إذا كان المقصود بالآختصار، هو الآقتصاد في الكلمات، فإن أوجز العقائد الخمسة هي صغرى الصغرى إذ نقدّر عدد كلماتها بحوالي (730) في مقابل حوالي (1280) كلمة في العقيدة الصغرى.

(5) Revue africaine, n°28, BROSSELARD.

و من المواضيع التي شغلت الباحثين الأوروبيين، الحكم و الحرية و الألوهية و الصفات و شيء من تفسير القرآن و أخيرا، بعض خصوصيات الشيخ السنوسي .

1_ الحكم :

يرى ديلفين أن الحكم القطعي أو العقلي كما هو عند أرسطو، ينحصر في ثلاثة: الوجوب و الاستحالة و الجواز. و على هذا الأساس، يبني ابن يوسف السنوسي المنهج في عقيدته الصغرى، و هو منهج بسيط، و لكنه مصطنع. و إذا كنا نجد عند هذا المفكر، أفكارا لأفلاطون أو أرسطو، فهذا لا يعني أنه كان يعرف الفيلسوفين في مجمل مذهبيهما . (1)

و يخلص الأستاذ لوسياني، في تصديره لكتاب " المقدمات " ، و بعد تحليل محتوى الأفكار الواردة فيه، و خاصة منها الحكم، إلى أن الكاتب إنْ هو أعاد بعض التصورات المألوفة، فلسببين: الأول هو لأنه مضطر إلى مواصلة ما يعتقده السابقون له". أما الثاني، فيتمثل في المحيط الذي كان يحاصره . (2)

2_ الحرية :

و في قضية الحرية، و دائما في تحليلاته للمقدمات، يهتم الأستاذ بالطريقة التقليدية التي انتهجها السنوسي ، و هي : أولا : أطروحة الجبرية" وثانيا : أطروحة القدرية". و أخيرا : أطروحة الكسب ، و هو المذهب الذي يأخذ به الشيخ ، لأنه جامع بين الحقيقة والشريعة. و مع هذا، **فإن لوسياني ــ بغية الاجتهاد في** توضيح معنى الكسب ــ يرى، و هو هنا يُجمل الشرح السنوسي في القضية، أن العبد يحاسبه الله على نيته، لا على فعله ، ما دام الله هو الذي يخلق فيه الفعل . (3)

و في قراءته للسنوسي في هذه المسألة، يصل بروسلار إلى أن الله يعلم و يريد و يقدر. و الصفات الإلهية الثلاث متوالدة، الواحدة عن الأخرى". و بهذا الثالوث المتناسق

---

(1) Journal asiatique, IXè série, 1897, DELPHIN; Voir aussi, Revue africaine, t.41 & 42, année 1897-1898, J.D. LUCIANI.

(2) Les Prolégomènes théologiques de Senoussi, LUCIANI, préface.

(3) Les Prolégomènes théologiques de Senoussi, LUCIANI, préface.

تنشأ العناية الإلهية. و قبل أن يصل إلى رأي السنوسي في حد ذاته، يتوسع في مشكلة الحرية مع كل من القدريّين و الجبْريين. و عند ما يأتي إلى رأي الشيخ، يقرّر أنه مستوحى من بعض رجال السياسة أمثال الموحّدين، و يعرضه لا كما أراده صاحبه، وإنما كما قرأه هو من كتب الاشاعرة عامة، و يخلص إلى نتيجة، و هي آن ضعف المسلمين، سببه الاخذ بهذا المذهب الاشعري في الحرية. (1)

و في نفس السياق، يرى جاك بيرك أن السنوسي وجد لقضية حرية الإنسان حلولا لَبِقة إذ أن الإنسان مجبور بالنظر إلى أعماله، و لكنه حرّ بالنظر إلى نياته". و بهذا، لم يعد كائنا محلّ الاتفاق و المصادفات (2).

3- الالوهية:

إن الفهم الذي وصل إليه ديلفين بشأن البرهان على وجود الله، يلخصه على الشكل التالي: إن البرهنة الانطولوجية كما صاغها المدرسيون، تقوم على فكرة الكمال: و هي أن الله تعريفا، هو الكائن الذي له جميع الكمالات". و إذا كان الوجود صفة من صفات كماله، فإن الله إذن، يملك الوجود.

إن ابن يوسف السنوسي يطرح الله ككائن مطلق أي ككائن حرّ، فيؤسس البرهان على وجود الله - قبليا - على استقلاله، ثم يستنتج فكرة الكمال من هذا الكائن المطلق. (3)

و هذا ليس برهان القديس اللاهوتي "أنسلم" المتوفى سنة 1109 م، و لا هو برهان الفيلسوف ديكارت. إن الله كائن ضروري لأن العالم من دونه، يكون لغزا غير مفهوم". فالله إذن، موجود". و الحجة الجوهرية على وجوده، تعود إلى وعي الفكر البشري باستحالة عدم إدراكه. و على أساس هذه الحجة، تنتج كل المقدمات الاخرى بنفسها.

فالله ليس مجرد مفهوم". إنه واقع موضوعي، كائن موجود يفرض نفسه على موازين

---

(1) Revue africaine, n°28, année 1861, BROSSELARD.

(2) J. BERQUE, L'Algérie, terre d'art et d'histoire, p. 173.

(3) نحن نكتفي بتسجيل فهم الاوروبيين للسنوسي كما عبروا عنه في كتاباتهم. و إذا ظهر فيه بعض التقصير، فنحن سنختبره في القسم الثالث من هذا الفصل.

العقل".فهو قوة حية و محركة،يحافظ على مخلوقاته و ينظمها .فـفكرة الله تنبجس لحواسنا و من ثمة،لعقولنا بهذا التقابل الثابت الموجود بين ما هو ظاهري و حسّي و قابل للإدراك،و ما لا يمكن أن يُرى و لا أن يلمس إلا بالفكر الذي يميل إلى الارتقاء من المعرفة الواقعية إلى تصور المثال .

و على ضوء هذه البرهنة،يثبت السنوسي أنه حقا،رجل منطق حاذق،يعرف كـيف يستخدم استخداما فنيا معتبرا،الطريقة الاستـنتـاجية التي انتشرت في الفكر المدرسي". و عندما يفكر السنوسي بالقياس،يكون في حقله،لأنّ به يجري الجدال و يصيب النقاش. (1)

4- الصـفات :

و في هذه النقطة، نعرض تصور ديلفين لبعض صفات الله لدى السنوسي ،و كيف ردّ عليه الأستاذ لوسياني .

يقول ديلفين: إن السنوسي يحصي بعد وجود الله،ست صفات و يسميها صفـات سلبية،و بالإضافة إلى هذه الصفات السلبية الست الأولى ،يحصي سبع صفات أخـرى، و يسميها صفات المعاني أو " الصفات الواقعية " .و عن صفة الحياة،فإن السنو سـي يرى أنها صفة،بها تكون للموصوف القدرة على الإدراك .و هذا في نظر ديلفين،تعريف قاصر،إذ أن الحياة قد توجد من غير إدراك،اللهمّ إلا إذا سُمح لنا بترجمة لفـظ الإدراك بلفظ لايبنتز و هو(Aperception) أي وعي الذات لذاتها،و هو أمـر غـير معقول . (2)

و ردّا على ديلفين،و محاولة منه في التقرب إلى فكر السنوسي ،يقول الأستـاذ لوسياني : إن علماء الكلام العرب يميزون في الصفات،بين مجموعتين: الأولى تضم الصفات التي لها علاقة موضوعية،أي تعلّق خارجي".أما الثانية،فإنها تمثل الصفات التي ليْسـت لها علاقة .فصفات المجموعة الأولى هي صفات عاملة،لها تارة،تعلق تأثير مثل القدرة

---

(1) Journal asiatique, IXè série, 1897, DELPHIN.

(2) Journal asiatique, IXè série, 1897, DELPHIN.

و الإرادة و تارة، تعلّق انكشاف مثل العلم (L'intelligence) و السمع و البصر و تارة، تعلّق دلالة مثل الكلام. أما الصفات التي ليس لها تعلق أي الصفات الثابتة، فلا تتضمن إلا الحياة. و تعلق الصفات الاولى يكون إما تعلقا تنجيزيا أو تعلقا صلوحيا. فالإرادة مثلا، لها تعلّق توقعي كامن أي تعلق صلوحي و تعلق تنجيزي راهن. و لكن، سواء كان التعلق كامنا أو راهنا، أي سواء كان الموضوع المراد معطى أو غير معطى، فإنه صفة واقعية دائما. (1)

5 - تفسير القرآن:

يضع جاك بيرك الشيخ محمد السنوسي في التفسير، ضمن طبقة المنزّهين لله و المحبين للتأويل. و لقد أسس حكمه هذا، على ما قرأه في المقدمات متنًا و شرحا. ففي ما يتعلق بالتجسيم الظاهر في القرآن، فإن الشيخ يحاربه و يهذب الشروح العقلية التي يقترحها أكثر أساتذة السنة تسامحا. فالآية 46 من سورة الحديد، "و هو معكم أينما كنتم"، تقتضي مثلا، أن نحملها على الشكل التالي: إن الله مهما كان مع الناس في نقطة من المكان، فهذا أمر ممكن. و لكن المعيّة بالتحيز و الحلول بالمكان هما من صفات الأجسام. فيتعيّن البحث عن معنى آخر غير المعنى الظاهري. و لكن هذه الآية لا تقبل إلا تأويلا واحدا دلّ عليه السياق، و هو أن الله يعلم و يرى و يسمع كل ما يتعلق بالناس. (2)

و تطرق غاردي و قنواتي في كتابهما "فلسفة الفكر الديني" إلى التفسير و علم الكلام بالاعتماد على بعض ما جاء في كتاب شرح المقدمات للسنوسي. و أبرز ما جاء به في هذه النقطة، أن "الاشاعرة يظهرون اهتماما بالغا بأن ينفوا كل تشبيه محتمل بين الله و المخلوق". ثم إنهم اضطروا بعد ذلك، إلى أن يسلموا من هذه الناحية، بجواز ثلاثة مواقف:

الموقف الأول: هو الذي ألزمه السلف. إنه ينفر من التأويل و يلجأ إلى التفويض.

---

(1) Revue africaine, t.41 & 42, année 1897-1898, LUCIANI.

(2) J. BERQUE, L'Algérie, terre d'art et d'histoire, p.206.

فأنصاره لا يجسمون و لا يشبهون، فهم يسلمون بأن الله آستوى على العرش...و أن له عينا و يدا ...لكنهم يصرّحون بأنهم يجهلون مراد الله تعالى من هذه الآيات.و لقد نسبوا هذا الموقف إلى الإمام مالك بن أنس.(1)

الموقف الثاني: و قد يبذل المتدبّر لكلام الله جهدا أوليا، فيسلم بأن تلك التشبيهات تدل حقا على أفعال أو صفات يمكن أن تنسب إلى الله.(2)

الموقف الثالث: "ثم كان من تأثير خصومهم، معتزلة ثم فلاسفة، أن عدلوا إلى موقف ثالث هو موقف الخلف أو المتأخرين الذين جوّزوا التأويل". و يقول الإمام السنوسي: أن إمام الحرمين ذهب إلى هذا التجويز.(3)

6- بعض خصوصيات الشيخ السنوسي:

من خلال قراءتنا لمقالات الدارسين الأوروبيين للفكر السنوسي، استطعنا أن نجمع ثلاث خصوصيات سجلوها للشيخ السنوسي، و هي: الذوق الفلسفي، و الفكر المنطقي و العقلاني، و المنهجية الصارمة.

يقول ديلفين: إن السمة التي يتميز بها هذا المؤلف هو الصفاء الذي يعالج به أهم القضايا العقائدية التي كانت تشغل المذهب.و فضله هنا، يكمن في كونه درسها بـذوق فلسفي مع عدم الاكتفاء بالكلمات فقط، كما هو الشأن لدى كثير من معاصريه. و كان فوق ذلك، في تقدم كبير على عصره.

و لا يسعنا أن نمدحه على عقيدته الصغرى - و هي موضوع آهتمامنا - إلا بقدر ما نلاحظ أنه حملنا أكثر من مرة، إلى عتبة الفلسفة الحديثة.(4)

و يعتقد جاك بيرك أن الذي يلفت الانتباه في فكر السنوسي، هو تنظيم البراهين و إخضاع اللامعقول للعقل.(5)

---

(1) و هنا يرجع المؤلفان إلى شرح المقدمات و يصرحان بمرجعيتهما.

(2) و قد أورد السنوسي هذا المذهب في المرتبة الثالثة. انظر شرح المقدمات، للوقوف على هذه المذاهب الثلاثة، في الصفحة، 133 و ما بعدها.

(3) يضع السنوسي هذا الموقف، في المرتبة الثانية.

انظر ترتيب هذه المواقف عند، قنواتي و غاردي، فلسفة الفكر الديني، الجزء الثالث، ص: 190-191.

(4) Journal asiatique, IXè série, 1897, DELPHIN.

(5) BERQUE, L'Algérie, terre d'art et d'histoire.

و لقد عبّر الأستاذ لوسياني، في تحليله لشرح المقدمات و التعليق عليه، عمّا يراه متميزا في مؤلفه، هذا ملخصه: إن الشيخ السنوسي يبدأ دائما، في تآليفه العقائدية، **بالحكم العقلي**، و على أساسه **يبوّب مذهبه و يفصّل مسائله** . و في كتابه "شرح المقدمات" نلمس جانبا من الأصالة رغم ما يثيره ترتيب بعض مسائله من تساؤل . (1)

و في الخاتمة، إن القارئين الأوروبيين للسنوسي في بعض مؤلفاته المشهورة و خاصة منها العقائدية ـ سواء كانوا محذّرين أو على غير علم بما شاع في كتاباته من صعوبة الفهم ـ لا يخفون أنهم يقرؤونه من خلال مقاييس جاهزة. فلقد لمسوا في مذهبه الأشعري و تصوفه العنبري، سمات غربية من فكر منطقي صوري، و روح فلسفية مدرسية، و طهارة أخلاقية مسيحية . و كأن هذه السمات في رأيهم، وقف على الغربيين وحدهم دون غيرهم . أما ما يشذّ عن هذه القواسم في الفكر السنوسي، سواء كان أصيلا أو سفيلا، فلا بدّ من أنه مستهجن أو في بعض جوانبه، متهم بما يصيب المسلمين من تأخره

---

(1) ملخص من .... Les Prolégomènes théologiques de Senoussi, LUCIANI, préface:

القسم الثالث: نقد المؤلفات العربية و الأوروبية

الجزء الأول : نقد المؤلفات العربية في السنوسي

الجزء الثاني: نقد المؤلفات الأوروبية في السنوسي

الجزء الأول: نقد المؤلفات العربية في السنوسي

أولا: النقد المباشر للمصادر العربية

1- من حيث طريقتها

2- من حيث محتواها

3- النتيجة

ثانيا: الاهتمام المعاصر و طريقته في الاقتراب من السنوسي

1- أفول نجم السنوسي

2- حقّ السنوسي في ردّ الاعتبار

3- الاهتمامات المعاصرة

إن المصادر العربية التي حملت أخبار أبي عبد اللـه السنوسي، لا يخفى تأثيرها على العوام و الخواص من حيث المادة التي احتوت عليها، و من حيث الطريقة التي انتهجتها في عرضها و تقديمها .فمن حيث المحتوى، يبرز شرف نسبه و اتساع علمه و صلاحه، و طيبوبة أخلاقه، و زهده في الدنيا، و إدراكه لمقامي التصوف و الولاية. و من حيث الطريقة، يبدو أن مسلمات المؤلفين العرب ــ مهما كان الاختلاف بينهم في نوعها ــ تقود الآخذ بها إلى أن السنوسي، لا يعدو أن يكون مجرد وليّ صالح تصدر عنه الخوارق، و مجرد متعفّف عائش في الخلوة، و هارب من الدنيا، رغم اشتهاره بصاحب التوحيد و في مختلف علوم الظاهر.

فكيف يمكن تقويم هذه الأخبار مضمونا و شكلا؟ و هل الاهتمامات المعاصرة كفيلة بالإحاطة بفكر السنوسي و إنصافه؟

أولا: النقد المباشر للمصادر العربية

إن كلام المؤلفين العرب في أخبار السنوسي، لا يخرج عمّا ألفه الناس من قوالب شائعة: **كشرف النسب و الصلاح و الزهد .و هي قوالب** تذهب بكثير من خصوصيات الرجل، ما دام كلهم صلحاء، الأولياء و المترجمون لهم على حدّ سواء .فهؤلاء و أولئك يلتقون معا، في ساحة التصوف حيث يختلط المعقول باللامعقول، و حيث يقوى الميل إلى حب الخوارق، و تضعف روح النقد و التفكير الصحيح .و لقد وضعوا للولي المتصوف علامات تدلّ عليه، كمقت خدمة السلاطين و التذلّل لهم، إضافة إلى خرق مبادئ العقل و نواميس الطبيعة.

فكيف إذن، يمكن إنصاف السنوسي، و قد تهيأت للباحثين كل القوالب الإبيستيمولوجية الجاهزة؟ فهل الشرف الحقيقي هو في الانتماء إلى البيت الشريف، أم فيما ينتسب إليه من تأليف؟ و هل الصلاح هو في التصوف أو بالتصوف أو للتصوف أو هو كل ذلك؟ و أخيرا، كيف يمكن تحويل الشيخ أبي عبد الله باعتباره " عقل التوحيد "، إلى

مجرد قلب ينفتح على الاستسلام المطلق لله؟

1- من حيث طريقتها:

أ- المسلمات:

يمكن مناقشة المؤلفات العربية في هذه المسلمات الثلاث، وهي أنه لا بد من أن يكون العالم شريفا، و مبجلا بعدد من الألقاب، و مثالا في الفضائل.

في المسلمة الأولى، انطلق كثير ممن نقلوا أخبار السنوسي من أنه شريف الأصل ينتمي إلى الشجرة الحسنية من جهة أم أبيه، ليس لأنه بربري فقط، و يبدو منه الطريق إلى البيت الشرفي مسدودا، و لكن أيضا، لإلحاق أصله إلى البيت النبوي من جهة فاطمة الزهراء بنت الرسول (ص)". و ثبوت الشرف من قبلها، له ما يؤيده لدى المحققين". فثبوته عن طريق الأم هو عندهم، أقوى من ثبوته عن طريق الأب".و لا يعارض هذه "الحقيقة" إلا من كانت له في الأمر، تصورات سياسية أو معرفة دنيوية. (1) و يبدو أنه لإزالة الشك و رفع كل تأويل في شرف السنوسي، ذهب العشماوي إلى اعتباره شريفا من جهة والديه معا. (2)

وفي المسلمة الثانية، و تبعا لطريقة التأليف و روح العصر، راحوا أيضا، يقدمون الشيخ في إطار ألقاب شائعة و مفاهيم عمومية محددة تخفي الكثير من خصوصياته.

جاء في البستان لابن مريم على لسان محمد الملالي و هو يتكلم عن شيخه: إنه العالم الصالح الزاهد، الشيخ العلامة المتقن، الولي الصالح ابن الشيخ الصالح الزاهد أبي يعقوب".كان آية في علمه و هديه و صلاحه و سيرته و زهده و ورعه. شارك غيره في العلوم الظاهرة و انفرد بالعلوم الباطنة".فهو في علوم الباطن قطب رحاها و شمس ضحاها. (3)

---

(1) راجع الجزء الثاني من القسم الثاني من الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث.

(2) أحمد العشماوي، كتاب الأنساب، مخطوط، ص: 49.

(3) ابن مريم، البستان، ص: 238.

إن هذا الكلام المدبّج لا يختلف كثيرا، عما ألفه الناقلون للسير في تعابيرهم. فمن يتصفح كتاب البستان ـ على سبيل المثال ـ لا يفوته أن يلاحظ رسوخ هذا الأسلوب في التعريف بمن يترجم له. و هو أسلوب تأثر به المؤلف من قراءاته لمصادر سابقة أو قديمة، منها: "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" للشيخ أحمد بابا السوداني، و "بغية الرواد في أخبار الملوك من بني عبد الواد" ليحيى بن خلدون، و تقييد سيدي محمد السنوسي في "مناقب الأربعة المتأخرين"، و "روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين" و "النجم الثاقب" لابن صعد، و "الكواكب الوقادة فيمن كان نسبته من العلماء و الصالحين القادة". (1)

جاء في البستان عن الشيخ أحمد بن زاغو: هو "الشيخ العالم الفاضل، الولي الصالح، الصوفي الزاهد"، [...] "له قدم راسخة في التصوف مع الذوق السليم و الفهم المستقيم، و به يضرب المثل في الزهد و العبادة". و عند كلامه، يقف الفتى في الأذكار و الإرادة، مقبل على الآخرة، معرض عن الدنيا عار عن زخرفها". (2)

و عن الشيخ أحمد زروق، نقرأ ما يلي: "الشيخ الإمام، العالم الفقيه، المحدث العلامة الصوفي، الولي الصالح، الزاهد، القطب، الغوث العارف بالله...". (3)

و عن إبراهيم التازي، نقرأ أنه "الإمام، العالم العلامة، الناظم البليغ، الولي الورع، الزاهد الصالح، الناصح العارف، القطب، صاحب الكرامات و الأحوال البديعة". (4)

و جاء في سياق الكلام عن الشيخ إبراهيم محمد المصمودي أنه "الشيخ، العالم الولي الزاهد، رئيس الصالحين و الزاهدين في وقته، صاحب الكرامات المأثورة و الديانة المشهورة، الوليّ بإجماع، المجاب الدعوة". (5)

و قل الشيء نفسه، في أبي عبد الله الشامي (6) و بالقاسم الزواوي (7) و الحسن

---

(1) ابن مريم، البستان، ص: 314.
(2) ابن مريم، البستان، ص: 41ـ42.
(3) ابن مريم، البستان، ص: 45.
(4) ابن مريم، البستان، ص: 58.
(5) ابن مريم، البستان، ص: 64.
(6) ابن مريم، البستان، ص: 70.
(7) ابن مريم، البستان، ص: 71.

أبركان (1)، و غيرهم كثير.

فكلهم إذن، علماء، و كلهم صلحاء، أهل تصوف و علم الباطن. و نظرا إلى ما كان يسود عصر هؤلاء العلماء و المترجمين لهم معا، من علوم الباطن، فإنه لا غرابة أن تكون السير مصطبغة بروح من الزهد أو التصوف تقديرا لأهله. و رغم أن السنوسي كان جامعا للعلوم الدنيوية و العلوم الأخروية، فإن شراحه و محشيه، فضلا عن مترجميه، قد مالوا إلى التنويه بعلومه الأخروية و خاصة منها التصوف. فالبيجوري مثلا، و الدسوقي، و التنبكتي (السوداني)، و يحيى الشاوي، و محمد عليش، و محمد الملالي، و ابن مريم، كلهم كانوا معروفين بحبّهم للزهد في الحياة و تقديرهم لأهله.

فآبن مريم يعتبره تلميذه عيسى البطيوي **إماما صوفيا** و "**سنوسي زمانه**". لقد ألف ما يقرب من آثني عشر كتابا في التصوف. (2) و قد أفرد الملالي في ترجمة شيخه، فصلين على الاقل، من كتابه "المواهب القدسية"، للحديث عن تصوف الشيخ، فضلا عن تطرّقه في المقدمة، **لأحوال** الأولياء في الدنيا "لتنشيط سماع ما سيأتي". (3)

وفي المسلّمة الثالثة، وعلى هذا الأساس، نفهم اللغة التي كتبوا بها في شأن كل العلماء و الأولياء. و لكن، لنا أيضا، أن نسأل – عند تشابه المفردات و تطابق الفضائل في كثير من السير – ماذا بقي للشيخ السنوسي من خصوصيات؟ فعن الصبر

---

(1) ابن مريم، البستان، ص: 74.
(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2. ص: 126.
(3) أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص: 120.
إن خطة كتاب محمد الملالي – على ما قال الأستاذ سعد الله – تتضمن العناوين التالية:
مقدمة: في دراسة أحوال الأولياء في الدنيا لتنشيط النفوس لسماع ما سيأتي:
1– في التعريف بأشياخ السنوسي.
2– في مكاشفاته و كراماته.
3– عمله و شمائله و زهده.
4– في تآليفه.
5– في جملة من الآيات فسّرها.
6– في جملة من الأحاديث النبوية فسّرها
7– في تفسيره لأهل الحقيقة.
8– في أوراده و أدعيته.
9– في وفاته.
10– فيما قاله من الشعر و ما قيل فيه.
(أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 1. ص: 66–67.)

مثلا، نقرأ في شأن إبراهيم التازي ما يأتي:

"إذا آمتلأ أحدهم غيظا، قال: لو كنت في منزلة سيدي إبراهيم التازي، ما صبرت لهذا، لما كان يتحمله من إذاية الناس و **الصبر** على المكاره و اصطناع المعروف". (1)

و نقرأ في شأن السنوسي ما يلي: " ما رأيت أحسن خلقا، و لا أوسع صدرا و أكرم نفسا [...] منه [...] مع شفقته على الخلق و قضاء حوائجهم عند السلطان و **الصبر** على إذايتهم". (2) و "كان مع ذلك حليما، كثير **الصبر**، و ربما يسمع ما يكره، فيتعامى عنه، و لا يؤثر فيه بل يتبسم حينئذ، و هذا شأنه في كل ما يغضبه، لا يلقى له بالا بوجه، و مع ذلك، لا يحقد على أحد و لا يعبس في وجهه". (3)

و في شأن سلسلة المفردات أو العبارات المتشابهة، نذكر النماذج التالية:

فعن محمد بن محمد المديوني أبي السادات، يكتب ابن مريم أنه" القدوة الذي لا يسمح الزمان **بمثله** أبدا". (4) و يكتب عن محمد بن محمد الأدغم السويدي أنه "الفقيه الجليل الولي الصالح العارف بالله الذي لم تلد النساء **مثله**". (5)

و نقرأ في هذا الشأن عن السنوسي أنه كان يفر كثيرا إلى الخلوات (6) و كان **أروع أهل زمانه**، يبغض الاجتماع بأهل الدنيا و النظر إليهم. (7) و لا شك أنه لا يوجد **مثله** أبدا. (8)

فلقد اختلطت المفاهيم و ذابت الحدود بين العلماء و الصلحاء، و أصبح التقويم للأشياء المختلفة يجري بمقاييس غير مختلفة.

و على ضوء هذه الملاحظات، ندرك المسلمات التي آنطلق منها المؤلفون العرب بصورة تلقائية و آلية، و من ثمة، تتحدد الاحتياطات التي يجب أن نتخذها كباحثين في المستقبل.

---

(1) ابن مريم، البستان، ص: 59.
(2) ابن مريم، البستان، ص: 240.
(3) ابن مريم، البستان، ص: 242.
(4) ابن مريم، البستان، ص: 286.
(5) ابن مريم، البستان، ص: 287.
(6) ابن مريم، البستان، ص: 239.
(7) ابن مريم، البستان، ص: 241.
(8) ابن مريم، البستان، ص: 240.

ب- مقتضيات الفكر الانقيـادي :

يمكن تحديد هذه المقتضيات على مستويين:

المستوى الأول: إن الإيمان بهذه المسلمات تصطحبه مقتضيات إبيستيمولوجية خاصة، كالانقياد لمنطق الذوق و النفور من منطق العقل. فلا نقد و لا نظر، و لا كبيـر اعتـقاد في مبادئ انطباق الفكر مع العقل و مع الواقع، وهو أمر يهيئ أسبـاب الاستعداد لقبول شتى أنواع الخوارق.

فلا يجب أن ننتظر من المترجم في هذا المناخ الثقافي و النفسي المشحون بالروحانيات، أن يتساءل: كيف يمكن للمرء أن يقيم علم التوحيد على أساس العقل و يكون في آن واحد، من أهل القلوب و المواجد؟ و كيف يتأتى الاقتراب من المعبود من غير إثبات وجوده و صفاته بالدليل المقنع؟

إن المتصوف في عصر السنوسي، هو الولي الزاهد الذي يقـلّد في كل شيء، في أقواله و أفعاله، أو كما يقول أحمد زروق، في أقواله لا في أعماله، و يطاع " في كل أمرٍ بان رشدُه أو انبهر"، ذلك لأنّ الخير في خطأ الشيخ الـولـي لا في إصابة التلميذ . (1)

المستوى الثاني: و عليه، فلا سببية و لا علة و لا معلول، و لا سابق ولا لاحق. فقد تتهيأ الظروف لإفراز نتيجة ما، و لكن، قد لا تقع النتيجة دون شروطها و مقدماتها. إن قواعد العقل ليست مطلقة، و قوانين الواقع ليست بيد الواقع. فالاعتقاد المطلق في الله الواحد القادر القـهار، هو وحده المبرر الديني و العقائدي لهذا التصور. و لا عجب إذا كانت كتب المؤلفين العرب - في هذا الموضوع - محشوة بالقصص الخـارقة للعادة، كالخرافات و الأساطير و كرامات الأولياء، (2) فتسجلها دون أدنى محاولة في الشك و التشكك، و النقد و التمحيص. فليست الغرائب عجائب إلا لمن خرج من هذا المناخ الروحاني و قطع صلته به، و صـار لا يشعر بالحاجة إلى إدراك عـلامـات الولاية، و إلى الاقتراب من تلك المواضـيع التي يعلو شأنها عند انسحاب التفكيـر

(1) أحمد زروق، وصية مباركة، مخطوط بمكتـبة ثانوية المشور، تلمسان، رقم، 83-70، ص: 02.
(2) عد إلى موضوع " خوارق و معتقدات " من بحثنا هذا.

العميق و التحليل الدقيق .

2- من حيث محتواهـا :

و إذا كانت الطريقة المنهجية تنطلق من روح العصر و إيمان الناس بالخوارق وتقديسهم للأولياء، فإننا نستطيع أن نستشفّ مضامين المصادر العربية التي تناقلت أخبار السنوسي .

أ- رواية القصص الخارقة:

لقد خصص ابن مريم لترجمة الشيخ، حوالي عشر صفحات في كتاب البستان، و نثر فيها، عشر خوارق على أساس خارقة واحدة في كل صفحة، و هي :

الخارقة الأولى: يوم ألبسه إبراهيم التازي الخرقة، و بصق في فيه .

الخارقة الثانية: رؤية السنوسي في المنام، عمر بن الخطاب .

الخارقة الثالثة: دعوته بالخلاء على مسكن رأى فيه منكرا .

الخارقة الرابعة: كتابته ثلاثين كتابا بلا فترة، وفي بعض الأيام .

الخارقة الخامسة: ذكره أن الله أطلعه على جهنّم و ما فيها .

الخارقة السادسة: اللحم الشارف .

الخارقة السابعة: انحلال البيت.

الخارقة الثامنة: الإصابة بالعين .

الخارقة التاسعة: إقراء إبراهيم الخليل عقيدة السنوسي لصبيان الجنّة .

الخارقة العاشرة و الأخيرة: نومه ساعة واحدة في اليوم، في أكثر حاله .

و هذا ليس بالعدد الكثير، لأن له - كما يقول ابن مريم - "كرامات عديدة لا تحصى، و لو لا الإطالة لذكرناها" . (1). و هذا لا ينفرد به الشيخ السنوسي وحده، و ليس خاصا بكتاب البستان، إذ تجد ذكر شتى الخوارق من أساطير و خرافات وتقاليد شعبية، عند ابن صعد، و الملالي، و الصبّاغ، و القلعي (2)، و آخرين نقلوا عنهم و عن

---

(1) ابن مريم، البستان، ص: 245 .

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2. ص: 125 .

غيرهم .

ب- النفور من أهل الدنيا:

و إلى جانب الكرامة، راح المؤلفون العرب يبررون ولاية السنوسي، و من سمة زهده و تصوفه، بنفوره من التعامل مع الحكام و السلاطين، و هروبه من أهل الدنيا. فوجدوا في نقمته من زمانه الفاسد و نفوره من رجال الحكم و السياسة، استعدادا للانسحاب من الدنيا و الانزواء إلى الخلوات.

فلو اجتهدنا في جمع أخبار بعض الصالحين من العلماء في هذه النقطة، و قابلناها بأخبار السنوسي، لوجدنا أن المؤلفين العرب يسعون إلى إبراز أمرين اثنين: الأول هو أن الذين يبحثون عن الدنيا، مقبلون على أسبابها و معرضون عن الخلوات، فيطلبون الجاه و يتعاملون مع أهله. الثاني هو أن أولياء الله يعيشون للتصدق، لا يقبلون هدية من سلطان و لا ينتظرون عزة منه.

فعندما كان الحافظ محمد التنسي يتقرب إلى الملوك الزيانيين، بكتابه " نظم الدر و العقيان في شرف بني زيان"، و كان الشاعر ابن عبد الرحمن الحوضي يسخر قريحته الشعرية خدمة للسلطان أبي عبد الله الزياني، (1) " كان رجال من أمثال عبد الرحمن الثعالبي، و تلميذه أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري و معاصرهما محمد السنوسي، [قد] اختاروا حياة العزلة و التصوف و ترك الدنيا لأصحابها و الاهتمام بعلوم الآخرة" . (2)

و ما يتصف به هذا الولي من صفات العفة و العزة بالنفس، نجد ما يشبهه عند ذاك. ففي رد الهبة من الأمراء، التزام بتقاليد النسب الشرفي و إشارة إلى الترفع، و السمو إلى الله. و بين ما أورده ابن مريم عن الحسن أبركان، و ما أورده عن تلميذه السنوسي تقارب يدعو إلى التفكير. فالولي الأول يرفض أن يأكل من زكاة أو حبس، و لا من يد حاكم. و يتميز الثاني أيضا، بمقته الشديد لعطية السلطان و أصحابه.

(1) كان التنسي و الحوضي مداحين معروفين للسلاطين. فكلاهما ينشد المال و الجاه و الحظوة في بلاطهم. (انظر، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 1. ص: 48).

(2) أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص: 33.

جاء في البستان في شأن الحسن أبركان:

" و كان من ورعه رحمه الله تعالى، أنه لا يأكل من الزكاة و لا من الحبس عموما، و لا يقبل من الجند شيئا أصلا، و لا يقدر خدامه و لا ولده أن يقبلوا منهم شيئا. و قد حكى الشيخ أحمد بن يعقوب الخالدي أنه زاره يوما مع السلطان أبي محمد ابن أبي تاشفين، و كان وزيرا له، قال: فرفع السلطان إلى الشيخ بطنية، فيها مال كثير، و أنا لم أعلم بها. فلما خرجنا من عند الشيخ، وضع السلطان البطنية في موضعه و لم يتجاسر أن يضعها في يد الشيخ هيبة له ثم رآها الشيخ، فظن أن السلطان نسيها في ذلك الموضع، فبعث ورائي، و قال لي: ما هذا الذي ترك صاحبك؟ فقلت له: يا سيدي، لا علم لي به. فأتيت السلطان و قلت له: إن الشيخ بعث ورائي و سألني عن البطنية التي تركتها في موضعك. فقال: نعم، تركتها على قصدي، و غرضي أن يفرقها الشيخ أو يفعل بها ما شاء. فذهبت إلى الشيخ، و أعلمته بما قال السلطان. فقال لي: و الله لا تبقى و لا أفرقها [...] و لما قدم السلطان أبو فارس على تلمسان و أخرج سلطانها، بعث القائد عرعارا بخمسة آلاف شاة ملء القصّارين بها، و جاء إلى الشيخ يطلب منه أن يفرقها على المساكين، فنهره نهرة أصابته منها الحمى مدة، وردّها إلى السلطان. و صار يدعو في آخر عمره، أن يقبضه الله سبحانه إليه قبل أن يأكل من أحباس المدرسة، يعني أكله من غير علم منه". (1)

و جاء في البستان في شأن السنوسي:

" و لا يقبل عطية السلطان و من لاذ به، و ربما تأتي لداره و هو غائب، فإذا جاء و وجدها، أنكر على أهل داره و تغير كثيرا، و يقبل عطية غيرهم و يدعو لهم. و كان رفيع الهمة عن أهل الدنيا، يتطارحون عليه، فيعرض عنهم. و قد أتى إليه ابن الخليفة يوما و معه عيْن، فقبّل يديه و رجليْه، و طلب منه قبولها، فتبسّم في وجهه و دعا له و أبى، فلما أَيِس منه، قال له: تصدق بها يا سيدي على من شئت من الفقراء، فامتنع منها". (2)

---

(1) ابن مريم، البستان، ص: 89_90.

(2) ابن مريم، البستان، ص: 241.

وهكذا،فالسنوسي كان لا يرتاح إلى عصر عمّ فيه الفساد و انتشر، و لا يطمئن إلى حكام كان همهم تسخير العلماء خدمة لمآربهم الدنيوية و السكوت عن المنكر و الحجب بين المعروف. و ليس من العلماء من هم أكثر شرا من علماء السلاطين كما قال القاضي محمد المقري (1) أستاذ ابن خلدون. و عليه، يتعين الاهتداء إلى الزهد، و الدخول في التصوف حيث يجد المرء السكينة، و حيث لا ظلم و لا طغيان. و من الكلمات التي قالها السنوسي و فتح بها ابن مريم كتابه "البستان" [...] يستحيي كثير منا أن ينسب بالتلمذة لمن كان خاملا، و يكون جل انتفاعه بذلك الخامل، فيعدل عن الانتساب إليه إلى من هو مشهور عند الظلمة". (2) و يقصد بالخامل، الولّي الصالح الذي لا تهمه الشهرة و لا يطلب الجاه من الظلمة أي من الأمراء.

ويعّني هذا،أن دليل العلماء الصالحين على بلوغهم درجة الولاية، خرقُهم للعادة و هجرهم لدار الغرور و إعراضهم عن مغريات الحكام و السلاطين. و الشيخ السنوسي لا بدّ من أن يكون من هذا الصنف من العظماء الأجلاء، و لئن شاعت عنه التآليف العقائدية في علم التوحيد و المنطق.

3- النتيجة:

و الاهتمام الذي أولاه المؤلفون العرب للسنوسي من هذه الزاوية، جعلهم يهملون فيه جوانب أخرى، و يطرحون على جهة، عددا ليس باليسير من مؤلفاته المختلفة و المتنوعة. و لهذا، فلم يطلّ على الشيخ إلا من وجهة نظر ضيقة، و من خلال بعض النصوص القليلة، و في غالب الأحيان عن طريق شروحات الشارحين الذين ينقل بعضهم عن بعض. و مما يميز أعمال الباحثين أيضا، ندور الرجوع إلى نصوص الرجل مباشرة، و ضعف منهجهم في فهمها، و هو منهج لا يسهّل مهمة الإصغاء إلى ما يقول صاحبها بنفسه، و لا يمكّننا من إدراك ما كان يريد بها أن يكون.

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 1. ص: 45، نقلا عن أحمد الونشريسي. في المعيار.

(2) ابن مريم، البستان، ص: 07.

لقد انخدع بعض الباحثين عندنا، بعفوية الطريق الذي انتهجه السابقون في أخبار السنوسي، و ببروق محتواه حتى أنهم وقعوا في اللبس و الاضطراب، وحملهم حب التراث إلى غاية الإطراء.

إن ما أورده الأستاذ أبو القاسم سعد الله في كتابه " تاريخ الجزائر الثقافي " بشأن السنوسي و ما يتعلق به، لـيدعو إلى بعض الحذر. وذلك لأن الكلام عن التصوف عند الشيخ، يبدو ـ بعد التحليل ـ أن الكاتب يرجعه إلى ثلاثة أسباب، هي الشعور بنقاط الخطر في المجتمع، و بظلم السلطان، و أخيرا، بسوء الأحوال.(1) و بناء على هذا، فلقد وقع منه، حجب حقيقة لا تنكشف إلا لمن دخل مع الشيخ في صميم علمه في التوحيد. و هي أن التصوف ـ و يفضل كلمة الذكر ـ (2) ليس مجرد هروب من الدنيا طلبا للعزلة، و إنما يبرره بوجه أخص، اقتناع عقلي و ذوقي أو قلْ إن شئت، منهجُ الشيخ الفكري في العقائد.

و يرى الأستاذ أيضا، أن التصوف قد شاع في الجزائر، بفضل مدرسة عبد الرحمن الثعالبي و محمد بن يوسف السنوسي و أحمد زروق، و أن السنوسي كان من أتباع الطريقة الشاذلية. (3)

و يبدأ اللبس عندما يكتب قائلا: " من أبرز المنتجين في العقائد، عبد الرحمن الثعالبي و محمد بن يوسف السنوسي. و لكن بجاية قد سبقت الجزائر و تلمسان بمدرسة عبد الرحمن الوغليسي (المتوفى سنة 786هـ) الذي تتلمذ على يده و على تلاميذه، رجال الطبقة التي ندرسها، و عنهم محمد الهواري و الثعالبي و عيسى بن سلامة البسكري و نحوهم [...] فكان في مدرسة وهران محمد الهواري و تلميذه إبراهيم التازي. و كان في مدرسة الجزائر عبد الرحمن الثعالبي و تلميذه أحمد الجزائري. و كان في تلمسان محمد السنوسي الذي أصبح هو نفسه

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 1. ص: 38.

(2) سنفصل الكلام عن الذكر السنوسي في الجزء الثالث من القسم الأول من الفصل الثاني من الباب الثاني.

(3) أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص: 183، 464.

إماما في هذا الميدان، و له تلاميذ كثيرون ". (1) فواضح من هذا أنه تداخل
- عند الأستاذ - علم التوحيد و التصوف و الفقه.

و مما زاد الأمر تشوّشا لديه، ما جاء في الصفحتين، (41) و (42)، حيث يذكر أن السنوسي
عاصر آتجاهين متعارضين، أحدهما سلفي و على رأسه ابن مرزوق الحفيد المتوفى
سنة 842هـ، و الآخر " لا سلفي "، و يمثله قاسم العقباني المتوفى سنة 854هـ،
و كلاهما معروف بالاجتهاد في الرأي و التعمق في العلوم. و نظرا إلى الطابع
الروحاني للعصر، قلّ مناصرو الآتجاه الأول لصالح الآتجاه الثاني. و كان الشيخ
السنوسي يميل إلى رأي الاتجاه الثاني، مع العلم أن قاسم العقباني كانت له - على
قول ابن مريم - اختيارات خارجة عن المذهب، و أن الشيخ السنوسي أثر بدوره
على متصوفة العصر.

فكيف و لماذا، قلّ نفوذ الاتجاه " السلفي " و نهض الآتجاه المعارض في زمن
عمّه التصوف؟ و هل الخارج عن المذهب يتجاوب بالضرورة، مع ما ألفه الناس من
زهد و تعفف و تقليد ؟ و هل الخروج عن المذهب يعتبر آنحرافا عن العقائد
أو فقط، عن الفروع الفقهية؟ إن المتأمل لا يستطيع أن يتسرع للفصل في هذا
الأمر، لنسبية المفاهيم المذكورة وعدم دقتها وهي: الآتجاه السلفي، و المعارضة،
و الاجتهاد في الرأي، و المذهب و الخروج عنه.

و لا يشفع في هذا اللبس، و لا يرفع هذا الإبهام، ذلك التبجيل الذي أعرب
عنه الأستاذ سعد الله و غيره من الباحثين في شأن السنوسي. لأنه، مهما كانت
عبقرية الرجل و عظمته، فإنه يبقى ذلك الذي أراد أن يكون صغيرا لا تراه العين
المُجرّدة، حتى وإن كان في حجمه هذا، ذا أعماق يحتاج لمن يغوص فيها، إلى الخبرة و الصبر.

إن التبجيل في حق السنوسي، قد يكون أمرا شرعيا، و لكنه يحتمل أن يكون مجرد

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 1. ص: 79-80.

إطراء من غير سند و لا دليل، و مجرد لفظ جميل يجنح بنا إلى عالم التخمينات. و بدلا من أن يكون هذا التبجيل في حالته المشروعة، حافزا على البحث، أضحى مثبّطا للهمم، يدفعنا إلى الاقتناع بالمدح و الثناء، و الركون إلى التحجر و الانقياد.

يقول الأستاذ سعد الله: " سيطرت إذن، مؤلفات محمد السنوسي في التوحيد سيطرة تامة على الدارسين لهذا العهد طيلة العهد العثماني. و لم يكن ذلك مقصورا على الجزائر وحدها، بل تجاوزها إلى معظم الأقطار العربية الإسلامية ". (1)

و يقول أيضا، إنه " رغم تقادم الزمان، فقد ظلت أعمال ابن صعد (النجم الثاقب) على الخصوص، و أعمال محمد بن يوسف السنوسي، و تأليف أحمد النقّاوسي (الأنوار المنبلجة) على قصيدة ابن النحوي، و أعمال الحوضي و الجزائري (أحمد بن عبد الله)، و عبد الرحمن الثعالبي و الفراوسني و المازوني (صلحاء الشلف) و غيرهم، مصدرا هاما للتأليف في علم التصوف و فروعه ". (2)

و إذا كانت لأهم كتب السنوسي هذه السيطرة، و كانت أعماله تشكل مصدرا يغيد منه المؤلفون في التصوف و فروعه، فلماذا لم يفز الرجل باهتمام يليق بمقامه إلى أواخر القرن العشرين؟ اللهمّ إلا إذا كان المقصود من **السيطرة** هو شلّ الفكر النقدي و الروح الإبداعية، و إلا إذا كان المقصود من التأليف في التصوف، تكرارا و انتحالا.

ثانيا: الاهتمام المعاصر و طريقته في الاقتراب من السنوسي:

إن الشهرة التي عرفها الشيخ السنوسي عبر العصور، ظهرت على غير حقيقتها بسبب سوء فهم العوام و الخواص له. فالعوامّ ذهبوا به إلى التقديس اللامحدود، كما هو شأنهم مع سائر أولياء الله الصالحين. و الخواص أبعدوه عن دائرة الاعتبار

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2. ص: 98. و في الصفحة الموالية (99)، يقول: إن دراسة التوحيد في الجزائر خلال العهد العثماني، كانت تقوم على إنتاج السنوسي و الجزائري بالإضافة إلى " إضاءة الدجنة " لأحمد المقري.

(2) أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص: 118. و يقول عن طبّه: " وفي الطب، لم يكن يكتفي بالنقل، بل كان يحكم من التجربة أيضا ". (ص: 108، ج. 1).

بٱسم التنوّر الحضاري و تصفية الدين، لأنه لا يختلف عندهم، عن الأشخاص الذين يغذون الخيال البدعوي، و أضحى موضوعا لا يستجيب لمعايير التفكير العقلي و لا يخضع لمناهج البحث العلمي.

سيكشف لنا، تحليل الحركات الفكرية الجزائرية أن الشيخ ابن يوسف السنوسي طعّم المجتمع بعقيدة التوحيد، و ألهم العلماء من أحفاده و أبناء بلده بعده، إلى حمل مشروع التربية و الإصلاح، و أنه، مهما كانت الانحرافات التي وقعت في شأنه قديما وحديثا، سيتبين لنا أن الشيخ يجد طريقه اليوم، إلى إغراء الباحثين بإجلاء خصائص تفكيره و مذهبه وفقا للمناهج المعاصرة.

1ـ أفول نجم السنوسي :

يستمد ابن يوسف السنوسي شهرته من المؤلفات التي كتبها، و من المعاصرين له الذين جالسوه أو سمعوا عنه، و من المعجبين به الذين حفظوا تراثه بالشرح و التدريس. لقد ألف لكل الفئات الشعبية من الخواص إلى عامة العوام. و إذا كان لشرّاحه و محشيه بعض الفضل، فليس في تحليل نصوصه و التعليق عليها أو نظمها و ٱختصارها بقدر ما هو في ذكر ٱسمه وٱستمرار شهرته والسير على منواله. لقد كان السنوسي ذا شهرة كبيرة، ولكنّه أخذ يفقد حظوته في أواخر الحكم العثماني و بداية الاحتلال الفرنسي، و أفل نجمُه مع مطلع القرن العشرين، و بوجه الدقة، في الثلاثينيات منه.

إن الشيخ لم يحظ بالاهتمام الذي يليق بمقامه مع العثمانيين، نظرا إلى أنهم لم يكن في مشروعهم، التفكير في الإسلام كثقافة و حضارة فضلا عن أنهم كانوا على جهل باللغة العربية و اللغة المحلية. و لكن الكثير من كتبه المختلفة اليوم، تزدان بها المكتبات العامة و الخاصة في ٱسطنبول (1)، و من الصعوبة بمكان الحصول عليها.

---

(1) انظر حجم مخطوطاته، في : محمد بن عبد الكريم، مخطوطات جزائرية في مكتبات ٱسطنبول، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1972.

و أخذ الناس ينفرون تدريجيا من البحث في التراث، نتيجة ما تركته أيضا، الحروب الطويلة لاحتلال الجزائر من تشرد و نهب و اغتصاب حتى أن المرء كان ينفق كل أوقاته في البحث عن تحصيل قوته، و لا يكاد يفكر في العلم أو التعلم. و مما زاد الطين بلة، ضياع الآلاف من الكتب و المجلدات التي تشهد على ما وصلت إليه العبقرية الجزائرية في مجال الفكر و الثقافة. لقد أتلف الفرنسيون عددا معتبرا من هذه الوثائق النفيسة. و يشهد التاريخ أن أولى المكتبات التي أضرمت فيها النيران، كانت للأمير عبد القادر، و تبعتها في المصير، خزائن أخرى عند العوام و الخواص. (1) و ما نهب منها، كان بعضها يتلف و بعضها الآخر يرسل إلى مكتبات فرنسية في فرنسا. و أمام مقاومة الشعب، صادرت الحكومة الفرنسية أملاك الكثير من العائلات، و حملت علماءها على الهجرة إلى بلدان إسلامية أخرى، و استولت على الأحباس الموقوفة على المؤسسات الدينية، و خلا الجو للجهل و الأمية. (2)

و لكن هذا لا يعني أن الجزائر أصبحت تعيش في العزلة المطلقة، و قطعت صلاتها بما يجري من دعوات فكرية و علمية و سياسية في العالم. إن الأعمال التي تنتجها الحركات الإصلاحية (3) كانت تصل الجزائر عن طريق الصحافة العربية، كالعروة الوثقى و المنار. و كانت هذه المنشورات تدعو المسلمين إلى تطهير الإسلام من كل ما علق به من خرافات و أوهام، و تدعو إلى التكتل.

---

(1) يشهد الباحثون الأوروبيون في عهد الاستعمار الفرنسي، أن خزانة محمد الحبيب الواقعة بتاله وزران (على بعد 20 كلم من بني ورتلان)، تحتوي على ثلاثمائة عنوان من أعز الذخائر. و يذكر التاريخ أن السلطات الاستعمارية الفرنسية قد أضرمت فيها النيران سنة 1957. (عن مراسلة جمال الدين مشهد حفيد محمد الحبيب ببجاية، و عن منشورات جمعية (GEHIMAB) و عن جريدة EL WATAN اليومية الصادرة في 14/ 3/ 1996).

(2) لعل أقصى محنة عرفتها الثقافة الجزائرية في عهد الاحتلال الفرنسي، هي تخريب المكتبات التابعة لبعض الزوايا، و المكتبات الخاصة، و كذلك تهجير العلماء والطلبة إلى الخارج مع بعض كتبهم. وكان بعضهم يوصي بحمل مكتبته بعد الوفاة، إلى الخارج، كالمدينة المنورة وفاس... وتذكر بعض الوثائق أن الثائر بن الأحرش — و هو من المغرب الأقصى — قد حمل معه خزانة كتب الشيخ محمد الزقاي من تلمسان إلى معسكره في الجبل أيام ثورته ضد العثمانيين. (انظر، سعد الله، المصدر السابق، ص: 295، 303-304، ج. 1).

(3) مع جمال الدين الأفغاني و محمد عبده.

و كان لحركة "تركيا الفتاة"، و لإعلان مصطفى كمال للجمهورية التركية تأثير بعيد في تنوير العقل الجزائري في الداخل و في الخارج، و في يقظته.

و تهيأت الأسباب لبعض المتنورين لانتقاد ما كان عليه الناس من تخلف في الدين. فلاحظوا أن الطرقية، بلغت الغاية في تشويه الإسلام. و أولى صور هذا التشويه انتشار البدع و الأضاليل، كعبادة الأولياء و الذبح على أضرحتهم، و تقبيل أحجارها و الطواف حولها و إيقاظ الشموع لها و حرق البخور عندها و صب العطور عليها. و لاحظوا أن الناس ألفوا الاعتقاد في صلاح الأولياء، الأحياء منهم و الأموات، يسألونهم في ذل و خضوع، حوائجهم " من دفع الضر، و جلب النفع، و تيسير الرزق، و إنزال الغيث". (1) و كانت الأمية من الأسباب الجوهرية التي تفسر هذه الانزلاقات العقائدية التي زادت بدورها، من استقرار الجمود و سكون الانحطاط.

و لقد رفضت الشبيبة الجزائرية التي تعلمت في المدارس الفرنسية الحديثة و المدارس الإصلاحية الجزائرية التعامل مع هذه الذهنية المتخلفة.

و على ضوء هذه المعطيات، نفهم كيف شنت حركة العلماء المسلمين في الجزائر، و خاصة منهم الشيخ البشير الإبراهيمي (في تلمسان)، حربا عشواء على كل المعتقدات المزيفة للدين السليم و المؤدية إلى " الشرك الخفي "، و الدعوة إلى غير الله.

و يبدو أن الشيخ السنوسي — والحالة هاته — كان في قائمة الأولياء الذين شاع عنهم، التبرك و التوسل، و عرفوا بأنهم أصحاب كرامات. و ليس غريبا إذا قل نفوذه و ضعف تعامل أهل الفكر مع نصوصه، فضلا عن زيارة ضريحه و روضته. فلقد أضحى الشيخ — إلى هذه السنوات الأخيرة — معروفا لدى العام و الخاص، بأنه ولي صالح، تحمل المقبرة المركزية بتلمسان اسمه، و يتنافسون في الدفن قربه.

و من يحمل اليوم، مشروعا في التعرف عليه، و كان في نيته زرع الحياة في تراثه،

---

(1) محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1968، ص: 92.

لاشك فيأنه سيلاحظ أن في الأمر عوائق،لأنه لم يعد الإمام السنوسي يفيد الناهضين بالإصلاح ،و لم تقو الظروف على إبرازه في أبعاده الحقيقية.فخيّم على الباحثين ، الشعور بالضعف المنهجي و المعرفي في الاقتراب منه. و زادهم تثبيطا، تشتت مؤلفاته و ندرتها و صعوبة الوصول إليها .

و هذه العقبات التي تواجه الباحث في فكر السنوسي،يمكن تصنيفها إلى نوعين: عقبات مادية و بشرية و عقبات إبيستيمولوجية .

أما العقبات المادية و البشرية،فيمكن ردها إلى هذه الصعوبات الست الآتية:

1ـ تفرّق مؤلفات السنوسي و عسرة الحصول عليها و جمع شتاتها .

2ـ ضيق السبل المواتية لوضع اليد على المصادر القريبة من الرجل مثل كتاب "المواهب القدسية في مناقب السنوسية" لتلميذه محمد الملالي .

3 ـ قلة المهتمين بأعمال السنوسي،و شدة الحذر في سعي بعضهم إلى النفاذ إلى فهمها .

4ـ ندور العودة إلى كتبه مباشرة لفتور رغبة الباحثين و نقص آستعداداتهم .

5ـ وقوع الإطلال على فكره من وجهة نظر محدودة،و من خلال بعض النصوص القليلة،و في الغالب،عن طريق الذين شرحوها أو شرحوا شارحيها،و الذين ينقل بعضهم عن بعض.

6ـ عدم آستعداد المؤسسات التعليمية عندنا،لتدريس المواد التي تؤهل الباحث لحمل تراث السنوسي و العناية به،كالمساجد و المدارس،و آقتصار بعضها،على إقراء مختصراته أو تحفيظها .

أما العقبات الإبيستيمولوجية،فنلمسها في المواطن السبعة الآتية:

1ـ عدم جدوى آستثمار علم التوحيد و ملحقاته في الحياة اليومية المعاصرة .

2ـ الترفّع عن تبديد الطاقة العقلية في نصوص يكتنفها التعقيد،خصوصا إذا

تعلق الأمر بموضوع العقائد و المنطق.

3- انتشار منطق التطابق بين الإمام السنوسي و عصر الجمود و الركوض، و استقرار الشك في أصالة تفكيره. فإذا كان العصر هو عصر جمود، و إذا كان الإنسان هو ابن بيئته، فلا يُرجى من الجمود النبوغُ في التجديد، و لا يطلع من عصر الضَّعف إلا الخرَف. و على هذا الأساس، لم يشذ السنوسي عن هذا القانون.

4- صعوبة اختراق القوالب المنهجية التقليدية التي درجت عليها المصادر الحاملة لأخباره. و لعل ضعف التكوين الفكري و العلمي و اللغوي الكفيل بالبحث في موضوع بكر، هو من أهم الأسباب المفسرة للعجز عن اقتحام هذه العقبة. فلقد حملت هذه المصادر الغث و السمين، و كانت محشوة بما شاء من الأحداث الخارقة و الأخبار التي تفرزها الظروف العقائدية و السياسية.

5- تصلب فكرة الاقتصار على إرجاع كل تفكيره إلى بعض مؤلفاته، كالعقيدة الصغرى و شرحها و المقدمات و شرحها.

6- الميل إلى التجربة الصوفية و ما يقتضيه من إحجام عن منطق العقل و الغوص في عالم، حيث لا نظر و لا نقد.

7- عدم الاطمئنان إلى ما يُشاع عنه من فضل و عبقرية لدى الحذرين من الأرسطية و الأشعرية.

2- حق السنوسي في رد الاعتبار:

و لكن حان الوقت لإبراز هذه الحقيقة، و هي أن الإمام السنوسي بعد كل هذا، بقي محافَظاً عليه في الذاكرة الشعبية، و في المؤلفات العربية القديمة و الحديثة، و مَصُوناً داخل المكتبات في مؤلفاته، مهما كان عددها أو حجمها. و هو يعود في هذه السنوات الأخيرة، ليقول لنا بأنه لا يحتقر أولياء الله و لكن، يحتقر من لا يحترمهم، و بأنه إذا كان هو الولي الصالح في عصره، فإنه يطالب اليوم، أن يكون ما أراد في هذا العصر.

عاش السنوسي في زمن كان فيه الناس في أمسّ الحاجة إلى ما يلم شملهم و يوحّد

مسعاهم و يدلهم على شاطئ النجاة. و لقد سعى بعقيدته في توحيد الله إلى هذا المبتغى، فعاد إلى الأصل عندما رأى تشعب الفروع و تصادم بعضها مع بعض. و كاد أن يوحّد الصفوف بتوحيد التصوّر لولا اجتياح الغزاة البرتغاليين و الإسبانيين سواحل الشمال الإفريقي.

و لقد تبنّى هذا المشروع، ثلاثة قرون و نصف من بعده، أحد أحفاده و هو محمد بن عليّ السنوسي المتوفى سنة 1856. فلقد كانت دعوته هو الآخر، رد فعل على التحدّي الذي واجه العالم الإسلامي باحتلال الجزائر. فكان يدعو إلى طريق التوحيد، و يحث على الاجتهاد،" و إرجاع الأقوال كلها إلى مصدرها الأصلي، الكتاب و السنة، و جاهر بالعداء للتقليد المطلق" (1)، و طالب كل عاقل بأن يسأل عن دليله في عقيدته أو فتواه. و كان أول من حقق في العصر الحديث، محاولة بناء الشخصية الإسلامية عن طريق تعليم التوحيد عقلا و سلوكا. و توفي محمد بن علي مبكرا، قبل أن يلمس كامل ثمراته.

و المشروع الذي رسمته الحركة الإصلاحية في الجزائر، تدخل ضمن هذا الاتجاه. و يلخصه عبد الحميد بن باديس في هذا البيت المقدس:

شعب الجزائر مسلم و إلى العروبة ينتسب.

إن إنقاذ الجزائر يحتاج إلى التوحيد، و لا توحيد من غير اللغة العربية التي نزل بها. و على هذه الدعوة قامت الحركة، فأصلحت الدين و نشرت اللغة العربية على الأسس العلمية، و فتحت العقل و نشرت الوعي و حذرت من الاستعمارين: المادي (الفرنسي) و الروحي (مشايخ الطرق). و صرّحت بـ" أن التوحيد أساس الدين. فكل شرك في الاعتقاد أو في القول أو في الفعل هو باطل مردود على صاحبه"، و أما "العمل الصالح المبني على التوحيد، فبه وحدة النجاة و السعادة عند الله". (2)

---

(1) أنور الجندي، العالم الإسلامي و الاستعمار السياسي و الاجتماعي و الثقافي، دار الكتاب اللبناني – المصري، البيروت – القاهرة، ط. 1. 1979، ص: 257.

(2) محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس، 25.

و توفي ابن باديس عشرين سنة، قبل آستقلال الجزائر.

و بنظرة إجمالية، فإنه يمكن أن نلحق العلماء المسلمين الجزائريين و حركتهم بجمال الدين الأفغاني و الشيخ محمد عبده بقدر ما ننسبها أيضا، إلى محمد بن علي السنوسي **محرك التوحيد** و لسان حال محمد بن يوسف السنوسي **عقل التوحيد**، مع ما للظروف من خصوصيات و مؤثرات. و لو لا آنتشار البدع و فساد ذهنيات الناس و آنحراف الطرقية، لكان أقطاب الحركة الإصلاحية عندنا، أولى بأن يعتنوا بالإمام ابن يوسف السنوسي، و يحتفلوا به بآعتباره عقل التوحيد و صاحب مشروع، غايته تذويب أسباب الخلاف بين المسلمين.

جاء في كلمة الاحتفال بختم القرآن العظيم ألقاها الشيخ البشير الإبراهيمي: "إن غفلتنا عن إحياء ذكريات أمجادنا التاريخية، هي التي أزهقت في الأمم الإسلامية روح التأسي، فأفقرتها من الرجال، و جعلت تاريخها الحديث خلوا من المثل العليا". (1)

فالشيخ ابن يوسف السنوسي يشكل حلقة في سلسلة تاريخ الفكر الجزائري. ويكفيه شرفا، أنه متّن العقل و حصّن القلوب بكلمة التوحيد، و يكفيه فضلا، أنه حمل الناس إلى تأمل الشهادتين لترقيتهم إلى المثل العليا في مجال الدين الصحيح.

و لكن الانحرافات التي عرفها تفكير ابن يوسف السنوسي، لم تكن وليدة هذه العهود الحديثة. فلقد بدأت في عهده و بعد وفاته.

ففي عهده مثلا، كان أحمد بن زكري يعتبره رجلا يبالغ في الأخذ بالعقل و يحتقر أهل القلوب و السذج من العوام. و لم يكن في مقابل ذلك، تلميذه محمد الملالي يلتفت كثيرا، إلى جوانبه العقلية". فكان الأستاذ بالنسبة إليه، مجرد ولي صالح، أنفق حياته في الزهد و التصوف و علوم الآخرة. (2)

---

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار البعث، ط. 1. قسنطينة، 1402هـ/ 1982م، ص: 447.

(2) و لقد ألف بعد وفاة السنوسي، كتابا من هذه الزاوية في مناقب شيخه، سماه، "المواهب القدسية في مناقب السنوسية".

و بعد وفاتـه، وقـع في الأنزلاق كثيرٌ من تلامذته و عدد معتبر من الذين اهتموا بـبعض تآليفـه بالشرح و التحشية .فبـقدر ما كان الشيخ يمقت التقليد و يصـرح بمعارضته له،كان هؤلاء يقلدونه في كل دقيقـة و جليلة .فلقد عرف " أم البراهين " العشرات من الشروح و التحشيات،و أصنافا من " شرح المشروح و تحشية المحشّى "،و كـأنه الكـتاب الكامل الذي لا يقبل النقد و الاختبار،و كأن الفكر العقائدي الأشعري قـد تجمّـد عند هذا التأليف،و لم يعدّ المجتهد قادرا على الخوض في قضايا التوحـيد إلا من خلاله أو من خلال عمـل السنوسي .

و إذا ظهر بعض الناقدين له في بعض المسائل،فإنهم يحملون عليه إما تقليـدا لبعض المنزلقين مثل ما صنع محمد بن منصور متأثرا بمدرسة ابن زكري،أو اعتمادا على خلاف مذهبي تقليدي،كما هو الشأن لدى أبي راس الجزائري الذي كان ولوعا بمناقشة العلماء في مسائل علم التوحيد بمصر و تونس و الحجاز و الجزائر.

و لعله من الأسباب المفسرة لهذه الظاهرة، روح العصر و ضعف الاجتهاد فـي فهم أعمال السنوسي .فلم يشذ الشيخ هو الآخر،عن عادات عصره في التأليف. فـلقـد كان شـرّاحا لإنتاجات مؤلفين سابقين أو معاصرين له.و التآليـف التي كان يشرحهـا، كان غيره ـ في معظمها ـ قد سبقه إليها بالشرح و التعليق .من ذلك مثلا، شرح جمل الخونجي (1) ،و مختصر ابن الحاجب الفرعي (2) ،و شرح مقدمات الجبر و المقابلة لابن الياسمين (3) ،و شرح الحوفـي (4) ،و شرح إيساغوجي في المنطق (5) .و لـكـن السنوسي كان في هذه العادة المألوفـة،لا يقصـد الشرح للشرح ،و إنما كان يرمي إلى تدعيم مذهبه الأشعري في العقائد،أو في كلمـة وجيزة،كان يسعـى إلى خدمة

---

(1) و ممن سبق إلى شرح الجمل،ابن واصل،ومحمد بن مرزوق الحفيد،ومحمد المقري، و أبو عبد الله الشريف التلمساني .

(2) و ممن سبق إلى شرح ابن الحاجب أيضا،قاسم العقباني ،و القلصادي،و أحـمد الونشريسي ،و محمد عبد الجليل التنسي .

(3) و لقد شرح هذه المقدمات أستـاذه القلصادي ،و قبله سعيد العقباني .

(4) و من شراح الحوفي قبله،أستاذه الحسن أبركان و قبله سعيد العقباني .

(5) و من الذين شرحوا إيساغوجي ،أستاذه القلصـادي .

التوحيد. و نرجح القول بأن السنوسي امتنع عن شرح منظومة ابن زكري، لأن محتوى هذه المنظومة، لم يكن يوافق مذهبه الفكري.

3- الاهتمامات المعاصرة:

و في سياق البحث عن التراث الفكري و فهمه، انطلقت بعض الاهتمامات المعاصرة من مبدأ، مؤداه أنه "ليس لأحد شرعية الكلام عن السنوسي أصدق من السنوسي نفسه". و على ضوء هذا المبدأ، وقع البحث عن مكتوبات الرجل و دراسة بعض الجوانب التي ترشد إليها، آثاره و مؤلفاته المعثور عليها.

أ- الاهتمام بالتوحيد و المنطق:

إن أولى هذه الدراسات تناولت من فكر السنوسي، جانبين بارزين: علم التوحيد وعلم المنطق. لقد نشرتُ سنة 1985، كتابا عن الجانب الأول، بعنوان "الإمام ابن يوسف السنوسي و علم التوحيد"، ركزت فيه بالخصوص، على آراء الإمام الكلامية مع تحقيق لبعض نصوصه. و تولى الأستاذ سعيد عليوان الجانب الثاني في رسالته الجامعية التي قدمها سنة 1989، حيث درس المنطق السنوسي و حقق جزءا منه. فعن الجانب الأول، أبرزت أن علم التوحيد عند الإمام، لا يقتصر على دفع اعتراضات الخصوم و تحصين الإيمان بالأدلة الدامغة. إنه عنده أيضا، تحقيق بلوغ الفهم و التحصيل حيث يتحقق تنوير المؤمن و توسيع معرفته بالله. و عمليتا الدفع و الفهم لا تتطلبان فقط، التفكير العقلي، و إنما تحتاجان أيضا، إلى معرفة المنطق.

و ليس من باب الصدف أن اتجه اهتمام الأستاذ سعيد عليوان إلى الجانب المنطقي. فمن يخوض في هذا الموضوع العقائدي على الأسس السليمة، لا يمكنه إلا أن يحكّم عقله و يأخذ بالمنطق اليوناني. أكثر من هذا، إن المنطق و علم الكلام عند المتكلمين مترادفان، و خاصة عند المتأخرين منهم، الذين اعتبروا القياس اليوناني - والسنوسي يوافقهم على هذا - آلة ضرورية للعقل تُبيح السير بخطى ثابتة. و على هذا الأساس، وفي مجال العقائد، لم يعدْ يعقل إثبات النقل بالنقل و "إلا لزم الدور"، و أصبح "مدخل الخير (أي التوحيد) خيرا (أي العقل المنطقي)".

ب- ملتقيات خاصة بالشيخ السنوسي:

هذا، وبعد خمسة قرون من وفاة الشيخ السنوسي، تعود ذكراه(1) في أول ملتقى سنة 1990، وهو ملتقى أشرف عليه السيد محمد باغلي، وكان الغرض منه، تفقّد الرجل وترسيخ تقاليد الاحتفال بذكره، ولقد ألقيت بهذه المناسبة، قصيدة مطلعها:

شرُفتْ بك الذكرى، ودام لك العلى . حفظتْ تلمسانُ الزمان وقد جلا (2).

وتتالت ملتقيات أخرى، وخشية أن يقع الاحتفال بذكرى الرجل في مزالق الارتجال وانحرافات المؤلفين السابقين، شعر الأستاذ الربيع ميمون بضرورة التفكير في وضع خطة علمية، تسمح بالاقتراب من الرجل، انطلاقا من جمع آثاره وتحقيقها، ولهذا، فلقد أنشأ فرقة للبحث تحت إشرافه، ووزّع خطّتها على قسمين: أولهما هو مشروع تحقيق المؤلفات السنوسية، وثانيهما هو عقد ملتقيات وطنية ودولية.

أما فيما يتعلّق بالقسم الأول، فلقد شرعت مجموعة من الباحثين في تلمسان، وكذا في مدينتي الجزائر وقسنطينة، في العملية حيث توجّه الاهتمام إلى تحقيق جملة من المؤلّفات المتوفّرة، منها: عقائد السنوسي الرُّباعية متْنا وشرحا، والمقدمات متْناً وشرحا، وعمدة ذوي الألباب في علم الإسطرلاب، وغيرها. (3)

وأما عن الملتقيات، فكان آخرَها، ملتقى سنة 1995 الذي انعقد بالجزائر تحت شعار "الإمام محمد بن يوسف السنوسي، منطق وعقيدة وعلوم". وكان برنامجه يتضمن المحاور الخمسة الآتية:

أولا: تلمسان وأمجادها

ثانيا: الإمام السنوسي عالم تلمسان

ثالثا: مآثر السنوسي في التربية والعلوم العقلية

رابعا: مآثر السنوسي في العلوم الدينية

---

(1) قدمت محاضرة سنة 1982، بدار الثقافة، بعنوان "الشيخ السنوسي، حياته وآثاره".

(2) ألقيت القصيدة، بدار الثقافة بتلمسان، في 9 ماي 1990.

(3) وبموازاة مع هذا الإطار، يظهر أن الأستاذ عبد الحميد حاجيات حقق كتاب "المواهب القدسية" للملالي، وهو في طريق النشر.

خامسا: تراث السنوسي

ج- بعض النماذج المعاصرة:

لقد هذب الملتقى الأخير الغاية الشعبية من الاحتفال بذكرى وفاة السنوسي و قوّض طرق البحث التقليدية و وضح الرؤية لمحبّي الرجل و هيأ الأرضية الملائمة للإطلال على التراث الذي حمله العلماء الذين عاصروه و كذلك العلماء الذين عاشوا قبله أو بعده.

و الأعمال التي تمخضت عن الجوّ الجديد الذي خلقته الملتقيات الأخيرة أو التي هيأت أسباب انعقادها ثلاثة أصناف: دراسات، و تحقيقات، و مقالات.

الصنف الأول: الدراسات

أعتقد أن أول دراسة علمية ظهرت عن الشيخ السنوسي، هي -على ما أعلم- تلك التي انتهيتُ منها سنة 1980، و نشرتها سنة 1985 في كتاب عنوانه -كما سبقت الإشارة اليه- "الإمام ابن يوسف السنوسي و علم التوحيد". لقد وضعت في هذه المحاولة، الإمام في عصره و هو القرن التاسع الهجري، و أبرزتُ من حياته، ما يليق بهدف الكتاب، و بينت مبرراته في إحياء العقيدة، و حللت منهاجه في ضبطها و عرض مضمونها من آراء كلامية و تجربة ذوقية. وختمت الكتاب بتحقيق رسالته المعروفة بـ"نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير" و نشر عقيدته الصغرى المشهورة بـ"أم البراهين" و هي العقيدة التي طمس سمعتّها السابقة، ندورُ الطبع و ضعفه. و كان المقصود البعيد من انتقاء هذين التأليفين هو تقديم توحيد السنوسي في مظهريه النظري و العملي.

الصنف الثاني: التحقيقات

ليست الكتب التي تركها الشيخ كلها مخطوطة، و ليست كلها مطبوعة. و ليست كل المطبوعة منها، محققة. و ما استطاع الباحثون اليوم، أن يحققوه منها جملة، فيه جزء مخطوط أصلا، و فيه ما أعيد تحقيقه من جديد بهدف النشر و تعميم الفائدة أو التدقيق وفق الطريقة العلمية الحديثة. و من العناوين التي تمّ تحقيقها أو هي

في طريق التحقيق، ما يأتي:

أولا، نُصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير. و قد توليتُ تحقيق هذه الرسالة ضمن الدراسة التي أنجزتها، و قد أشرنا إليها سابقا.

ثانيا، شرح أم البراهين. و قد طَبَع هذا الكتاب ببعض التحقيق، الشيخ مصطفى محمد الغماري، و نشره سنة 1989.

ثالثا، شرح المختصر في المنطق، و هو العمل الذي أنجزه الأستاذ سعيد عليوان كأطروحة جامعية سنة 1989 للحصول على الماجستير.

رابعا، العقائد الثلاثية: الكبرى و الوسطى و الصغرى، متنا و شرحا. و هذه الكتب الثلاثة تعد جزءا من المشروع الذي رسمه لأعضاء وحدة البحث، الأستاذ الربيع ميمون سنة 1994، و هي ما تزال في طور الإنجاز.

خامسا، عمدة ذوي الألباب في علم الإسطرلاب. ويشكل تحقيق هذا المخطوط مشروع أطروحة ماجستير أو مجرد بحث يسعى إلى تحقيقه الأستاذ محمد باغلي.

سادسا، سورة الفاتحة. توليتُ ضبطها و تقييدها بمناسبة محاضرة ألقيتُها سنة 1993 بدار الثقافة بتلمسان، بعنوان " فلسفة الشيخ السنوسي في تفسيره لسورة الفاتحة ".

و من النماذج التي ارتأيتُ الوقوف عندها، العمل الذي نشره في هذا الشأن، السيد مصطفى محمد الغماري. و الحقيقة أنني لا أود أن اهتم بالتحقيق في حد ذاته - و قد زعم المؤلف أنه تحقيق - بقدر اهتمامي بما أورده في مقدمته.

فإذا كان لهذا العمل، بعض المزايا في نشر عقيدة السنوسي الصغرى، و جعله في متناول المثقفين عن التراث، فإن طريقة التحقيق تحتاج إلى شئ من الدقة و الصرامة، و بعض الأمانة العلمية في النقل من الأصول. و لكن الشئ الذي يلفت الانتباه في مقدمة المحقق، أمران: القسوة على الشيخ السنوسي، و ضرورة مسايرة علم الكلام اليوم، لمقتضيات العصر. و يمكن تلخيص ما قصد إليه المحقق، في هذه النقاط الثلاث التالية:

النقطة الأولى: إن من يعيش في عصر المحافظة على القديم، كما هو شأن الإمام السنوسي، لا يشذ في تفكيره عن المقلدين الذين لا يهمهم التفكير في الجديد إطلاقا.

و على هذا، فلا غرابة إن أتى كتابه "شرح أم البراهين" كتابا تقليديا في محتواه و في شكله، لا يشدّ فضول الباحث بطرحٍ جديد و رأي طريف.

النقطة الثانية: و إذا كان لا بد من فضل، فإنه يمكن التماسه في كونه عرف كيف يبلغ العقيدة للأجيال القادمة، و كيف استطاع بعباراته الوجيزة و أفكاره المركزة، أن يهيئ الأسباب الموضوعية لحفظها و تثبيتها.

النقطة الثالثة: و إذا كان عصر السنوسي يقتضي المحافظة على القديم و تشنيع كل مجتهد، فإن عصرنا اليوم، يحتاج إلى تجديد علم الكلام من حيث مادته و منهجه، فيتعامل مع ما جدّ من علوم، مع الإشارة إلى أن المناهج الغربية و خاصة منها منطق اليونان، لا يطمئن إليها الفكر السنّي كثيرا.

الصنف الثالث: المقالات

عرف الاهتمام بالشيخ ابن يوسف السنوسي، منذ بداية التسعينيات من هذا القرن، سيلا من المقالات المختلفة و المتنوعة. و مما تمتاز به هذه المقالات، هو أنها اتجهت في اختيار مواضيعها إلى النظرة الشمولية. و هي نظرة تريد أن تتخذ من الرجل، المحور المركزي الذي يسمح بتوسيع البحث إلى المعاصرين للشيخ كالحافظ محمد التنسي، و ابن عبد الكريم المغيلي و أحمد بن زكري، و تلاميذه كأحمد بن الحاج و محمد الملالي، فضلا عن روح العصر الذي عاشوا فيه كلّهم. و من المقالات التي تشد الانتباه، نسجل تلك التي حاول أصحابها الإطلال على السنوسي من خلال عصره (1) أو من خلال بعض نصوصه كالعقيدة الصغرى (2) أو المقدمات. (3)

و من النماذج التي تجسد النظرة المعاصرة في الاقتراب من الإمام السنوسي، المقالات التي أمدني بها الأستاذان سيدي محمد نقادي و أحمد بن ديمراد. فالأول اهتم بالأوضاع السياسية و الثقافية بالمغرب الأوسط في العهد الزياني، و بالإمام

---

(1) كما صنع الأستاذ سيدي محمد نقادي.

(2) كما صنع الأستاذ أحمد بن ديمراد.

(3) كما صنع الأستاذ محمد سهيل ديب في محاضرة ألقاها باللغة الفرنسية بدار الثقافة بتلمسان، سنة 1991.

السنوسي من خلال عصره. أما الثاني، فكتب مقالا في سبع و عشرين صفحة، عنوانه " مدخل إلى العقيدة الصغرى المسماة بأم البراهين، التزام و موقف منهجي " .

أما فيما يتعلّق بالأستاذ نقادي، فإن التساءل وقع في كتاباته، عن الدولة التي عاش فيها الإمام، هل هي عبدوادية أم زيانية؟ و إذا ثبت لديه أن الدولة الزيانية بدأ توطيدها مع أبي حمو موسى الزياني الثاني، أي سنة 761هـ/ 1359م إلى غاية دخول العثمانيين، عرفنا أن الإمام يكون قد عاش في عهدها". و يكون من ثمة، قد عاصر ستّ حملات تونسية " تأديبية " على تلمسان . و أمام هذا الجو المضطرب، برز إيمانه برسالة العلماء و واجبهم نحو مجتمعاتهم . و بقصد التخفيف من القلق، ناضل طيلة حياته، معتمدا على إحياء عقيدة التوحيد و ترسيخها عن طريق التعليم . و التعليم نوعان: تعليم رسمي، و تعليم حرّ. و كان الإمام السنوسي مثل أستاذه الحسن ابركان، يفضل التعليم في المدرسة الحرة .

و في المقال الذي كتبه الأستاذ بن ديمراد، نلاحظ أن الكاتب عالج أربع نقاط أساسية:

النقطة الأولى، المسعى الثوري للسنوسي

النقطة الثانية، السنوسي في الميدان

النقطة الثالثة، العقيدة الصغرى و شرحها

النقطة الرابعة، الشيخ يفتح بابا إلى الذوق .

و أهم ما لفت انتباهي هو أن الأستاذ وضع السنوسي في عصره، و هو العصر الذي وصفه و صوره السنوسي نفسه في شرحه لعقيدته الصغرى، و ركّز على الوحل العظيم الذي يتمثل في اجتماع أمرين: أحدهما معرفي و هو الجهل، و الثاني أخلاقي اجتماعي ، و هو الشر . و بيّن أن علم التوحيد هو العلاج النافع لهذا الوحل العظيم . فكان إذن، هذا العلم عند السنوسي التزاما و مواجهة . و لما كان العلاج تأليفا عجيبا، أحدث ضجة سخط و ضجة إعجاب . و لكن الإعجاب كان أقوى لأن العلاج الذي وصفه السنوسي كان يتجه به إلى الجميع، إلى العقول و القلوب . فكما أن العقل للجميع ، فسيكون عنده، القلب أيضا، للجميع: إن للإمام السنوسي داخل أسرة الأشاعرة، ما يميزه

و يمتاز به بحيث نرى في موقفه من العقل، جرأة تجاوزت تلك التي عرفت عند أئمة الأشاعرة". و كما يؤمن بالمعرفة الكسبية، هاته التي تعتمد العقل، فهو يؤمن أيضا، بالمعرفة الوهبية التي تتوج المسار الذوقي، و هي المعرفة الصوفية المعتدلة التي سلمت من كل بدعة غريبة عن الإسلام، خالية من كل غلو: "فلا حلقات ذكر و لا وجد و تواجد جماعي و لا سماع، بل لا سكر و لا شطح". و الطريق إليها "أمر يتيسر لأي مؤمن يجد من نفسه الحاجة إلى تعميق حياته الروحية التعبدية و الوصول بها إلى النهج الذي خطه المصطفى لأمته". (1)

و خلاصة الكلام، إذا كنا لا ننكر مدى فضل المؤلفين العرب في نقلهم لأخبار السنوسي و سعيهم إلى ذكره و حفظ تراثه، فإننا من جهة أخرى، لا نخفي مدى قصور طريقة معظمهم في فهمه.

إنهم في منهجيتهم، لم ينصفوا الرجل لأنهم أخلوا بخصوصياته، بحكم أنهم لم يهيئوا له فرصة الإفصاح عن نفسه، و لم يفسحوا لأنفسهم مجال الإصغاء إليه رأسا، و بحكم تقديرهم له بميزان غير ميزانه. فأقاموا أحكامهم على نظرتهم إلى العصر وغلقوا عليه في ذواتهم". فاستولت عليه ميولهم المبجلة له أو المستخفة به: فكان عصرهم على اختلاف فتراتهم، أرضية مشحونة بالروحانيات و مصدرا يلهم الخيال و يؤجج مشاعر الذات. فبات الثابت عندهم، يتعين بمقياسهم الاجتماعي العام و قوالبهم الفكرية الشائعة، و أضحى الصواب عندهم، هو الحكم على أعمال مختلفة في خصوصياتها، بموازين ثابتة و جاهزة". و أصبح عندهم، الثابت تقرره روح العصر و انطباعات الذات، أما المتغير المتقلب، فيلحق بمنطق العقل و مغالطه و بقانون الواقع و عوارضه. و من يعدل عن سلطة هذه المنهجية، فلا بد من أنه واقع في شباك البدع العقلية و العرفية.

و لم يكن أبو عبد الله السنوسي ليرتاح في إطار هذه المنهجية الجاهزة، لأنه ليس بمستطاعه أن يبقى في منأى عن تأويلاتهم المتناقضة التي تفتقر إلى ما يبررها

---

(1) أحمد بن ديمراد، مدخل إلى العقيدة الصغرى، مقال، ص: 18-19.

من نصوص و أدلة، و هو أمر هيأ كل الأسباب لتسخيره -كل حين- للدروشة و الشعوذة أو لأغراض التفاخر و التباهي.

و عليه، فإن كثيرا مما آشتهر به السنوسي، شهرة تقديس و آعتبار أو شهرة آزدراء و آحتقار، ظهر على غير حقيقته، مما يدعو إلى التفكير في إعادة تقويم هذه التصورات و تمحيصها إنصافا للرجل و توخيا للدقة و الشمولية.

و إذا كان الإمام السنوسي هو هذا الذي قدمه الباحثون العرب على اختلاف الميل و التصور، فإن له أكثر من حق في أن يكون ما أراده في هذا العصر. و لهذا الغرض، لنا عميق الاعتقاد أن النص هو الفصل و صاحبه هو الأصل، و أنه ليس لأحد شرعية الكلام عن السنوسي أصدق من السنوسي نفسه. و عليه، فإنه يستحق منا التفكير في إعداد أنجع السبل للإصغاء إليه و بلوغ مقاصده.

و إذا كان الإمام أبو عبد الله ابن عصره و لم يشذ كثيرا عن تقاليده، فإن الباحث اليوم، مطالب بآستجلاء بعض ما يميزه من خصائص. و إذا كان لا بد من ذكر بعض ما يتراءى منها فيما نقله المؤلفون العرب، فإننا نعتقد لهم أنه متن العقل و حصن القلب كما سنبينه في الفصل الخاص بأسس مذهبه. لقد دعا إلى بناء المواقف على أساس العقل و الاقتناع، و دعا إلى تطعيم الإنسان بمحامد أخلاقية و علمية، كالحياء في المعاملة و الأمانة في نقل الأخبار و الإنصاف في النقد و التواضع في القبض على الحقيقة.

و إذا كان السنوسي أيضا، يؤمن بقواعد العقل و بما توحي به التجربة من حقائق، فلا ينبغي أن ننطلق من مواصفات مسبقة، أعدها العرف و التقليد، لأنه يجب أن تكون هذه المواصفات في الحقيقة، إنتاجا لمقدمات و آستخلاصا لعمليتي الإصغاء الأمين و الفهم السليم للموضوع، و ليست بمثابة بديهيات لا تحتاج إلى برهان.

و إنه لمخطئ هذا الذي يسعى إلى تقليد الشيخ السنوسي في كل شيء أو ينقاد من غير بصيرة لدأبه، و لا يسير بتعقل على دربه. فلقد قلده المقلدون مع علمهم أنه عدو للتقليد، و عادى العقل الخصوم مع علمهم أنه صديقه.

إن الجميل الذي كان سيرده تلامذته و المعجبون به هو ألا يأخذوا بمذهبه أو يحذروا منه إلا بعد فهمه و آختباره. و كان الشيخ سيرتاح كثيرا، للتبنّي المقنع و النقد المؤسّس طالما الحكْم الفصل عنده، يعود في النهاية إلى العقل السديد. و هناك ما يدعو إلى القول بأن احترام السنوسي إنما هو في الاجتهاد و التجديد، لا في الانقياد و التقليد.